

الحَيِّ الْإِنْجِلِيزِي

رواية

حماد عليوة

الكتاب : الحي الإنجليزي

المؤلف : حماد عليوة

النوع : رواية

الطبعة : الأولى / القاهرة ٢٠١٨

عدد الصفحات : ٤٦٠ صفحة

المقاس : ٢٠ × ١٤

تدمك : رواية

تصميم الغلاف والإخراج الداخلى : مؤسسة صرح

فكر يصنع حضارة



صرح للنشر والتوزيع

المدير العام : عبود مصطفى عبود

البريد الإلكتروني : aboudmoustafa22@gmail.com

تليفون : ٠١١٢٣٢٤٠٦٥٠ - ٢٧٤٧ ٩٦٩ ٠١١٥ - ٠٠٢٠١٠٢٧٨٧٩٣٥٢

رقم الإيداع : ٢٠١٧ / ٢١٢٧١

الترقيم الدولي : ٦ - ٠٣٧ - ٧٢٤ - ٩٧٧ - ٩٧٨

ديوي : ٨١٣

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر

إهداء

إلي صديقي الكاتب والناشر الأستاذ عبود مصطفى عبود الذي
تمس لي منزلة البراية.

شكر وتقدير لبعض أبطال الرواية الذين سمحوا لي أن أكتب
عنهم.

القارئ العزيز،

اللأن الهي الإنجليزي بين يرك، أتمنى أن تستمتع بها.

الجزء الأول

كان شهر نوفمبر من عام ١٩٨٠ يُنذر بقدوم شتاء قارس؛ حيث تلبدت السماء بالغيوم، وتوارت الشمس خلفها تُرسل خيوطاً دافئةً عبر الأشجار، وهبط الليل ثقيلًا؛ ففسل الحى بالظلام المخيف الذي يتخلله فقط صوت الضفادع، وحفيف الأشجار العالية. كانت الفيلات الضخمة تكاد تكون خاوية، والشوارع خالية تمامًا من المارة والسيارات. وفي وسط كل هذا الهدوء المطبق على الحى، قد تلاحظ الفيلا الوحيدة المضاءة حديقتها؛ حيث يبدو من خلال سور الحديقة الخوص أناس يرقصون على معزوفة من العصر الفيكتوري . **Victorian Era** ، كانت المعزوفة هادئة جدًا، ومنعشة جدًا.. وثمة أناس آخرون يتحركون داخلها في ملابس سواريه، يتقارعون الكؤوس، ويتبادلون الأحاديث في جو مشحون بالسعادة؛ فقد لبي الجميع دعوة مدام «سيريا» لحضور افتتاح «رابطة المغتربين الأجانب»، وقال البعض في سعادة: «أصبح لدينا نادٍ مُسلٌّ».

مدام «سيريا هوارد مورس» امرأة تقول عن نفسها: «أنا عشت مرتين؛ مرة حتى عام ١٩٥٨ منذ مولدي، ومرة منذ عام ١٩٨٠ حتى عام ١٩٩١». تقول دائمًا: «يسألوني عن سر سعادتي عندما حضرت إلى القاهرة في المرة الثانية، ولكن عجزت عن أقول لهم إنني كنت في تعداد الموتى وبعثت للحياة من جديد!

كانت أمي تغني وترقص في شوارع الحى الإنجليزي، وكانت تحب الأوبرا، وأيضًا والدي عالم الآثار؛ تلك ثلاثة أشياء مهمة في حياة أمي. عندما وُلدت قالت لي إنني لم أكف عن البكاء. فقلت لها: لماذا.. هل كنت أتالم؟ نظرت لي نظرة طويلة وقالت: لا، لم تكوني تتألمين.

والحقيقة أنني أعجز كأى إنسان عن تذكُّر حالتى فى تلك الساعة، ولكن قلت لها: لم أشعر بأى شىء... وأعتقد عند الموت لن أشعر بشىء أيضاً. هزت رأسها وقالت لى: روحى عالقة فى هذا المكان. وكانت أمى لا تتوقف عن العزف على البيانو.. إنها رائعة. وبعد أن رحلنا، مات أبى.. وهو بين يدي نظري وقال: حتى الآن لم أكتشف سر التحنيط. ثم راح فى نوم عميق، لم يتألم ولم يصرخ، فقط جحظت عيناه. ولما جلست أمى تعزف مقطوعة ضوء القمر لـ«فان بيتهوفن»، توقفت العزف فجأة؛ فأدركت أنها ماتت أيضاً.. لذا أنا سعيدة بالعودة إلى الحياة.

جاءت مدام «سيريا» فى المرة الثانية بصحبة زوجها خبير النفط السيد «توم نيكسون» مبعوث شركة «ستيمشيب كومبانى» لشركة الحفر المصرية عام ١٩٨٠، لم تصدق حين أنها «توم» بالخبر؛ يقول عنها: «قفزت فى الهواء وكأنها طفلة تمارس لعبة كرة السلة، وعانقتنى بحرارة، وأزعم أنها لم تعانقتنى بهذه الحرارة فى ليلة الزفاف» ويضحك: «هى حدثتني كثيراً عن الحى الإنجليزى حيث طفولتها وشبابها، ولكن لم أكن أعلم أنها كانت معى جسداً فقط، أما روحها فكانت عالقة هنا بين شوارع وأشجار هذا الحى الرائع». ويستأنف «توم» لأصدقائه: «عندما وصلنا المطار بكنت واستقرت فى عينها نظرة غريبة؛ أعتقد نظرة طفلة تشاهد عرائس الباربي لأول مرة، تفقدت وجوه المصريين فى سعادة، كادت أن تعانقهم، ولما وصلنا الفندق ألقى الحقائق وقالت لى: مع السلامة، سأذهب حيث مسقط رأسى. واندفعت بسرعة.. ولما وصلت للفيلا قابلت مستر زاهر، الذى قال لى فيما بعد: كنتُ جالساً أستمتع بمشاهدة مباراة، ثم سمعت من خلفى صوت نجيب؛ فالتفتُ فوجدتها تجلس خلفى وهى تبكى. لا تتصور مدى الخوف الذى شعرت به؛ قفزت بسرعة وهرعت إلى الطابق الثانى، وبعد ذلك

عرفت كل شيء... دفعتني، وفيما هي تتفقد البيت صرخت وسقطت على الأرض.. لو كنت أعلم بقدمها لكنت نظفتها، لكنها سقطت عليّ من السماء. ولكن لم أشعر بالراحة إلا عندما وصلت وطلبت مني أن تقطن بيتها القديم. تركت لها البيت دون أن أتحدث في شيء، وكأني أتخلص من حمل ثقيل ظل جاثماً على صدري منذ سنوات.

يمتاز الحي الإنجليزي بالفيلات الصغيرة التي شُيدت على النمط الإنجليزي؛ لذا لم تُشيد في الحي قصور أو سرايات، فالأوروبيون لا يقطنون قصوراً ولا سرايات. وتعتبر فيلا مسيو «ليون سوارس» من أوائل الفيلات التي شُيدت في الحي، فقد استقطب لها مهندسا إيطالياً، شيد الفيلا على النمط الكلاسيكي الروماني، فكانت مختلفة؛ لذا أنارت الحي كله، حيث بدت وسط غابات الكافور كشمس مضيئة ليل نهار، وقطنها مسيو «سوارس» حتى عام ١٩٣٠، وكان يجب أن يجلس يوم السبت تحديداً في حديقته الواسعة، في ظل شجرة كافور عملاقة يفكر في أعماله، على الرغم من أنه كان لا ينام فيها كثيراً. وظلت الفيلا مغلقة لعدة أعوام، إلى أن استأجرها عالم الآثار الأمريكي «هوارد مورس» حتى عام ١٩٥٨، وكانت لا تزال تحفة. ولكن الآن بدت الفيلا في هيكلها الضخم أشبه بمعبد مهجور؛ حيث تأثرت بالعوامل المناخية في ظل غياب تام للصيانة والترميم، فتحول البناء الهرمي المكوّن من الخشب لثقوب واسعة، وانهار جزء كبير منه، وأصبح هذا الجزء جاذباً وبقوة للطيور المهاجرة، وخاصة البوم، وأصبحت الحديقة مرتعاً للحيوانات الضالة بعد أن نمت فيها الأعشاب الشيطانية. ولما تفقدتها مدام «سيريا» زكمت أنفها رائحة غريبة تبعث من الأثاث؛ رائحة شيء تعفن منذ أمد، حيث

شكّلت الأتربة طبقة جامدة فوق الأثاث، عند إزالتها قطعاً ستؤثر على اللون.. بهو الفيلا الفسيح تكدر بالأثاث القديم المنقوب القذر، ناهيك عن السلم الحلزوني المتصل بالطابق الثاني، كان فيها مضي قطعة أثرية من الرخام الطبيعي الفخم، الآن تجلط من القذارة؛ يبدو كسلم المؤسسات الحكومية.. علاوة على أن الحشرات الطائرة لا تتوقف عن عزف سيمفونية مزعجة في سماء البهو، بعد أن تجذبها بقايا الطعام الملقى فوق التراييزة الكبيرة وعلى الأرض، فضلاً عن بقايا ثمار الفاكهة التي تعفنت، أو التي قُضم منها قضمة واحدة وتركت بقيتها وليمة للحشرات الزاحفة والطائرة، ناهيك عن أعقاب السجائر الملقاة على الأرض وفوق قطع الأثاث.. هذه هي الحالة التي كانت عليها الفيلا.. وقالت للأستاذ زاهر: «لماذا لم تستقطب أحداً لينظفها؟» قال لها: «تريجني قذارتها!».

ولم تضيع المدام وقتاً؛ اتصلت بالسفارة الأمريكية، وطلبت منهم إرسال شركة «seaven» المختصة بالخدمات؛ حيث تقوم بصيانة المنازل وفرش الأثاث للجالية الأمريكية؛ سواء العاملون أو الدبلوماسيون. وجاءت السيارات الجيمس النقل الضخمة، وفوقها العمال المصريون بـ«الأفرول» الأزرق المعروف.. بدأت الشركة ومهندسوها الأمريكيون يتولون ترميم وتنظيف الفيلا، استغرق العمل قرابة الشهر، عادت بعدها تحفة مسيو «ليون سوارس» تضيء الحسي كما كانت.. وجاء زوجها سعيداً بسعادتها، وظلت تحكي له ذكرياتها في الفيلا، وفي كل مرة كانت تبكي. وتفقدت القبو؛ حيث كان ملكاً لأبحاث والدها، وظلت لشهر تشعر بأن والديها يعيشان معها.

وعلى مدار عدة أيام ظلت المدام تتفقد الحسي في اهتمام، استرجعت ذكرياتها، لم تجد ممن تعرفهم سوى السيد «كارل هوفمان»، قال لها: «كل شيء تغير.. لا تسترجعي الذكريات.. من المحزن أن تسترجعي الذكريات» فسألته: «ماذا حدث؟» فأجابها: «أبدًا، جاء قوم وشيدوا على ضفاف النيل قطعًا عالية من الخرسان.. هل تتصورين؟ يومًا ما كنا نقف على ضفاف النيل فنشاهد الأهرام بوضوح، وتترامى خلفنا الأراضي الزراعية إلى ما لا نهاية، أما الآن...».

وقررت المدام بعد ذلك إنشاء رابطة للمغتربين الأوروبيين تجمع من خلالها التبرعات لدعم الفقراء، وأيضًا تكون ناديًا يقدم كل وسائل الترفيه والتسلية للأوروبيين، وقررت إنشاء الرابطة بمشاركة صديقها العزيز الصحفي الأمريكي «آرون رود»؛ حيث كان شريكًا بالمشورة والدعم الصحفي، سألته قبل البدء في إنشاء الرابطة: «أليست هناك قوانين؟» قال لها بثقة تسعدها جدًا: «ليست هناك أي قوانين تجرم العمل الإنساني».

وطبعت المدام إعلانًا كبيرًا وضعت داخل المدرسة الأمريكية وأمامها، وأيضًا في الشوارع وعلى أبواب الفيلات، تعلن عن افتتاح الرابطة أو النادي بعد ثلاثين يومًا، ولم تكتفِ المدام بهذا الإعلان البسيط، بل استخدمت بعد ذلك أسلوب التشويق في الدعاية عن الرابطة؛ طبعت إعلانات تشرح فيها ما ستوفره الرابطة من وسائل ترفيهية، فضلًا عن قيمة العضوية.. شعار الرابطة: ستستمتع وأنت تسهر في الرابطة، وأيضًا وأنت تساعد إنسانًا. مقر الرابطة: ٩ شارع ١٣. الرابطة تضم بارًا رئيسيًا في الصالة الداخلية، وبار شرفة يطل على الحديقة، ومكتب صغيرة، وصالة بلياردو، وتلفزيونًا في الحديقة، ومطبخًا كبيرًا يقدم أشهى المأكولات؛ لحم الخنزير المقدود، ولحم

الاستيك المشوي ومعه صلصة مميزة، ويرجر بقري بخلطة مدام «فائيري»، وهوت دوج.. فضلاً عن أفخر المشروبات الكحولية، والمشروبات الساخنة.. وأيضاً وجبات الإفطار؛ الكرواسون المحشي بانسيكولاتة، والقهوة المزوجة باللبن الطبيعي.. وأيضاً الرابطة توفر الجرائد الصباحية المحلية والعالمية كل صباح لمن يريد أن يتصفحها مع فنجان القهوة.. من يريد الاستفسار عن شيء، يحضر لمقابلة السيد «فيليب أنطوان».

الاشتراك السنوي: مئة دولارًا.

الاشتراك ستة أشهر: ستون دولارًا.

الاشتراك ثلاثة أشهر: أربعون دولارًا.

وكان الأجانب يجيئون في هذا الوقت بالتحديد حياة مملّة؛ يجلسون في عطلة نهاية الأسبوع في ملاعب «فيكتوريا» يركضون أو يلعبون البيسبول.. لا مسهرات، ولا حفلات.. الحفلات التي كانت تقام في منازلهم كانت محكومة بقوانين المنازل؛ لذا لم يستمتعوا قط، البعض منهم كان يذهب لبارات الفنادق، والآخر كان يعاقب نفسه في العطلة بالنوم مبكرًا، الشيء الوحيد الذي اتفقوا عليه هو ممارسة رياضة الجري؛ لذا كل صباح تمتلئ الشوارع بهم وبكلابهم وهم يمارسون هذه الرياضة. أما في احتفالات الكريسماس فيتحول الحي لشجرة مضيئة، تُزين أبواب الفيلات الصغيرة بأطواق الورد، وتمتلئ الشوارع بأشجار الكريسماس المغطاة بالأضواء والزينة، ويعلقون أكاليل ورقية ومصاييح ملونة، ويتبادلون الزيارات المبهجة، ويرتدي بعض الرجال ملابس «بابا نويل» ويستقرون على النواصي الكبيرة

وأمام المحال، ويوزعون الهدايا على الأطفال؛ لذا يفرق الحي خلال هذه الاحتفالات في البهجة والسعادة.

وكانوا يطلقون علي حي المعادي «الحي الإنجليزي»؛ نظرًا لتأسيه على يد الإنجليز، بيد أن الأوروبيين اليهود الملمين بتاريخ الحي كانوا يتزعجون من ذلك، وبينهم وبين أنفسهم كانوا يطلقون عليه «الحي اليهودي»؛ نظرًا لشراء عائلة «موصيري» و«سوارس» أراضي في الحي قبل التأسيس، فضلًا عن تأسيسهم لشركة «أراضي الدلتا» بمشاركة بعض الإنجليز. وكان المقيمون في الحي من السفراء الأوروبيين وموظفي البترول والنوادي والمدارس، وكانوا تقريبًا أسرة واحدة يعرفون بعضهم بعضًا. لقد اختلفت الشريحة تمامًا، تذكر مدام «يريا» أن أغلب الذين قطنوا الحي الإنجليزي كانوا من الأساتذة المؤهلين للعمل بالجامعة في مراحلها الأولى كأعضاء هيئة تدريس بأقسامها المختلفة، وكانوا من الإنجليز، فضلًا عن كبار العسكريين في الجيش الإنجليزي، والتجار اليهود؛ أمثال «سوارس» و«موصيري»، غير البعثات الاستكشافية.

وتوافد المدعوون في هذه الليلة الخاصة والمهمة جدًا.. الملابس كانت غاية في الأناقة؛ البدل ذات الشرائط الستان اللامعة، والفساتين السينية المحكومة.. كانت السيارات الفارهة تستقر أمام الفيلا، فينزل منها المدعوون في كامل أبهتهم وسعادتهم، يستقبلهم «خرستوف» الخادم الإفريقي بابتسامة وضيئة، ثم يجيهم بانحناءة من رأسه ويرشدهم إلى الحديقة. كانت معزوفة العصر الفيكتوري تصدح في سماء الحديقة بإيقاعها الساحر، وقد استحوذت على مشاعر الزوار الذين شعروا بالبهجة والسعادة، وظهرت مدام «يريا» بقامتها النحيفة في الفستان السواريه الأسود اللامع فبدت كعرائس الباربي،

وجهها الطويل المنحوت بعضلات بارزة كان لامبًا من أثر المساحيق،
علاوة على شعرها الذهبي المجمع بدا كضلفتين تحجبان أذنيها إلى
عنقها الطويل.. وامتدت السهرة حتى بزوغ الفجر، ودونَ مسر
«وينسون» - أحد المؤسسين - عن هذه الليلة في يومياته:

الجميع قرر مساعدة المدام، بيد أن القليل منهم انزعج، وهؤلاء
كانوا عنصريين.. ولكن لا شك أن الليلة كانت بداية قوية لرابطة
المغتربين الأجانب في القاهرة.. كانت من أروع الليالي.

وينسون

١٩٨٠

كلمة «رابطة» تعني جماعة من الناس يجمعهم شيء يشتركون
فيه، والمعنى يدل على أن هؤلاء الجماعة تحالفوا للحصول على شيء
لن يحصلوا عليه إلا إذا كوّنوا رابطة.. وعادةً الجاليات التي تنتمي
إلى الدول الفقيرة والضعيفة، فضلاً عن المهاجرين، هي التي تسعى
لأن تكون رابطة لها مقر ولها رئيس وأعضاء، وغالبًا ما يكون
أعضاؤها ورئيسها ليسوا مواطنين عاديين اكتسبوا هذه المكانة من
مساعدتهم التي يقدمونها لمواطنيهم، ولكن هؤلاء يتم ترشيحهم من
قبل السفارة ليقوموا بمهامها (في حدود)؛ فمهمة الأعضاء الرئيسية
هي تقديم التقارير والمراقبة، وأيضًا وهذا هو الأهم، إبعاد المواطنين
عن السفارة بأي طريقة، وهكذا يقتصر دور الرابطة على خدمة
الجالية من مساعدات في شتى المجالات (قدر المستطاع طبعًا).. مثلاً
الحصول على وظيفة، الإيواء المؤقت لحين الترحيل، الضغط على
الكفيل بالحديث الناعم لرفع يده شيئًا، جمع التبرعات لسد غرامة

ما، مخاطبة السفارة في خطاب ناعم للتدخل للإفراج عن مواطن قابع في أحد السجون، مع العلم أنه لا توجد رابطة استطاعت أن تدخل للإفراج عن مواطن تم اعتقاله بطريقة عشوائية، فأغلب الأعضاء لهم مصالح كبيرة؛ لذلك يتجنبون الخوض في هذه المسائل، يتظاهرون بالتضامن ولكنهم يتقاعسون عن أي دور حقيقي.. هذا هو مفهوم الرابطة. لكن الجاليات التي تنتمي إلى دول كبيرة غنية وقوية، لا تسمى لأن تكون رابطة، ربما يحمل بدلاً من الرابطة نادي يجتمعون فيه لمتابعة المباريات والاستمتاع بتناول الثلجات. أما رابطة المغتربين الأوربيين في القاهرة فكان لها دور آخر؛ وهو دعم الفقراء، وعلاج المرضى، والتوعية من خلال دورات تثقيفية، فضلاً عن دعم الجمعيات الأهلية والخيرية، ودور الأيتام. ونشط دور الرابطة في الأحياء الشعبية بقوة، فضلاً عن الريف؛ فكان لها دور كبير في إنشاء «مكتبات المستقبل» التي تقدم خدمة مجانية من القراءة والرحلات، فضلاً عن استقطاب مدرسين أكفاء لإعطاء الدروس وتعليم الحقائق. وبالطبع انزعج البعض من هذا الدور؛ لذا تم مهاجمة الرابطة في الصحف، وتم وصفها بأنها تعمل لخلق أجيال من المعاقين ذهنيًا، وتمت مهاجمة المكتبات من خلال البلطجية، وترويج شائعات كاذبة عن التحرش بالأطفال، أو إعطائهم أطعمة فاسدة.. ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل، وكان الأهالي يدفعون بأبنائهم إلى تلك المكتبات في سعادة وحماس، ولكن ظل الهجوم شرسًا ومتاليًا على هذه المكتبات، فبدأ دور البلطجية في الظهور؛ فيذهب أحد البلطجية ويقنح المكتبة، ولم تتوقف الغارات على ذلك فقط؛ فبدأ الاعتداء الجسدي، لكن مركز «التنوير» الذي يقوده الدكتور «إبراهيم مسعود» كان لديه احتياطي رائع من المؤهلين؛ لذلك لم تُغلق المكتبات يوماً واحداً.

ولم تكفِ الرابطة بدور المكتبات فقط، بل انطلقت المدام بنفسها ومعها قافلة من المعلمين والمهتمين وكثفت من تواجدها في حي البساتين؛ حيث سكان المقابر، وبدأت في إتمامهم أولاً، ثم تجهيز مكان كبير للقاء السيدات والأطفال.. واتسعت شهرة المدام في الحي، وكان النساء والأطفال يتظرونها يومي الجمعة والسبت.. يبدأ اللقاء في الثامنة صباحاً؛ حيث تأتي النساء والأطفال في سعادة، يتناولون وجبة الإفطار، ثم ينصتون للمدام وأعضاء الرابطة، وكانت المدام تعلمهن كيفية تربية الأبناء والاهتمام بالمنزل. وتعلمن حرفاً يدوية من الزخرفة على الفخار، وصناعة الزعافات والمقشات من الخوص. واعتاد الرجال أن يالفوا غياب زوجاتهم عند مدام «سيريا» مطمئنين لذلك، وكانوا يقولون: «لها الفضل في تربية أبنائنا، وتعليم نساتنا». وسعدت المدام بهذا الانتصار، فقد حذرها الأستاذ زاهر من الاقتراب من هؤلاء الفقراء؛ قال لها ذات مساء وكان يسهر في الرابطة ليلة كل خميس: «التمن سيكون غالياً» فقالت له: «لا أفهمك» فقال لها: «هؤلاء همج.. أنا أفهمهم.. لن يتعلموا، ولن يفهموا.. تراهنين على قضية خاسرة». وقال لها الدكتور «إبراهيم مسعود»: «زاهر شخص خطير، لا تهتمي بسامعه».



كان «أرون رود» صحفياً أمريكياً كبيراً، يعمل له «الواشنطن بوست»؛ يكتب المقالات ويرسلها للصحيفة، يتقن اللغة العربية، والفرنسية، والألمانية، فضلاً عن لغته الإنجليزية، فكان يتحدث الإنجليزية بلكنة صحيحة وليست أمريكية؛ ولعل السر في هذا أنه قضى عشرة أعوام في مقاطعة «فارنهام»، يقول إنه كان يدرس التاريخ هناك، وهناك أقاويل تفيد بأنه كان متزوجاً من إنجليزية كانت تقيم في المدينة، وانتحرت

لأسباب غامضة، ولا تستطيع أن تستخلص منه جواباً شافياً عند سؤاله؛ فلهذه قدرة كبيرة على اللعب بالكلمات، يستطيع أن يدخلك في عشرات المواضيع في دقيقة واحدة، إلا إذا كانت لديه الرغبة، وهذا نادر، أو عندما تطيح الخمرة برأسه تجده يقول: «قالت لي: آرون، وماذا بعد؟ ثم انتحرت». بالإضافة لحفظه ما لا يقل عن مئة نكتة؛ ما بين إباحية وسياسية، ليس الحفظ فقط، بل يقول النكتة بالإيقاع المناسب لها، فلو كانت سياسية يحرص أن يدخل فيها عنصراً أجنبياً ليدو محايداً، ويحرص أن يضحك قبل أن يختمها ليتفاعل معه من حوله، ويتنظر التعليق، وينصت باهتمام بالغ لكل كلمة تقال.. أما إذا كانت النكتة إباحية فإنه يضبط الإيقاع بدقة؛ تحمر شفاهه الدقيقتان باللعب، وتتسع عيناه بلمعة، فضلاً عن صلته الفسيحة، ولا ينسى أن يُعقب على النكتة - التي بطلتها بالطبع امرأة - بقوله: «أفخاذ المرأة مهلبية يا باشا».. هكذا فطن «آرون رود» لميول المصريين للمرأة السمينة، خاصة طبقة العمال الذين كانوا يتعاملون معه؛ البوابين، وعمال النظافة والحدايق والأمن الخاص، حتى جنود الداخلية الفقراء؛ فمثل هذا التعليق كان يُثيرهم، ويضج الجميع من حوله بالضحك، وينعتونه قائلين: «يا ابن الصايعة». فضلاً عن اندهاشهم من أي شيء يقدمه مها كان تافهاً؛ لا أعتقد أن أحداً من العاملين في سوق المعادي القديمة أو المتاجر الغذائية، أو سائقي التاكسي، علاوة على رجال الأمن وحارسي العمارات، وأيضاً عمال النظافة، لا يعرف «آرون رود»؛ هذا الأمريكي المرح.. وعندما يسألونه من باب المجاملة: «نكتة جديدة دي يا مستر آرون.. سمعتها فين؟» ينفجر بلكنة مصرية قائلاً: «عند أمك يا باشا».. ويتقبلون منه هذه الدعابة بطبيعة أنه أسلوب متبادل بينه وبينهم. وكان يقول لهم: «أنتم المصريين لا

تعرفون سوى كلمة واحدة «money».. والواقع أنها هي الحقيقة..
النساء لا يخضعن إلا للـ «money»، السياسة لا تخضع إلا للـ «money»،
كل شيء يخضع أمام الـ «money».. أنا لا أقولها بالعربية، هل تعلمون
لماذا؟ لأنها هي الكلمة الوحيدة التي تعرفونها بالإنجليزية، أنتم
تعرفون الحقيقة، وأنا أعرفها مثلكم».. وعند ذكر النقود، بصمت
قليلاً ويقول بنبرة جادة: قلت لزوجتي «كيرا»: عندما أموت ضعيني في
صندوق، واستأجري رجلين قويين، واذهبي بي إلى الصحراء، وكلفي
الرجلين بحفر قبر عميق، ثم ضعوني بداخله، وارحلوا فوراً.. لا أريد
صلاة، ولا بكاء.. لا أريد مزيداً من النفاق؛ كفاي كل هذا النفاق.
استغربت وصيتي وقالت لي: لماذا؟ قلت لها: لا أريد أن يتبول أحد
فوق قبري!

«آرون»، ماذا تقول؟

قلت: الحقيقة.. إن هذا جزء من يعمل في السياسة.

وماتت قبلي؛ انتحرت.. قالت لي: «آرون، وماذا بعد؟» ثم انتحرت.

تلمع عينا «آرون رود» عندما يقص هذه القصة على أصدقائه؛
سواء المصريون الفقراء أو الأمريكيون، ويتأثر جداً من ذكرها؛ إنه
يعاني المرارة، ويخفي ذلك بضحكته وحديثه الدائم عن الموت..
هكذا يتحدث «آرون رود» بفلسفة يعتقد بها البعض نكاثاً أو دعابة.
ودائماً يستقر في قهوة «كليوباترا» في سوق المعادي القديمة، رواد القهوة
يعرفونه جيداً، بملابسه المتواضعة، وتدخينه سجائر «كليوباترا» المحلية،
وأثناء عودته لا ينسى أن يقصد مستودع بيرة «ستيلا» الحكومي أسفل
الكويري الواقع أمام «بترايون»، يتنازع زجاجتين ويتجرعهما، وأثناء
سيره يتلقى تعليقات ساخرة من أصدقائه المصريين، ويرد بتصرفات

لاذعة تثير شهيتهم للضحك؛ مثلاً يُشير إلى قضيبه، أو مؤخرته، أو يستلقي في نصف الشارع ويضع ساقيًا فوق الأخرى، ولأنه كان يبدو مخمورًا وهو يقدم هذه العروض، كان البعض يساعده على أن يقضي وقتًا ممتعًا.. قميصه يبدو مجعدًا؛ فدائمًا يدس نصفه في البنطلون والنصف الآخر يتطاير من فوق كرشه الكبير بفعل الهواء، فتبدو مرتته الكبيرة بتجويفها المقرز. عندما يخرج من الحي الإنجليزي يستقل التاكسي، أما بداخل الحي فيفضل أن يمشي على قدميه، يتبادل الأحاديث مع المارة، ويقف يستمع لهم بعناية، وقت الجهد يكون جادًا، ينصت باهتمام، حتى ملاحظته تقلص من فرط الإنصات والتأثر، وتجده يقدم مساعدته بحماس.. ووقت الضحك لن تجد أحدًا أكثر منه خفة ومرحًا، فور مشاهدته يصنعون حوله حلقة صغيرة، يمتلئ رأسه بعشرات القصص التي قصها عليه العاملون في الحي.. دُعي أكثر من مرة لحضور عرس، وكان على علم بالتقاليد؛ يقوم و«ينقط» العريس أو العروس ببذخ، ويعود ليجلس، وتأتيه زجاجة البيرة الثلجة، وقبل أن تنتهي تكون الثانية والثالثة جاهزة، ويتأمل الجمع من حوله بعينه الضيقتين النصف مقفولتين من أثر الكحول، ويقول بلسان متراخ: «جئت من صحراء أريزونا إلى صحراء القاهرة.. أصحابي المصريون ينعنونني بالمجنون الكبير.. هل أنا مجنون حقًا؟!..»

أضف إلى ذلك ذهابه لـ«السيدة زينب» و«الحسين»، وجلسه على المقاهي الشعبية. وكانت تلك الفترة مشحونة؛ إذ كانت تحمل آثار الحرب، وعلاقة أمريكا بالحرب ووقوفها بجانب إسرائيل؛ ولذلك عندما كان يسأله أحد عن جنسيته كان يقول له: «أنا من لبنان»، ويشكي لهم مرارة الحرب الأهلية في لبنان؛ فكانوا يفيضون له بما في أنفسهم من تضامن ومشاعر حقيقية.. ولم يدع أنه لبناني من باب المكر

والتسلط، ولكن ليأمن غضب البعض منهم، كان يغضب عندما يقال عليه إنه رجل سكير. وأيضاً عندما يسألونه عن سياسة أمريكا، كان يغضب بشدة وتجده قد انتفض واحتقن وجهه، ويصرخ: «أصعب شيء على المرء أن يُسأل سؤالاً بديهيًا ويعجز عن الرد».. هكذا كان «أرون رود» يسجل يومياته بتلك الواقعية. كان يشعر بالقرص من قراءة المانشيتات العريضة للصحف القومية، وكان يشعر بالغيثان عندما يقرأ صحف المعارضة؛ فكان يصف المعارضين بالأغبياء، ويسخر من غبائهم في سخرية شديدة: «لن يكتبون؟ إن الغالية لا تقرأ.. إما أنهم أغبياء، أو عملاء للنظام». فضلاً عن أنه كان يشعر من قراءة هذه الأخبار بتأخر زمني لأكثر من عشر سنوات على الأقل، وكان يقول: «الأخبار تصل إلى القاهرة على ظهر جمل.. الصحافة المصرية شيء مقزز.. حتى صفحة الوفيات مقززة». انغمز «أرون رود» في حياة المصريين بعمق، تأثر بأشياء كثيرة، وأحزنته أشياء أكثر، وبعد فترة ليست بالقصيرة انتهى من دراسة التاريخ المصري، وكان قد عكف على قراءة التاريخ الحديث منذ عهد «محمد علي» وظل يقارن بين الأجيال، والحقيقة لم يجد أي فرق كبير؛ لم تتغير طبيعة المصريين، ربما ازدادت سوءاً، فاستفزته عبارة ظل المصريون يرددونها في كل عهد: «أنا لحم كتافي من خيرك يا سيدي» ولما قام بتحليلها، وجد أنها ناتجة عن ثقافة خطيرة ومريية؛ لن يتدنى الإنسان لهذه الدرجة إلا إذا نسفت مفهومه عن الإنسانية، وأشعرته بأنه حمار يعمل ليأكل، ليست له أي حقوق، وإنما واجبٌ عليه أن يظل قابلاً عند قدم سيده.. هذه ثقافة تخرجتها الأجيال فأصبحت واقعاً مخيفاً.



كيف تم تجهيز الرابطة؟

اختارت المدام في البداية أربعة أصدقاء يؤسسون معها الرابطة،
وهم بترتيب السن:

«كارل هوفمان»

لا أحد يعرف على وجه الدقة متى جاء السيد «كارل هوفمان» إلى
القاهرة؛ يقال إنه جاء في بداية العشرينيات مع نزوح اليهود الأشكناز
الروس والبولنديين إلى القاهرة والإسكندرية، بعد أن فقد عائلته في
المذابح التي اجتاحت يهود أوروبا، ثم عمل مع أحد أقطاب اليهود
في وسط البلد، وهي عائلة «عدس» المشهورة، حتى قرر أن يقطن
الحي الهادئ بعيداً عن الناس، وأن يمارس هوايته المفضلة «التصوير
الفوتوغرافي»، فافتح استوديو في ميدان السوارس.

السيد «كارل هوفمان» بولندي من أم ألمانية يهودية، ورغم أن والده
كان مسيحياً كاثوليكياً مخلصاً، فإنه اعتنق اليهودية حسب إرادة أمه التي
كانت متعصبة ليهوديتها بدرجة كبيرة. والسيد «كارل هوفمان» من أقدم
الأجانب في الحي، هو رجل طيب يعشق وجوه المصريين على حد
تعبيره؛ ولذلك ظل يعمل مصوراً بنفسه حتى سن متأخرة، وبعد أن
تقدمت به السن، ظل يتردد على المعبد، عاش حياته كلها في خوف..
عند اندلاع الحرب العالمية الثانية قرر أن ينضم للجيش، فقالت له
زوجته «ريفال»: «لن أسمع لك.. كارل، أنا حامل.. لا أريد أن يقتلك
هتلر كما قتل أبي وأخي.. كارل، لنرحل». وذات مساء عاد إليها وقال
لها: «نحن مراقبون» جلست أمامه وقد شحبت وجهها وقالت له:
«كيف؟» قال لها: «كنت أكتب على حائط الذكريات عند قمة الجبل:
أنا يهودي، وأكره هتلر، ويومًا ما سأحرق جسده.. واليوم وجدتها

مطموسبة، وقد كُتب مكانها: وأنا سأقتلك وعائلتك أيها الخنزير،
اندفعت تضربه في صدره وقد تحفزت للنضال، وصرخت في عنف:
«نحن مستهدفون.. الحي كله مستهدف من الألمان.. سنموت.. أنت
مختل.. كارل، لترحل».

قال لها: «لا، لن أقضي حياتي كلها هاربًا».

تقلصت عضلات وجهها وصرخت: «أنا حامل.. هل تفهم؟».

ورحلت دون علمه؛ ذات مساء عاد إلى البيت فلم يجدها، ووجد
ورقة ما زال يحتفظ بها كتبت فيها: «ذهبت مع صديقتي شوشانة إلى
جنوب إفريقيا.. كارل، يجب أن تلحق بي». وعاش حزينًا متألماً، قرر
أن يبقى ويقاوم في الحي، وجاء له خطاب من «شوشانة» تقول فيه:
«أنجبت ريفال ذكرًا، وأطلقت عليه ياسو.. ورحلت إلى البرازيل»..
ويقول السيد «كارل»:

«انتهت الحرب، وانتهى هتلر.. مات الملايين في سبيل الحياة..
مات الملايين إثر جنون رجل مختل.. كيف استطاع أن يقتل كل هؤلاء
الناس؟ ولكن يبدو أننا سنظل هكذا منبوذين.. بعد الثورة وذهاب
الملك ونشوب حروب بين مصر وإسرائيل، شعرت بأن ثمة أشياء
تغيرت، لم يعد أحد يهتم بي، ولم يعد أحد يأتي لألتقط له صورة..
رغم أنني بولندي، لكنهم لم يروا في غير أنني يهودي. أعود لتلك
الأيام فأشعر بالمرارة، كنت أجلس في متجرني ولا أحد يأتي ليسلم
عليّ، وحدث مرة أنهم هاجموا متجرني بالمولوتوف فاحترقت الواجهة
بالكامل؛ مما جعلني أغلق المتجر، وعملت مصورًا متجولاً، وبفضل
صداقاتي بدأتُ أعمل لدى العائلات الكبيرة، ولكن لم يستمر هذا
الرزق الموقت.. جاءني رجل في بدلة عسكرية وأمرني أن أتجسس على

بعض انعطافات، وأنقل له ما يدور في أروقتها، وقلت له بحذر: أنا مصور يا سيدي. قال لي: أنت تخدم هذه الأرض التي تعيش عليها. بيد أن حالتني كانت قد تحسنت شيئًا فشيئًا؛ فعزفت عن تلك الدعوات.

ومرت الأعوام.. وبعد مرور ثلاثين عامًا يقول: «انقطعت أخبارها تمامًا؛ لعلها نسيته، لعل ابني أصبح شابًا كبيرًا وأصبحت له زوجة وأبناء، لا بد أنه يكرهني، ربما قصت عليه أشياء عني، أو ربما قانت له: والدك مات؛ قتله هتلر لكي يحميني ويحميك». وتروق له «هوفمان» هذه القصة، مدعياً أن زوجته كانت تريد أن يأتي ابنها ويأر لها ولوالدها.. بالطبع ذكت فيه هذه الروح الانتقامية.

وعند مطلع السبعينيات عمل معه شاب يدعى «كيان داود» من أب فلسطيني وأم مصرية، كان غامضًا، وله نظرة لا تريح، قال له ذات يوم: «تعلم يا سيدي لو أن القاهرة والنيل مع اليهود، لكانوا جعلوها أعظم شيئين في العالم» ثم سكت وابتسم في غموض، ورحل.

«ريتشارد وينسون»

هو الرجل الثاني، وهو أمريكي دائم المرح، بشرته سوداء، وجهه بشوش، دائمًا مبتسم، جسده ضخيم يزن متين وخمسين كيلو جرامًا، لكن يساعده على تحمُّل هذا الوزن طوله وعظامه القوية، لا يترك الكتاب من يده أبدًا، كان يقرأ حتى أثناء السير، كان يعمل مدرسًا في المدرسة الأمريكية، ورغم ابتسامته المريحة لمن يشاهدها فإن قلبه مليء بالأحزان.. يحب الأطفال، لكنه عاجز عن الإنجاب.. ويقول: «إنني مريض بداء السمنة» ويتذكر عندما سمع طبيبه يشرح حالته قائلاً: «أعتقد أن هذه الحالات المزمنة التي تبدأ بشكل مبكر في حياة الشخص

لا تضعه أمام استعمال طويل الأمد للأدوية فقط، بل تكون عاملاً في قصر عمره». وأخيراً امتسلم السيد «وينسون» لقدره؛ يعيش بمفرده في شقة متواضعة في عمارة قديمة في ميدان فيكتوريا، الشقة لا تخلو من أبناء البواب الصغار الذين يستمتعون بمشاهدة الأفلام الكارتون التي يحرص على جلبها لهم من متجر شرائط الفيديو، فضلاً عن إطعامهم اليتزا واللعب معهم، كان رجلاً طيباً، حرص على تعليمهم هم وأبناء البسطاء من العاملين في العمارة والعمارات المجاورة، يقول: «جميع الأطفال متساوون في الذكاء؛ ليس هناك طفل غبي وطفل ذكي، ولكن هناك بيئة تبني وبيئة تهدم، تعليم جيد وتعليم سيء.. هذه هي الحقيقة». يمشي في شوارع الحي بقامته الضخمة فيتلقي التحية بحرارة من الجميع، ينام فيشعر بالسعادة، ويقول لنفسه: «مؤكد عندما أموت سيأتي من يبكي عليّ».



«فيليب أنطوان»

وهذا الرجل من أصول لبنانية، كان يعمل في قسم الترجمة في الجامعة الأمريكية، دائماً أنيق، أصلع الرأس، ونحيف الجسد، يتحدث اللغة العربية بطلاقة، تشعر في وجوده بشيء من الاضطراب؛ يبدو دائماً قلقاً، يحمر وجهه بسرعة، ويدعك عويناته بمنديل على الدوام، غير أنه الطويل الذي يحمر بسرعة؛ فيبدو منفعلاً. تعرّف على مدام «سيريا» في إحدى الحفلات في الجامعة الأمريكية، أعجبت بأرائه، واكتشفت أنه إنسان؛ لذلك نشأت بينهما صداقة حميمة، وعندما أخبرته بإنشاء الرابطة قال لها: «الآن أستطيع أن أقول إن الإنسان الحر هو من يفكر في مصير الآخرين، ويسعدني أن أكون شريكاً لامرأة حرة

مثلك» وطلبت منه أن يهتم بالبرنامج التعليمي والثقيفي للأطفال، فعكف على تبسيط وترجمة رواية «مزرعة الحيوان» لـ «جورج أورويل» وقال لها: «هذه القصة يجب أن نحقق بها الأطفال، وأنا كفيل بأن أقوم بتبسيطها، غير أنني سمعت أنهم في لندن حوّلوا القصة لفيلم كرتوني رائع.. سنحاول إحضار الشريط ليشاهدوه». وكانت المدام تسمع ذلك فتشعر بالسعادة والرضا، وقالت له: «مستر فيليب، أنت رائع». وكان «فيليب أنطوان» يقطن في الحي، في عمارة بمحاذاة سور المدرسة الأمريكية، هو عادة لا يتحدث كثيرًا، زوجته لبنانية أيضًا، يشعر أن أصوله العربية تحتم عليه النضال نحو مجتمع عربي واع؛ لذلك كان أكثرهم حماسًا، أو كان يماثل مدام «سيريا» في حماسها الشديد.

مدام «فاليري»

وهي طاهية، كانت في طريقها لفتح مشروعها الكبير «برجر فاليري»، إلا أن «سيريا» قالت لها: «ستكبدين نفقات كثيرة نظير الإيجار والعمال.. ما رأيك لو افتحت مشروعك هنا في الرابطة؟» ورحبت مدام «فاليري» في سعادة. وهي طاهية من العيار الثقيل، قصيرة وسمينة، تقول عن نفسها: «أنا امرأة محظوظة.. افتحت مشروعني المادي والإنساني.. أساعد، وأكسب».

غير أن المرأة جاءت معها سيدة من جنوب إفريقيا تُدعى «ديوانا»، وهذه السيدة هي من تحملت بناء مطبخ ضخم بخم عشرات الرواد كل ليلة.

أما عن دور السيد «آرون رود» فكان كبيراً.

تحدث في عدة مقالات عن دور الرابطة؛ فجلب لها مساعدات من الخارج، فضلاً عن استقطاب أحد أصدقائه المهندسين لبناء «بار الشرفة».

«وهو المهندس محمد عبد العال»

حضر «محمد عبد العال» لمقابلة المدام، وكان شاباً وسيماً إلا أنه قصير جداً، وقال لها بطريقة «آرون رود»: «لا تحملي همّاً.. المسألة غاية في البساطة».

وضحكت المدام، وحدثته عن ماضيها في الحى كعادتها مع كل المصريين، وكان يعلق بكلمات قليلة ويؤدي اندهاشاً مزيئاً، وبالغ في اندهاشه بعد ذلك؛ لأن هذا كان يسعدها، وأخذ جولة في الفيلا وتحدث عن جمال البناء، وقالت له: «بناها مهندس إيطالي كبير» وعلق: «نعم، المهندسون الإيطاليون فنانون، وأنا لست أقل منهم.. ستدهشين يا مدام» وضحكت، وأعجبت بحماسة جداً. وشرع في بناء بار الشرفة، وهو ليس باراً فقط، ولكن ساحة مربعة أشبه بصالة بها تلفزيون معلق في السقف، وترايزات، يجلس بداخلها الرواد في فصل الشتاء. وحضر جميع الأعضاء لياشروا عملية البناء، واهتمت مدام «فاليري» جداً بإعادة بناء المطبخ بحيث يكون ضخماً يستوعب جميع الأدوات، واهتم السيد «وينسون» بالإشراف على «بار الشرفة»، والسيد «فيليب أنطوان» بالصالة الرئيسية. كانت المدام في تلك الأيام سعيدة جداً، تستيقظ باكراً وتعكف على صناعة الإفطار اللذيذ، وكانت تعاونها «ديوانا» التي تحضر باكراً من منزلها حيث شارع ١٠ القديم، وعند حضور المهندس والعمال يجلسون جميعاً

على مائدة كبيرة في الحديقة ويتناولون الإفطار، ثم يعقبون باحتساء الشاي، ثم يشرعون بحماس ونشاط في استئناف العمل. وكانت المدام تعمل بيدها؛ تقوم بطلاء الجدران، أو عجن المونة، وكان العمال يجوبونها جدًّا، ويستغربون هذه الأفعال على الخواجهات، وكانوا يحكون عنها تفاصيل مذهلة.

وتبين بعد ذلك البناء الهرمي الذي تناسق مع طراز الفيلا؛ نافذتان تطلان على الحديقة من الواجهة.. وتولت شركة «seaven» فرش المبنى بالكامل، كل عضو من الأعضاء المؤسسين قام بفرش الركن الذي أشرف عليه؛ فمدام «فاليري» جاءت بأدوات ومعدات المطبخ من الخارج: البوتاجاز الجيمس الضخم، والثلاجة نفس الماركة، وثلاجات اللحوم «الفريزر»، فضلاً عن ثلاجات العرض، والرفايح من الأواني البورسلين والفخار، والملاعق، وأطقم الكاسات الفاخرة، والفناجين.. وأضافت أيضاً حوضاً كبيراً مخصوصاً لغسل الخضار بكميات كبيرة. أما السيد «وينسون» فجعل من بار الشرفة شيئاً أشبه بمطعم صغير يقدم المأكولات السريعة على إحدى الطرقات، حتى زواره كانوا يشبهونه؛ وجوههم ليست مألوفة كأنهم لا يسهرون فيه كل ليلة، حتى العمال يتحركون ويبارسون الخدمة بطريقة آلية سريعة. أما البار الرئيسي فقد تولى «فيليب أنطوان» فرشه بالأثاث الكلاسيكي الرائع؛ حيث الكنب المبطن بالجلد الفاخر، والمقاعد الهزازة، والمناضد الطويلة المصنوعة من خشب الأرو، فضلاً عن المدفأة الضخمة التي أنشئت مع إنشاء الفيلا، لكنه أحاطها بمسحة أرستقراطية رائعة. وتولت المدام فرش المكتبة وصالة البلياردو على أعلى مستوى؛ ثلاث تراييزات، وبار خاص بالرواد، ثم زينت حوائط صالة البلياردو بلوحات تعكس مناظر طبيعية، ثم وضعت صورة كبيرة تجمعها

بالأعضاء عند المدفأة وخلف البار الرئيسي. لكن قد تلاحظ صورة أبيض وأسود لفتاة صغيرة تقف في صحراء شاسعة تحمل بين يديها كلبًا صغيرًا؛ تبدو الفتاة في الصورة سعيدة عاقدة حاجبيها، وعيناها الزرقاوان مكسورتان من أشعة الشمس، تضع هذه الصورة فوق رف من أرفف المكتبة الضخمة.. وعندما يسألها أحد عن هذه الطفلة التي في الصورة كانت تقول: «هذه صورتي.. التقطتها لي أمي هنا عندما كانت الصحراء تحتل ثلثي الحي، كنا نخرج في نزهة ونأخذ معنا الخيام والطعام والشراب، ونظل نلعب بالدراجات ونطاردها الثعالب حتى الغروب.. ويومًا ما التقطت لي هذه الصورة، وكانت أمي تضحك لأن الذباب كان مستقرًا فوق رأسي، لكنه لم يظهر» هكذا تقص قصة الصورة في سعادة بالغة، وكان يتابع كل هذا السيد «كارل هوفمان» وهو جالس في معطفه المبطن بجلد ماعز متكئًا على عكازه ذي المقبض الفضي.

أما زوجها السيد «توم نيكسون» فلم يتزعج كثيرًا، قرر أن يتابع ذلك في صمت، فهو يقضي نصف الشهر في الموقع، والآخر في مقر الشركة في الحي؛ لذا قرر أن يتركها تعيش من جديد.



جميع الخضراوات والفاكهة والخبز تم إحضارهم من شركة «سيكم» حيث الخضار والفاكهة الطبيعية، وجلست مدام «فاليري» تتحدث عن استيراد الخمر، فقالت لها المدام:

- عندي من سيورد الخمر بأسعار مناسبة.

- من؟ هكذا سألتها.

- عزيز موسى.

وفي اليوم التالي حضر عزيز موسى لمقابلة المدام..

تفقد الحديقة وبار الشرفة، فزكمت أنفه رائحة تسعده؛ يقول إن للأجانب رائحة تُطمئن. وكان عزيز يحب أن يتعامل مع الأجانب، فهم لهم فضل عليه؛ تربي على أيديهم، وتذوق الخمور وعرف أنواعها مبكرًا، حتى التركيبات كان يتقنها وكأنه يعد دواء حساسًا.. تعلم منهم الكثير؛ لذا يحترمهم، ويدعن لهم، ولا يستطيع أن يغش الجاهل فيهم ويؤذيه.. هكذا يرد الجميل.

جلس فوق مقعد كبير في الصالة الداخلية في بدلة جينز كاملة، وجهه مكتنز بالشحوم، يضع فوق عينيه نظارة شمسية كبيرة، ظل بها حتى وهو جالس في بهو الفيلا، كان أشبه بفاترينة مصوغات ذهبية؛ حيث لم تخل رقبتة ويداه من الذهب.. ولم تمر لحظات حتى ظهرت المدام في يلو فر فستقي واسع أكمامه طويلة، وينظرون جينز ضيق أظهر نحافة ساقها، ولفت شعرها في منديل مشجر.. صافحته بحرارة، ثم جلست في مواجهته وقالت:

- سُمعتك تبدو جيدة.. عند الأجانب فقط يا مستر عزيز.

- وهذا ما يهمني يا مدام.. يهمني أن أحافظ على زبائني المحترمين.

- والمصريون ليسوا محترمين؟

نظر لها بعينين حراوين بعد أن خلع نظارته الكبيرة، وقال متحفزًا للحديث:

- أنا أستورد بضاعتي من الخارج يا مدام، أبيع الفاخر والرديء.. والمصريون يقبلون على الرديء في كل شيء، وأنا أكره الإنسان العاجز عن تذوق الأشياء.

- ولكنك تساهم في قتلهم، أو قضاء حياتهم فاقدى البصر.
- هذا لا يهمني في شيء؛ يتحرون.. يجيئون.. المهم أن بضاعتني لا يُصيها الكساد.
- لا تبيع لهم الخمر الرديئة.. أليسوا أهلك؟ هكذا احتجت بدبلو ماسية.
- أنا أهلي لن يقبلوا أن يتجرعوا السموم.
- أنت شيطان.
- أنا تاجر.
- وضحك ضحكة غريبة، كأنه أراد أن يوحى لها بأنه يمزح معها.. لكنها قاطعته وقالت:
- أكره مبدأك هذا، ولكني مضطرة للتعامل معك.
- أنا لستُ رجلاً أنانيًا.. أوفر لهؤلاء الخمر بأسعار مناسبة.. طبعي أنها تكون رديئة، لكنها ليست قاتلة.. أقصى إصابة يمكن أن تحدث هي فقدان البصر.
- زفرت بتنهيدة عميقة، وقالت في غيظ:
- حسنًا، غدًا تأتي هنا في الواحدة ظهرًا ومعك قائمة بكل بضاعتك.
- أنا في خدمتك.
- يقبع «عزيز موسى» في متجره العتيق في شارع ٩ لبيع الخمر، يعاونه في ذلك نجله «مايكل». هو على معرفة كبيرة بالأجانب المقيمين في الحي، ويعمل على توريد الخمر لهم، أغلب سكان الحي القدامى يعرفونه منذ أن كان يبذل مجهودًا كبيرًا في تلبية طلبات زبائنه؛

حيث كان يعمل في مستودع «ستيلا» التابع لمصنع الأهرام للمشروبات الكحولية، وازداد خبرة، وسرعان ما نافس المتجر الحكومي وافتتح فرعه القديم في شارع ٩، وشيئًا فشيئًا بدأت بعض المتاجر تزاحمه في تجارته؛ تستورد الخمور الفاخرة وتبيعها للأجانب سرًا، واستورد بعد ذلك الخمور وبدأ يوزعها على رواده، ويعتق القليل منها في مخزنه، وباع عزيز موسى بعد ذلك بيرة «ستيلا» الشهيرة والشعبية بجوار «براندي جودة عالية»؛ الزجاجات الأكثر شعبية المصنوعة في المصانع المصرية.. ولكن في بداية التسعينيات حدث له كساد، فاضطر أن يبيع الخمور الرديئة لطلبة المدارس والشباب وعمال المتاجر المجاورة، واشتهر بـ«البراندي» المغشوش؛ الزجاجات الرديئة الملصق عليها ورقة رديئة مكتوب عليها باللغة العربية «براندي جودة عالية». أشهر ضحايا البواب «عبد التواب الأسيوطي» الذي كان يذهب له قاطعًا مسافة كبيرة من أقصى سرايات، ليملا سيالة جلابه بتلك الزجاجات الصغيرة، ويظل طوال الطريق يتجرع البراندي ويلقي بالفارغ في الشارع، وأصيب أخيرًا بفقدان البصر. والحقيقة أن عزيز موسى حالته المادية تعثرت بعض الشيء بعد أن استقر بالقرب من متجره رجال الشرطة؛ حيث يختبئون وعندما يلمحون شابًا ابتاع زجاجة براندي يذهبون له ويقبضون عليه، وسرعان ما يتزونه، ويضطر الشاب أن يتنازل عن الزجاجات، رغم أن القانون يعفيه من أي مسؤولية طالما الزجاجات مقفولة، لكنه يزعم لرغبتهم ويتركها لهم ويفر هاربًا، يأخذون الزجاجات ويذهبون بها لعزيز قائلين: «خذها وهات النصف» ويقبل عزيز على مفضل أن يدفع لهم نصف القيمة ويأخذ الزجاجات.. قد يرى شخص ما أن هذا يعود عليه بالمكسب، لكن الحقيقة أن هذه الوقائع عادت بالخسارة عليه؛ إذ امتنع الشباب

أن يتاعوا من متجره شيئًا خوفًا من الشرطة المختبئة على بُعد أمتار من متجره. نشطت تجارتها في بداية الثمانينيات، بالتحديد حين تعاون مع المدام؛ حيث بدأت مهام «سيمون» الفتى الإفريقي الذي يعمل عنده، فكل صباح يملأ الصندوق المحمل على إطارين بصناديق البيرة والخمور، ويدفعه أمامه حتى يصل به إلى «الرابطة».

عمل في المطبخ عدد كبير من الأفارقة الرجال، بخلاف رجل مصري واحد عمل مصادفةً في هذا المطبخ، وهو «موريس إبراهيم» الذي كان يقوم بتوريد الخنازير للرابطة، بخلاف ذبحها وسلخها، وأيضًا طهيها. كان قصير القامة وسمينًا، له بشرة بيضاء يشوبها احمرار خفيف، مع ملاحظة بعض البقع الخمرية وكأن وجهه ملطخ بالوحل، له عينان خضراوان، يتحدث الإنجليزية بطلاقة. كان يعمل لدى الأجانب القاطنين في منطقة السرايات في وظيفة «العناية بالحيوانات»، كان مشهورًا وسط الأجانب بهذه الوظيفة المهمة جدًا، حتى إنه حصل على شهادة خبرة موثقة من جمعية الرفق بالحيوان جاء بها: «يجيد العناية بالكلاب والقطط؛ من حيث تغذية الأظافر، وقص الشعر، ونظافة الأذن، وإعطاء الحقن والأدوية» بالإضافة لحانة في الشهادة تُفيد بأنه تدرب على يد الدكتور «روبرت تيرنر»؛ الطبيب البيطري الأسترالي الذي كان يقيم في شارع ٨٣ وعمل على إنقاذ الحيوانات الضالة.. وبمجرد النظر في الشهادة وقراءة اسم الدكتور «روبرت تيرنر»، على الفور يفوز بالوظيفة ويتقاضى أجرًا كبيرًا. وللأمانة فلإن «موريس» كان أمينًا على الكلاب، يعمل على خدمتهم بعناية، وكانت الكلاب عندما تشاهده تسعد بلقائه. وذات مرة قالت له سيدة إنجليزية:

- موريس، هل تستطيع أن تتباع لي خنزيراً صغيراً؟

ظل لشوان يفكر، ثم قال لها وهو يتلاعب بيديه البيضاوين
السميتين المزيّتين بأنسيالات ذهبية:

- أستطيع.

- متى؟

- في أي وقت.

وفي اليوم التالي جاء لها بخنزير معلوف على المزبلة.. سعدت به
جداً، وكان يظن أنها ستذبحه بمعرفتها، لكنها طلبت منه بعد ذلك
أن يذبحه.. تقاضى عنه عشرين دولاراً نظير الشراء، غير خمسة دولارات
نظير الذبح.. أخذ الخمسة والعشرين دولاراً، وسعد جداً بهذه الصفقة
الرابعة؛ حيث إن الخنزير لم يكلفه شيئاً على الإطلاق. وذهب لها في
اليوم التالي وقال لها: «أستطيع جلب المزيد من الخنازير». ولم تمر هذه
القصة عليه مرور الكرام؛ فقد فطن لعدم وجود متاجر في الحي تباع
لحم الخنزير، حيث يُباع في الفنادق والمتاجر الكبيرة والقليلة جداً في
وسط البلد، وخطط جيداً ألا يترك هذه الفرصة تضيع من يده.. قدم
خدماته للمدام، وبرع في تقطيع وتنظيف الخنزير؛ بحيث يكون جاهزاً
للطهي. يبدو «موريس» للبعض شخصاً غريب الأطوار، انطوائياً،
قذراً، والحقيقة أنه لا يتعامل سوى مع الأجانب، لا يجب التعامل
مع المصريين؛ دائماً يحقرهم، يشعر بالراحة في العمل مع الأجانب.
استضافته إحدى الأمريكيات ثلاثة أشهر في أمريكا، عاد بعد هذه
الزيارة منبهراً، يتحدث الإنجليزية أغلب الوقت لتقوية اللغة،
واستخدامها أيضاً في سب المصريين مستغلاً جهلهم. مستجده في كامل
أناقته عندما يخرج لتمشية كلب؛ يدس يديه في القفاز الأبيض، ويرتدي

الملابس النظيفة المكوية بعناية.. علاوة على الرائحة التي تفوح منه؛ فهي تأتي له من الخارج، وكذا أغلب ملابسه.. يمشي بجوار الكلب بفخر، ويمسك في يده كرباجًا سودانيًا طريًا ينقعه في الزيت كل أسبوع ليزداد قوة ومتانة، يستخدم الكرباج في ضرب الكلاب الضالة حين تهاجمه. والحقيقة أن «موريس» شخص غير مرغوب فيه؛ سواء من حارسي العقارات، أو رجال الأمن الخاص، أو الخادmates المصريات، علاوة على عمال الحدائق.. فهم يكرهونه، مثلما هو يكرههم. لكن لا يستطيع أحد أن يفضبه بطريقة مباشرة؛ فقط يُلقون بالكلمات في الهواء حين يمر من أمامهم، وعلى الفور يدرك أنه المقصود بهذه العبارات. وكانت العبارات تحمل إهانة بالغة؛ إذ قال له شخص ما قبل ذلك حين مر أمامه: «ها هو خادم الكلاب ومربي الخنازير».

ومثل هذه العبارات لا تؤثر فيه تأثيرًا بالغا؛ وجهه يحترق لبعض الوقت، ويتمنى لو يدخل ضدهم في معركة ليضربهم جميعًا، ولكنه كان يستريح لفكرة أنهم مازالوا قابعين أسفل العمارات لا يفعلون شيئًا، بينما هو قد تزوج وألحق أبناءه بالمدارس الخاصة، واشترى شقة ١٥٠ مترًا في «كوتسيكا»، وله رصيد في البنك، وأخيرًا ابتاع سيارة فيات ١٢٨ حمراء بحالة جيدة يستقلها في أوقات فراغه بميدان دجلة أحيانًا، يتناول وجبة الغداء بداخلها حينما تأتي له إحدى الخادmates الأسياويات بالغداء، تمتلئ الشنطة الخلفية بالأدوية والإكسسوارات الخاصة بالكلاب لبيعها، ويعلق أمامه الشهادة الموثقة من جمعية الرفق بالحيوان؛ ينظر لها في تأمل ثم يقول: «هذه الشهادة أثنى من شهادة الجامعات» ويستأنف في نفسه مستمتعًا وقد استرخى فوق المقعد ينظر لمن حوله بازدراء: «آه يا أولاد العاهرات.. غطرتكم وتكبركم ستمردغ أنوفكم في التراب.. تُعلمون أبناءكم في الجامعات،

وتظاهرون بالعلم.. العلم الآن ليس له قيمة في بلادكم.. اتفوخص عليكم وعلى أفكاركم البالية». ويؤمن «موريس» إيمانًا شديدًا بأن هؤلاء يحقدون عليه؛ فلو واحد منهم يملك نصف مهارته في خدمة الحيوانات لكان زاحمه عليها بكل قوة، لكنهم فشلة لا يملكون سوى التهكم على الإنسان الناجح، وكانت تسعده جدًا الحكمة التي تقول: «الشجرة المثمرة دائمًا تُقذف بالحجارة».

بدأ «موريس» يورد الخنازير للرابطة في نهاية الثمانينات، بعد أن رحل «أوسمان مانييه» وكان إفريقيًا جاء بمعرفة مدام «ديوانا»، كان يقوم بطهي الخنازير بأكثر من طريقة، فضلًا عن خبرته الواسعة بلحوم الخنازير؛ كان يأتي بها من مزرعة كبيرة يشرف عليها أجنب تقوم بتوريد لحم الخنازير للمطاعم السياحية والفنادق، ولما رحل قامت مدام «فاليري» بترشيح «موريس»، وقامت بإفشاء أهم الخلطات السرية لصنع الذلح خنزير. وتعلم «موريس» بسرعة، وأتقن بحرفية كبيرة كل شيء، ولما قدمته أثبت قدرته البارعة على أن يجعل الرواد ينسون نهائيًا «أوسمان»، وانفقت «سريا» معه على توريد الخنازير، وقالت له مدام «فاليري» وهي تقوم بتوصيته: «أنت ستعمل في مكان بمثابة الأمم المتحدة.. هل تفهم؟ مهارتك وذكائك هما جندياك فقط». وبدأ في ذبح وتقطيع وتنظيف الخنازير في مكان خصصه في منطقة الزرائب، ثم يأتي من الباب الخلفي ومعه الصناديق الشفافة الممتلئة بلحم الخنازير الجاهز للطهي، يقابله العمال أو بعضهم بتهكم، وكان يراهم وكأنهم أصنام؛ إن «موريس» لديه قدرة عجيبة على تجنب الأشخاص وكأنهم ليسوا موجودين.. يعكف على عمله بمهارة وعناية فائقتين، يتحرك في المطبخ صامتًا عيناه في يده، حتى إذا اصطدم به أحد العاملين متعمدًا لا ينظر له، يستأنف

عمله؛ إنه لا يريد أن تسمع عنه المدام أي كلام؛ سواء كلام طيب، أو غير ذلك.. قالت له ذات مرة: «العمل يكون في صمت؛ هل تفهم؟ من مصلحتك ألا أشعر بوجودك». والحقيقة أن المدام كانت لا ترتاح له، وكان يشعر بذلك، ولا ينسى أنه هو المصري الوحيد بين هؤلاء الأفارقة، ولكن بينه وبين نفسه بلعنهم ويكرههم، ولما ضاق بواحد منهم كان يناديه بالخنزير، بل بصق عليه ذات مرة، استأنف يومه وكان شيئاً لم يكن، بينما هو يتشوق للانتقام منه، إنه تحملهم أكثر من اللازم، وقال في نفسه: «آه يا أولاد القرود... والرب لانتقم منكم جميعاً». وذهب للزرائب، وقد احتشد بخطة دقيقة، إنه يعرف هذه العصاة جيداً، إنهم حزمة واحدة، ويعلم بقوتهم، ملقبون بجماعة الرابطة، هناك من يستأجرهم للقيام بأفعال عدوانية وخوض معارك ضارية؛ فكيف يتصدى لهم ولكراهمتهم؟ حاول أن يصدر لهم مسيحتة بأن علق صلياً كبيراً على صدره ليكسب تعاطفهم وقربهم، لكنهم تهكموا عليه، لدرجة أن أحدهم نزع الصليب من صدره؛ فجرحت السلسلة رقبته، ثم قال له: «هذا ليس مكانه» واقترب من وجهه وقال: «لم أقل لك إنك مثل الخنازير لا تفهم» ثم قذف الصليب في سلة القمامة. كظم غيظه، وقرر أن ينتقم؛ إن لم ينتقم لنفسه فلينتقم لدينه. وجلس إلى أصدقائه في الزرائب، وقص عليهم كل شيء، بل بكى لدرجة جعلتهم يتفضون ويصيحون بعبارات ثأرية: «الانتقام ممن أهان الصليب». واستطاع بقدره كبيرة أن يبرز الجانب الديني في الصراع بينه وبين الأفارقة، إنهم لن يهتموا كثيراً لو كان الصراع بينه وبينهم صراع موظفين؛ لذلك ظل يذكر الصليب وهو ملقى في سلة القمامة بعد أن نزعه منه القرد، ويقول: «لم أستطع حمله من سلة القمامة؛ تصدوا لي... وفي النهاية استطعت أخذه وتنظيفه». إن «موريس»

عل استعداد أن يجعلك تبكي من أجله؛ حيث لديه قدرة عجيبة على أن يجعلك تتعاطف معه، يستدعي حركات جسده السمين، فيرفع كتفيه المكتنزتين ليلتحميا بشحمتي أذنيه، ويحنى ظهره، ويستدعي نظرة منكسرة، علاوة على أنه يجاهد من أجل أن يظل طوال الوقت يسعل؛ لتأخذ عنه انطباعاً بأنه مريض، ويُخرج من معطفه علبة السجائر المحلية الرديئة المجمدة، ويستخرج منها السجائر بطريقة تثير الشفقة (هو يشتري هذا النوع الرديء من أجل هذه المهام فقط، أما هو شخصياً فيدخن السجائر الأجنبية)، ويعطيهم السجائر، وتكاد تلاحظ رعشة يده.. تعاطفوا معه، وقررُوا الانتقام له وللصليب. وكعادة كل صباح، تنطلق العربات الكارو المختصة برفع القمامة عند بزوغ الفجر. وتحدد الموعد، قال «موريس» واصفاً الخطة بدقة: «عند بزوغ الفجر يبدأون في الرحيل، سيكون عددهم من خمسة إلى ستة، بينهم شخص أو اثنان محترمان، ولكن لا بأس من أن ينالوا قسطاً من الضرب. عند ناصية شارع ١٣ ستجدونهم واقفين ينتظرون تاكسي ليقلمهم إلى منزلهم.. ستجدون أغلبهم مخمورين يصيحون بعبارات بذيئة، لكنهم مجردون من أي أسلحة. الشوارع في تلك اللحظة تكون أكثر هدوءاً وظلمة.. انتقموا منهم.. لن يشعر بكم أحد».

سمعوه بدقة، واتفقوا على أن يتقموا بشدة.. صاح أحدهم: «كيف يهين هؤلاء الأفرقة الزوج واحدًا منا؟! سنقتلهم».

ولم يكن «موريس» في حاجة لأكثر من أن ينالوا علقة تكسر عيونهم. وانطلقت خمس عربات كارو.. كان الجو شديد البرودة، والشوارع مبتلة بالماء، عنوان ليلة ممطرة؛ ليلة عاصفة، اهتزت لها الأشجار العتيقة، واقتلعت من أثرها أشجار الجازورين العجوزة.. الشوارع

هادئة كالعادة، وصوت العربات له رنين مألوف لدى السكان، ولكن السرعة فائقة، وفي كل صندوق عربية شخصان أو ثلاثة مدججون بالأسلحة البيضاء والشوم.. وانحدرت العربات ناحية الشكنات، وانطلقت إلى شارع ١٣ لا تلوي على شيء.. ووجدوهم يقفون منكمشين في ملابس شتوية يعانون البرد القارس، وفي لحظة واحدة وقفت العربات أمامهم تسبقها رائحة القمامة المعتقة، قفزوا من الصناديق وحاصروهم.. كانت أجسادهم نحيفة، عظامهم بارزة بقوة، رغم برودة الجو فإنهم كانوا يكشفون عن صدورهم وأذرعهم.. ارتعد الأفارقة، وأبرزوا نفودهم تلقائيًا، وخلعوا سلاسلهم الذهبية ووضعوها فوق الأرض، وجثوا على ركبهم، مستسلمين خاضعين، لم تصدر منهم أي مقاومة.. وفي أقل من لحظة أخذوا النقود والسلاسل، ومزقوا الباسبورات، وصاح أحدهم: «يا أبناء القروود، كيف تجرءون على إهانة الصليب؟ سوف نقتلكم جميعًا» وصرخ الأفارقة مستغيثين ووضعوا رؤوسهم في الأرض؛ فانهالوا عليهم بالشوم بقسوة، وبلا أي رحمة.. وتألما، وبدءوا يركضون في الشوارع الجانية هربًا منهم.. كانوا يصرخون ويقتحمون مداخل العمارات لينجوا منهم.. كانت ليلة قاسية شهدت صراخًا وضجيجًا واسعًا.. وفي لمح البصر انطلقت العربات كلُّ منها في طريق.

أما مدام «ديوانا» فهي المرأة الثانية في المطبخ بعد مدام «فاليري»، وهي أيضًا من جلبت العمال الأفارقة للعمل في الرابطة، خبرتها الواسعة سهّلت كل شيء، كانت تحنو على الجميع بمن فيهم «موريس»، معروفة جدًا في الكنيسة، والككل يحترمها ويقدرها.

وتبقى «ديوانا» السيدة التي حملت على عاتقها بناء مطبخ ضخم يستطيع خدمة عشرات الرواد في ليلة واحدة. تستطيع أن تضبط ساعتك عليها عندما تقف عند محطة الثكنات في الساعة صباحاً، ستجدها قادمة بخطوات بطيئة تروحي بتقدم سنها. هي تقطن في شارع ١٠ القديم؛ ولذلك تستقل المترو محطة واحدة، من محطة المعادي إلى ثكنات المعادي، ستجدها تجر وراءها ترولي عملاً بحقيبتها وبعض الأشياء الخاصة، تشق طريقها من ناحية شارع الثكنات، ويبدأ الأجنب في مصافحتها والحديث معها، تمتلك وجهاً يحوي بين قسماته تاريخاً ممتلئاً بالمشاحنات والعقابات، تشعر في نبرة صوتها بالحكمة؛ هي بالفعل سيدة حكيمة في قراراتها، وفي تصرفها مع العمال.. ترتدي البنطلونات الفضفاضة والسترات الواسعة، وتضع على رأسها طرحة، تلاحظ أن هناك عرجة في ساقها اليمنى، ولتلك واقعة.. عندما تجلس معها وتتحدث، ستشعر بالراحة؛ تنظر لك بعينها الطيبين، وتشعر في ملمس يدها بحنان عجيب، تقول لك بابتسامة كبيرة كاشفة عن أسنان هالكة صدئة إثر التدخين بشراهة، فضلاً عن تناول القهوة والشاي:

- أنا ديوانا، من جنوب إفريقيا، أستطيع خدمتك.. هل ترغب في شيء يا سيدي؟

ثم يحتقن وجهها وتقول: «هذه العبارة أقولها منذ ستين عاماً؛ منذ أن عملت بادئ الأمر عند أسرة إنجليزية في جوهانسبرج، كان هذا أول عهدي بالعمل، كان عمري لم يتجاوز الخامسة عشرة، كانت الأسرة مؤلفة من زوج وزوجة وثلاثة أطفال لم يحسنوا تربيتهم، كانوا ينادوني بالفتاة السوداء، وكانوا يفعلون بي أشياء مقززة، وكانت أمهم تتابع ذلك وتضحك، لم تجد أي غضاضة في أقوالهم وأفعالهم، رغم أنها كانت تعمل في حقوق الإنسان وتدافع عن حقوق الأفارقة!

واكتشفت فيما بعد سرًا خطيرًا لم نكن نعلمه نحن الأفارقة، ثم
تهمس بصوتٍ منخفض يملؤه السخرية: «نحن لسنا بشرًا.. هذه
الحقيقة عرفتها مؤخرًا» ثم تستأنف: «تركتهم وعدت إلى أهلي،
وقالت لي أمي وقتها: ديوانا، لا يجب أن تسمعي كل شيء، وأن تشعري
بكل شيء». وقالت لي جملة ما زالت محفورة في عقلي: نحن فقراء،
وبلادنا فقيرة يا ابنتي. ثم ذهبتُ للعمل عند أسرة أخرى، كانت
سيدة زوجها يعمل بعيدًا ولها ابنه واحدة، الحقيقة شعرت بالراحة
مع تلك الأسرة؛ لا لأنهم ليسوا عنصريين، ولكن لأن المرأة كانت
مشغولة في عملها، والابنة كانت انطوائية، وكانت لي صديقة من
بلدتي كنا نجلس وقت فراغنا نتحدث عن متاعبنا وحياتنا، وكنت
أقوم بعملٍ على أكمل وجه، كنت أشعر أنني في قارب يشق طريقًا
واحدًا لا يمكن أن يسلك غيره، وهذا الشعور كان يتأكد لي يومًا بعد
يوم.. واستسلمت للعمل عند هؤلاء العنصريين، وارتضيت أن أعيش
حياة تقليدية عاشتها وتعيشها آلاف البنات مثلي.. وتزوجت، وبعد
عشرة أعوام مات زوجي عندما سقط من الطابق الخامس وهو يقوم
بتركيب نافذة، ترك لي ثلاثة أطفال، قمت بتربيتهم وتعليمهم حتى
صاروا كبارًا وسرعان ما تُخرج لك حافظتها القديمة المصنوعة من
الجلد الطبيعي، وتفردتها لتحول لفاترينة صور، فتطلعك على الصور
وهي ترشدك إلى أسمائهم وصفاتهم في سعادة مؤقتة إن جاز التعبير،
ليعود وجهها محتقنًا، وتستأنف:

«لقد عملت عند عشرات الأسر» وتضحك في سخرية وتقول:
«قمة المرارة التي كنت أشعر بها وأتجرعها كل يوم هي أن يتاجر
شخص بك، ويتظاهر بالدفاع عنك؛ لأن لونك أسود، فأنت لا
تستطيع الدفاع عن نفسك.. لأنهم يؤمنون بذلك، لن يسمعوك،

ولن يفهموك؛ فأنت شخص شاذ بينهم.. إنها تجارة يا سادة. ويوم أن جاء لي شخص دائمًا كان يتظاهر بالتواضع وتقدير السود وربيت فوق مؤخرتي، أدركت حينذاك ماذا يريد.. أبعدت يده وقلت: هذا لا يجوز، من فضلك توقف. قال لي: أنت لطيفة وجميلة جدًا. وأبرز من جيبه دولارًا وطبقه بعناية، ثم قال لي: تعالي. قلت له: من فضلك. استغرب وقال لي: أنا أريدك. فقلت له بعصية كلفتني وظيفتي: من فضلك. ولما دفعته بيدي استغرب ذلك، وقال لي بغيرسة: أنت مجنونة، وسوف أعاقبك. وقد كان.

وعندما أصبت في قدمي، وكنت حينها أعمل في مزرعة رجل إنجليزي مفرور، كان يزعم أنه طيب، ولا أعرف هل كان طيبًا فعلاً أم كان يدعي ذلك، كان يجمع أطفال البلدة ويحقتنا بأمصال، كان يقول إننا مرضى، وإنه يعالجنا، وكنا نستسلم له لأنه فقط إنجليزي أحمر.. هاجمني ثور وكسر قدمي، تقاعدت عن العمل وقتًا طويلًا. وعندما استأنف أبنائي حياتهم بدوني، جئت إلى القاهرة في منتصف السبعينيات مع أسرة إنجليزية تعمل في الآثار، ومنذ هذا الوقت وأنا أتقل بين الأسر هنا في الحي الإنجليزي، هذا الحي أعرفه كما أعرف بلدي «كايلتشا» في جنوب إفريقيا، عندما كانت ترحل أسرة أستقر عند أخرى، كان يحدث هذا تلقائيًا.. فأنا معروفة في الكنيسة، وكان أغلب السكان الأجانب يعرفوني، تحدثت اللغة العربية بطلاقة، لشدة ما كان يروق لي الجلوس مع العمال والخادmates المصريين.. هم أيضًا فقراء مثلي ويبحثون عن الرزق، بلادهم فقيرة، أو مسروقة.. إن الفقراء تجمعهم دائمًا لغة واحدة، وشعور واحد، ودائمًا ما يجدون الراحة والدفء فيما بينهم. بيد أنني أتبع لي العمل عند بعض الأسر المصرية، ولكن شيئًا ما كان يحول بيني وبين العمل عندهم.. لا

أعرف ماذا بالتحديد.. ربما كان السبب هو عدم تقديرهم للخادمة مادياً. وحظيت بالعمل عامًا بعد عام، لم أتعطل يوماً.. أرسلت راتبي لآبتي المطلقة التي تعمل ثلاثة أبناء، وأكتفي بالباقي. لا أعرف مدينة أخرى في مصر سوى هذا الحي.. خمسة عشر عامًا وأنا أعيش فيه دون أن أتركه.. أحفظ شوارع الهادئة عن ظهر قلب.. أحفظ أشجاره وفيلاته.. تريحني رائحته الياسمينية.. تدغدغ مشاعري رؤيتي للأطفال أبناء العاملين الفقراء وهم يتسلقون أشجار الفاكهة كل صباح باكراً، فيذكرونني بنفسي وأصدقائي.. حتى استقررت هنا في الرابطة.. إنها قصة رائعة؛ أليس كذلك؟! هكذا تقول وهي تبسم.

تدخل من الباب الخلفي في السابعة والنصف، يكون العمال المختصون بالنظافة قد جاءوا واستلموا الخضار من شركة «سيكم»، وطبعاً عمال الشركة كانوا يسعدون جداً لعدم وجود «ديوانا»؛ لأنها كانت ترهقهم في عملية التسليم، إذ لا بد أن يكون الخضار طازجاً ونظيفاً، لكن بعض الشباب الأفارقة كانوا يستلمون بسرعة، اختصاراً للوقت، فضلاً عن قرفهم وكرههم للأجانب «لماذا يأكلون كل شيء طازجاً ونظيفاً؟ لماذا كل هذه الدقة؟ إنهم يحرصون على أنفسهم.. مزيد من الحرص.. مزيد من القرف والغطرسة» هكذا كانوا يحدثون أنفسهم، وعندما تأتي «ديوانا» يقولون لها: «الخضار طازج ورائع.. تعالي وانظري» ويتظرون بقلوب خائفة حتى تفحص الخضار بطريقة عشوائية، ثم تأمر بغسله في الحوض الكبير، وبعد ذلك تصنع لنفسها فنجان قهوة، وتجلس ترشف منه باستمتاع وهي تدخن. ويتوالى بعد ذلك دخول العمال، ويسلمون عليها بكلمة «ماما»؛ لا شك أنهم يحبونها جداً، ويحرصون على راحتها، ويتمنونها على أسرارهم. واكتسب «موريس إبراهيم» ثقتها، وكان يجتمعي بها من

«جماعة الرابطة».. عند فراغه يهرع ليصنع لها فنجان قهوة، ويعزم عليها بسجارة مستوردة، تهز رأسها وهي تتناولها وتقول: «أنت لست سهلاً يا موريس.. ماذا تريد؟». علاوة على أنه يدعوها ليأخذ رأيها في خلطة معينة، بيد أنه بينه وبين نفسه يكون قد قرر هذه الخلطة، لكنه دائماً يُصدّر لها هذا الشعور بالأهمية. وعلى الرغم من أنها سيدة طيبة جداً، فإنها عندما تغضب لا تستطيع إيقافها؛ تندفع بقوة هائلة، وترطن بأكثر من لغة، وتقدم عرضاً كبيراً من الحركات الجسدية والإشارات المقرزة.. نعم هكذا تبدو «ديوانا» في هذه الصورة عندما تغضب. وحدث أنها غضبت على «جماعة الرابطة» بعد أن ذهبت لها مدام «فاليري» وقالت لها بطريقة ودية: «إنهم يفعلون أشياء عدوانية» وصاحت مدام «ديوانا»: «هنا في الرابطة؟» فقالت لها: «لا، إنهم يفعلون ذلك في الخارج، ويتحرشون بالبنات الصغيرات.. تحدثي معهم؛ إنهم يخافونك ويحترمونك جداً».

ستنفذ إلى أنفك رائحة الشواء، وإذا اقتربت شيئاً ستزكم أنفك رائحة الكحول.. في محيط الرابطة انتشرت تلك الروائح. وبالقرب من الرابطة ناحية ميدان دجلة تقع فيلا مستقلة ضخمة لها حديقة شاسعة، يرتادها بعض الأجانب بخلاف شخصيات سياسية معروفة، تعرف مدام «سيريا» صاحب تلك الفيلا جيداً، قبل أن يتعاوننا مع بعضهما البعض، وكثيراً ما مارسا رياضة المشي كل صباح، خاصة عندما يكون معه كلبه الضخم ذو الشعر الكثيف المرفه فضيلة «لابرادور»، فالكلب يقابلها بود لا يقل عن ود صاحبه؛ حيث يقفز حولها ويلعق حذاءها في سعادة.. تحدثنا أثناء المشي كل صباح في أمور كثيرة، والرجل هو الدكتور «إبراهيم مسعود» مدير مركز

التبوير للدراسات الإنشائية، الذي يقع في المقطم، وكان المركز يدافع عن حقوق الأقليات، والديمقراطية بشكل عام، ودفع السيد إبراهيم ثمناً غالياً حياال دفاعه عن الحقوق؛ اعتقل مرة، ونُفي مرة في عهد الرئيس جمال عبد الناصر، وشاع عنه مؤخرًا أنه جاسوس، حتى التصقت التهمة به. وللعجب أن السلطات لم تحاكمه بتهمة الجاسوسية التي ألصقتها به، وإنما وجهت له تهمة تلقي الأموال من الخارج دون تصريح، وصاح السيد إبراهيم في وجه المستولين: «البلد نفسها هايشة على الدعم الخارجي من متصرف الخمسينيات». وحُكم على الدكتور بالسجن لعدة سنوات بتهمة الإساءة لمصر وتلقي أموال من الخارج.. وردد البعض أنه ليس فقط جاسوسًا وإنما ملحد؛ يتردد على نوادي الأجانب، ويعاقر الخمر، ويضاجع النساء. أما دفاعه الدائم عن المسيحيين، فهذا واقع تحت تأثير زوجته الأمريكية المتعصبة لمسيحياتها والكارهة لمصر والمصريين. وللأمانة كل هذه الضغوط وصلت للرجل، وشعر لمرات بالخوف؛ لذلك كان لا يتحدث إلا بحرص، خاصةً في الندوات واللقاءات الشعبية في الريف، لدرجة أنه قال مرة: «شغلتي أني أراقب الناس» ويبدو أنه شاهد شيئًا على وجوه الجالسين، فرعان ما تدارك الجملة قائلاً وعلى وجهه ابتسامة خفيفة: «وده يعود لأنى عالم اجتماع.. هاهاها». لكن من يعرف السيد إبراهيم سيجده شخصًا جديرًا بالاحترام. إلا أن حياة الرجل ومظهره لم يروقوا للكثيرين من العامة؛ فمثلًا اصطحابه لكلبه الكبير، علاقته بالأجانب وموظفي السفارة الأمريكية، علاوة على طريقة ارتدائه للملابس؛ فدائمًا يجذو جذو الأجانب.. البساطة في الملابس التي كانت تعكس عند البعض شيئًا شاذًا، الشورت والتشيرتات الفضفاضة ذات الألوان الزاهية، والأحذية الرياضية.. حتى إذا ارتدى

بدلة يكون لون القميص زاهياً، والكرافتة كاروهات.. وهكذا تبدو ملابسه غير متناسقة بالمرّة، ولا تتناسب أيضاً مع سنه المتقدمة، فضلاً عن القبعة الكاوبوي الأمريكي، وتدخينه للغليون، وطريقة حديثه التي تمتاز بنبرة هادئة.. ملامح وجهه تأخذ شكلاً فلسفياً، فكأنه فليسوف؛ الشعر الهائش الأبيض، ملامح وجهه المكتنز بالشحوم، شاربه الكث الأشعث الملتصق بلحية بيضاء صغيرة أسفل فمه.. كل ذلك صبغه بالشكل الأوروبي؛ فأنكره العامة من الناس، شعروا أن ثمة فوارق بينهم وبينه.

وكان ملقبًا عند رجال النظام بـ«الرجل الديمقراطي»؛ وهذا ليس إيماناً منهم بالديمقراطية، ولكن رجال أمن الدولة كانوا يقولون عنه مثلاً: «شوف يا سيدي، إبراهيم مسعود بتاع الديمقراطية ده آخرته إيه؟».

والسيد إبراهيم مسعود هو أيضاً أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الأمريكية، ومنذ أن كان قائداً للطلاب في جامعة القاهرة وهو مناصر للديمقراطية. عندما تذهب لفيلته القابعة وسط أشجار الكافور العملاقة، والملاصقة لمدرسة اللبسية الفرنسية، ستجد إنساناً بسيطاً على الإطلاق، فلا يفرك مستواه الاجتماعي وسيارته المرسيديس الفخمة، مع الملاحظة بأن السيارة جمرك، وزوجته الأمريكية.. فهو رجل يتقي كلماته، ويستطيع تقييم الشخص الذي يجادته، ستجد في بيته كل التيارات السياسية من اليمين إلى اليسار، وستستمع لنقاش عميق حول سياسة الدولة، وما يجب أن يحدث لهذه السياسة لتكون في مصاف الدول المتقدمة، وكان يقول لهم بصوته الواهن:

- الديمقراطية هي اللي هنأسس دوله قوية.. كفاية كلمة الراجل الواحد.. وصوت الراجل الواحد.. البلد لازم تاخذ فرصتها.

يشعر إبراهيم مسعود بأنه لو تحققت الديمقراطية في مصر، سيكون لها مكانة كبيرة. ولما كان يدخل في مناقشة مع أحد أقطاب الإخوان المسلمين، كان يقول له:

- أنتم تكفرون بالديمقراطية وتصورونها للناس على أنها حكم الشيطان.. بدون الديمقراطية لن تصلوا لحكم مصر.

و ذات يوم عاد إلى البيت سعيدًا جدًا، كان وجهه يشع بابتسامة وضيئة؛ فلقد بعث له رئيس الجمهورية سكرتيره الخاص يقول له:

- أنت وجمعت دماغ الرئيس بالديمقراطية بتاعتك يا دكتور مسعود.. والرئيس يقولك اكتب تصورك عن الديمقراطية في مصر عشان يطلع عليه.

واستغرق في الكتابة بحماس شديد، فلقد أخذ البحث منه أسبوعًا كاملًا؛ حيث تفرغ له نهائيًا، حتى إنه امتنع عن الذهاب لمركزه، وكانت زوجته تمثته على الراحة، لكنه كان يجد الراحة في إعداد وتبسيط مفهوم الديمقراطية.. أبرز فوائدها بعقريّة، واستطاع أن يجد من تأثيرها على الرئيس نفسه؛ قال بينه وبين نفسه: «تأتي الإصلاحات قليلاً.. قليلاً.. حتى يكتمل الإصلاح» فهو يعلم أن الرئيس لن يقرأ إلا سطورًا من بحثه، هذا إذا قرأ؛ ولذلك وضع احتمالية أن يلقي نظرة على البحث من باب الفضول، فلخص عشرات الصفحات في عدد قليل.. إن رزمة ورق كبيرة من الممكن أن تزعج الرئيس، وتجعله يقذف بها في وجه من أمامه، أما عشر ورقات أو أكثر قليلاً فلن يجعله يتوتر، ربما تمنحه العناية الإلهية فرصة أن يقرأ ولو عدة ورقات. في النهاية أنجز البحث، وذهب للسكرتير، وقدمه له وقال: «أنا تحت أمر سيادة الرئيس في أي استفسار» ولكن شيئًا

فشيئاً بدأ يشعر بنوع من الاضطراب؛ ظل منتظراً شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام.. ولم يتحقق شيء.

تعاون مع المدام، وساعدها في توظيف الأموال في الرابطة
أما في صباح هذا اليوم فقد اتصل بها ودعاها للحديث في أمرٍ
مهم؛ وذهبت له حيث فيلته، استقبلها وزوجته مدام «كيت»
بحرارة، وجلسوا في الصالة، وجاءت مدام «كيت» بالقهوة.. أشعل
غليونه ونفث الدخان بتوتر، ثم اعتدل في جلسته حيث فرد قدميه
أمامه (فالدكتور مسعود يعاني التهاب المفاصل)، وقال:

- إنهم يراقبونك.

- من؟

- الحكومة.. علمت بنشاطك.. أنتِ أحدثتِ ضجة كبيرة وشعبية
عظيمة في طُرة البلد والبساتين.. وهذا أزعجهم.

(بالطبع أسعدها هذا المردود، وكأنها شهادة نجاح من جهة
موثوق بها.. فهي تعلم قوة مركز «التنوير»؛ فالمركز لديه فريق كبير
قادر على المراقبة وكتابة التقارير).

- ماذا أفعل؟ هكذا قالت في براءة.

- لا تذهبي كثيراً، أو لا تجتمعي بالسيدات كثيراً.. لا تتحدثي؛ إنهم
يكرهون من يتحدث.. قدّمي المساعدات فقط.. ولا تنتظري
كثيراً.

- معقول هذا؟

- أفضل بكثير من أشياء يستطيعون فعلها بسهولة.. أشياء قدرة.

شعرت بالخوف للحظات، لكنها احتجت:

- لا يستطيعون فعل شيء معي.. أنا أمريكية.
- إنهم لن يخاطبوك خطاباً رسمياً، ولن يقدموا شكوى للسفارة..
- لن تشاهدي أحداً منهم.
- ماذا سيفعلون إذن.. أريد أن أفهم؟
- لا أعرف بالتحديد.. ولكن لا آمن مكرهم.
- وظل السيد إبراهيم للحظات صامتاً، وقام نحو التليفون، ثم عاد وجلس وظل شارداً يعث في حितه انشعائاً، فنظرت له «سرياً» وقالت:
- ماذا حدث منذ إبراهيم؟
- لا أعرف بالتحديد، لكني لست مطمئناً، مُنعت مقالتي في الصباح، واتصلت بالمركز ولا أحد يرد.
- فقلت له زوجته وهي تربت على ظهره:
- لا تدع الأفكار السيئة تتمكن منك.
- سأذهب إلى المركز.. لا بد أن أذهب.. أكيد حدث شيء.. المديرية هناك والموظفون.
- إبراهيم، انتظر نصف ساعة وتحدث مرة أخرى. هكذا قالت زوجته في عصبية.
- وفجأة سمعوا طرقاً شديداً على الباب الخارجي؛ طرقاً أفزعهم، كان أحداً أمسك بهراوة وأخذ يطرق بها الباب.. وهرعت زوجته ووجهها محتمز وفتحت الباب؛ حيث لم يكن أحد من الشقالين متواجداً.. واندفع للداخل أكثر من عشرين رجلاً في ملابس مدنية، مدججين بالسلاح.. وفور رؤيتهم صرخت «سرياً»:

- عصابة.

وفزع الدكتور إبراهيم على الرغم من شعوره بمجيئهم، وتقدم نحوهم وواجه رجلاً ضخماً في بدلة رمادية وتحجب عينه نظارة شمس كبيرة، وكان يعرفه، لكنه تعمد أن يتجاهله وتساءل في عصبية:

- من أنتم؟

- «حسام خليل» رئيس نيابة أمن الدولة، اتفضل معنا يا دكتور. وفي لمح البصر، كأنهم مقيمون في البيت يعرفون كل ركن فيه، اندفعوا نحو المكتب، وغرف النوم، حتى المطبخ، وأخذوا كل الأوراق، وصادروا معظم ما وجدوه، وقادوه بالقوة تحت تهديد السلاح.. وفي الخارج، كان هناك طابور من السيارات الجيب، فضلاً عن سيارة الأمن المركزي، والجنود المدججين بالبنادق، وانطلقوا به إلى «مركز التوير».. وهناك طوّق الجنود المركز، فضلاً عن اقتحامه من الداخل، وقيدوا كل الموظفين، حتى المديرية اللبنانية كانت مكبله معصوبة العينين، وظلت تصرخ: «مجرمون».

وانفعل الدكتور واحتج، وقال في عصبية:

- فكروا وثاقهم، وإلا فلن أبدي أي تعاون. واستجابوا له، وظل الدكتور إبراهيم يهدئ العاملين.. وتم القبض عليه ومعه أكثر من عشرين باحثاً، واقتادوهم إلى جهاز أمن الدولة، وخضع الدكتور لتحقيق متواصل.

ها هي جالسة بمفردها في البلكونة العريضة التي تطل على الحديقة الخلفية، سمعت من خلفها «ديوانا» تقول لها بصوت منخفض:

- لم يعد أحد في الحديقة يا سيدتي.. «خرستوف» أغلق الباب الرئيسي.

هزت رأسها في بطاء، فتساءلت «ديوانا»:

- هل أحضر لك شيئاً؟

- لا، اذهبي أنتِ واستريحي.

ذهبت «ديوانا» وقامت هي نحو دولا بٍ صغير، وبللمسة رقيقة التقطت منه أسطوانة «قوة القدر» لـ **Giuseppe Verdi**، ثم ألقمتها الغرامافون العتيق الذي تحتفظ به منذ وفاة والدها، وسرعان ما صدحت المعزوفة بهذا الإيقاع الصارخ، فجلست على المقعد ورفعت ساقيها فوق سور البلكونة وغاصت بجسدها كله في بطن المقعد الكبير الهزاز، وأغمضت عينيها في استسلام تام، وظل اللحن في إيقاعه الصارخ الكلاسيكي يصدح في أركان الغرفة، وهي غارقة في التأمل. حدثها «آرون رود» في التليفون، وكان صوته حزيناً: «نعم اعتقلوه يا ميريا، والسفارة ستتحرك». كان الجو ربيعياً، النسائم تداعب أوراق الشجر برقة، والهدوء يسود المحيط. وتأملت بفضول فيلا «شيكلي» وكانت أشبه بمعبد فرعوني مهجور؛ حديقته شاسعة، نوافذها كبيرة ومثلثة، والشرفات كبيرة، تشبعت بالأتربة وتكاثفت عليها الأشجار العملاقة، فغطتها بأفرعها حتى امتدت داخل النوافذ والشرفات، وهمست في نفسها: «أفتقدك كثيراً يا سيلفانا.. ما أخبارك الآن؟».

«أنا ميريا هوارد مورس»

أبها هو عالم الأثار الناجح «هوارد مورس»، وأمي هي المرأة الرقيقة عازفة البيانو. عندما تركنا الصحراء وحضرنا إلى هنا، سعدت

جدًا بالإقامة في هذا البيت الكبير، وسعدت أكثر بصداقة جارتي «سيلفانا» التي كانت تقطن هذه الفيلا الضخمة مع أسرتها، فهي من عائلة يهودية (وكان اليهود يشكلون نسبة كبيرة من قاطني الحي الإنجليزي). دخلتها أول مرة وهذا منذ أكثر من ثلاثين عامًا، لما تعمقت علاقتي بـ«سيلفانا»، بدأنا في اللعب معًا بالدراجات، الشوارع واسعة تظللها الأشجار الضخمة فتبدو كمظلات عملاقة، خاصة أشجار الجميز العتيقة التي اصطفت فوق الطوار، وكانت لا تسير فيها سوى عربات الحنطور. كانت لـ«سيلفانا» أم كريهة دائمة الصياح، وكان والدها أنيقًا جدًّا، وكنت بيني وبين نفسي أكره أمها جدًّا؛ لأنها كانت تتصرف بعنصرية مع الخدم، وكانت تشكل حاجزًا كبيرًا بيني وبين «سيلفانا»، كنت لا أشعر بالراحة في وجودها؛ فهي لا تتوقف عن مراقبتي عندما أجلس لأستمع بعزف «سيلفانا» على البيانو؛ فهي تلميذة أمي، كانت رقيقة جدًّا أشبه بفراشة، شتان بينها وبين أمها ذات الابتسامة الغامضة، كانت شديدة الشراء، وكان أبي موظفًا بسيطًا «عالم آثار»، يعكف طوال الوقت على أبحاثه، ثم يقوم بنشرها. علمت فيما بعد أنها وجهت اللوم لمسيو «هراري» لأنه جاء بنا إلى هذه الفيلا، وقال لها مسيو «هراري»: «هذا ليس ذنبي؛ مسيو سوارس يقدر العلماء الذين يبحثون عن تاريخ أجداده». وشعرت أمي بهذه الشحنة العدائية التي امتلأت بها نفسي تجاه هذه المرأة، فحدثتها عنها بتهمكم، رغم أنني كنت طفلة، لكن الأطفال يشعرون بمن يكرههم وبمن يحبهم، الأطفال يستطيعون أن يقيّموا الأشخاص بفطرة خلقها الله فيهم، وأزعم أنني كانت لديّ ملكة من هذا النوع.. وكانت أمي عندما تسمعني أتهمك عليها وأسخر منها، تؤنّبني وتضربني وتقول لي: «أنت لست مهذبة، ثرثرة.. لا تتحدثي

في هذه المسائل، أعتقد أن ذلك كان في عام ١٩٣٩. كانت «سيلفانا» تماثلني في كل شيء، لكنها كانت مصرية صميمة.. عيناها سوداوان، ولها أنف مرفوع، وكانت تتحدث بعينيها.. كم كانت رائعة.

كنت أقيم مع والديّ في منطقة صحراوية، بالقرب من هنا، كان أبي ضمن بعثة الآثار الأمريكية، وكانت هناك استراحة كبيرة؛ بناء مطلي باللون الأصفر، على الباب الخارجي لافتة خشبية صغيرة مكتوب عليها: «مقر بعثة الآثار الأمريكية» كان ذلك في عام ١٩٣٨، كان عمري ستة أعوام تقريبًا، وكانت أمي تشكو كل يوم من مهاجمة الثعلب لبيتنا، واستقرارهم أسفل النوافذ وضباحهم المستمر؛ مما جعل أبي يخرج كل ليلة حاملاً بندقيته ويطلق رصاصة في الهواء ليهربوا بعد ذلك، لكن المسألة تكررت على مدار العام، وفي يوم استيقظت أمي ووجدت ثعلبًا مقتولاً أمام الاستراحة؛ فقالت لأبي بحدة: «كيف قتلته؟».

قال أبي إنه لم يقتله، ولكن ليلة أمس سمع وهو في القبر عدة طلقات نارية، ولما سأل «خليل» وكان فلاحًا يقوم على حراسة الاستراحة، لكنه يخلد إلى النوم مبكرًا ليستيقظ مبكرًا، فضلًا عن أنه عجوز؛ حيث تراكم الشمع في أذنيه مما جعله لا يسمع أحدًا.. قال لوالدي: «ربما شخص ما كان يطاردهم». فقالت والدي في إصرار: «لا بد من ترك الاستراحة».. علاوة على أن بعض أعضاء البعثة انتقلوا للسكن بالقرب من النيل. وقال والدي لأمي ذات يوم إنه تقدم بطلب للبعثة بأن يسكن في فيلا مستقلة، وبالفعل جاء لنا ذات صباح صيفي رجل في عربة يجرها حصان، كان يرتدي ملابس شتوية رغم حرارة الجو، وكان عجوزًا، قال لأبي: أنا «أرنست هراري» المحامي.. جئت لأسلمك بيتًا.

سعدت أمي جدًا بهذا الخبر، وكان والدي سعيدًا جدًا. ولما انتقلنا إلى هذه الفيلا لم يتغير شيء؛ كانت المنطقة صحراوية أيضًا، لا يوجد سوى هذه الفيلا الخلفية؛ فيلا «شيكلي»، وفيلا في بداية الطريق الخارجي أظنها فيلا الوزير «أحمد باشا عبد الوهاب» وزير المالية، وعدة بيوت صغيرة متفرقة على مسافات بعيدة، لكن وجدنا الراحة هنا؛ كانت الطرق مقسمة جيدًا، حتى زراعة الأشجار كانت وفق خطة مسبقة، كانت أشجار الكافور كثيرة وفي كل مكان، وأيضًا أحواض ثمار الكروم في كل مكان، وكنا نتسلق الأشجار فنرى الأرض بعيدة جدًا، كانت الأشجار عملاقة، أو كانت الأشياء تبدو كذلك لأننا كنا صغارًا، كانت البيوت بدون أسوار، لكنها مؤمنة جدًا. علمت أن هنا كانت أول محطة «طاقة شمسية»، وسعدت جدًا بأن المخترع كان أمريكيًا يُدعى «فرانك شومان»، توجد لدي صورة له، وأيضًا حصلت على صور أخرى التقطت لموقع المحطة. قال لأبي السير «تشارلز ويتون» موظف شركة الدلتا لتقسيم الأراضي، وكان يقيم في فيلا صغيرة، ويقول أبي إن هذا الرجل ضمن قليلين ممن شاهدوا السيد «فرانك شومان»:

جاءني ذات صباح في بداية عهد الشركة؛ حيث ما زالت أراضي كثيرة تحت التخطيط الهندسي.. نعم كان الحسي قد قطنه الوجهاء ورجال المال اليهود، فضلًا عن القادة الإنجليز وبعض الباشاوات المقربين من السلطان حسين كامل، لكن التمدد العمراني ظل محدودًا في بقعة صغيرة، وذات يوم جاءت الفرصة الرائعة للترويج للحسي، كنا في حاجة ماسة لأي مشروع كبير يجذب السكان، أسرفنا في طبع الإعلانات، وفي الدعاية، ولكن ظل الحسي مظلمًا، الجميع يرغب في أن يقطن بالقرب من المدينة، إلى أن ظهر «فرانك شومان».. ذات صباح

دخل عليّ في مكبسي بمقر الشركة في وسط القاهرة، رجل قصير يرتدي قبعة عالية، ووجهه مدور، ويضع عوينات مدورة ذات إطار رقيق على عينيه الضيقتين، وقال لي:

- أنا فرانك شومان، جئت لأنفذ مشروعني هنا.. لقد وافقت الحكومة على تنفيذ المشروع. وشرع في تقديم أوراق كثيرة بسطها أمامي.. كان واثقاً وسعيداً.

- أي مشروع؟

- بناء محطة طاقة شمسية.

كان لدينا علم بالمشروع، وأيضاً كانت لدينا معلومات عن هذا المهندس الأمريكي.. ومنحته الشركة قطعة أرض، وتم بناء محطته بالقرب من النيل. بالطبع ظلت الصحف تناقل أخبار المحطة الغامضة، مع الإشارة لموقعها، وكانت تُلتقط لها عشرات الصور، وهذا ما أفاد الشركة كثيراً، كان الموقع ممتازاً. شيد بجوار مشروع بيتاً ريفياً صغيراً له ولبعض المهندسين الذين يعملون معه. كان هذا المهندس غريب الأطوار، تشعر بأنه يرى أشياء لا يراها الآخرون، تحدثه فيجيب بكلماتٍ مُقتضبة، لا يتسم، تبدو عيناه وكأنها كرتان أرضيتان لا تكفان عن الدوران، عاقدٌ جبهته العريضة على الدوام.. وكان أنيقاً؛ يرتدي القبعة على بدلة كاملة، ويتعل حذاءً ذارقبة عالية ليقبه من الأتربة.

وبدأ الرجل العمل؛ حيث جلب عمالاً كثيرين، رأيت ذلك بنفسني، وبدأ يشيد محطة كبيرة تعمل بالطاقة الشمسية، وقال لي:

- تستطيع محطتي أن تضخ حوالي ٢٠٠٠ لتر مياه في الدقيقة من النيل لري حقول القطن.

كان هذا جنونياً.. لكن الرجل ظل يعمل ليل نهار، وكنا نشاهد المحطة والعمال يعملون على تشييدها (كان أشبه بنوح حين عكف على صناعة سفينة.. كان البعض كافراً باختراعه).. وبعد ذلك، بعد أن بدأت تظهر ملامح المشروع، بدأ السكان يتوافدون عند الغروب ليشاهدوا المحرك العملاق.. وكان يعمل معه فريق كبير مؤمن باختراعه. وكنت أذهب له في المساء، فأجده في مكتبه بالقرب من المدفأة منكباً على رسوم هندسية، كان لا يشعر بوجودي، تظل تصك أذني صوت الضفادع، ومن وقتٍ لآخر أراقب الناموس المتدفق نحو وحول المصباح، لا أعرف لماذا كنت أتحمّل كل هذا الملل، بينما هناك في بعض المنازل تنتظرنى الحفلات والسهرات الرائعة.. أستطيع أن أذهب للأوبرا وأحضر حفلاً رائعاً، أستطيع أن أتناول العشاء في المدينة وأهرب من أصوات الضفادع التي تلف الحى بأكمله.. ولكن كان يساورني شعور بأنه سيتحدث، وسيصنع شيئاً تاريخياً؛ فقررت أن أكون شاهداً على هذا المشروع وهو في المهد، أردت أن أسجل كل شيء. وعندما تحدثت، ظل صامتاً موجهاً عينيه الضيقتين صوب الرسم، غارقاً في تركيز عميق، وفجأة زفر بتنهيدة عميقة تنم عن ارتياح، فقال في نبرة يغلفها الحماس، دون أن ينظر لي أيضاً:

- سيتجج المحرك طاقة بقوة ٥٥ حصاناً، وتضخ حوالي ٢٠٠٠ لتر مياه في الدقيقة الواحدة؛ وبذلك ستسع البقعة الزراعية بفضل مشروعى.
- شيء عظيم. هكذا كنت أعقب رغم جهلي وشكوكي في المشروع.. إلا أنه ذات يوم أعلن أن المحطة مستعدة للعمل، كان يوماً مشحوناً بالمواقف، استيقظ الحى كله واجتمعوا عند المحطة، وتم دعوة الوجهاء والأعيان، وكان على رأسهم اللورد «كثنر» ليشاهدوا عمل المحطة، كان شيئاً رائعاً، تم تصوير العمل، وذهب السيد

«شومان» يسوقه في بلدان أخرى.. تضاعفت الأراضي الزراعية بفضل المحطة، وأيضًا تضاعف محصول القطن. لكن بعد الحرب العالمية الأولى لم يعد لها وجود، وعند اكتشاف النفط، تجاهل الناس محطة الطاقة الشمسية، ولم يعد السيد «شومان» للعمل مرة أخرى، لكنه قال: «إنني على يقين واحد؛ وهو أن البشرية لا بد أن تتحول لاستخدام الطاقة الشمسية.. أو تتردد إلى البربرية».

أتذكر جيدًا ذلك الإحساس الدافئ الممتع المشبع بالراحة النفسية، حين أختبئ في أحضان أمي عندما كانت تهطل الأمطار، فيقطع تيار الكهرباء، ويتعطل التليفون، ويسود الحي هدوء مخيف. في ذات مرة هطل المطر أسبوعًا كاملاً، كانت هناك فترات يتخللها الرذاذ، ثم يعود بغزارة.. رأيت مدام «نينات» سعيدة جدًا، وقالت لأمي: «لم يحدث أن هطل المطر هكذا منذ عشرين عامًا». ارتوت أحواض الكروم، وكان اليهود سعداء بذلك، كانت الأشجار تبدو مبتهجة متعشة، تلمع أوراقها الخضراء، وتبعث رائحة طيبة.. ثمة أشياء أتذكرها طوال الوقت، ورائحة تزكم أنفي لا أعرف كيف أصفها؛ هي شيء مثل عزف أمي على البيانو، أو حضنها في الليالي الطويلة.. كلما سمعت عزفها وأنا في الشارع اطمأنت لسير الحياة. وكانت الشوارع في الغالب منها ليست مسفلتة؛ فكانت تتكون برك صغيرة، نظل طوال النهار عندما تهدأ الأمطار نصنع مراكب ورقية ونلقبها فيها. ولما توقفت الأمطار وجاء عمال الكهرباء وأعادوا التيار، شعرت بأنني حزينة؛ ثمة أشياء سأفتقدها مؤكدًا، وعاد التليفون يدق، وعادت الإضاءة تملأ البيت.. سعدت أمي بالطبع، وشعرت أنا بالحزن. كان الحي رائعًا، وكنا نشعر بالسلام في جوه النقي. كنت أذهب للكنيسة؛ حيث كانت بناء صغيرًا من الخشب تحده الحدائق الشاسعة،

وكانت صديقتي «سيلفانا شيكلي» تذهب للمعبد مع أمها في السيارة الكاديلاك السوداء.. كان المعبد أول بناء لدور العبادة شُيد في الحي، لكن كانت أمي تقول لي إن الكنيسة شُيدت عام ١٩٣١ قبل المعبد بثلاثة أعوام؛ ولذلك كنا نطلق على الشارع الذي تتواجد فيه الكنيسة «شارع الكنيسة».. كنا نتجاهل أي اسم آخر، رغم أنه كانت هناك لافتة مكتوب عليها «شارع الأميرة فوزية»، مثلنا مثل جميع الأطفال عندما يُعلمون شارعًا أو أي مكان بعلامة؛ ربما يكون بناء، أو شجرة. وضعوا حجر الأساس للمعبد اليهودي في عام ١٩٢٩، واكمل البناء في عام ١٩٣٤، فقد أشرفت على بنائه شركة أراضي الدلتا المصرية، وُسِمى باسم «مائير أناتيم» نسبة إلى مسئول الشركة اليهودي صاحب فكرة إنشائه، كان يقيم في فيلا ملاصقة للمعبد، وكان رجلاً ثريًا جدًا تحت أقدامه يقبع الإنجليز، كان البعض منا يطلق على هذا الحي «حي اليهود».. كنت أشهد صلواتهم في المعبد القريب من بيتنا، وكان زعماءهم يحضرون في سيارات فارهة، وكان بينهم موظفون أمثال المشرفين على الأحواض التي كانت تزرعها مدام «نينات»، وكانت مهمتهم هي الإشراف على الفلاحين المصريين، وكان اثنان أو ثلاثة يقطنون منزلاً أو اثنين مع عائلاتهم في سوق الحي القديمة.. أتذكر «رضوان» الفتى النوبي الذي كان يأتي مع جده؛ حيث كان جده يعمل في بيت كبير، وناداني رضوان ذات مرة، وقال لي بطريقة ظريفة: «هل تحبين أن تغتلمي قرشًا؟» فسألته: «كيف ذلك؟» فقال: «تعالي معي» واشترط أن أستقل دراجتي؛ حيث إن المكان بعيد. وجئت بالدراجة وجلس خلفي، وألح علي أن يستقلها قائلاً: «أنتِ ترهقيني.. أنا لا أستطيع أن أرشدك وأنا جالس خلفك.. هيا لنستبدل المقاعد» وقاد هو الدراجة بسرعة فائقة، كنت جالسة خلفه خائفة، كان سعيدًا

جدًا، وجهه الأسود اللامع ازداد بريقًا ساحرًا، وعيناه كانتا تلمعان من السعادة. وعبرنا خط السكة الحديد ودخلنا السوق، وذهب نحر بيت كبير وطرق الباب، ثم صاح: «أنا رضوان.. أستطيع أن أقدم خدماتي» ثم دخل البيت، وعاد بعد بضع دقائق سعيدًا وبحوزته ثلاثة قروش، قال لي: «سكان هذا البيت لا يعملون يوم السبت، وأنا آتي لهم لكي أساعدهم». واعتدنا فعل ذلك على مدار شهر، نذهب كل يوم سبت ونعرض خدماتنا.. كان هذا ممتعًا مرة نفيء غرفة بضغطة واحدة فوق ذر ثمنها قرش، أو نذهب ونبتاع شيئًا.. كنا نفعل أشياء نراها غريبة ومضحكة، وانضم إلينا بعض الصبية بدافع اللعب، وليس المساعدة.. وكنا نتظر يوم السبت لنضحك من تلك الأفعال، ولكن عندما علمت أمي غضبت بشدة وقالت لي: «أنت فتاة غبية.. هذه طقوس هؤلاء اليهود.. لهم طقوس كما لنا طقوس.. إذا أردت أن أقدمي خدماتك، فهذا شيء حسن.. أما إذا كان الداعي هو التهكم والسخرية، فلا تفعلي ذلك أبدًا». وقررت أنا وأصدقائي ألا نفعل ذلك، رغم إغراء رضوان لنا.

كنا نتظر أنا وأصدقائي على ناصية شارع الكنيسة لنشاهد أي سيارة تأتي لركض وراءها، فتخللنا أوراق الشجر المتناثرة في الهواء.. هذه الفكرة التي كانت تتكرر في الأسبوع مرة أو مرتين كانت تسعدنا جدًا، ثم نذهب لنشاهد القطار، كانت رؤيته تُشير دهشتنا، وكان يُمتعنا وأيضًا يُحيفنا.. وعند المزلقان كان يوجد بناء صغير من طابقين مُبني من الخشب، كان على شكل هرمي يستخدمه موظف في مراقبة المزلقان، وكنا نشاهد الجنود الإنجليز يتظرون القطار بزيم الكاكي وقبعاتهم النحاسية، وأيضًا كنا نشاهد الخدم والعمال وهم يستقلون القطار ويلوحون لنا من نوافذه، علاوة على الشرطي الأنيق الذي

كان يقف في صلابة مراقبًا الطريق، وكان عندما يرانا ينهرنا ويأمرنا بالانصراف واللعب بعيدًا عن المزلقان، وكنا نتعد عنه لدرجة أننا كنا نختبئ وراء الأشجار حتى يمر.. لا نشعر بالوقت إلا عند غروب الشمس عندما يأتي رجل الإضاءة؛ وهو رجل كان يتمم على إضاءة الشوارع، فنهرع إلى منازلنا، فتستقبلني أمي بالتأنيب، وتصحبني إلى الحمام، وتقوم بتنظيفي وهي تويخني على اتساخ يدي وملابسي، وتقول لي: «كل يوم تتخلفين عن موعد الغداء فأتناوله وحدي.. والدك في القبر، ومع أعضاء البعثة باستمرار.. وأنت فتاة متهورة» ثم تضع يدها على فمها وتقول: «أنا أخاف عليك». وبدأ الحي يرتاده أصحاب المال، بعد أن عمل المحامي النشيط «أرنست هراري» على الإعلان عن مزايا الحي.. ما زلت أحتفظ بنسخة من الإعلان، لدرجة أنني حفظت الصيغة؛ يقول الإعلان: «اسكنوا المعادي.. ضاحية الحدائق.. تتوافر فيها وسائل الرفاهية؛ الهدوء الشامل، مياه الشرب، والإضاءة من ماكينات خاصة.. شتاء مثالي.. وصيف مثالي.. أراضٍ للبيع بالتقسيط.. تقسيماً جديدة تقدمها لكم شركة الدلتا المصرية لتقسيم الأراضي.. تسهيلات في الدفع.. للاستعلام: أرنست هراري المحامي، تليفون: ٥٣٣٣٢٧.. أتذكر كل هذه الأشياء؛ لأنها ببساطة مرحلة مهمة في حياتي حيث الطفولة والشباب. هذا هو موطني، فرحت فيه وحزنت فيه، انطلقت في رحلات سعادة مع أصدقائي لا توصف، وارتعدت كثيراً عند الحرب العالمية الثانية، أتذكر ذلك جيداً؛ كنا نجلس كثيراً في القبور، كان اليهود يموتون من الفزع، وكانت وجوههم منحوتة بالخوف، يصلون كثيراً، وكانوا يأتون لأمي ويجلسون معها ويتحدثون في أشياء كنت لا أعرفها جيداً؛ «الحرب»، وكنت أتساءل: «لماذا الحرب؟!» فكانت تأتي مدام «نينات» وكانت

قريبة من أمي، وكذلك مدام «شيكلي»، على أن الأخيرة كانت لا تحب مدام «نينات»، وأيضاً أمي؛ هكذا كنت أشعر من نظرتها المسمومة لها، وكانت تقول لأمي دائماً: «هل سيتصر تشرشل؟». وكانت أمي حزينة جداً، وذات ليلة طويلة مخيفة ملأت الحى شائعة تُفيد بأن الألمان انتصروا، حينها كنت نائمة فوق الكنبه وأضع رأسي على ساق أمي؛ حيث كانوا يجلسون حول المدفأة في الداخل وغلبني النعاس وهم يتهايمسون.. وفجأة وصل الخبر؛ فصرخت مدام «شيكلي» صرخة أيقظتني فزعة، وهرعت للخارج ووقفت في صدر الحديقة، وجاءت أمي وجذبتني في عنف وهي تتمم بكلمات توحى بعصبيتها، وفي الداخل كانت مدام «شيكلي» تبكي وحوها السيدات يهدثن من روعها، وتناولت جرعة ماء، وقالت وهي ترتجف: «المعسكرات الإنجليزية حولنا كثيرة، ولا بد أنهم سيأتون إلى هنا.. لا بد أن نتصرف» وصاحت مدام «نينات» بعصية: «ماذا نفعل؟» فقالت أمي: «نظل في القبو، ونتظر أي أخبار، ولا نتحرك إلا إذا استوثقنا من الأمر؛ ربما تكون شائعة» وهدأت مدام «شيكلي» بعد سماعها كلمة شائعة، فأكدت على كلام أمي: «نعم، ربما تكون شائعة.. الله يباركنا ولن يتخلى عنا». فاشتد الخوف مرة أخرى بعد سماعهن طلاقات بعيدة استمرت فترة وجيزة قبل أن يطبق السكون مرة أخرى، وقالت أمي تطمئنهن: لقد اعتذر راديو برلين عن الغارات التي ضربت الأحياء خطأ، كانت لحظات صعبة، شاهدت الجنود يمرون أمام البيت ويصيحون: «سنتصر ونسحق روميل». ومكثنا في البيت أياماً طويلة، وقالت أمي موجهة حديثها لمدام «شيكلي»: «المعركة ليست هنا.. في العلمين.. الحى مؤمن جيداً.. كبار القادة الإنجليز واليهود هنا.. كنت أذهب لأصدقائي خلسة، نجلس مختبئين ونتحدث عن الحرب

في سذاجة طفولية.. كم كنت متهورة، كانت تأخذني قدامي ناحية «طرة»، وكانت معسكرًا للإنجليز ومخزنًا للذخيرة، ما زالت ترن في أذني صيحة الجندي الإنجليزي وهو يأمرني بالمغادرة: «ابتعدي عن هنا» كنت أشعر بشيئين متناقضين؛ الخوف، والسعادة.. الخوف من صوته وبندقيته التي يصوبها في وجه أي شخص، والسعادة من تلك المغامرة. فور سماع صوته أختبئ منه، وأظل أراقبه وهو يبحث عني، وكانت معرفتي بالمكان سهل لي الفرار، كثيرًا ما أرهقت أمي وهي تبحث عني. وقال لي رضوان هامسًا: «هل تتذكرين اليهود الذين كنا نذهب لهم؟» فأجبت: «نعم». «هاجروا» هكذا قال في ضيق؛ لأنه سيفتقد القروش التي كان يفتنمها بسهولة دون أي مشقة. وذهبت لأمي وشعرت بالراحة من وجود مدام «شيكلي» وأخريات، فقلت لهن: «صديقي رضوان يقول إن اليهود الذين كان يخدمهم هاجروا» وقلبت شفتي، أعلم أنني كنت فتاة سيئة، كنت أحب أن أشاهدها مذعورة.. وشيئا فشيئا تعودت هذه الأخبار والأجواء. وكانت تأتي لأمي نساء ألمانيات؛ حيث كانت بعثة الآثار تشمل علماء كثيرين، وكانت النساء صديقات أمي، وكانت تحدث معارك عنيفة بينهن وبين مدام «شيكلي» ومام «نينات»؛ كان القبر ساحة لمعارك ضارية، كنت أشاهدها وأستمع، وقالت مدام «شيكلي» لأمي: «هؤلاء دمويات، من فضلك لا تخبريهن بأي شيء؛ من الممكن أن يتسببن في هلاكنا» وكانت أمي تخفي خجلها، وتقول بنبرة حزينة: «هؤلاء صديقاتي» وكانت المدام تصيح: «لا، إنهن صديقات المجرم هتلر». وهدأت هذه العواصف التي توالى على الحي الهادئ في ليلة لن ينساها الجميع؛ حيث جاء النبا بانتصار جنود التحالف، كانت ليلة رائعة احتفل الجنود في المعسكرات من حولنا بالنصر، وأقامت مدام «شيكلي» حفلاً

كبيرًا في النادي، وكذا في الفيلا المجاورة، وكان الجنود والمواطنون الإنجليز واليهود يركضون في الشوارع من فرط السعادة، ويصيحون: «انتصرنا».. كان الحى بأكمله سعيدًا بالنصر، ولأول مرة منذ أشهر أحرر وأركض في العراء بحرية. أتذكر الرحلة الوحيدة التي خضتها خارج الحى مع والدي في بداية الإقامة في فيلا «سوارس»، حين ذهبنا لكتابة العقد في شركة أراضي الدلتا، كانت شركة أراضي الدلتا إحدى شركات سكك حديد الدلتا، تأسست بلندن في ٢٠ إبريل عام ١٩٠٤، ومركزها الرئيسي كان في لندن، ومقر أعمالها كان في وسط القاهرة. ذهبت مع والدي حين دعانا السيد «هراري» لتحرير العقد بعد أن عاينا الفيلا.. استقلنا سيارة البعثة الجيمس الكبيرة، وكان يقودها والدي، وقال لي: «يريا، ستشاهدين مدينة جميلة» وانطلق بالسيارة سالكا طريقًا تحده الأراضي الزراعية، كان شيئًا أشبه بالحلم؛ وجه الأراضي مغطى باللون الأبيض، فقال لي والدي وهو يتأمل ذلك في سعادة: «إنه موسم حصاد القطن، إنه موسم الملايين، هؤلاء اليهود يملكون كل شيء» هكذا قال، وكان سعيدًا، وكان النيل على يسارنا بمياهه الزرقاء الشفافة، تهب من ناحيته النسائم المشبعة بالرائحة الرطبة المنعشة. وظلت السيارة تجري وسط الأراضي حتى بدت لنا المدينة.. أبنية ضخمة، عمارات شاهقة، ومتاجر عملاقة، وأناس كثيرون يتجولون هنا وهناك في ملابس أنيقة، سيدات جميلات، ورجال إنجليز ومصريون، الشوارع لامعة كمرآة، واجهات المحال تزين بالمنتجات الفاخرة؛ الملابس والأثاث، ومتاجر الخمور والمجوهرات، والمطاعم الفخمة، والفنادق الضخمة الرائعة.. وقفنا عند عمارة ضخمة ونزلنا، وكان الذهول يسيطر عليّ وأنا أكتشف السحر والحياة بالقرب مني.. والآن أستطيع أن أحلل نظرات أبي لي وهو يضحك. واجهتنا في مدخل

العمارة الضخم لافتة مكتوب عليها: «شركة سكك حديد الدلتا»،
وصعدنا الطابق الأول، كانت شقة كبيرة، لها سقف عالٍ، وبها غرف
كثيرة، موظفون أجانب ومصريون يملأون الردهات، ووقف والدي
في وجه الساعي وكان رجلاً يبدو من ملامحه ولكنته أنه مصري،
قال له أبي: «أريد السيد هراري»، فأرشدنا إلى مكتبه. ولم يكن السيد
«أرنست هراري» يحرر عقود الإيجار، إلا أنه كان يقوم بإدارة أملاك
رجل الأعمال «ليون سوارس»، وكان من مؤسسي شركة «أراضي
الدلتا»، على أن هذا الأخير كان له الفضل في إنشاء أول وسيلة نقل
«عربات تجرها البغال» غمر بها القاهرة، وعمل عدد قليل من تلك
العربات في خدمة أهالي الحي. كان مكتبه عتيقاً، وكان الرجل بطيء
الحركة؛ ربما كان يعاني مرضاً ما.. لكن كل الأشياء من حوله كانت
مرتبة، كان يحتفظ بحُجج قديمة لعدة منازل قديمة تم تشييدها في
بداية القرن لبعض الأسر من عائلتي «موصيري» و«سوارس».. رفع
عينه العميقتين من فوق العقد وقال لأبي:

- الحي هادي؟ أليس كذلك؟

- نعم.. وجميل. هكذا قال والدي.

- حافظوا عليه. واستأنف في نبرة لها إيقاع بطيء: هل ترغبون في
تربية أي حيوان؟

استغرب والدي سؤاله، ونظر لي وقال له:

- لماذا يا مسيو «هراري»؟

اعتدل في جلسته وأخذ نفساً عميقاً كأنه يستعد لإلقاء محاضرة
بدت ثقيلة على نفسه من كثرة تكرارها:

- للإقامة في هذا الحى شروط يجب تنفيذها، وإلا يتم فسخ العقد فوراً.

- وما هي هذه الشروط؟

انكب على عقد أمامه، وأخذ يبحث في قائمة الشروط.. ثم قال:

- كما هو منصوص في البند السادس من العقد: ممنوع منعاً باتاً إقامة أو بناء محل للدواجن أو الخيول أو الحمير أو أي حيوانات أليفة أخرى، حتى ولو كانت لمنفعة المشتري أو المستاجر شخصياً.. وبوجه عام يسري هذا المنع على جميع الحيوانات والطيور الأليفة التي قد تُقلق راحة أهل الحى.

ثانياً: لا يجوز قطعاً إلقاء القمامة أو مخلفات الحديقة أو أي فضلات في الشوارع، بل يجب وضعها في إناء من حديد غير قابل للصدأ له غطاء محكم ويسهل نقله، ويوضع في الحديقة.

واحر وجهي من وقع الصدمة عليّ؛ إذ كنت أحتفظ طوال الوقت بكلب صغير، ومن حسن الحظ أنني لم أجلبه معي في هذه الرحلة.. ولما شعر والدي بصدمتي قال له:

- مسيو «هراري»، نحن لدينا كلب صغير.. لكنه ليس مزعجاً أبداً.. أتعهد بذلك.

صمت قليلاً، ثم قال:

- إذا وصلتني أي شكوى، سيتم فسخ العقد فوراً.

وعدنا إلى الحى.. وفي الحى كل شيء أخضر، كانت الأشجار على ضفاف النيل ضخمة وثقيلة؛ لذا نُجبل لي ضفاف النيل منحنيًا، وكانت أشجار النخيل العالية صامدة كعادتها أمام الرياح العاتية..

تهايل في راحة، وتعانق عراجينها وكانهم أناس يقبلون بعضهم بعضاً من الشرفات.. وما أروع حقول القطن المتهجة تداهبها النسبات الرطبة الآتية من الشمال. ونظر أبي للنيل وقال: «قد حان موسم الفيضان.. سيفرق الصعيد، وسيتشرد الناس» وأعلم أن والدي كان يمه في ذلك بعد الناس، الأثار التي ستفرق مثل كل عام. ولكن يظل شعوري عند دخول الحي متجدداً؛ شعور من عاد من الحرب للحياة، أو من عاد بعد سنوات التيه لوالديه؛ شعور مليء بالدفء.. أشجار الكافور ضخمة وقوية، تنعشني رؤيتها والقرب منها، قد تجاوزت المئة عام وما زالت صامدة، جذورها الضاربة في أعماق الأرض تقول إن للأرض تاريخاً، وإن للحياة أصلاً، تُربتها المشبعة بالندى تغريني للركض فوقها حافية.. كل شيء هنا فيه حياة.

كنت أشعر دائماً أن هذا الحي هو أول وآخر حي سأعيش فيه. أتذكر الفيلات التي سُيدت بالطين اللبن، مع الأسقف الخشبية، كانت رائعة، النوافذ الخشبية المثثة، ما زالت تزكم أنفي رائحة الطين.. قُسم الحي إلى أحواض كبيرة مساحة كل حوض عدة أفدنة، كان يتم زراعة كل حوض بعناية بالفاكهة، على أن أغلب الأحواض تمت زراعتها بشمار الكروم، ولهذا الشمار دلالة عند اليهود (عندما يزدهر الكروم لسنواتٍ طويلة، فهذا يعد دليلاً على بركة الله.. كما كان الامتناع عن غرس الكروم دليلاً على أن إقامة اليهود في ذلك المكان لن تكون طويلة.. وفي العهد القديم تُشبه الزوجة الناجحة بالكرمة المثمرة) هذا ما كانت تقوله مدام «نينات»، كانت هذه المرأة بالتحديد تختلف عن مدام «شيكلي» جارتنا.. كانت مدام «شيكلي» تهتم بزراعة القطن، ومام «نينات» تهتم بزراعة الكروم.. واحدة مادية، والأخرى متدينة.. مدام «شيكلي» تهتم بالسهرات والحفلات

لتي تقام في النادي، علاوة على حضور الحفلات الغنائية، كانت نموذجًا للأرستقراطية. أما مدام «نينات» فكانت فلاحه إن جاز هذا التعبير، لدرجة أنني يومًا ما وجدتها تتركب حمارًا واضعة على رأسها قبعة كبيرة لتقيها من حرارة الشمس، كانت تتفقد الأحواض باهتمام.. وكانت أمي تقول لي: «مدام نينات متدينة جدًا».

وانتهت مدام «شيكلي» وأيضًا مدام «نينات»؛ قامت الثورة على الملك، وذهبت السيدتان، وقالت مدام «نينات»: «سأعود». وقالت مدام «شيكلي»: «سنرحل إلى باريس»، ومن هناك بعثت لي «سيلفانا» برقية تقول فيها: «في باريس كل إنسان حر». وسمعت خطبة الرئيس لأول مرة من خلال الراديو، لم أكن أعرف اللغة العربية بقدر يجعلني أفهمه، لكن تكفي نبرة صوته الملهبة لأن أفهمه. وقامت حرب المدوان الثلاثي، وخرجت من الحي الإنجليزي، وذهبت حيث المجتمعات الكبيرة؛ أكلت الطعمية، ولأول مرة في حياتي أشعر بالحموضة. وجف الحي مثلما تجف المياه من قناة؛ جف من اليهود الأثرياء، وأيضًا من الأوروبيين، بقي أناس قليلون من اليهود، ومن الأوروبيين خاصةً من الألمان، بالطبع افتقدت الكثيرين.. وشعرت أن القطار توقف، ثمة رحلة أخرى سأبدوها، حتمًا سأحزم حقائبي قريبًا. وجاء والدي وقال: «سنعود إلى تكساس» وشعرت برغبة في البكاء، وانطلقت بدراجتي أطوف الحي. وكنت قد تجاوزت العشرين عامًا.

توتر الجو في الرابطة بعد اعتقال السيد «إبراهيم مسعود»، وشعرت «بيريا» بأن ثمة أناسًا غرباء يأتون كل يوم إلى الرابطة في محاولة للتجسس على الأعضاء، فضلًا عن تزاخم الرابطة برواد

جدد؛ حيث كان الأجانب القادمون للعمل في القاهرة ينضمون إليها تلقائيًا؛ لذلك اجتمعت بالأعضاء وقرروا أن يكون دخول الرابطة بجواز السفر الأجنبي فقط. في العاشرة صباحًا تكون الرابطة خالية تمامًا إلا من عمال المطبخ والبار؛ حيث يقومون بأعمال النظافة واستلام الخضار، فضلًا عن استلام الخمر من «سيمون» الذي يجلس معهم قليلًا للحديث، وعندما تظهر المدام ينصرف بسرعة.. وكانت المدام تدخل المطبخ الساعة الثانية، وتصفق بيدها صائحة: «ميعاد الراحة.. الغداء.. توقفوا.. توقفوا فورًا». ثم تعود بعد ساعة ونصف إلى المطبخ، وتلقي نظرة على سير العمل، ثم تعطي تعليماتها للعمال والطهارة، وتسال عن «موريس» كعادة يومية، وسرعان ما يرتفع صوت قائلاً: «لم يحضر حتى الآن يا سيدتي»؛ إنهم يريدون له الشر، ويريدون أن يتخلصوا منه بأي طريقة. وتتدخل «ديوانا» وتقول: «استأذن مني ساعة.. موريس منضبط». أما «جماعة الرابطة»، فبدءوا يتحفظون على أفعال «ديوانا» منذ أن نهرتهم لأفعالهم الشريرة خارج الرابطة، وضربها لأحدهم على وجهه، فضلًا عن علاقتها بـ«موريس».. بدءوا لا يلقون عليها تحية الصباح، ولا يتحدثون معها إلا بطريقة رسمية. وهذه الجماعة لا يردعها إلا رجل أوروبي قوي.. إنهم أقوياء ومتناسكون، وللأمانة شعرت «ديوانا» للحظة بالخوف منهم.

في هذه الساعة من كل يوم سبت، يحضر الأعضاء حيث الاجتماع الأسبوعي، يأتون تباعًا عند العاشرة، يلقون تحية الصباح على العمال، ويستأنفون سيرهم عبر ردهة طويلة مسطحة بطبقة خرسانية تُفضي في النهاية للغرف الخلفية الخاصة بالزوار والخدم، فيدخلون لصالة الاجتماع من الباب الخلفي؛ حيث فصلتها المدام نهائيًا عن الفيلا. جلس الأعضاء جميعًا على التراييزة الكبيرة الممتدة بمقاعد عالية،

بعد أن تبادلوا السلام والمهمة الجانبية، واتبعهم «خرستوف» بعد أن جلسوا، ووضع أمام كل واحد منهم فنجان القهوة؛ هكذا يفعل كل اجتماع تلقائيًا.. وافتحت المدام الجلسة قائلة في حماس:

- ما أخبار مستر إبراهيم؟ وواصلت: مهزلة، ولا بد لها من نهاية.. تابعتُ كل شيء بنفسى.. حتى إنني ظننتهم عصابة جاءت لتسرق البيت.

- السفير ذهب وجلس معه، وأنا شاهدته.. لكن يؤسفني أن أقول إنه مريض. هكذا قال «آرون رود» في يأس.

واحتج «وينسون» قائلاً:

- لقاءات.. حديث.. كل هذا تضيع للوقت.. الرابطة ليست مرهونة بمستر إبراهيم.

وقالت «بيريا»:

- الرجل لديه خبرة واسعة، ونحن في حاجة لمشورته، والقبض عليه رسالة لنا.

فقال «فيليب أنطوان» وهو مترعج:

- نعم رسالة لنا.. أنا قلق.. إنهم همج.. والبسطاء - وما أكثرهم - لا يصدقون إلا قرارات الحكومة.

فقال «وينسون» بثقة:

- السفارة لن تتركه.. والسيد إبراهيم قريبًا سيكون بيتنا.. اللعب الآن على المكشوف.

- نحن لسنا في حرب. هكذا صاح «فيليب أنطوان» في سداجة. فضحك «آرون» وقال:

- نعم أوافقك يا «فيليب» لو كانت المؤسسات مستقلة وحررة، ولكن أنت تواجه عائلات شرسة تصارع من أجل البقاء، وليست مؤسسات حررة ومستقلة ملتزمة بالقوانين.

وصاحت مدام «فاليري»:

- جهلة ومتخلفون.

فقلت «سيريا» وقد نفثت دخاناً كثيفاً بعصبية:

- ماذا نفعل الآن؟

فقال «آرون رود»:

- نهم بشئون الرابطة.. أعتقد أننا في حاجة لأعضاء جدد.. لا نشغل بقضية السيد إبراهيم.. أنا سأتكفل بهذه القضية، والرجل لن يمكث في السجن طويلاً.

فقلت «سيريا»:

- والرابطة.. هل..؟

- لن يجرؤ أحد على الاقتراب منها. هكذا قال «آرون رود» في نرفزة.

- نعم لن يجرؤ أحد. هكذا أكد «جان مورينو» العضو الفرنسي الجديد.

فقلت مدام «فاليري»:

- ما اقترحك يا سيد «وينسون»؟

قال في عصبية تناسب هذا الموقف:

- نحن في مرحلة تتطلب أعضاء آخرين.

وافقته مدام «فاليري» قائلة:

- نعم.. الرابطة تضم أكثر من مئتي مشترك.. الأعضاء سيأتون بالانتخاب.

- تقدمي بفتح باب الترشيح للعضوية، على ألا يتجاوز عدد الأعضاء الجدد أربعة من جنسيات مختلفة. هكذا قال «آرون رود».

وتم انتخاب أربعة أعضاء؛ العضو الأول دانهاركي يُدعى «لارس هيو»، وكان من الرواد المهمين المتحمسين للمساعدة. وعضوان أمريكيان؛ امرأة تُدعى «كيت كرو»، ورجل يُدعى «ستيف بوب». وعضو ألماني كبير السن يُدعى «توماس مارين».

وبالرغم من الضغوط التي تعرضت لها المدام، فإن وجود «آرون رود» كان يطمئنها. ولذلك كان يتعامل معها رجال النظام بحرص؛ فكان النظام لا يتحمل ضغوط الجمعيات الحقوقية، التي بدورها تستطيع أن تضغط على الحكومة الأمريكية في تقليص الدعم المقدم؛ ولذلك النظام كان لا يستطيع التعرض لـ «سيريا» مباشرة، لكن يستطيع أن يقترب من أي مصري يعمل معها، علاوة على قدرته على خلق مناخ حولها يجعل الناس يبتذونها، فكان النظام يتعامل مع «سيريا» أو «الرابطة» باستهانة؛ فهو يرى أن القضاء على «سيريا» ومجهوداتها شيء سهل، فبدأ يلاعبها على طريقة القط الذي يتلاعب بفأر منهك، فيظل يخنقه تارة، ويدعه يركض تارة أخرى، لكن في النهاية يدرك أنه يستطيع القضاء على الفأر بضربة واحدة، لكن يمنعه أن يرى الفأر هكذا؛ ربما يوماً ما يستعمله لإخافة فأر آخر.

وتولى هذه المهمة أحد ضباط أمن الدولة، وذهب وعقد لقاء مع أحد الشيوخ، وكان الشيخ يُدعى «حسان النخيلي»، استمع للضابط

في اهتمام، وفي خطبة الجمعة أشاع عنها أنها تفعل كل ذلك من أجل المرحلة الثانية، وهي دخول الأطفال في المسيحية. وكانت الخطبة قوية تأثيرها الرجال، وقدم الشيخ «النخيلي» حججاً وبراهين وهمية، لكن اقتنع بها البسطاء، وصاح أحدهم في ثورة: «والله لأدفنها هنا في المقابر». وتعمد في صلاة الجمعة أن يتلو في الركعة الأولى قول الله: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل إن هدى الله هو الهدى ولن أتبعن أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير» أعاد الآية ثلاث مرات بنحنحة وتأثر. ولما تفاعل المصلون وصاحوا، شعر أنه نجح. وكان الشيخ «حسان النخيلي» يعمل في شركة «المقاولون المصريون»، وسافر الخليج مع الشركة وكان عمره لم يتجاوز الخامسة والعشرين عامًا، عاد في منتصف الثمانينات شيخًا. وكان جسده ضخماً، وله لحية كثيفة يحرص على صبغها بالحنه، يرتدي الزي الخليجي، ويحرص أن يتحدث بلهجة خليجية أيضاً. وكان والده «جيدو النخيلي» ممن جاءوا منذ مئة عام مع البدو من سيناء، واستقر في أرض عبد الرحيم علوان، وعمل في بسايتها، وتمتع عائلة النخيلي بصيت واسع في البساتين. وبعد أن أدى المهمة على أكمل وجه، انتظر حضور المدام في اليوم التالي ليرى النتيجة. وفي اليوم التالي الساعة الثانية عشرة ظهرًا، ظهرت قادمة بسيارتها الجيب محملة ببضائع كثيرة، ظلت السيارة تتأرجح فوق الطريق الأشبه بجبل مصفر، كانت تنفث من سيجارتها، وفوق عينيها نظارتها الطيبة. وصنع لها الأهالي كهائن بدأت من عند أرض المصانع، وشملت الطرق المؤدية إلى أرض عبد الرحيم علوان، وهي بقعة كبيرة يقطنها عمال المصانع، فضلاً عن التصاقها بالقبور.. وفجأة وقفت بالسيارة أمام أحد البيوت، وصاحت تنادي قاطنيه..

ولم يكن بيتًا بمعنى الكلمة، وإنما عشة جدرانها من بقايا الطوب،
وسقفها من عرجون النخل، واستمد متانتها مما ألقى فوقه من
طفش الخشب والبلاستيك، ولكن لم يستجب لها أحد.. وشعرت
بحركة غريبة، ألقى السيجارة، وصاحت تنادي مرة أخرى، ولكن
غشي المكان صمت مريب.. ليس من عادة الأهالي أن يتركوها هكذا؛
إنهم يستقبلونها من عند أرض المصانع، فضلاً عن الأطفال الذين
يزفونها مرحبين مهللين.. وفجأة ظهر الأطفال، ليسوا مهللين ولا
مرحبين، وإنما ليقدفوها بالحجارة بقسوة. ارتعدت وقفزت بحركة
سريعة داخل السيارة، ولما أغلقت النافذة حطموها تمامًا، فاختبأت
في الدواسة. وجاءت بعض النسوة يحاولن جذبها من الداخل بعد أن
أغلقت الأبواب عليها، وقفز عدة أطفال بداخل السيارة وأشبعوها
ضربًا. وسرعان ما تعاطفت معها بعض النسوة، فأخرجن الأطفال..
وتدخل الرجال كاشفين عن سواعدهم، أعينهم تفيض بالقهر، وقال
أحدهم بلكنة لم تفهمها: «لولا أنك امرأة لقتلتك هنا». وشرعت
المدام في البكاء، وأخذوا بضاعتها ونقودها، وحذروها من المجيء
مرة أخرى، ونعثوها باليهودية الجاسوسة. وعندما أدارت الموتور،
شعر بعض الرجال بالرغبة في الانتقام بعد أن استفزهم صمتها
وتحدثها بالإنجليزية وصياحها؛ فحاولوا قلب السيارة بها، فظلت
تصرخ وتضرب يديها فوق عجلة القيادة، بل وضعت يديها فوق
الكلاكس، وظل البوق يصدح بقوة محدثًا ضجيجًا عاليًا. لم ينقذها
سوى أفراد الشرطة الذين كانوا مختبئين.. ولم ينقذوها إلا بعدما لاقت
درسًا قاسيًا. ولما تدخلت الشرطة، أدركت ماذا حدث.. فهي لا
تستطيع أن تنسى ابتسامة الضابط.

صاح «آرون رود» منفعلًا:

- همجيون متخلفون. وضرب التراييزة بقوة بقبضة يده، وعاد
يصرخ مرة أخرى:

- هذا الشرطي يجب أن نقاضيه.

وقال «توماس مارين» وهو أكبر الأعضاء سنًا:

- ماذا ستفعل بالضبط؟ تكتب عنه مقالاً مثلاً وتقول ضابط هاجم
امرأة أمريكية تقدم الدعم للفقراء.. وهل لديك دليل على ذلك؟

احتقن وجه «آرون» وصاح في عنف:

- ساكتب وأكتب وأكتب.. مهما تكن النتيجة.. الأدلة أستطيع
توفيرها بسهولة.

- تضيع وقت.. وصراع نحن في غنى عنه. هكذا قال «توماس
مارين» في هدوء.

وقال «فيليب» بصوت منخفض:

- ماذا تقصد بالضبط؟

- إنهم يملكون سلاحًا أقوى بكثير من الكتابة؛ الأميون الفقراء..
إنهم يدافعون عن أهم سلاح في ترسانتهم.

كانت مدام «سيريا» تضع يدها على جبهتها، وأنفها محمر، وعيناها
تسعان بلمعة حزينة، وقالت وهي تنفث دخانًا كثيفًا:

- لن أستطيع أنا أو غيري الذهاب إلى هناك مرة أخرى.

- حقًا.. لن يستطيع أن يذهب أحد منا. هكذا قال «فيليب أنطوان»
في توتر.

وقالت مدام «فاليري» في غيظ:

- حتى.. يتلاعبون بفقر هؤلاء لمصالحهم.

وقال «آرون رود» بعد أن هدأت ثورته:

- نضع كل مجهودنا وتركيزنا في المكتبات.

وشعر الأعضاء بالقلق؛ إنهم مستهدفون، كان من الممكن أن تُقتل المدام. وانطوى «فيليب أنطوان» عدة أيام، كان مختبئًا في منزله لا يرد على الهاتف، ولا يذهب إلى مقر عمله، ظل يراقب الأوضاع من بعيد، وجاء خبر حزين للأعضاء؛ فقد مات «كارل هوفمان».

انقسمت الرابطة لأكثر من فريق.. هناك فريق كان يأتي ليستمتع بوقته دون الاهتمام بأهداف الرابطة، بل أحيانًا تكون أهداف الرابطة مادة للسخرية والتهكم، وهؤلاء من متعبي الشهوات. وفريق كان يأتي ليستمتع بوقته، علاوة على دفع التبرعات دون أن يسأل عن شيء، كأنه يبيع رأسه من مشكلات الفقر والمرض؛ إنه جاء ليستمتع، ليس لديه متسع لسماع هذه المشكلات. وفريق ثالث كان يأتي ويجلس في الصالة الداخلية في ضيافة «رون» عامل البار الرئيسي، وهذا الفريق هو الذي كان مهتمًا بمعرفة التطورات، بل وصل الأمر بعدد منهم إلى أن يساهم بمبالغ طائلة، وأن يرسل جمعيات حقوقية في الغرب لتقوم بالمساعدة. في الصالة الداخلية كانت تدور المحادثات المهمة، يخدمهم «رون» الإفريقي العجوز، لا يخرج للحديقة، يجلس خلف البار الرئيسي، يستمتع بسماع الأناشيد الإنسانية، وفي ساعة الراحة يخلفه «خرستوف» فقط، ويعود بعد أن يكون تناول وجبته الخفيفة وتجرع كوز البيرة المثلج. أحيانًا كثيرة يتدخل في المناقشات، ويبدى حماسه لأي فكرة

طالما نصب في مصلحة الإنسان. كان رواد البار الرئيسي لا يتغيرون إلا بتدخل القدر؛ الموت، أو العودة لأرض الوطن. وسرعان ما يحل بدلاً من الراحل شخص آخر، كأنهم يتبادلون المقاعد. كان «رون» رجلاً طيباً بمعنى الكلمة، هو يختلف عن «خرستوف» في كل شيء، له بشرة سمراء لكنها ليست داكنة، ربما بفضل شعره المجعد الذي ضرب في معظمه الشيب، قسماً وجهه توحى برجل عفيف لكنه عكس ذلك تماماً، قبضة يده قوية وغلظته لا تتناسب مع نحافة جسده.. يقول: «أنا من غانا، ساحل الذهب.. إنها بلاد بائسة، كانت مستعمرة إنجليزية، وجاء الاستقلال.. ولكن هؤلاء الإنجليز ليسوا أغبياء؛ قبل أن يمنحك الاستقلال لا بد أن يأثرك باحتلال آخر.. احتلال من نفس اللون واللغة والعرق.. هل تفهمون يا أصدقائي؟ إنهم يرمون الاتفاقيات مع بعضهم البعض».

جاء «رون» في منتصف السبعينات مع أسرة إنجليزية، واستقر في الحي، قالوا له بعد أن قرروا العودة لبلادهم: «رون، هل تأتي معنا؟» فقال لهم: «لا». ويقول «رون»: «بالطبع استغربوا ذلك؛ فأنا أتخلى عن الجنة.. ولكن بيني وبين نفسي حسبتها جيداً.. ناهزت الخمسين عاماً، ماذا يبقى لأتسول في أوربا؛ أليس كذلك؟ قبلها كنت أعمل ساقياً في حانة صغيرة روادها من الإنجليز، قالوا لي: أنت رائع. وأن يقول لك ذلك رجل إنجليزي، فهذه شهادة كبيرة من الممكن أن تصنع منك وزيراً في بلادنا، يا الله.. رجل إنجليزي يصفني بأنني رائع، نحن أصحاب البشرة السوداء نشق بهم جداً، ونعتبر حديثهم آيات مُنزلة، استطاعوا ببراعة أن يجعلونا نفقد الثقة بأنفسنا.. وها أنا أقوم على خدمتهم هنا.. وللأمانة هؤلاء مخلصون لمفهوم الإنسانية؛ إنهم يجاهدون ليتعلم الناس الحقيقة..

أشعر بالمتعة وأنا بينهم.. أشعر أنني أشارك في عملٍ نبيلٍ.
تجلس مدام «سيريا» أغلب الوقت في البار الرئيسي حيث المناقشات مع الرواد، وتقدم لهم كشفاً بالمصروفات، وتخرج لتباشر حركة الحديقة.. انضباطها وحرصها على هدوء الحديقة كان يثير غضب البعض، ولكن مهما يكن مركز الغاضب فلا يستطيع أن يخالف تعليماتها، كالأطفال الذين يلعبون ويضجون في غياب أمهم، لكن إذا ما حضرت، على الفور يتوقفون.. هذا ما كان يحدث في الحديقة عند مشاهدتها. غير أن البعض أخذ يضحك ويتهكم على «العلاقة» التي أخذتها في البساتين، وكانت هذه القصة تريح ضمير البعض الذي عارض الفكرة من البداية قائلاً: «هؤلاء هم جيون، لا يختلفون عن الحيوانات».

وقد خصصت مدام «سيريا» الجراج لتخزين الأثاث والأشياء المتبرع بها لحين صيانتها وتنظيفها. ولم ينسَ رواد الرابطة حين أهانت مستر «ريجن» بطريقة دبلوماسية، وكان موظفًا في إدارة المدرسة الأمريكية، وكان مستر «ريجن» بخيلًا، أو لا يستطيع الإنفاق مثلما ينفق موظفو النفط الكبار؛ لذلك ظل لشهور طويلة يأتي ويتجرع كوز بيرة مع عشاء خفيف، ولما وجد كل من يعرفهم تبرعوا للرابطة، جمع ملابس قديمة وأحذية رياضية تالفة، وعبأها في كيس قمامة وحمله فوق ظهره، وذهب إلى الرابطة، وأبلغ «خرستوف» أن ينسئ المدام بحضوره حيث كان ينتظرها في الصالة الرئيسية، وكان هناك عدد لا بأس به من الرواد الكبار، ولما جاءت المدام قال لها في سعادة:

- أريد التبرع بهذه الأشياء؛ إنها ملابسي وأحذيتي.

نظرت له المدام بقرف، وقالت له في حدة بعد أن ألقت نظرة عليها:

- هذا ليس مكانها يا مستر «ريجن».. نشكرك.. ولكن لا بد أن

تفهم أن رعاية الرابطة ليست قاصرة على المصريين فقط، أنت موظف بسيط، والرابطة تقدم المساعدات للجميع.

وواجه مستر «ريجن» سخرية حادة من الرواد؛ إذ قالوا إنه لا يريد أن يدفع قيمة حمل القمامة، وقرر أن يلقيها بنفسه هنا في الرابطة.

والحقيقة أن مستر «ريجن» أراد تقديم مساعدة حقيقية، إنه موظف تبيع في إدارة المدرسة، راتبه بالكاد يغطي نفقاته الخاصة؛ طعامه، وطعام كلبه «بيلي».. وقال في نفسه: «المدام أهانتني جداً» وظل متغيباً عن الرابطة شهرين متتاليين.

جاء السيد «إبراهيم مسعود» الاجتماع، وكان يتكى على عكاز. قاموا من مقاعدهم واستقبلوه بحرارة، وربت «آرون رود» على كتفه بود، وعانقته المدام بحرارة وقالت له: «لا بأس عليك يا مستر إبراهيم». فقال لها: «أنا مريض» وتهد من الأعناق: «ليس هناك شيء أشجع من السجن».

وشعر الأعضاء بالعجز عن مواساته؛ إذ كان الرجل تعيساً، ويبدو عليه المرض، فقد كثيراً من لحمه، وبدأ ضامراً في البدلة التي كانت تناسب جسده الممتلئ، كانت يده ترتعش، وكان وجهه شاحباً تعيساً.

- ماذا فعلوا معك بالضبط؟ هكذا قالت «سيريا» في ترقب.

التفت لها بحركة بطيئة من رأسه، وقال لها وما زال جسده يرتعش:

- مصر تستورد من الخارج وخاصة البلدان المتقدمة أفضع برامج التعذيب، مصر تشتري هذه البرامج بملايين لتعذب بها الحالمين بالديمقراطية.

وكان «آرون رود» يتابع حديثه باهتمام قليل؛ اهتمام يوحى بسماعه هذا الحديث مرات متتالية، بينما باقي الأعضاء كانوا ينصتون له في اهتمام بالغ.

- ثلاث تهم تم توجيهها لي... تلقي أموال من الخارج دون إذن، وقلت لهم البلاد تعيش على المعونات الخارجية منذ منتصف الخمسينيات. وثانيًا، التحايل على هذه الجهات. وثالثًا، وهذا هو الأهم والسبب الحقيقي لدخولي السجن، حديثي عن تزوير الانتخابات، هذا في المقام الأول، ثم نشر أكاذيب مضللة، والحديث عن اضطهاد الأقباط، والإساءة لسمعة مصر؛ كما لو أن مصر امرأة أنشر فضائحها.

- عذوبك جسدًا؟

- نعم. وزم شفتيه الزابلتين وقال:

- كانوا يكبلونني في كرسي، ويضعون بالقرب من رأسي حنفية تتساقط منها قطرات المياه فوق مركز المخ؛ ما سبب لي بعد ذلك انبهارًا في الجهاز العصبي.

فقلت المدام وهي تحاول ألا تبكي:

- وماذا ستفعل يا مستر إبراهيم؟

- سأعمل، ولكن بجهد يناسب صحتي.

- عظيم. هكذا قال «آرون رود».

فقلت المدام وهي تبسط يدها فوق التراييزة:

- هناك دراسة انتهينا منها في غيابك، ونريد أن نطلعك عليها.

- تفضلي. هكذا قال بصوته الواهن.

- سنركز على المكتبات فقط، ولكن ليس بالطريقة العشوائية التي كانت تدار بها، ولكن باختيار الأطفال بعد خوض اختبارات كيفة، ثم تتولى عملية الفرز، ونقوم بتأهيلهم بقوة.. هؤلاء هم من سيتولون عملية الإصلاح.

- عظيم يا «سريا». هكذا قال في إيقاعٍ بطيء.

فقال السيد «وينسون» مضيئاً:

- فكرة رائعة. ثم استأنف كأنه يشير حماس الأعضاء: «أن تقوم ببناء أطفال أقوياء، أسهل من ترميم رجال محطمين»

ابتسمت المدام في سعادة، وقالت وهي تنظر للسيد إبراهيم مسعود:

- هل لديك ملاحظات؟

- الفكرة عظيمة، ولكن المسألة ليست بهذه البساطة.. سنخوض معارك طاحنة لاستخلاص هؤلاء الأطفال.

تولى باحثون من الشباب المدربين في مركز التنوير المهمة، وسجلوا الملاحظات بدقة، وعجزوا في مراحل، ونجحوا في أخرى، وفي كل مرة كانوا يكتبون فيها تقريراً يختمونه بكلمة «سننجح». وكان الدكتور قد تفرغ لعقد الندوات في مصر وخارجها. ولما تدفقت الأموال أكثر، وجَّهت المدام جزءاً منها لدعم الجمعيات الخيرية، وشعرت للحظات باليأس، وكان «آرون رود» يقول لها: «الحصاد ليس الآن.. أعوام طويلة لكسي تحصدي ثمارك.. المهم ألا تيأسي أبداً».

مراقبة الرواد والجلوس في البار الرئيسي ومتابعة المطبخ.. مهام كبيرة مرهقة، ولكن لم ترغب المدام يوماً ما أن تباشرها بنفسها، كانت

تضع الملاحظات.. ولكن المكوث والمراقبة جعلها تشعر بشيء من العزلة، شعرت أنها مسجونة في الرابطة، استطاعوا أن يفرضوا عليها الإقامة الجبرية بطريقة غير مباشرة؛ فلا رحلات إلى البساتين، ولا إسطلب عنتر، ولا طُرة.. شعرت بشيء من الاضطراب، واثابتها موجات من الانفعالات، فكانت تتوتر لأقل الأسباب. وتحدث معها «آرون رود» قائلاً:

- تستطيعين فعل أشياء أخرى.

وصاحت لأول مرة في وجهه:

- أنا مسجونة يا «آرون».. هل تفهم؟ رحلة واحدة من الممكن أن تسبب في قتلي. وسرعان ما قالت: «آرون»، أنا آسفة.. ولكن أنت تعلم الحقيقة.

ابتسم «آرون» وقال لها:

- أنتِ عظيمة.

وضعت يدها فوق رأسها وقالت بصبر نافذ:

- «آرون»، يبدو أن «رون» أعطاك جرعة مركبة جعلتك سعيداً.. أما أنا فلستُ سعيدة أبداً.. دعني الآن.

ظل على ابتسامته، ثم أشعل غليونه وقال لها:

- لديك ضيفتان تريدان مقابلة المدام.. هل المدام لديها متسع من الوقت؟

- من؟

- لحظة وأتي بهما.. من فضلك انتظري في صالة الاجتماع.

- ودخل ومعه سيدتان، اندفعت واحدة منهما واحتضتها بشغف
وقبّلتها كثيراً وصاحت:
- أفتقدك كثيراً يا مدام.. هل أنت بخير؟
- وكانت المدام في ذهول.. أما المرأة الأخرى فعانقتها بحرارة،
وقالت:
- كلنا نفتقدك.. لماذا تخلّيت عنا؟
- زكمت أنفها رائحة البساتين والحوش الكبير؛ رائحة كانت تذكّرها
بالريف، رائحة تحمل شيئين متناقضين؛ القذار، والنظافة.. وأجهشت
بالبكاء، وجلست ووضع يدها على وجهها وقالت:
- أنت تقتلني يا «آرون».
- وظل «آرون رود» على ابتسامته، وأشار لهما أن تجلسا. وقالت
واحدة منهما وكانت تُدعى حنان:
- ليس لنا يد فيما حدث.
- نعم.. نعم. هكذا قالت المدام وهي تمسح أنفها الذي احمر من
البكاء. واستأنفت بصوت واهن:
- كيف حال الأطفال والنساء.. أنا أفتقدهم؟
- لسنا بخير يا مدام.. افتقدنا أشياء كثيرة.. كنا نتعلم كيف
نعيش ونعلّم الأولاد الحقائق، فضلاً عن الدعم المالي.. الفقر
ينهش في أجسادنا، ولا نستطيع أن نعلّم الأولاد الحقائق.. قليلون
من يحتكرون الحقائق في بلادنا، ويخبثونها عنا.. نفتقد رعايتك
ودعمك.
- وصاحت المرأة الأخرى:

- منهم قه اللي كانوا السبب.

امتدت الجلسة لأكثر من ساعة ونصف، تحدثوا في كل شيء، ورحلت بعد ذلك المرأتان، وقد اتفقتا على المجيء مرة أخرى في عطلة نهاية الأسبوع.. وسعدت المدام جدًا بتلك الزيارة، واقتربت من «أرون» وقالت له:

- أنت رائع يا «أرون».

فقال لها ضاحكًا:

- أكيد.

وخرجوا للصالة الرئيسية؛ حيث عقدا جلسة مع بعض الرواد.

هاش الحى ليالي من التوتر والقلق إثر اغتصاب فتاة، ولم يترك أحد من قاطني الحى من الأجانب فتاته أو زوجته وحدها أبدًا؛ إذ كان يصحبها في أي خروجة، حتى وإن كانت لجلب الطعام، وكان يعد نفسه لذلك جيدًا؛ يأخذ معه سلاحًا.. سواء من الأسلحة البيضاء، أو هراوة، أو مسدس صوت.. وامتنع الكثير من السهر في النادي. ولما اجتمع الأعضاء، تحدثوا عن هذه الحادثة البشعة.. قالت المدام بنرفزة:

- حيوانات.

وقال «أرون»:

- كانت لديهم جاهزية.. التحقيقات التي وصلت تقول إنهم ظلوا يجوبون الحى بالسيارة حتى حصلوا على هذه الفتاة.

- نعم، كانت لديهم خطة. هكذا قال «فيليب» في انزعاج.
وصاحت «فاليري»:

- متوحشون.. مجردون من أي إنسانية.. مسكينة.. ولكن كانت قوية؛ قاومت. هكذا قالت في نرفزة مقرونة بحماس امرأة سعيدة بقرة امرأة مثلها.

- رغم أن خطتهم كانت في متهى الذكاء، فإنها كانت أقوى. أنبأها شخص بأن والده يعمل شرطياً سرّياً في القسم، وأمرهما بالذهاب معه، وتغلبوا على صديقها بالضرب. وفي الصحراء القريبة من هنا، في عمارة تحت الإنشاء قاموا بالاعتداء عليها.
فقلت «كيت كرو»:

- الحى هادئ، ونحن لسنا مؤمنين.. من الممكن كان يحدث هذا لأي امرأة.. ربما أنا. هكذا قالت وقد شحب وجهها.. وكانت مدام «كرو» ملقبة عند الرواد بالمرأة التي تشبه الدجاجة.

وظل الأجانب لفترة طويلة يتابعون الأحداث بشغف، ويحطاطون من كل شيء. وعانت الرابطة لبعض الوقت، رغم أن مأمور القسم أنبا السيد «آرون» قائلاً: «الحى مؤمن تماماً يا سيدي.. هذه واقعة فردية.. أنتم في أمان».



بعد تلك الحادثة شعرت المدام بعزلة أكثر، واشتد عليها الحزن حين أنبأها حنان بأن زيارتها للباتين من الممكن أن تؤدي بحياتها. وكررت حنان زيارتها، وفي كل مرة كانت تجلب معها سيدة أو اثنتين يأخذن بعض المعونات، ويمكن عندها ليتعلمن شيئاً.. وللأمانة كانت السيدات يجئن ليتعلمن. وقامت «فاليري» بتلقينهن كيفية التدبير، وتربية الأولاد، وإدارة المنزل، فضلاً عن تعليمهن حقوقهن.. وانزعجت «فاليري» من

تفريظهن في حقوقهن؛ فقالت لمن: «يجب أن تطلبن حقوقكن». وكادت رأس المدام أن تفرقع؛ إذ واصلت التفكير والتركيز في كل الأشياء من حولها، وفي النهاية شعرت بأن ثمة أشياء غابت عنها وسط هذا الضجيج.. وانفجرت أساريرها، واتصلت بالسيدتين «فيليب أنطوان» و«وينسون»، وقالت لهما إنها ترغب في رؤيتهما. وجاءا في اليوم التالي في الساعة الخامسة، واجتمعت بهما في الصلاة الداخلية. ولما جلسا وكانا متشوقين لسماعهما، قالت لهما:

- لدي مشروع رائع.

- ما هو المشروع يا «سيريا»؟ هكذا قال «فيليب» في تطلع.

بينما كان «وينسون» جالسًا مطرقًا باهتمام كعادته، ولم يبدأ بأي كلمة، فقالت وهي تفرك كفيها ببعضهما في شيء من التوتر:

- أريد أن أختبر شعبيتي، وشعبية الرابطة، ونشاط رجال البوليس وترويجهم الكاذب والمضل عن سمعة الرابطة.

- وكيف سيحدث هذا؟ هكذا قال «فيليب أنطوان».

فقالت وهي تترقبها بعينها الخضراوين اللامعتين:

- إقامة مائدة رمضانية لإطعام الفقراء، وتوزيع المعونة الغذائية.

ساد الصمت لحظات، واعتدل «وينسون» في جلسته، بينما قفز «فيليب أنطوان» واقفًا وقد امتقع وجهه، وأخرج منديله يجفف وجهه ويمسح عويناته في توتر، ثم صاح بتهور:

- أنتِ فقدتِ صوابك يا «سيريا».

قطبت؛ فتجمع الغضب بين حاجبيها، وصاحت في عنف:

- لا تسرع في قرارك يا «فيليب».

واخذ الحوار بينهما، ثم تدخل «وينسون» مهدثًا، وعاد «فيليب»
ليجلس بوجه محتقن وأخذ يتنفس بصعوبة، حتى إنه صاح ينادي
«خرستوف» الذي كان على مقربة منهم ليطلب منه جرعة ماء.

أوقدت المدام سيجارة وراحت تسحب أنفاسها في توتر، ثم قالت:

- أحب أن أسمع تعليقك بهدوء. هكذا أرادت أن تمتص غضبه، تعلم
أنه محق، أي رجل لديه عقل سيفعل ما فعله، ولكن شعرت بأنها
مستتصر، فحاولت أن تخوض معه معركة كلامية، ولكن السيد
«فيليب» صاح:

- أي هدوء تتظرينه.. هذه كارثة.

فقلت في برود مصطنع:

- لماذا؟

استغرب ردة فعلها، ونظر ل«وينسون» يحثه على الحديث، فقال
«وينسون» بنبرة هادئة:

- هذه مغامرة يا «سيريا».. ومغامرة من الممكن أن تطيح بالرابطة
كلها.. الرابطة عبارة عن نادٍ أجنبي يجتمع فيه الأجانب الغربيون..
يتناولون الطعام، ويحتسون الكحول.. والحي كله يعلم ذلك.
وبالطبع الرابطة ستنفق على المائدة.. من الممكن أنا «وينسون» أقوم
بفعل ذلك تحت بيتي.. سينظرون لي نظرة طيبة.. أعلم أن المصريين
طيبون، وسيقال عني إنه رجل أوروبي يحب أن يساعد الفقراء..
وحدث أن فعل ذلك السيد «لارس هيو»، وما زال يفعل أسفل
بيته، والناس ينعتونه ب«الرجل الطيب».. ما فائدة الاجتماعات
الأسبوعية التي تدارس فيها طيبة المصريين والطبيعة التي نحيا
فيها؟ أما النادي فهذا مستحيل، أنتِ تُعجلين بخلق الرابطة..

أظن أنها فكرة خاطئة. وهز رأسه الكبير في توتر واستأنف:
- عليك أن تدرسي الفكرة جيدًا. واختتم: أنتِ أعلم بالمصريين
أكثر. هكذا ألقى الكرة في ملعبها.

فقلت بحدة نابعة عن تسرع وتوتر:

- أنا المسئولة.

فقال «فيليب» بنفس النبرة:

- لا، أنتِ مفرورة.. والرابطة لها أعضاء.. وهما ميزانية.. والتزامات
تتظرها بعض الجمعيات كل شهر.. أنتِ لا تنفقين على كل هذه
الجهات من نقودك الخاصة.. لكنني أحذرك بأنك ستكونين
المسئولة عما سيحدث.

فقال «وينسون»:

- نعرض الأمر على الأعضاء ونأخذ التصويت؛ ليتحمل كل فرد
قراره..

وبينما كانت تتم دعوة الأعضاء لأخذ الأصوات، كانت «سيريا»
قد استغلت المساحة الكبيرة للجراج، وقامت بطلانه وإضاءته ثم
فرشه بالأثاث الجيد.. مائدة طويلة يتعدى طولها السبعة أمتار،
تحدها من كل جانب المقاعد، وقد فرشت الأرض بالسجاد، علاوة
على الإيجاء الذي تعمدت أن تبثه في المائدة من خلال الآيات القرآنية
التي زينت بها الجدران، والتلفزيون الصغير الذي وضعتته بالقرب
من السقف، لتبدأ في تشغيله قبل الإفطار بساعة ليث الأدعية وأذان
المغرب. وأعلنت أن هذه ستكون مائدة رمضان لإطعام الفقراء
وتقديم الوجبات لهم، وتولى «خرستوف» الدعاية للمائدة. وسعدت

مدام «ديوانا» بها جدًّا، وكذلك «رون». وطاف «خرستوف» الحسي يعلن عن المائدة.. طرق أبواب البوابين، وتحدث إلى رجال الأمن الخاص، ورجال الشرطة البسطاء الذين يتمركزون في الشوارع، فضلاً عن عمال المنازل والحدايق.. والجميع شكر «خرستوف» في سعادة. وكانت المدام قد أعدت ميزانية كبيرة من نقودها الخاصة.. وجلست معها «ديوانا» و«رون» و«خرستوف»، وظلوا يدرسون بعناية أصناف الطعام والشراب التي ستُقدَّم، وكيفية توزيع الوجبات على المارة، واستعانت بخبرة «ديوانا» التي كانت على دراية واسعة بالمطبخ المصري، فعكفت على صنع ألد الأطبعة بالنكهة المصرية، وأعدت مشروبات رمضان لذيذة، وجلبت لها طهاة ليساعدوها.

وفي الاجتماع اعترض السيد إبراهيم بشدة، وأعلن رفضه للفكرة نهائياً، وقام مترعجاً وكان وجهه محتمقاً وقال:

- الإسلاميون لو علموا بهذه المائدة سيحطمونها ويقتلونك، ولن يرحمك أحد منهم.. أنا أعرفهم جيداً.. تراجعني عن الفكرة، ليست جيدة.. خاصة ونحن نتقدم.. لا داعي.

وصعدت أصوات تؤيد السيد إبراهيم في حماس، بينهم صوت «فيليب أنطوان».

توترت المدام وقالت:

- أنا أعرف طبيعة المصريين.. لا يهمهم سوى الخبز حتى لو كان معجوناً بالسم.. التراث يقول ذلك، حتى إن المصريين يقولون: «اللي يأكل خبز الخواجة يحارب بسيفه»؛ أليس كذلك؟ وأوما السيد إبراهيم برأسه في انزعاج، ثم أضاف في ملل:

- لست مسئولاً.. ولكن أحب أن أسجل اعتراضى «غير موافق».

وانفعل «وينسون» بشدة؛ حيث لأول مرة يتخلى عن الكتاب ويلقى به على الترابيزة صائحاً: «لست موافقاً».

وتبعه «فيليب أنطوان»: «لست موافقاً».

واحتد الحوار بينهم بقوة، وفي النهاية أخذوا الأصوات.. أربعة أصوات وافقت على المائدة، وثلاثة رفضوها؛ وهم: «وينسون»، و«إبراهيم مسعود»، و«فيليب أنطوان».. بينما كبير الأعضاء السيد «توماس مارين» وافق بشدة وتحمس لها.

ولما بدأ الشهر الكريم، ازدحمت الرابطة بالفقراء، لدرجة أن رجال الأمن المتمركزين في الشوارع وحارسي العقارات والخادmates وعابري السبيل.. كانوا يتضاربون بالأكتاف.. كان الطعام شهياً جداً، علاوة على المشروبات الرمضانية الثلجة، كانت في منتهى الروعة.. وكانت مدام «سیریا» تخدم بنفسها على الصائمين. ويقول السيد «وينسون» في كلمة كتبها على لوحة كانوا يدونون فيها الملاحظات المهمة:

«كنت أراقبها دون أن أختلط معهم في شيء، والحقيقة أن مدام «سیریا» عادت صغيرة.. طفلة.. منذ عشرة أعوام لم أشاهدها في هذه الحالة.. شممت أكمام قميصها، وراحت تجوب بسعادة حول المائدة وهي تضع الأطباق والأكواب.. كان وجهها سعيداً بشوشاً، بغض النظر عن تلطخها بالطعام، إلا أنها كانت تبدو في كامل نشاطها وحيويتها وجاذبيتها، كانت على ثقة كبيرة بأن الناس ستقبل منها أي شيء.. إنها تعرف كل شيء.. أما أنا فكنت خائفاً جداً.. كنت أتوقع أنهم سيهجمون على الرابطة ويحرقونها ويقتلوننا».

ووصل بانجذاب الفقراء للمائدة أن قررت أن توزع الوجبات «بالاسم»، وتولى هذه المهمة «خرستوف» الذي شاع اسمه في الحي كله، واشتهر بقوة في محيط الرابطة؛ يكفي أن يمر بدراجته في أحد الشوارع، ليلتفوا حوله ويذكرونه بأنفسهم صائحين: «لا تؤخرنا اليوم يا خرستوف»، أو «ماذا تطهون اليوم من طعام؟» وكان يشعر بالسعادة في كل مرة.

شعرت «يريا» بأن لها قيمة، واكتسبت ثقة كبيرة بنفسها. وفي الاجتماع الأسبوعي الذي حضر فيه السيد «إبراهيم» والسيدان «فيليب» و«وينسون» وتوافق مع نهاية الشهر، قالت لهم:
- لم تقع الكارثة يا سادتي.

لاح القمر في سماء مظلمة تموج بسحب رمادية، وكانت النجوم مطموسة لا أثر لها.. وكانت كعادتها بعد أن يذهب آخر زائر، وتسمع صريرًا عاليًا إثر غلق الباب الخشبي، تجلس في البلكونة الخلفية تتناول قهوتها بمفردها، وتنظر إلى السماء في تأمل، وكان الرواد قد لاحظوا أن المدام ليست على ما يرام.. وشعرت بيد تضغط على كتفها في لمسة حنونة، وكان مستر «توم»، فقال بصوته الجهوري:

- تستطيعين البقاء حتى نهاية العام.

ولما استمر جهودها وصمتها، على الفور تركها، وذهب إلى مكتبه.. أثار صوته فيها حالة من الشجن؛ فتقلصت عضلات وجهها.. إنه يذكرها.. بل ويصر على ذلك.. «آه يا توم، كم أنت جبار.. حياتك العملية أنستك واجبك الإنساني.. كنت رائعًا.. والآن كل همك أن

تحصل على بشر نفظ.. تعود سعيدًا، وتدعو أصدقاءك النفطيين،
وتحتفلون حتى الصباح.. إنها الأموال والقوة.. إنها المستقبل.

وسيطر عليها الغضب.. انفعلت على «خرستوف» لأسباب لا
قيمة لها، وكذا عمال المطبخ، حتى «رون» لم يسلم منها.. ترن في أذنها
عبارته: «أنا رجل في الخامسة والستين من العمر، وفي حاجة لمعاونتك».

وفي يوم استيقظت باكراً كعادتها، وتملكتها رغبة في ممارسة رياضة
الجرى التي انقطعت عنها منذ أن دبت الحياة في الرابطة، فلم تستطع
أن تقتطع ما تيسر من الوقت لممارسة الرياضة.. ولكن في هذا الصباح
شعرت بهذه الرغبة الملحة، وظلت تمارس رياضة الجري لأكثر من
ساعة ونصف.. لفت الحي كله، لم تترك شارعًا.. وكلما شعرت بالتعب،
تجلس على الرصيف تلتقط أنفاسها.. بدا وجهها الأحمر منحوتًا شفافًا،
ينسال العرق من عليه بغزارة. ولما عادت وجدت «توم» جالسًا في
مكتبه منغمكًا في العمل، وصعدت غرفتها وجلست في البلكونة دون
أن تستبدل ملابسها. وكان العمال يستعدون لبداية يوم جديد من
العمل الشاق؛ حيث انتشروا ينظفون، ويعدون الطعام، ويستقبلون
من الباب الخلفي عربات الخضار والخمور.. كانت الحركة كالعادة
يدب فيها النشاط. ظلت محتفظة بسرها لوقتٍ امتد لشهر، خلال
كانت تفكر بعيدًا عن أي ضغوط، ولكن استسلمت أخيرًا لإلحاح
الأعضاء الذين شغلهم ما طرأ عليها من انطواء وشروء ملحوظين.
وفي الاجتماع الأسبوعي حضر الأعضاء جميعًا وكان بينهم الأستاذ
زاهر، وبعد أن أخذ كلُّ مجلسه، قالت المدام بنبرة لا تخلو من التهديج:
- سأرحل مع زوجي. واستأنفت لتخفي ارتباكها: إلى جنوب السودان.

لاحت في وجوه الأعضاء بوادر الصدمة، وظلوا واجمين يتبادلون النظرات.. فقال «آرون رود» بقوة:

- متى سترحلين؟

- نهاية العام. هكذا قالت وهي تتحاشى النظر في عينيه، كأنها تعترف بخطأ جسيم أمام أبيها.

- يعني بعد ثلاثة أشهر. هكذا كان يتحدث «آرون» بثبات، متعمداً في ذلك تحطيم الشخص مهما كان، وبقاء المؤسسة بمبدأ «كلنا زائلون».. بيد أنه كان يعاني من النبا الذي جاء كطعنة غادرة.. إنها لم تحدثه في شيء... إنه سأها كثيراً، ولكن هكذا تبدو دائماً تحتفظ بالأنباء الحزينة لنفسها.

- نعم.

- حسناً.. نستطيع في هذه الأشهر انتخاب شخص جدير بإدارة الرابطة. استطاع «آرون» أن ينقل للأعضاء بطريقة غير مباشرة أن الرابطة مؤسسة قائمة مهما تغير الأعضاء ورحل المؤسسون.. فتحدثوا بقوة عكست عند المدام الطمأنينة، وسرعان ما قالت في صعوبة وهي تقاوم رغبة في البكاء:

- أرشح السيد «وينسون» ليخلفني.

- وأنا أرشح «لارس هيو». هكذا قال «آرون» بتحدُّ بدا في نظرتة.

وقالت مدام «فاليري»:

- وأنا أرشح السيد «توماس مارين».

ثم قال «فيليب أنطوان» بنبرة مؤثرة:

- سنعلن عن الترشح، ومن يرغب يتقدم.. المهم، ماذا ستفعلين هناك في جنوب السودان؟

- لا شيء.. إلا مراعاة زوجي.

- لا تخلو جنوب السودان من المرض والفقر والجوع. هكذا قال «فيليب».

فقال أحد الأصوات:

- ماذا تقصد؟

- لتوسع.

فأجمع الأعضاء على أنها فكرة سليمة، وقرروا دراستها.. بينما ظلت المدام لشوان صامتة، تسترجع ذكرياتها، وشعرت بأن الطعنة نفذت.. هكذا ترحل، وبسرعة.. فقالت بصوت مُتهدج: «أنا لا أعرف شيئاً عن جنوب السودان»، كأنها طفلة تستعطف أمها للبقاء في مكان ما.. ولكن في النهاية سافرت المدام، وقضت عاماً هناك وقد أسست الرابطة، ولكن سرعان ما أسندت مهامها لرجل إنجليزي يملك مزرعة كبيرة للأبقار.. وكتبت لـ «أرون رود» خطاباً طويلاً قالت فيه: لا أستطيع أن أحدثك في التليفون، أعتقد أنني سأشعر بالعجز عن الحديث؛ ولذلك قررت أن أكتب لك.. عدت إلى تكساس يا «أرون»، وعادت ابنتي من جنوب إفريقيا مع زوجها حيث كانا يعملان هناك كما تعلم.

«أرون»، لم أستطع التأقلم هناك؛ فالحياة هناك غريبة.. أناس يعيشون في استسلام تام. وقد انبهرت بكثرة النوادي الأجنبية، ورغم ذلك فالفقر شائع بين الناس، والمرضى، والقتل.. إنهم يعيشون في بيته

بدائية، مستسلمون لكل أنواع السلخ. في إحدى الحفلات رأيت فتاة تحمل الجنسية الأمريكية، كانت ترقص مع الشباب في سعادة بالغة، وكانت تحمل في يدها كوز بيرة.. ولما جلست بجوارى تلتقط أنفاسها، قلت لها: «أنت سعيدة؟» نظرت لي في حيرة وصاحت: «بالطبع» قلت لها: «لماذا؟» وأعلم أن هذا فضول ليس من سمتي، ولكن شيء اكتسبته من معايشة المصريين. قالت: «أحتفل مع هؤلاء كل يوم، إنهم موافقون على..» ثم اقتربت من أذني وهمست: «إنهم موافقون على الانفصال.. بعد عدة أعوام ستكون هنا دولة جديدة». وعلمت فيما بعد أنها تحمل الجنسيين الإسرائيلية والأمريكية. «آرون»، أتذكر ما قلته لي ذات مساء صيفي من ثلاثة عشر عامًا: «من يعمل في السياسة لا بد أن يتجرع السم بدلاً من الكحول».. كل محاولاتي كانت فاشلة، هناك البيئة لا تصلح إلا لشيء واحد؛ وهو اللهو. إنشاء الرابطة كان بمثابة إضافة حانة جديدة، القوة الدولية تعمل هناك لشيء خبيث طالما استشعرت في محادثاتهم، تجار الأسلحة يدعمون الجماعات بقوة، لا تبدو المدينة مهيأة للإعمار، كأنهم يؤخرون هذا؛ لأن هناك أشياء ستحدث.. ربما الحرب، إنها الحرب يا «آرون». الناس يجيئون في خيام، جزء منهم يخدمنا، والآخر يتسول بين الفقر والمرض والقتل.. الإيدز منتشر، والأطباء يحذروننا كل يوم، دائمًا ما كانت تمر علينا دوريات نحققنا بأمصال.. قلت له «توم» ذات ليلة: «سأرحل إلى..» وقبل أن أستأنف حديثي، صاح بعنف: «القاهرة» قلت له: «لا، تكساس.. أنا أشعر بالتعب» هز رأسه فيما يشبه الرضا، وقال لي: «أذهب»، «آرون» أنبأ أصدقائي بتحياتي.. سأتحديث في التليفون عمًا قريب، طمئني على الرابطة والمصريين.

«سريا هوارد مورس»

ومضى عام، وجاءت برقية تقول: «ماتت المدام إثر سرطانٍ حاد في الدم». وجاء الأجنب ليتحدثوا عنها، لدرجة أن النادي لم يتسع لهذا العدد، فجاءوا على مدار أيام ليتذكروها.

تناول كوز البيرة من فوق المنضدة الرخامية العريضة التي تتوسط المطبخ، وزفر بتهيدة طويلة، وقال له «رون» وهو يذهب:
- تصبح على خير يا صديقي.. لم يعد أحد في النادي.

أفرغ جرعة في جوفه، وقال في تلذذ: «سريا».. قال الاسم مجرداً من أي ألقاب، طالما رده بينه وبين نفسه بهذه الطريقة، طالما وضعه في جملٍ تحمل الحب والكراهة، وظل يردده بينه وبين نفسه، لم يصدق «خرستوف» أنها ماتت، عند سماعه النبأ صرخ وقال: «مستحيل».. التف حوله عمال المطبخ، وحاولوا تهدئته، لكنه ظل يصرخ كطفل صغير تركه أمه، حتى محاولة «ديوانا» فشلت، «ديوانا» التي بينها وبين نفسها أجهشت بالبكاء، ولكن استطاعت بحكمة أن تتحمل وتصبر وتستمر. أما «موريس إبراهيم» ف شعر بنوع من السعادة، حتى وهي بعيدة كان يضعها نصب عينيه، كان يكرهها لشدة ما كانت تفرض عليه القوانين الصارمة، ولما جاء الخبر قال في نفسه: «انتهت إلى الأبد... فلتصحبها اللعنة».

وجلس «خرستوف» يتجرع أكواز البيرة ويتذكرها، وتذكر عندما جاء من جنوب السودان، قطع المسافة الشاقة في يومين، ولما وصل القاهرة، قصد الحسي الإنجليزي، لم تكن معه حقيبة، ولا أي شيء، جلس أسفل كوبري النهضة يتسول، كانت قامته المقوسة ونحافته تجذبان أصحاب القلوب الرقيقة، لكنه لم يستمر طويلاً متسولاً،

توظف في مكتب «ناكسي الحسي» في وظيفة ماسح سيارات الأجرة، كان شتاء العام قارسًا، وأثناء مسحه لسيارة ارتطمت إصبعه الكبيرة في الرف البارز الصدئ، فتتج عن ذلك إزالة الظفر وتدفقت الدماء بغزارة، وسرعان ما أحضر ملحًا وكبس به الظفر، واستأنف مسح السيارة، ومن حوله السائقون ينعتونه بالحلوف.. كيف يستمر على ذلك؟! وكان «خرستوف» يعاني ألمًا شديدًا، ولكن هل يذهب للطبيب ويعالج إصبعه ويفقد فرصة رائعة لجعل الناس يعطفون عليه؟ ولكن نعتوه بالحلوف، إنه لا يتألم أمامهم، لا يبدي أي اهتمام بهذا الجرح، وخاب ظنه. ولما كانت الأموال شحيحة، قبع في كنيسة «القديس يوحنا المعمدان» لحين إيجاد فرصة عمل، وصرفت له الكنيسة مبلغًا من المال حين الحصول على وظيفة. وجاءت «سيريا» وأخذته، وكانت بداية جديدة لحياته، المدام الرائعة الجميلة المتواضعة عطفت عليه، واحترمت آدميته؛ لذلك برع في تنظيف الفيلا الضخمة وأيضًا الحديقة، رغم أن هذا كلفه جهدًا شاقًا، ولكن أراد أن ترضى المدام عنه، وحدث، ولما عرضت عليه أن تأتي بخادمٍ آخر اعترض بشدة. وبكى.. «خرستوف» وتساءل في نفسه: «كيف تتركني؟» كأنها ستبتاع شيئًا وتعود، على الرغم من أنها ذاهبة إلى جنوب السودان؛ بلده الذي هرب منه، لكن معها كان من الممكن أن يذهب إلى الجحيم.. أحبها، أحبها جدًا، معها كان يشعر بالمتعة، عندما كان يأتي زوجها ويشاهدها معه، كان يشعر بالغيرة، ولما كان يسمعها تصرخ في لذة أثناء الجماع، كان يركل أي شيء أمامه، وعندما يسافر «نوم» يتنفس في إيقاع هادئ ومنضبط.. يتأملها كما لو أنها ابته، تزكم أنفه رائحتها النظيفّة، تغمره السعادة حين تناقشه، أو عندما تختلف معه على شيء فتدفعه في صدره وتبعد عنه، وتظل لأيام لا تطلب منه

شيئا، تصنع الطعام أو الشاي لنفسها. عندما أنشأت الرابطة وكان هو آخر من يعلم شعر بالحزن من شيئين؛ أولهما أنها لم تهتم به، وثانياً أن الفيلا لم تعد مسرحاً لهما فقط، بل أصبحت نادياً، وشاركها فيه العشرات من الرواد والخدم.

وعاش أياماً تعيساً، وفي نهاية عام ١٩٩١ جاء «فيليب أنطوان» الرابطة وصافح العاملين، وسافر، هكذا وكان الطائفة تنتظره في الخارج، بالطبع الأعضاء كانوا يعلمون برحيله. ولما أوشك العام على الانقضاء، رحل «وينسون» وكان الوحيد بين الأعضاء القريب منه. وعاش «خرستوف» حزيناً منكسراً.. يعمل في صمت، ولا يعلق على شيء؛ فقد حماسه لكل شيء.

تولى السيد «لارس هيو» إدارة الرابطة بالانتخاب، وظل السيدان «إبراهيم مسعود» و«زاهر عبد المجيد» هما المصريين الوحيدين في الرابطة. إبراهيم مسعود أسندت له مهام كثيرة، وظل يعمل بقوة من خلال مركز التنوير الذي يديره. والسيد زاهر هو مالك الفيلا، ظل عضواً ضعيفاً، يأخذ الإيجار، ويجلس وسط الأجانب كل ليلة يتحدث عن نفسه أكثر مما يتحدث عن المصريين، وظل وجوده لا معنى له، وجاهد ليقدم أي اقتراح، ولكن سرعان ما كان الأعضاء يُعرضون عن اقتراحاته التي تتسم بالعنصرية، نشبت بينه وبين «موريس ابراهيم» خلافات كثيرة، تدخل في إدارة المطبخ، فتصدت له مدام «فالييري» وقال له «موريس» ذات مرة: «اخرج من هنا» فما كان من زاهر إلا أن تقدم نحوه بقفزة سريعة، ثم صفعه على وجهه وبصق عليه، وقال له بعنف: «اخرج برة».

وتدخلت مدام «فاليري» والسيد «ستيف بوب» وأقنعاه بأن «موريس» يدافع عن عمله، وأنه لا يقصد إهائته، ولكن ظلت المدام والسيد «ستيف» متحفظين على الصفة وقالوا له:

- مستر زاهر، مهما يكن الأمر لا يحق لك أن تصفه على وجهه.. يجب أن تعتذر له فورًا.

انفعل زاهر وتركها وقال بصوت سمعه الأعضاء: «من هذا الخنزير لأعتذر له؟ أنا زاهر نعمان» وشعر بتزعة عدوانية تجاه كل من حوله؛ تزعة جعلته يثار من الجميع وينبئهم بمكائنه، إنها فرصة ليتحدث عن نفسه، فاستأنف بالإنجليزية: «نحن من كنا نملك البلاد.. نحن من زرعنا، وصنعنا، ونهضنا.. أنا.. أنا.. أنا.. جدي عبد المجيد باشا من أهم الوزراء في تاريخ البلاد.. يفعل بي هذا؟! أنا من النبلاء، أنا أستطيع أن أدير عشرات النوادي، أستطيع فعل كل شيء.. والآن تدعواني لأعتذر لهذا الخنزير.. إنها القيامة».

وفي النهاية تدخل «جان مورينو»، وصرف «موريس»، وقدم اعتذاره لزاهر، وقال له:

- هو لا يعرف كل هذا.

ودخل «موريس» المطبخ وخذوده ترتجف من الترفزة، وأخذ يزججر، وينفخ، ثم جلس بجانب «ديوانا» وقال لها:

- عنصري كلب ابن كلب.

- اهدأ يا «موريس». هكذا قالت «ديوانا» وهي تنفث دخان السيجارة.

- الكلب يقول عليّ خنزيرًا وحيوانًا.. ضربني بالقلم.. آه.. أنا والدي لم يفعلها.

- معلش.

- آه.. فينك يا مدام.. رغم أنها كانت كريهة، لكنها حقانية.. الشاذ «جان مورينو» صحيح فرنسي عنصري، أنا لا أرتاح له أبدًا.. وقال له وظنتني لم أسمع: «ده جزار خنازير لا يفهم».. آه.. الشاذ كمان يتحدث.. أنا أموت ومحدث يهينني.

حدجته «ديوانا» بنظرة طويلة، وقالت بنبرة يفهمها:

- ماذا ستفعل؟

- آه.. لا شيء.. أنا أتحدث لأستريح فقط. وقام يستأنف عمله.

من هو «زاهر كمال عبد المجيد نعمان»؟

هو حفيد «عبد المجيد باشا نعمان» الذي تولى وزارة المعارف والحقانية دفعة واحدة في حكومة أحمد باشا زيور، ووالده «كمال عبد المجيد» الذي نال البكوية لجهوده في تنمية زراعة القطن، والدته هي الخادمة الإنجليزية «روز روجر» تزوجها والده أثناء البعثة هناك، وعندما جاء بها لم يعترض الباشا، ولا والدته «تحفة هانم» على الزواج، بل استقبلوها بدبلوماسية مفرطة، كأنها أميرة من العائلة الملكية الإنجليزية، ومن أجلها اشترى كمال فيلا «سوارس» من شركة أراضي الدلتا، وكانت تحت وصاية الحكومة المصرية في عام ١٩٥٨.. كان «كمال بك» فلاحًا ماهرًا، استطاع أن يقرأ المشهد السياسي بعد الانقلاب على الملك، على الفور أيد حركة الضباط، وتنازل عن

أطيبانه، واندمج وعائلته في العمل مع الضباط، وكان قد ناهز الستين عامًا، يحرص أن يتحدث معهم باللكنة الفلاحي؛ ليوحى لهم بأنه فلاح مثلهم، وليس نرجسبًا مثل الملك، وأذعن لهم بصورة كبيرة أمته من أشياء كثيرة، وأبقت على مئة فدان من أصل ثلاثة آلاف حول سراي ملوي، وعلى فيلا الحى الإنجليزي.. ومات كمال بعد أن ناهز اثنين وثمانين عامًا، وكانت صحته جيدة؛ مات حزنًا على موت «روز»، كان ذلك في عام ١٩٧٠. وتشعبت الأسرة في العمل مع الضباط، وشغل البعض منها مناصب كبيرة ومهمة، حتى إن كثيرًا منهم انضم للاتحاد الاشتراكي. وكان زاهر قد حصل على بكالوريوس الزراعة، وعمل في أرضه، واهتم بإنتاج أجود المحاصيل، لكن بعد قيام الثورة ألقى به في الزبالة، وقال له والده: «تلك قوة قادرة على سحق أي عائلة؛ إنها قوة تملك كل شيء.. ليست كقوة الملك، ولا الأحزاب؛ لكنها قوة أخرى عتادها الفقراء ولاد الكلب.. حذار يا زاهر أن تعارض هؤلاء الفلاحين؛ هذا زمنهم». وتزوج كثيرًا من أجنبيات ومصريات، وكانت آخر زوجة من عائلته تُدعى «كاملة مرتضى»، تزوجها وقد تجاوز الخامسة والخمسين عامًا، واستمر الزواج ثلاثة أعوام فقط من عام ١٩٧٦ حتى عام ١٩٧٩ وفي هذه الفترة شغل وظيفة وحيدة، لكنه في النهاية أذعن لرغبة مدام «كلير» صديقتة الوحيدة، التي ألحت عليه أن يفتح مكتبة أمام البوابة الرئيسية للمدرسة الأمريكية، والحقيقة أن مدام «كلير» أنعشت حياته، وذكَّرت به بالماضي، كانت جميلة، وكانت بجهاها الرائع تُشعره بثقة كبيرة، حتى إنه قرف من زوجته «كاملة مرتضى» وتركها في الفيلا، ومكث في شقة شارع ١٥ ليتفرغ لصداقة «كلير»، كان ذلك في عام ١٩٧٦.

ولكن كيف تعرّف على مدام «كلير»؟

في ذات صباح عندما كان يمارس رياضة المشي التي تنعش مزاجه وتجعله قادرًا على مواصلة الحياة، سمع امرأة تصرخ وتستغيث؛ فاندفع حيث مصدر الصوت، وكانت المرأة ما زالت تصرخ بثلاث لغات؛ الإنجليزية، والعربية، والفرنسية: «Help me» «Aidez moi».. ساعدوني؛ حيث هاجم أبناءها الخمسة (وهم كلاب «الجريفون» الصغيرة، والمدام تطلق عليهم أبناءها) كلب بلدي وحشي ظل يطاردهم في حديقة ميدان السوارس، ولكن للأمانة فإن الكلاب الخمسة تكاتفوا؛ فائتان شغلاه من الأمام، وثلاثة هاجموه من الخلف، وفي اللحظة الفاصلة تدخل زاهر وركل الكلب بقسوة وأنقذ الموقف، ومن وقتها أصبحت صديقتة الحميمة.. إنه أنقذ أبناءها.. وبعد أن أنقذهم لم يتركها هكذا تبكي، قال لها: «سنذهب بهم إلى الطيب». وذهبوا لعيادة طب بيطري في شارع «١٠٥»، وتم الكشف على الأبناء بعناية، وتم تطعيمهم ضد أي عدوى. كل صباح يتقابلان، ويتمشيان معًا.. وعزمته على العشاء، وكانت تقطن فيلا رائعة في عقارٍ قديم بالقرب من ميدان سوارس. وتعرّف على مسيو «لوي»؛ موظف في السفارة الفرنسية، قصير وله كرش كبير، تبدو عليه البلادة؛ بلادة الموظفين.. كان واقفًا مستندًا بذراعه على حافة المقعد مشعلًا سيجارته متظاهرًا بالاهتمام، وكانت المدام طوال الجلسة تشي على زاهر، وكان مسيو «لوي» فيما يبدو مغتاظًا.. كانت تقول: «لوي، أنت لم تر كيف دافع مسيو زاهر عن الأبناء» ثم تحدجه بنظرة ذات معنى. وفطن زاهر لدلول ذلك، وقال في نفسه: «المرأة كائن عجيب.. تستطيع أن تصل إلى قلبها من خلال الأشياء التافهة التي تجبها؛ فإذا

كانت تحب الكلاب أو القطط أو الحمير، فلا بد أن تتظاهر بحبك لهم لتكسب قلبها.. أما «لوي» هذا فيبدو غيًّا.

وسعد جدًا بصداقة المدام الجميلة الرقيقة، وكانت تعزمه على العشاء في غياب زوجها، ومارس معها الجنس متغلبًا على نزعتها الدينية التي تجرّعها من جده الباشا أثناء إقامته في ملوي، وقال لها: «أنا لا أستطيع الاستمرار» فقالت له: «أنا أحبك».. ولما ينست منه قالت له: «لتكن صداقة بريئة إن كان هذا التعبير يربحك». وظلا صديقين، يجلس معها فتعزف له مقطوعات «كلود ديبوسي». كان بينها جميلًا مثلها، ثمة رائحة يفتقدنها بعيدًا عنها، صوت كلابها الصغيرة، صوتها الرقيق، نظرتها.. كل ذلك كان يشغله بها، وتحولت الصداقة لشيء أشبه بالاندماج الروحي، فحدثته: «لا بد أن تتوظف» وقال لها: «أكره الوظائف» فاقترحت عليه أن يستقبل الحي وما طرأ عليه من توسع بمكتبة كبيرة، مقرها يكون أمام المدرسة الأمريكية.. تقبل اقتراحها بالحماس، وظلت تدرس معه الأمر جيدًا، وكان الافتتاح في مارس من عام ١٩٧٧، وبفضل صداقته بها وأقاربه الإنجليز استطاع أن يستورد الكتب الإنجليزية والفرنسية في كافة المجالات.. كان موقع المكتبة رائعًا؛ حيث يقع أمام البوابة الرئيسية للمدرسة الأمريكية، فتوافد عليه الطلبة والمعلمون.. وكانت في عمارة قديمة، تحتل طابقين؛ طابقًا خصصه لعرض الكتب، فضلًا عن مكتبه الذي كان يجلس فيه باستمرار، والطابق السفلي خصصه كمخزن، بالإضافة لتخصيص غرفتين فرشهما بالأثاث الجيد لإقامة المغتربين فيها؛ حيث كان يعمل معه شابان من بلدته «ملوي»، علاوة على خادمين من النوبة كانا أبناء رجل عمل في خدمتهم في سراي ملوي؛ أحدهما يدعى «رُمان» والآخر «بشير»، وعمل في المتجر عدد لا بأس به من العاملين أكثرهم

من النوبة، لكن الشابين اللذين جاءا من بلدته استطاعا أن يفرضا سطوتها على الجميع، متشفعين بقربهما منه؛ لذلك كانا يعتقدان أنها أحق الناس بحماية أمواله من اللصوص، والحرص على مصالحه؛ ففردا فقط لنقل أي محادثة تدور بين العاملين، فكان أحدهم ويدعى «عامر» شديد المكر، حتى ذات مرة ذهب له قائلاً في لؤم: «لقد أنجبتُ ولدًا وأطلقت عليه اسم «زاهر».. وعلى الرغم من ذلك، كان زاهر يشعر بالسعادة، إن نزعته الأرستقراطية تجعله يفرح جدًا بوصلات النفاق، فلا أحد ينافقه إلا ويمنحه علاوة كبيرة، تقرب من ريع راتبه، وأحيانًا النصف، يضعها في مظروف من الورق الفاخر، ويكتب على المظروف من الخارج اسم الشخص مقرونًا بكلمة «الأستاذ»، هذه الطريقة في معاملته مع الخدم والموظفين تجعله يشعر بمكانة كبيرة جدًا؛ فإذا كان هذا أو ذاك «أستاذًا» فماذا يكون هو؟ وأيضًا بهانوع من السخرية، فمثلًا يقابل الخدم أو الموظفين، أو حتى عمال النظافة في الشارع ويلقاهم بهذه العبارات، فليس عامل النظافة «باشا» وإلا ما كان عمل في هذه الوظيفة، ويتلقاها هؤلاء في سعادة بالغة تعكس ظنًا حسنًا في تواضع الرجل، ولكن ثمة شعور بالنقص يعالجه بالسخرية من المجتمع المحيط به. أما عامر فإنه أبلى بلاءً حسنًا في نفاقه، فذات مرة ذهب الأستاذ زاهر إلى إنجلترا ليتسوق الكتب، وقام عامر بالاتصال به بعد محاولات يائسة حيث كان يقيم في فندق في قلب العاصمة، ولما نجحت إحدى محاولاته قال له: «أنا عامر يا سعادة البك.. بطمئن عليك.. هل أنت بخير؟ لقد قرأت في الصحف أن الطقس في لندن تحت الصفر.. أتوسل إليك أن تقل من ثيابك».. مثل هذه المناورات النفاقية تسعده جدًا، ويعلم

عامر أنه بهذه المناورة حجز مكانة كبيرة عند البك.. وفطن عامر لشخصية زاهر، فبدأ يكثف من نفاقه.

وكان الأستاذ زاهر مؤمن جدًا بأن الفقراء جميعهم منافقون ولصوص وكذابون، باستثناء النوبيين؛ لأنهم يعرفون حدود خدمتهم، حتى لو تلقوا تعليمًا جيدًا فإنهم أيضًا سيظلون هكذا، وذات مرة سأله «كبير»: «لماذا توظف أصحاب البشرة السوداء؟» فقال لها بالفرنسية: «هؤلاء من سلالة تخدمنا من أيام جدي الكبير النعمان». اختصر «رُمان» بالعمل في البيت وأحيانًا في المكتبة، كان لا يصدق أحدًا ولا يآتمن أحدًا على سر سوى «رُمان»، وكان «رُمان» يعلم بخبرة ربما توارثها عبر أجيالٍ عملت مع هذه الطبقة «من أين تؤكل الكتف» في كلمتين لا ثالث لهما هما: «حاضر.. ونعم» لا شيء ثالثًا، ربما لم يسمع غيرهما طوال فترة خدمة «رُمان» له. والحقيقة أن زاهر شديد التواضع حيال الأعمال الإنسانية، وهذا ما ورثه عن جده «عبد المجيد باشا»؛ فذات مرة دخل عامر مكتبه فوجده ينهر «رُمان» على إهماله في صحته، وسرعان ما قال له: «اذهب إلى هذا الطبيب، وأنا سأحدثه في التليفون»، علاوة على أنه شاهده وهو يأمره بفتح فمه لإعطائه الدواء بيده.. وللأمانة فإن «رُمان» نال رضا لحفاظه على المسافة الشاسعة التي تفصل بينهما؛ بين الخادم والسيد.. مهما بلغ زاهر من حديثه معه حتى في الأمور الشخصية، فلا ينبغي له أن ينسى نفسه؛ تلك فوارق لا ينبغي أن تزول أبدًا.. إن زاهر لا يقبل أن يُملي عليه أحد أمرًا، أو أن يسمع من أي أحد أي اقتراح أو مشورة، فهو يرى نفسه قادرًا على قيادة الجميع إلى الطريق الصحيح؛ لذلك لم يستقر في الوظيفة الوحيدة التي شغلها عامًا واحدًا، حيث عمل في قسم الترجمة في رئاسة الجمهورية، بعدها نشب خلاف بينه

وبين رئيس الديوان، جعله يقدم استقائه فوراً.. ولما سأله عامر بطريقة خيثة: «سعادة البك، لماذا تركت العمل في الرئاسة؟» نظرت زاهر نظرة طويلة ولم يجبه، حتى إن عامر اعتقد أنه لم يسمعه، فعاد يسأله مرة واثنين وثلاثة، ولما زفر زاهر بتنهيده وحشية، فطن عامر لغضبه، فاعتذر تلقائياً، وتوارى عنه أياماً لينسى هذه الواقعة.. هل ظن هذا الحقيير أنه صديقه ليتحدث معه في أمر شخصي مثل هذا؟ كيف يجرؤ على ذلك؟ أما «رُمان» فلا يمكن أن يحدثه في ذلك أبداً. لا يتوقف زاهر عن استعراض وجاهته وثقافته، هو يتحدث فقط عليك أن تسمعه، وليس فقط تسمعه، بل تصغي بكل جوارحك له.. حدث مرة عندما كان يتحدث للعامل فلاحظ عاملاً يبدو عليه عدم الاكتراث، فتقدم نحوه ولكمه في صدره، وقام برفله. أما عندما يكون غاضباً من شيء، فلا يحسن لك أن تتحدث معه. وعندما مرضت زوجته «كاملة مرتضى» قبل أن يطلقها، تحدث إليه عامل في التليفون ليطمئن عليه وقال له: «ربنا يطمئنك يا سعادة الباشا.. صحيح العيال عاملين إيه دلوقتي؟» هو يقصد زوجته، و«العيال» هنا «كناية» يقصدها أهل الريف في وصف الزوجة، وشعر زاهر بالفيظ وكاد أن يطرده، لكن الذي شفع للعامل هو جهله بكيفية الحديث مع هؤلاء الناس. يستريح جداً لتلك العقلية، تذكره بأهل «ملوي» الذين كانوا يقفزون من فوق حيرهم عند مشاهدة جده أو والده؛ احتراماً وإجلالاً، تلك النوعية يحرص وبشدة أن تعمل عنده (لذلك كان متزعجاً جداً من «موريس إبراهيم» لأنه قاومه). أما إذا أردت أن تقرب منه، فعليك أن تعمل عدة وظائف في آن واحد.. أن تكون جاسوساً على زملائك، وهنا يجب التوضيح.. ليس جاسوساً بالمعنى الإيجابي للكلمة؛ يعني مثلاً إذا شاهدت زميلاً قام بالسرقة فينبغي

لك أن تحدثه في ذلك.. ولكن زاهر لا يريد جاسوسًا من هذا النوع الإيجابي، وإنما يريد جاسوسًا يتلصص على زملائه، وينقل له أدق أسرارهم الشخصية، حتى له جملة يعرفها كل من عمل عنده وهي: «إذا شخص تف، ضع التفة في ظرف وأرسلها لي».. وأن تقوم بخدمته هو شخصياً بجوار خدمتك في المكتبة، وألا تسأل أبداً، وأن تتحمل غضبه؛ فإذا صفعك على خدك الأيمن تدير له خدك الأيسر.. علاوة على أنك لا بد أن تضحك على نكاته السخيفة واستعراضه لحفة الظل، ولا بد أن تبدو أمامه مذهولاً بعقليته الجبارة، وفي ذلك مجهود عظيم.. وأن تكون تحت طوعه ليل نهار، لا تحدثه في مواعيد العمل، لا بد أن تشعره أنك تحت أمره في الأربع والعشرين ساعة، ولا تحاول أن تناقشه؛ لأن مناقشتك له تعني أن هناك أخطاء وقع فيها، ولا تحاول أن تبدو أمامه مثقفاً، واستخدم في حديثك معه عبارات تدل على أنك جاهل.. بهذه الطريقة ستضمن ألا يغضب عليك أبداً، وسيمنحك نقوداً كثيرة لأنك تعرف حجمك تمامًا.

وفي نوفمبر من عام ١٩٧٩ أغلق المكتبة، بعد أن تكاثرت الديون، وتنازل لأقاربه عن بضعة أفدنة، وسدد تلك الديون.

والأستاذ زاهر لم يأخذ من أمه إلا عينيه الخضراوين فقط، وكان طويلًا، وله صدر عريض، ورأس كبير، وشعر ظل حتى بلوغه السبعين عامًا أسود، يتخلله الشعر الأبيض على استحياء. وعلى الرغم من أنه قد طرق باب فيلته سمسرة كثيرون جاءوا بهدف التوسط بينه وبين قنصليات وسفراء كانوا يرغبون في أخذ الفيلا، فإنه رفض بشدة، لكنه استسلم لرغبة مدام «سيريا هوارد مورس»

بسرعة، كأنها أمانة كان يحتفظ بها لسنوات وعادت لصاحبها.
ومنذ أن ترك الفيلا لمدام «سريا» في عام ١٩٨٠ وهو ينتظر كل
أول شهر «خرستوف» الذي يأتيه بالإيجار.. يرحب به جداً، ويصنع
له كوب الشاي بنفسه، ويجلسان يتحدثان مع بعضهما، هو بالطبع
يستدرج «خرستوف» بطريقته؛ ليعلم منه كل شيء حدث ويحدث في
الرابطة. وفي كل مرة يزداد اندهاشه بإيمان هذه المرأة المجنونة التي
تنفق على الفقراء بسخاء. وكان «خرستوف» يفرط في وصفها؛ فكان
يصفها بالملاك، وكان يتغنى بإنسانيتها؛ الأمر الذي جعل زاهر يقرر
أن يسهر كل ليلة خميس عندها ليراقب الأوضاع عن قرب، على أن
«خرستوف» كان يذهب له كل صباح يوم جمعة لينظف له الشقة، ثم
يذهب له في مكتبه ويقول:

- أي خدمة يا مستر زاهر؟

وهنا يفتح زاهر الدرج ويلتقط منه عدة ورقات نقدية يضعها في
ظرف، ثم يمد يده قائلاً:

- تفضل يا «خرستوف»، شكراً جزيلاً.. أبلغ سلامي للمدام.
يتقبلها «خرستوف» بسعادة واحترام شديدتين، ثم ينحني بتحية،
ويتقهقر حتى يبلغ باب مكتبه ويغلقه خلفه في حرص.

وعاش فترة الثمانينيات في فراغ قاس، اكتفى فقط بحضور الحفلات
والسهرات في الحي، وكانت الدعوات تأتيه إما من أسر صديقة، أو من
الأجانب الذين يعرفونه، فضلاً عن حضوره حفلات كثيرة في «رابطة
المغتربين»، وكان يجلس بينهم سعيداً، ومرات حضر حفلات في السفارة
الإسرائيلية بمناسبة اتفاقية السلام، وكانوا يعرفونه جيداً؛ ليس لأنه
كان موظفاً في الرئاسة، ولكن لكونه من أقطاب الحي، وكان السفير

يرسل له برفقة ومعها زجاجة سكوتش ويسكي فاخرة في صندوق ملفوف بعناية، كان يأخذها ويعطيها لمدام «سيريا»، لكنه حتماً فقد أصدقاءه المقربين، آخرهم «أحمد لطيف» الذي هاجر بعد الحرب إلى فرنسا، ويتذكر عندما كان يقول له: «اعترف يا أحمد.. أنت اشتراكي متعفن.. هل كنت تقبل أن تزوج ابنتك لابن الخولي كما زعم هؤلاء؟» فكان يرد عليه ووجهه أحمر من فرط الضحك: «أنا لستُ غيباً.. فليس معنى أنني أتحدث عن حقوق الفقراء أن أناسبهم» وكان زاهر يستریح جداً لهذه الإجابة، ويزيده أحمد لطيف من الشعر بيتاً فيقول له: «حتى هؤلاء الضباط الذين قاموا بالانقلاب على الملك ونادوا بالمساواة لا يمكن أن يقبل أحد منهم أن يزوج ابنته لابن الخولي.. إن ابن الخولي له دور ثانوي في لعبة السياسة؛ لا يمكن التخلي عنه أبداً، ولا يمكن أن يصبح يوماً ما بطلاً». وكان أحمد لطيف ابن «عبد اللطيف باشا»، وكان ينتقد الملكية في شراسة؛ فيقول دائماً عنها: «إنها كانت لعنة من السماء، مات الكثيرون ولم تتنفس البلاد» ويقول لزهرا: «عندك مثلاً فؤاد باشا جرجس، أثناء وباء السل تبرع لبناء مصحة كبيرة لأبناء الإسكندرية، ودفع ٢٥ ألف جنيه أخذتها منه الدولة وأودعتها خزانتها ولم تبني المصحة، ومات الكثيرون جراء هذا الوباء العظيم.. وعندما جاءت الأميرة إليزابيث لتجمع تبرعات لبناء مستشفى العالمين لعلاج الجنود الإنجليز، هرع الباشاوات للتبرع بألاف الجنيهات، وأولهم كان والدي عبد اللطيف باشا.. هاهاها».

والآن وبعد رحيل «سيريا» يجلس في الرابطة يتحدث مع الأجنب عن ماضيه، فضلاً عن حضور مدام «كلير» بكلابها الخمسة، أو يذهب لتناول الطعام في لاكازيتا.. أما في صباح هذا اليوم فقد جاءت له المدام كعادة كل صباح ليتناولوا الإفطار في الرابطة، إلا أن «موريس

إبراهيم» على غير عادته دخل الحديقة، وهذا ممنوع لععمال المطبخ،
فشاهد مدام «كلير» فذهب يصفحها بحرارة؛ حيث كان يقوم برعاية
أبنائها، فقال لها زاهر: «اقطعي علاقتك بهذا الحرامي القذر» فقالت
له مندهشة: «لماذا؟!» وشعر بالغيظ أكثر لاستفسارها، فقال مدفوعًا
بكرهية عمياء: «أنا أقول إنه لص.. هل تفهمين؟».

واغتاضت وقالت له: «زاهر، أرجوك.. مورييس موظف محترم».

وشعر بالغيظ فقال لها: «خلاص.. خلاص.. أنا أردت فقط أن
أقول الحقيقة».

الجزء الثاني

أثناء إقامته في القاهرة، عندما كان ملتحقًا بكلية الآداب قسم اللغة العربية جامعة القاهرة، تعلم الكثير.. استطاع في عام واحد أن يكون شخصًا آخر.. تعرّض للنصب، وللتهميش، وللسخرية.. شعر بالمرارة.. كائن ضئيل جدًا.. العبارات الشاهقة المرصعة واجهاتها باللافتات المضيئة، والحلي المزخرف بكل أشكال البهجة والسعادة، محال الكاسيت تصدح منها الأغاني ليل نهار، مطاعم الفطائر الأمريكية الكثيرة والكبيرة، المقاهي الفخمة التي تقدم الشيشة بنكهة التفاح، الممرات الضيقة التي يكمن فيها السر.. وقال في نفسه: «ها هو الغزو يأتيكم يا أهل مصر». أما النساء العاهرات بنهودهن ومؤخراتهن فيقفن على الطوار، وبخبرة يعرفن كل من هو جاد.. يعرفن متعقبي المؤخرات.. ملعونات ولكنهن جميلات؛ الأمر الذي جعله يتحرر شيئًا فشيئًا قائلاً: «لكل شيء ثمن.. وها أنا دفعت لكم لكي أتعلم». وذهب حيث شارع عماد الدين، وأقام في فندق «كايرو خان» ليلة ومسح الشارع، وسرعان ما اكتشف أنه جاء متأخرًا بنصف قرن على الأقل.. أين الكباريات؟ الراقصات؟ البارات الراقية؟ وقال: «ماذا تظنون أنفسكم؟ لقد أخذت اللسان وأصبحت واحدًا منكم». وذهب إلى إمبابة؛ مغامرة في بيت قوادة، كم تثيره هذه المغامرات.. ويشتر فلسفته على الجميع فيقول: «المتعة أن تصل للمتعة مقطوع الأنفاس، وأنا أريد خوض المعارك بصدر مفتوح.. الموت سيأتي لا محالة؛ أموت وأنا أحاول أفضل بكثير من الموت فوق أفخاذ امرأة سهلة.. الانتحار يا سادة هو أن تقبل بحياة تقليدية.. الموت.. الموت.. في سبيل المتعة».

وطارده البلطجية، وأخذ يركض منهم بسرعة كبيرة، بعد أن صرخت الفتاة وقالت: «حيوان!».

ويجلس في مطاعم الفطائر التي يجبها ويقول: «آه.. كم أهوى الفتاة التي تؤمن بأنوثتها.. حتى أفقدها أنوثتها».

يشعر «نوّاف الرشيدي» بلذّة وهو يضاجع المرأة؛ لذّة تكمن في صراخها.. تستفزه المرأة التي تثن في استمتاع.. لا بد أن تهرب من وطأة جسده القوي، وتركض منه.. لا بد أن تصده بيد ضعيفة.. توصل إليه.. يتقوس جسدها، وتقلص عضلات وجهها، وتصرخ تناجي أمها. ويتذكر وهو جالس جلسته المعتادة التي يحرص عليها في مطاعم الفطائر، فتاة شاهدها في أحد المقاهي وكانت بصحبة صديقه.. نظر لها نظرة طويلة، ثم ذهب. وفي اليوم التالي التقى صديقه، الذي قال له: «تقول عنك شيطان»؛ فضحك «نوّاف» وقال: «صحيح.. وهي أيضًا شيطانة». واندهش صديقه وقال له: «ماذا تقول؟!»، فأجاب بثقة: «الشياطين يعرفون بعضهم البعض.. وعاجلاً ستضاجعها.. بالمناسبة هي نظيفة جدًا».

ويضحك «نوّاف» وهو جالس؛ فلقد جاءه صديقه بعدها بثلاثة أيام وقال له: «نعم كانت نظيفة!».

(هو «نوّاف الرشيدي» من الخليج)

نشأ في بيت «الرشيدي» تاجر البلح؛ حيث كان يملك آلاف الأشجار.. أنجبه «الرشيدي» بعد أن تجاوز الخمسين عامًا، وتفرغ لتربيته تربية خاصة بعد أن لاحظ عليه نعومة ونضارة ليست على أحد من أبنائه الكثر. وبعد أن تجاوز «نوّاف» العشرة أعوام، بدأت تظهر معالم جديدة عليه استفزت «الرشيدي» جدًا؛ حيث بدأ ناعماً رقيقاً في حديثه.. فضلاً عن نطقه لكلمة «آه»؛ يقولها بطريقة أنثوية.. مما أثار غضب الوالد جدًا. فلطمه بقوة؛ فسقط «نوّاف» مغشياً

عليه. وعاش «الرشيدي» في مرارة حين زاره أحد الشيوخ الكبار وجلس معه يتحدثان في تجارتهما. ولما دخل عليهما «نوّاف» تقدم في براءة طفل ليصافح الشيخ، فجذبه الشيخ بنعومة وأبقاه بين فخذه، وربت على مؤخرته.. فقام الرشيدي ونزعه بقوة من يده، وطرده الرجل بعد أن أسقطه على الأرض، ويعلم الرشيدي أنه بهذا الفعل خلق له عدوًّا كبيرًا له نفوذ في القبائل المجاورة، لكنه لم يتحمل أن يرى ابنه في هذا الوضع.

وعاش «نوّاف» في مرارة تحت سطوة الأب القوي، الذي طلق أمه ظنًا منه أنها السبب في رفته المبالغة.

وقرر أن يعلمه أصول الدين؛ فاستقطب له دعاة مصريين من بعثة الأزهر، ودعاة أيضًا من قرينته. وشعر «نوّاف» بأنه محاصر، وضاق صدره؛ فقرر أن يتمرد على ذلك.. فبدأ يراقب نساء العائلة، لكنهن في غطائهن الكامل لم يُبدین أي إثارة. واستحوذت عليه رغبة في فعل أي شيء شاذ.. إنه يريد أن يحتج على معاملة والده، يريد أن يصرخ في وجه العالم؛ ليس ذنبه أنه وسيم ورقيق. ومارس العادة السرية بعد أن تدفقت نار المراهقة في عروقه، فتهتكت طبقة الجلد، وشعر بالم فظيع. وذهب إلى داعية كبير في أحد مساجد قرينتهم، وقص عليه ما حدث لنقضيه؛ فأزعجه بخطبة طويلة عن الشيطان. وصرخ «نوّاف» في وجهه: «ابن كلب، أعلم ذلك.. ولكن ماذا أفعل أنا؟». وأعطاه دهانًا طبيعيًا، وتم الشفاء في أسبوع. بعدها بدأ يمارس العادة بهذا الدهان اللذيذ. وقرر والده أن يزوجه؛ فسعد بذلك جدًّا، الآن سيكتشف عالمًا طالما شاهده كجدار أسود، وفي ليلة الدخلة شرعت الفتاة في تنفيذ تعليمات أمليت عليها؛ فقالت له: «هيا لتصلي بي». قطب حاجبيه،

وسيطرت عليه رغبة قوية في لطمها؛ إنه لا يريد أن يملي عليه أحد أي تعليقات مرة أخرى، وصرخ فيها بعنف: «اذهبي وبلدي ملابسك». وجلس يتأملها وهي قادمة نحوه تحت ضوء الصباح.. بدأ جسده من وراء قميص النوم عالماً كبيراً يحوي ملايين الأسرار. قفزت بسرعة فوق السرير واندست أسفل الغطاء؛ فقفز بجوارها.. وعن قرب اكتشف أن النساء عالم خطير؛ كيف كان والده يقسو عليه ويصفه بالإناث.. كيف؟ خلقهن الله من طينة أخرى، يختلفن عن خلقنا تماماً.. جلدهن شفاف رقيق، وعظامهن طرية، لحمهن يخلو من العضلات؛ عالم طري. وجردها من ملابسها، وبصر ذئب ظل يكتشف أسرارها. وكلما تنطق اسمه تحت وطأة راحتيه القويتين، يقول لها: «هذه أملاكي!». اعتصر ثديها فصرحت، ولطمها على مؤخرتها مرة ومرة أخرى.. ثم بدأ يكتشف عالماً كبيراً؛ عالماً منفصلاً أشبه بالكرة الأرضية، وقال لها: «نامي». وطرحتها على بطنها، ثم أوجع فيها بقوة؛ فصرخت تستغيث.. فضلاً عن محاولات بائسة للهروب منه. قيدها من يدها، واستمر يضاجمها بقسوة وهي تصرخ.. قضى وطره عدة مرات في عملية واحدة؛ حيث أتاها من «دبرها».. شعرت بتهتك الأربطة وبألم شديد؛ فعادت تصرخ وانتفضت.. انقبض قلبه من صرختها التي اخترقت جدران الغرفة، لكنها أنعشت، وإذابه يهدئها، ويعاود المحاولة معها من جديد. ولما انتهى شعر بمنعة كبيرة، وظل يراقبها وهي تبكي، ثم طوقها برفق وقال لها: «لا تخافي مني». ثم ظل يُقبلها.. وبدأت مستسلمة تماماً، وتوقفت عن البكاء. وأدمنت الفتاة هذه العادة، بعد أيام كانت تشعر بالمرارة من أثرها المؤلم، ولما فترت عضلة الشرج بدأت هي تطلبها منه. وتمرت على ممارسة الجنس معه؛ تعلماً مع بعضها أداء القبلات ببراعة، للدرجة

لهم كما يستتر فان وقتاً طويلاً والشفتان ملتحمتان في شهوة لا حدود
 لها واستمتعا ببعضهما، واستمر هذا الجماع بينهما قرابة العام. ولما بدأ
 لإعياء يبدو عليها، بدأت تعاني من مرض السيلان؛ حيث ظلت
 نجاسة تلازمها طوال الوقت بعد أن ترهلت فتحة الشرج، وبدأت
 نقذارة تخرج منها بطريقة لا إرادية. وخشيت أن تتحدث مع أمها في
 هذا الأمر؛ مما جعلها تتجه لسماع العلماء في هذا الفعل، حيث إن
 معظم الخليجيين يتخذون من علماء الدين أطباء أيضاً. ولما سمعت
 عائلاً يتحدث في ذلك، أنصتت له.. وكانت كارثة بعد أن سمعته
 يتحدث عن الأمراض التي تنتج عن هذا الفعل الأثم؛ مثل مرض
 الإيدز، والتهاب الكبد الفيروسي، والتهاب الشرج الجرثومية.. وأن
 الله عندما حرم هذه العملية، كانت هذه الأسباب؛ حيث نهى عنها
 بشدة. وقال العالم كيفية التخلص من هذه العادة التي أحياناً تصير
 إدماناً.. أولاً التقرب إلى الله، والدعاء أثناء السجود؛ حيث يكون العبد
 أقرب إلى ربه.. ثم أكل الطعام الحار؛ مثل الفلفل، وزيت الشطة..
 غير استخدام الماء بغزارة؛ فدفع الماء داخل فتحة الشرج يسهل طرد
 الديدان التي تغذى على المنى. انهارت بعد سماع هذا الكلام، ونفذت
 بدقة ما قاله العالم، وشيئاً فشيئاً بدأت تتخلص من هذا الإدمان..
 وكانت حين تشعر برغبة في ممارسة هذه العادة، تهرع إلى الصلاة وذكر
 الله.. إلى أن جاء لها ذات يوم وطلب منها أن يجامعها، فقالت له بحدة:
 - اتركني.. لا تلمسني. وإذا به يقرب منها ويحتويها ويعتصرها بين
 ذراعيه؛ فصدرت منها صرخة يعرفها جيداً.. ثم جامعها بنفس
 الطريقة. استسلمت، وظلت تبكي بينما هي مستمتعة؛ لم تحاول
 مقاومته. طلبت منه بعد أن قضى وطره ألا يقذف قذارته بداخلها
 مرة أخرى؛ لتجنب الأمراض.. استغرب طلبها، وقطب حاجبيه

الكثيفين علامة على التعجب، ثم ابتسم ساخرًا.

وقالت له ذات مساء:

- «نوّاف»، إحنا بنسوي جريمة.. حتى الحين ما زلتُ بتّا!

قال لها:

- أنتِ زوجتي، وهذا شيء مفروع منه.. وممارستي معك هذه ليست عيبًا ولا حرامًا.

- لكن الله حرّمها.. سمعت كثيرًا من الشيوخ يتحدثون في ذلك.. هذا من الكبائر.. «نوّاف».. أنا مريضة.

- من الكبائر أن تعصي زوجك.. أنتِ ملكي، وبسوي معاكس اللي بيريجني.. وأنتِ لو عصيتِ تكوني خاطئة؛ لأن الزوجة الصالحة تكون حيث إرادة زوجها.

- سألت شيخ؟

امتقع وجهه وقال:

- بدون أن أسأل.. هذا شيء مفهوم.

- أريد أن أطمئن وأسمع من الشيخ بنفسي.. «نوّاف».. أرجوك.

زفر بتنهيدة وحشية وصرخ:

- أنتِ اتجنتي؟

- خلاص أنا بحكي لأمي. احتقن وجهه وبدا كالشور الهائج.. لطمها بقوة؛ فسقطت على الأرض تصرخ.. ثم رفعها وقال لها بغلظة:

- إذا فعلتها فستكونين طالقًا.. مفهوم؟

هكذا قضى «نوّاف» حياته هناك. وفي النهاية قرر أن يتعد عنها؛
إنها مريضة بالفعل، كانت تزكم أنفه رائحة قذرة وهي نائمة بجواره.

لا توجد امرأة طبيعية على وجه الأرض تميل جنسيًا إلى ممارسة هذا
النوع الشاذ من الجنس؛ لأنه ببساطة لا يُمتعها أبدًا، ولأن هذا الموضع
هو موضع خروج وليس دخولاً.. فالدخول شيء غير طبيعي (كأنك
تحاول أن تتناول الطعام من الأنف). هي تشعر بألم شديد يجعلها في
قمة القهر والحزن، علاوة على إهانتها؛ فتلك الممارسة مهينة للمرأة
الطبيعية. لكن كثرة التكرار يجعل من تلك الممارسة عادة تُحوّل المرأة
الطبيعية لمرأة شاذة جنسيًا.. وشيئًا فشيئًا تتحول لمريضة بهذه العادة..
وما قالته زوجته «نوّاف» كان يُنذر بحدوث المرض.. لم تستطع
التوقف عن الاستجابة له؛ ليس خوفًا منه، وإنما هي رغبة في ممارسة
العادة، كأنها تنتقم من نفسها.. ربما تستمتع بعبث يديه في ثديها، أو
بقبلاته الحارة.. لكن لا توجد متعة حقيقية في جماعها بهذه الطريقة..
تسمعه يشن من فرط اللذة، وعند بلوغه الرعدة يتفض ويصرخ..
ولكن هي لم تشعر بأي متعة؛ إن للمتعة عندها طريقًا واحدًا، لم يطنه
«نوّاف»، ولم يفكر أن يخطر نحوه خطوة واحدة.

في شقة «عبدون النور» دخل في أول صراع عنيف.. الشقة الفسيحة
التي تُفتح على خمس غرف نوم، بجانب صالة واسعة بها بار صُنفت
عليه أجود أنواع الخمور.. وكانت تعبق الشقة رائحة البخور؛
لتفطي على رائحة الحشيش التي تنبعث من طاسة تتوسط الصالة..
غير الموسيقى الشرقية التي تصدح في الشقة.. فتشعر وكأنك في بداية
القرن التاسع عشر. وكان يتردد على هذه الشقة فتيات من مجتمعات

مختلفة.. ف«عبدون النور» السوداني معروف في محيط العبارة بأنه شاعر من السودان، له دواوين، وغنى له بعض المطربين الكبار؛ لذا كانوا يفهمون طبيعة الجو الذي يعيش فيه. ويتنهد عبدون من الأعماق عندما يتذكر سنوات خدمته عند الأمير «خالد العشري»: «آه.. أيام العز والخير». كان الأمير ابن كلب يقول لي: «أنا راضٍ عنك»، فتُفج لي طاقة القدر. الشيء الوحيد الذي كان يضايقه من هذا الأمير هو تلذذه بضربه بالحذاء.. وهذا لم يتعارض مع كرامة عبدون، ولكن لا يستبعد أن تُذهب الخمر بعقله ذات مرة؛ فيقتله بمسدسه المرصع بالذهب الخالص، ثم يلقيه كغذاء للنمور التي يحرص على تربيتها في مزرعته.

كان «عبدون النور» من شمال السودان؛ بشرته سمراء، وجهه هادئ وديع، عيناه عسلتان، ويده ناعمة.. يحرص على صبغ شعره المجمع بالحنة الطبيعية على يد زوجته.. علاوة على رائحته الجيدة، ونظافة ملابسه، والعناية بمظهره. وبعد أن ادخر أموالاً استطاع هو وزوجته أن يكسباها من الخدمة في الخليج، حضر إلى القاهرة في مطلع التسعينيات، واستأجر شقة في أرض اللواء، وظل يدرس السوق قرابة العام. وأخيراً اهتدى لفتح كوافير حريمي تديره زوجته في شارع السودان، ونجح المشروع وفاق ظنونه. واستأجر شقة في شارع جزيرة العرب؛ للإقامة فيها وممارسة هوايته المفضلة التي يبرع في أدائها، وترك بناته وزوجته في شقة أرض اللواء. وفي أول مقابلة مع «نواف»، احتضنه كأنه أب يحتضن ابنه بعد غياب، ثم عزمه على زجاجة بيرة، واصطحبه ليجلس بعيداً عن الضوضاء.. جلسا في البلكونة المطلة على شارع جزيرة العرب، وباده قائلًا:

- في مصر لا تعتمد على حد سوى «عبدون النور»؛ المصريين لصوص تو ما يعرفوا إنك خليجي هيسرقوك.. أنا كنت الخادم الأمين

للأمير «خالد العيشيري». ويرفع «نواف» حاجيه الكثيفين بمكر (على أن عبدون لا يجد حرجاً من تكرار لفظ «خادم» على نفسه؛ فهو يسمي دائماً إلى أن يشعر أصدقاءه بأنه خادم قابع أسفل أقدامهم.. تلك طريقته في التعامل مع الأثرياء فقط) ويستمر سل عبدون: أول شيء تتعلمه هو أن تتحدث مصري؛ حذارٍ أن تتحدث خليجي.. مع سواق التاكسي تتحدث مصري.. في المطاعم تتحدث مصري.. حتى في الحمام؛ أصل الشياطين هنا مصريين! ويضحك عبدون، لكن «نواف» قاضعه بحدة وقال:

خلصني.. أنا ما عندي ضولة بال.. أنا بعرف أتصرف. ورغم ذلك، فإن «نواف» شعر بالراحة من أن عبدون سوداني؛ فهو يعلم جيداً أن السودانيين أمناء حتى إذا امتهنوا أقدر المهين. ويرى عبدون في خدمة «نواف» ضوال شهر بالكامل. وأخيراً شعر بضمير القواد أن «نواف» ينقصه شيء، وبالطبع لم يفصح له «نواف» عن شيء، بل ظل يتردد على الشقة يتجرع البيرة ويدخن الحشيش، ثم ينصرف.. حتى عرف عن طريق مومس عاشرها «نواف» أنه يريد فتاة خاماً؛ فقال عبدون بنرفزة:

تقصدي بنت بنوت.

مشر شرط.. هو بس بيحب القذارة. وفطن عبدون لمدلول الكلمة، وصرخ في وجهها بصوته الرفيع وأمرها بالانصراف، وعزم على أن يقدم له فتاة تعرضه عن كل الليالي السابقة.

ولكن من هو القواد؟

سؤال يستغربه البعض: لأن لإجابة حاضرة في الأذهان. ولكن عندما تأمل عبيون نورا متجده شخصاً عادياً، وله حياة طبيعية جداً.. يفعل شيئاً. ويهدأ شيئاً آخرى.. بحث أسرته على الانضباط، ويفرض عليها نمط حياة شرقية. ويحرص على أداء فريضة الجمعة بانتظام. ويراقب بنته بحرص. مثل تاجر المخدرات بالضبط؛ يبيع المخدرات للناس. لكنه يحصن بيته منها تماماً. ولو علم بأن أحد أفراد أسرته تعاطف يشور ويقرب الدنيا، ويبكي ويصرخ.. وأغلب الذين يعملون وسطاء بين الرجال والنساء، لا يقبلون كلمة واحدة على نساءهم. وفي قهوة مصر والسودان، يعرف الجميع وينعتونه بالرجل الطيب؛ يقدم خدماته بصدق ورحب. له علاقات مع رجال مهمين؛ لذا قام بتوظيف بعض الشباب.. وأيضاً لا يتردد في إقراض أحد المتعثرين؛ يقول له بعد أن يعطيه المبلغ: «سيها على الله يا سيدي؛ كلنا بنكمل بعض».

أما عالم «القواد» فهو عالم خاص؛ لذا يحرص على ممارسة عمله ومزاجه رائق، فلو عكس مزاجه شيء، على الفور ينزوي بعيداً. بقدرة ناتجة عن إيمان قوي بحرية المكسب وجلب الأموال، يعمل القواد.. فضلاً عن أن القواد يملك أسلحة كثيرة، وقت اللزوم يستخدمها في الدفاع عن نفسه.. من خلال العاهرات يستطيع أن يعرف كل خبايا الرجل؛ قوته، شدوذه، ضعفه.. كل الأسرار التي لا تخرج عن حيز السرير.. إن الرجل الشرقي يرى أن كل حياته قائمة على قدرته فوق السرير.. لذلك لا يستطيع هؤلاء الرجال إغضاب القواد.. يصاحبونه، ويتحدثون معه على أنه صديق.. وقد يعلم القواد أنهم فيما بينهم ينعتونه بالعبارات البذيئة، ولكن يستمد من ذلك قوته

وسطوته. وبعد أن انفرد بإدارة الكوافير، جلس يستقطب النساء بعناية.. يشعر بالمتعة وهو يتفحص المرأة؛ متعة من يؤدي عملاً يجبه فيجد راحته وسعادته في أدائه بإخلاص.. ويهمس بفخر: «أصدقائي من عليّة القوم.. فلوس ماها آخر». ولما تنظر له المرأة نظرة يعرفها جيداً، يتقدم نحوها، وينحني بأدب ويُقبل يدها، ويضع رأسه في الأرض ويقول: «عبدون النو.. تحت أمرك يا هانم.. يشرفني أن تكوني صديقتي.. وأنا أحب أن أساعد أصدقائي». له طريقتان في التعامل مع السيدات.. لو أن المرأة تمتهن الدعارة، فإنه يتعامل معها كأنه أمام تاجر يُشني على بضاعته، ويحثه في نفس الوقت على خفض قيمة البضاعة؛ يؤدي ذلك ببراعة.. هذه هي الطريقة الأولى. أما الطريقة الثانية، فإذا كانت المرأة تلجأ لهذه العملية لسد حالة مادية متعشّرة، فإنه يقف أمامها بقامة مقوسة، ويجاهد بكل كلمة وحركة أن يصدر لها شعوراً بأنها امرأة شريفة نقية؛ لا يُشعرها بأنها مومس أبداً، ويمجدها بثقة تجعلها هي تستغرب ذلك.. إنه لا يستطيع أن يجرحها.. لقد وهبهن الله هذا الجمال لاستثماره، فليستعملن أجسادهن في طلب المال؛ ليست هناك مشكلة.. إنه يساعدهن.. يؤمن جداً بدوره في كسر حالة الرهبة عند حديثة العهد.. دوره هو إقناعها بالموهبة التي منحها الله إياها لتستثمرها. وبرع في ذلك.. تدفق على الشقة أصدقاؤه من العرب والمصريين، وشملهم برعايته.

كانت «حنة» زوجة «عبدون النو» سيدة لها سيطر في أرض اللواء، لا تمر من شارع إلا وتُقبل عليها النساء في سعادة.. يدعُنها لشرب الشاي أو تناول الغذاء، ولا يكففن عن أخذ النصائح منها. كانت «حنة» تبادر في الأفراح بوضع الحنة للعروس دون مقابل، أو بأسعار

بخسة؛ فباتت أمامهن امرأة تعرف الأصول وحق الجيرة. وعلى غير العادة، فإن السيدة «حنة» كانت محبوبة رغم بشرتها السوداء وملامح وجهها الغليظة وضخامتها؛ فلم يتهمك عليها أحد. برعت في الرسم بالحنة، وأطلقت عليها النساء اسم «حنة»، وتقبلت هذا الاسم بسعادة. واتسعت شهرتها أكثر فأكثر، وشملت أحياء أخرى؛ فتضاعف عملها، وأسندت لزوجها إدارة الكوافير، وأخذت هي شقة في أرض اللواء كانت بمثابة كوافير حريمي متكامل؛ فاتسعت شهرتها حتى شملت الأحياء الراقية المحيطة بأرض اللواء.. وشيئا فشيئا ظهرت في أحد البرامج التلفزيونية، وتحديثت عن الرسم بالحنة لأكثر من ساعة. وبعد ذلك توسعت وقصدها الفنانون.. كل هذا كان يوتر عبدون؛ «فكلما اشتهرت، زاد الخطر» هكذا قال لها وهو منفعلي.. بيد أنه شعر بالراحة من إدارته للكوافير منفردًا؛ فوجودها كان يقيد حريته. والآن يجلس عبدون يفكر في خدمة «نواف الرشيدى»، كل النساء يرفضن معاشرته.. وهرش في فروة شعره ليوحى لنفسه بشيء من التركيز، وراجع بعناية كل الفتيات اللاتي عرفهن.. وعاد يهرش في فروة شعره ويتجرع من كوز البيرة وقد يثس، وقال في نفسه: «ولا واحدة تصلح؛ مزاجه مقرف.. أنا عارفهم كويس.. مش فاهم داه المؤخرة.. فكّر يا عبدون». وسرعان ما شعر بالسعادة: «الأوروبيات يقبلن أي شيء مقابل المال، والخبرة عندهن متوفرة.. برافو يا عبدون.. «ليلي فتمير» ليس سواها».

طلب منه أكثر من مرة أن يأتي بفتيات أوروبيات، ومن هنا بدأ يضع في خطته فتاة أو اثنتين أو ثلاثًا يقدمهن لزبائنه الراغبين في الأوروبيات. ولكن لم يكن الطلب عليهن كثيرًا؛ كان ينعتهم البعض بأن أجسادهم باردة، ولذلك بدأ هذا الجانب في تجارته كاسدًا، ومع

الوقت أهملهن. ولكنه استطاع أن يدرك قدرات الفتيات العربيات والأوروبيات.. فالأوروبيات يتعاملن بذكاء؛ فهذا يعد عملاً وليس جماعاً طبيعياً، ولهذا العمل قواعد.. كيف يكنّ على قدر المهمة؛ لا بد أن يستمتع الزبون، ليس له علاقة بها سوى ساعة؛ ساعة واحدة وسيرحل. أما الفتيات العربيات فليس لديهن أي خبرة، سوى الثثرة ومحاولة الاستيلاء على الأموال بأقل مجهود، حتى وإن اكتسبن خبرة من طول العمل فإنهن بجهلهن لا يستطعن إرضاء الزبون، حتى وإن مثلن أنهن استمتعن فدائماً يكون الأداء رديئاً.. تعرّف عليهن من خلال زوجته، التي وكل لها صبغ فتيات أوروبيات للعمل كومبارس في فيلم سينمائي.. شاهدن كثيراً واستمع لهن، أكثرهن من روسيا.. ومن بينهن عشر على «ليلي فتمير»؛ فتاة جميلة.. تمتاز بالطول، وبجسد مشوق، ومؤخرة طرية.. وجهها طويل غائر الخدين.. ملامحها تتخذ شكلاً حاداً، وفي عينيها تكمن نظرة شرسة، فضلاً عن جفون حمراء، كأنها لا تنام أبداً.. يتتشر النمش في أنحاء الوجه، وتحديدًا عند الوجنتين.. شعرها كستنائي طويل.. تتحدث العربية بطريقة ركيكة، لكنها مفهومة إلى حد ما. اقترب منها ذات مرة وفحصها بنظرة قواد محترف.. الفتاة ليست بالشقراء، ولا السمراء؛ إنها برونزية، ليس من بين من عرفهن مثلها.. وألقى بشباكه عليها؛ في محاولة منه لضمها لرسائله.. كانت تأتي للسيدة «حنة».. تحدث معها عن عالم التمثيل، فقالت له:

- أهوى التمثيل.. وزوجتك من السهل عليها أن توفر لي فرصة عند هؤلاء المتجيين.

- وماذا كنتِ تعملين؟

- راقصة.. أرقص رقصة «انسالسا»؛ تلك الرقصة اللاتينية.. إنها مرهفة جدًا، تتطلب فتيات نشيطات.. أنا مدخنة ومهمومة؛ ولذلك تركتها.

- أنت رائعة.

- أشكرك.

- الفرصة ستأتي قريبًا.. أعدك بذلك.

رفعت حاجبيها ما بين السخرية والاندھاشر، وقالت:

- يبدو أنني أتحدث إلى متعج.

فهقه عبدون ونفخ دخان سيجارته في لذة وارتياح وقال:

- ليس لهذه الدرجة.. ولكن أستطيع أن أوفر لك فرصة.. عما قريب سنلتقي.. أعطيني رقم هاتفك.

- أنا أقيم في فندق «سيتي فيو» في وسط المدينة، ستجدني هناك.

تذكر كل هذا رغم مرور عدة أشهر على هذا اللقاء؛ فاتصل بها وحدد معها موعدًا، والتقى في مقهى «جروبي»، كان ذلك في مساء يوم من أيام يونيه. اتخذ مكانه بجوار الجدار الزجاجي، وكشف بنظرة واسعة شارع سليمان باشا.. الموسيقى تصدح في جنبات المقهى بإيقاع هادئ.. شاهدها قادمة وقد ارتدت بنظورنا وقميصًا أبيضين من قماش الكتان، وقد بدت منها ملابسها الداخلية؛ فأثارت المارة، وانتعلت صندلاً برزت منه أصابعها الرقيقة البيضاء المصبوغة بعناية.. انتعشت أكثر فور دخولها المقهى.. الهواء البارد يعبق المكان، والموسيقى تنعشه. أشار لها فتقدمت نحوه، قام و صافحها بحرارة..

جلست فزكمت أنفها رائحته الجميلة؛ فقالت له:

- ثمة اختلاف بينك وبين زوجتك.

- وما هو؟

- لا شيء. ثم ضحكت وواصلت: أنا بين يدك.. ها، وجدت الفرصة التي وعدتني بها؟

- نعم.. ولكن لا بد من التحدث والاتفاق.. نشرب القهوة ونتحدث.

- حسناً.

تناولا القهوة، ثم قالت له:

قبل أن تحدثني في التليفون، كنت أحزم متاعي للعودة إلى «البوسنة».. أنبأني عامل الريبشمن أن هناك مكالمة لي، ظننتها من صديقتي مدام «أندرا كانتاكوزينو»؛ لتحدثني على المكوث قليلاً.. ولكن فوجئت بك أنت، وهذا أسعدني.

- أشكرك.

واعتدل في جلسته كأنه سيلقي كلمة أمام جمهور:

- كم يساوي سروالك يا ليلي؟

- ماذا؟! هكذا قالت في دهشة مقرونة بفزعة جعلتها تعتدل فوق مقعدها.

ولكن «عبدون النور» بخبرة قواد محترف ظل ثابتاً، عيناه تلمعان بثقة كبيرة.. أخذ رشفة من فنجان القهوة، وعاد يقول في ثقة:

- كم يساوي سروالك؟ أعتقد أن السؤال واضح.

- هذا ليس سؤالاً.. أظنها مزحة سخيفة؛ أليس كذلك؟ هكذا قالت وقد امتقع وجهها.
- لكل شيء ثمن؛ كل الناس يدفعون ليعيشوا.
- هذا شيء صعب.. أنت تطلب مني أن أكون مومساً؛ أليس كذلك؟
- نعم، هذا ما أقصده بالضبط.. أنتِ تسعين لمجتمع لا يؤمن بالمواهب؛ يؤمن فقط بالسراويل. خيم عليها الدهول، وبدت عاجزة عن الحديث. فلمح في عينيها لمعة حائرة؛ فقرر أن يواصل غاراته بكثافة، فقال:
- أنتِ رائعة، وتستطيعين أن تستخدمني جسديك في جلب المال والشهرة.
- أنا مسلمة، وأعرف ديني جيداً.. أمي كانت مسلمة وعلمتني الكثير.. لا أستطيع أن أتخلى عن ديني. ألسنت مسلماً؟ هكذا قالت في سداجة.
- نعم.. كلنا مسلمون، ومُسلمون بالواقع.. ولكن هناك ضروريات تحتم علينا تغيير المسار.. ليلي، لن تكوني إلا إذا استثمرت هذا الجمال. شملت المكان بنظرة واسعة وعادت تنظر في وجهه، ثم أوقدت سيجارة وراحت تنفث دخانها في عصبية، ثم قالت:
- أنت تاجر نساء؟
- أنا أساعدهن.. ولن أسمع بأي أسئلة أخرى.. الموضوع عرض وطلب.
- كيف؟

- جلسة واحدة مع شاب متحضر، لديه المال والجمال.. سيساعدك في كل شيء، لن تندمي أبدًا.. ساعة واحدة؛ ستأتين لإعطائه درسا في الرقص.. أليس هذا طبيعياً؟ فرصة كبيرة ولن تعوض؛ ربما يتج لك فيلماً أو اثنين.

أوقدت سيجارة أخرى وراحت تنفث دخانها في توتر، وطلبت فنجاناً من القهوة. ولمح عبدون في عينيها لمعة توحى بحماسها وتفاعلها مع الفكرة.. وهمست في نفسها: «يال لك من قواد ماهر!».

- الفرصة في يدك، ولك الاختيار.

- دعني أفكر.

- ليس أكثر من ليلة واحدة.. غداً مساءً سأتصل بك لأعرف الرد.. لا تتأخري عليّ.

ودعا عبدون النادل بعد أن طرّقع له بإصبعه، فجاءه.. وطلب منه الشيك.. ألقى نظرة سريعة عليه، ثم أخرج محفظته الجلد والتقط منها ورقة فئة المئة جنيه، وضعها في النوته الخاصة بالشيك، وقال له:

- انتظر السيدة حتى ترحل؛ كن تحت أمرها. ونظر لها، وكشف عن أسنانه البيضاء بابتسامة واثقة وقال:

- مضطر أن أذهب؛ لديّ ميعاد.. سأتصل بك غداً.

وانتظرت وقد استرخت أكثر فوق المقعد الجلد المشبع بالهواء البارد، وأخذت جرعة من كأس الماء، وشاهدت عن قرب بضعة أطفال متسولين يركضون تارة، ويشحذون من المارة تارة أخرى. وتذكرت أيام القبعة الزرقاء والوشاح الأحمر؛ زي المدرسة.. الطفولة والبراءة.. ثمّة ذكريات ظلت تطاردها من وقت لآخر، كثيرات من

صديقاتها أقبلن على المتاجرة بأجسادهن، وعُرض عليها الأمر، تعلم جيداً أنها مطلوبة، ولكن كانت تقابل ذلك بسذاجة، جعلتها مطلوبة أكثر.. ولكن عبدون جاء وقال الحقيقة: «كم يساوي سروالك؟».

«أنا ليلي فتمير»

من البوسنة والمهرسك، أعمل راقصة ضمن فرقة ترقص رقصة «السالسا»، جئتُ للقاهرة مع السيدة «أندرا كانتاكوزينو»؛ حيث أقمت معها في الحي الإنجليزي، وأنشأت معها الفرقة، كان ذلك في منتصف التسعينيات، ولكن سرعان ما سببت لها متاعب كثيرة، وفي النهاية قالت لي: «ليلي»، السلوك العدواني التي تتهجينه لن يُفيد في شيء.. كل شيء انتهى.. لا تكثرني لأحزان الماضي.. أنتِ الآن تقيمين في الحي الإنجليزي، لستِ في سرايفو». أظنها كانت على حق؛ هي لم تذوق ما تذوقته من مرارة، لم تشاهد أمها تُغتصب أمامها، لم تُقتل عائلتها، لم تُشرد.. كم أكره هؤلاء الأوروبيين الذين يأتون إلى المدرسة متفخي الصدور؛ ماذا يظنون أنفسهم؟ إنهم سفاحون.. قتلة؛ حكومتهم تقتل الأبرياء، أو بالأحرى تساهم في قتلهم؛ سواء بالصمت، أو بالقوة الكهنوتية.. فضلاً عن أنها تنهب أموال الشعوب وهم ينعمون بالرفاهية.. كان هذا اعتقادي، وما زال. لذا لم أستطع الاستمرار في المدرسة، تركتها قبل أن أقتل رجلاً هولندياً فلاحاً ممن كانوا يأتون.

«أنا ليلي فتمير»

كانت أمي بوسنية مسلمة؛ أمي التي ماتت وهي تدافع عني.. لطمها الجندي الصربي بقوة في أذنها؛ فأدميت وسقطت على الأرض، واغتصبها أمامي هو واثنان آخران.. نعم شاهدت هذه المأساة وما

زلتُ أتفلس.. لا تسألوني كيف استطعت البقاء على قيد الحياة حتى الآن؛ إنها إرادة الله كما علمتني أمي.. تبقى هذه المشاهد في ذاكرتي، ومغفورة بسكين في قلبي.. أمي أمامي بين ثلاثة رجال تقاوم بضعف.. وتصرخ.. تستغيث.. عندما جاءت عيني في عينها شعرت أنني أموت؛ نعم هذا هو الموت في أبشع صورته.. أراد الجندي الصربي أن أرى أمي؛ فكلما وضعت يدي فوق عيني رفعها وقال لي: «انظري» ويضحك.. وجاء الدور عليّ، وقاموا باغتصابي؛ الثلاثة دفعة واحدة، بعد أن قاومت بضراوة.. ولكن مع الجوع والخوف، ومشاهدتي لأمي وهي جثة هامدة.. خارت قواي.. واستطاعوا أن يغتصبوني على مدار عشرة أيام متواصلة.. حتى قالوا إنني تعفنت، وبدأت رائحتي كريهة، وأحمل في جسدي مرضاً ما، وإنني على مشارف الموت.. ولذلك تركوني. قبل ذلك بأشهر قليلة، كانت أمي تحثني على الهجرة للإقامة مع شقيقتي في المجر.. «ليس الآن» هكذا كنت أقول.. لم أعرف أنها كانت تشعر بشيء.. الأيام جميلة والبلاد متعشة.. وفجأة سقطت علينا القنابل، وجاء قوم طالما رأيناهم بشرًا طبيعيين مثلنا.. جاءوا مدججين بالبنادق والقنابل ليقتلونا.. إنها التصفية؛ تصفية العرق.. أنا مسلمة؛ إذن أنا هالكة.. أليس كذلك؟ نعم الله سيدعمنا.. «متى؟» هكذا كنت أصرخ بيني وبين نفسي؛ فأترنح بين اليأس والإيمان.. شعرت أنني أهوي من مكان بعيد، فتلقفني الطير وتلقي بي فوق الجبال دون رحمة.. آه ماما.. كم أفقدك.. قتلوك الكلاب.. ذبحوك أمامي.. كل همك كان حمايتي.. وأنتِ تحتضرين عيناك تبكي عليّ.. كانت بداية مشؤومة؛ فرض الحصار على العاصمة، وانحدرت المدينة في صراع هو الأكثر دموية في أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية.. العالم صامت، ونحن نموت.. العالم يغني، ونحن نموت..

الأطفال يُقتلون، والنساء يُغتصبن، والرجال يقاومون ويموتون..
إنها النهاية.. هكذا ظننتها. وألقوا بي في المعتقل، وتعرفت على زوجي
هناك، قصصت عليه كل شيء؛ هز رأسه في أسى وقال: «ستتمكن
من الهجرة إلى المجر، وهناك نتزوج». وتمكنا من الهجرة في مدرعة.
وفي المجر التقيت بشقيقتي التي ظلت تبكي بمرارة، حكيت لها كل
شيء.. كيف ماتت أمنا.. كيف تم اغتصابي مرارًا وتكرارًا.. كيف
قتلوا أطفالنا ورجالنا.. كيف استعبدونا وأهدروا كرامتنا.. أن تتجرد
من ملابسك أمام أعين الناس حتى وإن كانوا من طائفتك، هذا شيء
مفزع.. ويوم كان يُخرجون الرجال عند الفجر ليسخروهم في حفر
الخنادق.. كنا نعلم أن أغلب الرجال سيموتون.. ونحن نقوم بغسل
ملابسهم، وتنظيف غرفهم، ونمكث تحت أقدامهم؛ إنها العبودية..
ثم نعود للمعتقل، وهناك يجلس القائد ومن حوله الجنود، ويختارون
الفتاة.. أي فتاة تقع أعينهم عليها، نعلم أن هذه الليلة آخر ما تبقى
من عمرها.. حفلة اغتصاب جماعي حتى تنزف.. ثم تموت.. قتلونا
وشرحوا جثتنا، ثم باعوا الأعضاء.. على ضفاف المدينة المحاصرة
بالقنابل والبنادق والقناصة المتمكنين، مكثت سهاسة الأعضاء لينقلوها
إلى أوروبا.. انتعشت تجارة الأعضاء، وبيع السهاسة الملايين، وجعلوا
أطباءهم يتدربون في أجسادنا.. لن يبقى أي مسلم على هذه الأرض..
ألم أقل لكم إنها النهاية؟ كانت محاولة لاجتثاث الإسلام من هذه
الأرض.. وصرخت في وجه أختي: «هل تعلمين لماذا؟ لأننا مسلمون..
نعم مسلمون». وقال لي زوجي وقد جاء مهمومًا: «ليلي، أريد أن
أسمع قصة اغتصابك من الجنود الصرب مرة أخرى». وقلت له
منفعلة: «ألم أقص عليك مرارًا وتكرارًا هذه القصة؟ أرجوك طلقني؛
أنت تشعر بشيء في صدرك، وأنا أريد أن أترك البلاد.. طلقني».

ثم لا أستطيع نعيش هنا. وطلقتني، وجئت إلى القاهرة في منتصف
تسعينات.. عهد جديد، وبداية لا أعلم ستأخذني إلى أين. قالت لي
مدهاشنر كنت كورزينوا: امتلكين جسدا رائعا.. سأعلمك الرقص،
ونشرني في مدرسة سندر علينا ربحا كبيرا.



جاءت في موعد المحدد.. بطريقة رسمية أملاها «عبدون النور»
عنون في تليفون. وأكد عليها أنها لو تأخرت دقيقة واحدة فسيلغي
باعد. وستضيع عندها الفرصة؛ الأمر الذي جعلها تتحمر وتعد
نفسها جيدا. وجاءت في الميعاد بالثانية. وقف التاكسي أمام عمارة
رقم ١ في شارع جزيرة العرب؛ الشارع ضيق ومكتظ بالسيارات
ونارية.. نزلت من التاكسي وسط أبواق السيارات المكتظة خلفها..
توترت. وأخذت ترضن بلفتها في عصبية، ثم التقطت من شنطتها
بورقة نسي خضت فيها العنوان؛ تأكدت من العمارة، وراجعت
رقم الشقة الطابق الرابع شقة ١١٦.. صعدت للطابق الرابع، وفور
خروجها من المصعد، فتحت الباب وكان في استقبالها عبدون.. كشف
عن بتسامة وضيئة، شد على يدها وحياها بحرارة.. زكمت أنفها
بريحه البخور، وشملت الشقة بنظرة واسعة.. أجلسها عبدون على
تجارتها، وأحضر لها بنفسه كوز بيرة مثلجًا.. ظلت تتفحص الشقة
بدقة؛ إنها ماخور.. أناس يجلسون ولا يعيشون بها.. فتيات عربيات
رائعات يجلسن مع الرجال.. ثمة موسيقى شرقية تنبعث في جنبات
الشقة الواسعة.. وتساءلت في نفسها وقد شعرت بالنقص لأول مرة:
«لماذا أنا؟ ماذا يريد مني بالضبط؟». وجاء عبدون ومعه «نواف»،
تفحصها بنظرة عميقة، ومد يده يصافحها؛ فابتسمت في توتر، وهزت
رأسها وقد شعرت بسخونة تلف أذنها.. وقام «عبدون» بتقديمها في

صورة تليق بها: «مدربة رقص رائعة.. ستتحول معها إلى فراشة». وتحول إلى «نواف» وقال لها: «الأستاذ «نواف الرشيدى لا يدخل على المواهب بالمساعدة». وتفحصته بنظرة جريئة.. شاب طويل ذو قامة نحيفة لكنها مشدودة بعروق نافرة، وجهه لا بأس به، شعره أسود ناعم يفرقه من النصف، وعيناه كحيلتان فيها نظرة ذئب يتوثب للانقضاض على فريسته، تبدو ملابسه عالية جدًا، فضلاً عن الإكسوارت التي يتزين بها. وتركها عبدون، وجلسا معاً على البار يجتسيان البيرة ويدخان.. وشيئاً فشيئاً استطاع أن يجعلها تضحك. ومن على بُعد ثلاثة أمتار أشار له عبدون برأسه؛ علامة على أن الغرفة جاهزة.. وأخذها إلى الغرفة؛ سحبها خلفه وقد بدا عليها الخمول.. وفي الغرفة جلسا، وقالت له بلسان مترخ:

- لن أستطيع أن أعلمك شيئاً.. لا أشعر بقدمي.

ومال عليها ولثم شفيتها.. ازدردت ريقها وامتصت شفيتها، وعادت تحملق فيه في تركيز، ثم قالت:

- أنت لا تريد الرقص.. أنت تريد شراء سروالي؛ أليس كذلك؟

- نعم.

- وكم دفعت لهذا القواد؟

- لا تكترثي به.

جلست فوق السرير وقد شعرت بأطرافها ترتعش.. ثمة رائحة غريبة تزكم أنفها، ومرارة لا تعرف مصدرها تستقر في حلقها.. لثم شفيتها المستسلمتين مرة أخرى، وظلت ثابتة.. خلع ملابسه، وبدأ أمامها عارياً وقضيبه منتصباً.. وبدأ يجردها من ملابسها.. ظلت مستسلمة، عيناهما نصف مقفولتين.. ولما بدت أمامه عارية إلا من

ملايسها الداخلية، جف حلقه، وشعر بتوتر لم يزره منذ عهد زواجه..
حمرة جسدها أثارته، خاصة مؤخرتها.. وتركته يعبث في ثديها الصغير
الأشبه ببرتقالتين.. وانحل وعيها للذكرى الجنود المغتصبين.. كلهم
مغتصبون، خلقت المرأة لتُغتصب.. أنتم معشر الرجال منكم القوادون،
ومنكم المغتصبون.. لكل شيء ثمن.. المرأة الجميلة ملعونة في الدنيا
والآخرة.. المرأة الجميلة أشبه بقطعة سكر لا تجذب سوى الحشرات
والقاذورات، تجذب الرجال؛ وأي رجال.. السادين، والمغتصبين،
والمجرمين.. وها أنا أتخلى عن ديني لرجل مريض يعبث في جسدي.
ومالت نحوه لتبعده، لكنه بقوة طرحها على بطنها؛ فبرزت
مؤخرتها أمامه شهية، وامتدت أصابعه تعبث بها.. فصرخت ولكمته
بكوعها في صدره؛ فانفعل عليها وبصق على وجهها، وهمس في أذنها:
- افعليها ثانية لأقتلك أيتها المومس.

- ابتعد عني.. أريد أن أذهب.

فشعرت بجسم ساخن في مؤخرتها، ثم ألم شديد.. وشهقت
شهقة ارتج لها صدرها في قوة، وصرخت: «ماذا تريد يا حيوان؟».
واستحوذت عليه رغبة لذيذة افتقدتها منذ أمد.. ودفعته بكل ما
لديها من قوة وبصقت عليه، ثم لطمته بقوة؛ إنها قطة صغيرة
تدافع عن نفسها، يدها رقيقة.. ولكن لا بد من ردعها لتستسلم.
لذا لكمها بقسوة في صدرها؛ فسقطت على السرير تعاني ألماً شديداً،
وظلت تسعل.. ومضى هو إلى ملايسه والتقط البنطلون وجاء منه
بانبوبة، وقال لها في تهكم:

- جئت بها مخصوص من أوروبا عشان اللي مثلك لا يتألم.
واستأنف:

- كم أنا رحيم بكن يا مومسات يا ملعونات.

وأخذ منها جرعة على إصبعه.. وكانت قد أرهقتها اللكمة وخارت قواها، فطرحها على بطنها وبدأ يضع الجرعة، وصدره يعلو ويهبط في حركة سريعة تعكس بلوغه الشهوة.. وبدأ يُصدر أصواتًا غريبة. ومرة أخرى فور شعورها بهذا الجسم الساخن الذي ألمها بشدة، تضربه بكوعها في صدره.. في هذه المرة صرخ، وقال لها في عنف:

- أنا بوركي يا مومس يا بنت المومس. وجاء بحزام البنطلون، ووقفت أمامه وجسدها يترنح.. ضربها بالحزام على ظهرها، فتقوس الظهر وسقطت على الأرض.. حملها وألقى بها فوق السرير، وقيد ذراعيها بالحزام، ورفع ساقيها فبرزت المؤخرة أمامه كشباك خالية من حارسها.. وحاول أن يولج قضيبه، لكنها تخلصت منه بركلة في صدره.. امتزج شعوره بالألم والمتعة؛ لذا نظر لها وهي تتلوى وتتألم فوق السرير في محاولات بائسة للوقوف على قدميها، إنها في النزاع الأخير من المقاومة، ستسلم وسيقضي معها العمر كله عند لحظة صراخها، ستطربه الحشرجة الأولى، ولمعة عينيها، ورعشة يديها.. كل ذلك سينعش مزاجه. وفيما هي عارية تحت ضوء الشمس المنبعث من البلكونة، بدت في عينيها نظرة غريبة. توقف «نواف» حائرًا من انتصابها بهذا الشكل وكأنها تؤدي التحية العسكرية، وإذا بها تقفز من البلكونة!

وقع الصدمة جعله يتصرف في ثوانٍ؛ حيث جمع ملابسه وارتداها في لمح البصر.. فتح الباب في حرص، وكانت الحركة داخل الشقة طبيعية.. أغلق الباب خلفه، وترك المفتاح ملقى على البار، وغادر الشقة دون أن يلاحظه «عبدون النور»، ونزل من العمارة ومر أمام

الجثة.. كانت الحركة في الشارع قد توقفت تمامًا، وتكدر الناس حول الجثة، وقد جاءوا بغطاء سيارة وألقوه فوقها ليستروها.. ويهدوء نظر لها من بعيد وهي سابحة في دمائها، تعبت بها أيادي المارة حتى نقلوها فوق الرصيف. ومضى عام على ذلك الحادث، وصادف «نواف» «عبدون النور» ساعيًا على قدميه في شارع النادي في الحي الإنجليزي.. كانت ملامحه قد تبدلت بعض الشيء، لكنه ما زال هو، حتى عزمه على كأس في «بار الكرة الذهبية».

الغرفة تزداد مساحتها كلما تأملت السقف العالي وهي ممتدة فوق السرير الكبير؛ فتشعر بالاضطراب تارة، وبأهدوء تارة أخرى.. ويزداد الاضطراب كلما نظرت في الساعة المثبتة على الحائط؛ دقائقها بطيئة أشبه بأنفاس رجل يحتضر.. الصمت المطبق على الشقة الفسيحة جعلها كثيفة. بعد أن يخرج كل من في البيت للعمل، تقطع المسافة بين المطبخ وغرفتها عدة مرات.. مرة تحضر كوب الشاي، ومرة تصنع بشيء من التاني بعض الطعام؛ مثل صينية كيك، أو طبق أرز باللبن.. فضلًا عن أداء بعض التمارين الرياضية ليظل جسدها مشوقًا؛ بالطبع لا تفعل ذلك إلا تحت إيقاع شاذ من الموسيقى الغربية. هكذا قضت دالبا أوقات مكوئها في البيت، إلى أن يأتي باقي أفراد الأسرة؛ فينشغلون في خلافات دائمة على نفقات المعيشة التي تساهم فيها. الشقة الفسيحة التي تُفتح على أربع غرف، تبدو وكأنها بنسيون، يقبع كل فرد من أفراد الأسرة داخل غرفته ولا يعنيه الآخر في شيء.. أحيانًا يجمعهم التلفزيون، أو اقتراح بصنع طعام شهى يجتمعون على الاشتراك فيه، ويوزعون المهام على بعضهم البعض.. حتى يتهوا من عملية الطهي التي يندمجون فيها في تركيز؛ تركيز يدل على الرغبة في إنجاز شيء مهم

يحبونه ويسعون إليه.. ويجلسون إلى السفرة ويلتهمون الطعام، ويتبادلون التعليقات، ويلقون باللوم على بعضهم البعض في شيء من السخرية، مثلاً: شرائح البطاطس كبيرة، الملح زائد، خلطة الدجاج ينقصها شيء.. لكن المهم في ذلك هو الجلوس على مائدة واحدة.. تبدو على أفراد الأسرة السعادة. وتسعد الأم بهذه الفقرة التي تتكرر كل شهر مرة أو اثنتين على الأكثر.. الأبناء مشغولون في عملهم، والبيت دائماً ما يخلو منهم، والنمط الأوروبي تمكّن من المنزل في إيقاع منتظم.

«هي داليا محمد عبد المقصود»

كانت داليا عظيمة الشعور بأمرين؛ عقلها وجمالها، ولا تثق بأحد مهما كانت صلة قرابته لها، تشعر دائماً بالوحدة؛ شعور ليس قاسياً، وإنما هو شعور يمنحها الحرية في اختيار الحياة التي تريدها دون أن يعترضها أحد، تعلمت الحقائق مبكراً؛ لذا تعرف جيداً ماذا ستأخذ وماذا ستعطي، ترى الدنيا طريقاً طويلاً لا بد أن تسلكه حتى النهاية، ولكن بمفردها؛ هي محطة لعالم آخر، عالم أكثر اتساعاً، ثمة أناس ستقابلهم مرة واحدة لا أكثر من ذلك، ستعطيهم وستأخذ منهم، ليست هناك حسابات أخرى؛ لذلك لم تعرف في حياتها طعم الصداقة الحقيقية، الحياة التي تربت عليها تكمن في $1+1=2$ ، كانت مؤمنة بجمالها؛ لذا تقول دائماً لنفسها: «إن الله لم يخلق جمالي عبثاً، وإنما هو منحة منه لأستفيد؛ ولذلك وهبني هذا النضج وهذه القوة».. جمالها هو استثمارها الوحيد في هذا العالم المادي؛ ولذلك حافظت على قوامها بالغذاء الصحي وممارسة الرياضة بانتظام، وحددت ميزانية تُعد ربع دخلها الشهري للإنفاق على جمالها.. ترتدي أفضل الثياب،

وتقتني أفخر العطور والمساحيق. وأيضًا كانت مؤمنة بعقلها؛ لذا عكفت على قراءة الكتب منذ الصغر، منذ أن كانت تجلبها أمها لها ولأشقائها، جميع التجارب التي خاضتها خرجت منها ظافرة، أثناء الدراسة الجامعية رفضت جميع الصداقات، بعد أن تقدم لها زميل وطلب يدها دون معرفة سابقة.. إن داليا على عكس أغلب الفتيات تكره وبشدة من يتفقد جسدها، هذا لا يُشعرها بأنها جميلة والنظر لها شيء طبيعي، ولكن يُشعرها بأنها مومس.. شعرت بالغيظ وتدفق الدم يغلي إلى وجهها، وقالت بوحشية: «أنت لا تعرفني.. أنت شخص وقح.. ابن حرام» ورفعت في وجهه إصبع الاتهام، وقالت في عنف: «لو تعرضت لي مرة أخرى سأبلغ الأمن وأقدم شكوى لعميد الكلية.. أنت فاهم؟» وكادت أن تنشب بينها معركة، لولا تدخل البعض، والحقيقة أنها كانت متحفزة لذلك جدًا؛ كانت تريد أن تلطمه أو تركله، فلو كان جاء وطلب التعرف عليها لكان اختلف الأمر.. وشعرت بالمرارة من هذه التجربة؛ إنه لا يعرفها، لكنه يعرف جمالها وجسدها جيدًا، هو جاء بدافع الشهوة وليس الحب، جاء ليقفز فوقها.. هذا ما يعرفه عنها.. وأيضًا استفزتها جرأته؛ كيف تجرأ وتحدث معها؟ كان يطمئنها أن يقال عنها «ما أظعها» عن أن يقال عنها «ما أطيها». وتخرجت في الجامعة ظافرة بتجارب عدة، أهمها الشخصية القوية، وعدم وجود أصدقاء كثيرين، وعملت بعد تخرجها في إعلانات مستحضرات التجميل، لكن ظلت الأموال شحيحة والمطلوب منها أكثر بكثير من العائد؛ لذا تركت هذا المجال، بيد أنها صورت إعلانًا فوتوغرافيًا لبيرة «كارلسبيرغ».. انتشر البوستر على جدران محال الخمر وأمامها (وكانت الصورة مشيرة؛ إذ التقطت لها وهي في حمام السباحة ورأسها على حافة الحمام،

وبجوار وجهها الطويل كأس البيرة المثلثة بالرغاوي، وإلى جوارها الكوز الصغير).. لكنها سرعان ما جلست إلى نفسها وتفكرت في هذا الطريق وحسبتها جيداً؛ فقررت أن تُعرض عن تصوير الإعلانات.. وتعرفت خلال عملها في الإعلانات على عالم آخر؛ عالم كبير ليس له حدود، حدوده تبدأ بالأرض وتنتهي بالسما، ولكنها حدود ليست لها نهاية، تبدأ في عالم وتنتهي بفتح عوالم أخرى؛ عالم النفس، لكل نفس عالم واسع؛ من القذارة، والشذوذ، والمتاجرة، والتلاعب.. وقالت: «حقاً لقد سيطر على العالم هؤلاء الشواذ».. أما باقي العالم فهم أناس حالمون، مطمثنون.. تعاملت مع رجال يتحدثون بغلظة، حديثهم معجون بالفاظ بذيئة، وبنغمة شاذة، وبالسخريه من المقدسات.. قلوبهم جبارة.. لا يردعهم أي مخلوق.. حتى الله لا يخشون منه.. كأنهم مطمثنون لشيء.. يقولون إن الدنيا كذبة كبيرة ونحن محظوظون.. تحملت شذوذهم بصبر وقوة، لكنها في النهاية مدينة للخمر بدين كبير؛ فكانت لها دور في غفلتهم عنها شيئاً.. لذا خاضت رحلات الزواج العرفي، أو بالأحرى زواج المتعة، بيقظة.. هو عمل تؤديه بإتقان، أي غفلة منها من الممكن أن تؤدي إلى فقدانها عذريتها.. خاضتها خمس مرات، برفقة أثرياء عرب أو مصريين، في كل مرة يستمر الزواج أسبوعاً أو اثنين أو شهراً على الأكثر، وتخرج ظافرة بالمال والتجربة التي أثبتت فيها قدرتها على الحفاظ على نفسها، ثم يتم الطلاق بعد انتهاء المدة بتمزيق الورقتين.. رفضت علاقات كثيرة خارج إطار الزواج العرفي، الزواج شرط أساسي في إبرام الاتفاق بينهما، على الرغم من أن الجماع ليس كاملاً، ولكن كأن هناك شيئاً في صدرها لا يطمئن إلا بعد كتابة هاتين الورقتين.. لكن شروطها بعد ذلك قوضت فرصتها، كانت تكتفي بمنح القبلات الحارة، وتقديم

عرض ساخن بالملابس الداخلية.. لكن كل هذا لا يغني عن الجماع، خاصة في وجود هؤلاء الروسيات؛ لذا لم تعد مرغوبة.

ويوم أن ذهبت لتدفع اشتراك مدام «إيفون»؛ المرأة العجوز التي تقضي لها من يوم لآخر بعض الخدمات، قابلتها مدام «أندرا كانتاكوزينو»، وبدون مقدمات قالت لها: «تعملين معي؟» وبدون تردد أجابت: «نعم.. لم لا؟».

فرصة جاءت من السماء؛ لذا أخذت القرار بسرعة ودون تفكير، إقامتها في البيت تجلب لها المشكلات مع أمها وأشقائها حول نفقات المعيشة، ودائمًا ما تصرخ أمها في وجهها: «داليا، راعي ظروفك.. أتحمل نفقاتك منذ أشهر.. أف».

وقامت المدام بتدريبها بنفسها.. ولم تخيب ظنها، راهنت عليها، فتفوقت على كثيرات، وقالت عنها المدام: «داليا فظيعة؛ يكمن تحت جلدها شيء مثل الكهرباء، حماسها لا ينطفى أبدًا».

والحقيقة أنها جميلة، كصورة رائعة نُقشت بالزيت لفتاة جميلة وعُلفت في إحدى القاعات الفخمة.. جماها يكمن في رؤيتها فقط، وليس في التعامل معها.. جسدها مرن، وطولها ممشوق كعارضات الأزياء، ينبعث من شعرها المبلبل دائمًا رائحة الزيوت المستوردة، في وجهها شيء مشير، شيء غامض، بدأ مع صمتها وحديثها القليل، أن ثمة سرًا وراءها، على أن ذلك كان يميزها، لذا كانوا يشبهونها في «رابطة المغتربين» بالفتاة التي تشبه الأفعى في صمتها، لها جبهة بارزة تشعر أنها شيء قبيح في وجهها؛ لذا تُخفيها أحيانًا خلف قُصَّة ناعمة من شعرها الكستنائي.. طريقة ارتدائها للملابس خضعت مؤخرًا لذوق المدام، التي أقنعتها بأن مؤخرتها كبيرة؛ ولذلك لا بد أن ترتدي

البنطلونات الفضفاضة.. ومنذ علاقتها أملت عليها بعض التمارين التي تحد من استدارتها المشيرة، واستمرت على أداء التمارين بانتظام.

«تبقى عدة مواقف عنها تلخص الكثير»

انجرفت كقارب صغير فوق شلالات هائجة، فارتطمت كثيرًا في الصخور، لكنها ظلت فوق الماء تقاوم المنحدرات والصخور.. ترى الشاطئ يقرب شيئًا فشيئًا؛ لذلك ظلت تقاوم وتقاوم، يومًا ما ستصل إلى هناك وتجلس فوق الرمال الدافئة، وتقطف من أشجار الفاكهة، وتسترخي تحت ظلها في سلام وطمأنينة؛ لذا استسلمت لاندياعها دون وعي.. تؤمن جدًا بأن كل إنسان مسئول عن نفسه، كل إنسان في رأسه عقل، وفي صدره قلب، كل إنسان حر، ليس هناك من سيتحمل أخطاء الآخر، ليس للأغبياء مكان في هذا العالم؛ لذا تعاملت بحدة مقرونة بفرور، ونقص ملحوظ في العواطف.. تعرف قيمتها جيدًا؛ قيمة ثقافتها، وجمالها، وقدرتها على التكيف مع الآخر.. لذلك لم تشعر بنفسها التي بدت كريمة لمن يتعامل معها.. فعندما كانت تجلس في المطاعم الفاخرة لتناول الغداء أو العشاء، تطلب أولاً أن تفقد المطبخ، أو تستدعي النادل وتطلب منه أن ترى أظافره إذا ما لاحظت أنها طويلة متسخة.. إنها تتعمد أن تضع الأشخاص في هذه المواقف كنوع من العقاب الصارم، وتشرع في إلقاء محاضرة طويلة عن النظافة، وإذا لزم الأمر تحت الرواد على مغادرة المكان وتحرير محضر.. وتختتم المحاضرة بقولها: «أنتم لستم أغلى عندي من نفسي».

علاوة على أنها تصف الفقراء بالأغبياء؛ طالما يملكون العقول ولم يستخدموها إذن فهم أغبياء، انتهاؤها هذه الطبقة يعكستها؛ لذا تحاول أن تتبرأ منهم في مجالسها، فتنتعهم بأقذر العبارات، تشعر بأنها تحارب

بفردتها أنتخض بنفسه مكنة كبيرة في مجتمع كبير يسيطر عليه
الشواذ، فهي قادرة على تغيير المسار أي مسار مهم كان من الممكن
تغييره طالما الآلة تعمل: تقصد عفتها.

أما صوتها المشروخ بنغمة شاذة، فإنه ناتج عن احتجاجها
الدائم.. فهي لا تمتلك ثقافة نلامب لآلة.. لا تستطيع أن تترك أحداً
تحرش بها، أو نظرفاً نظرة وقحة دون أن تسجل احتجاجها؛ لذا
استقرت على خطة بدأتها بالبصق في وجوههم، وهذا كلفها خوض
معارك طاحنة، فأضافت لبصق كلمة اختارتها بعناية كان فيها
السحر؛ كلمة «برص».. بذلك ناتج عن ثقة كبيرة قررت أن يكون
العقاب قاسياً، فتوثبت نحو أي نظرة بكلمة واحدة: تذهب للشباب،
وبصوت خارق بعد أن تقترب من وجهه تقول: «صحيح برص»..
كان للكلمة مردود قاسٍ في نفس أي رجل، مهما كانت مكانته
ووسامته، على الفور يداهم إحساس بأنه ضئيل كبرص لزج على
حائط.. هكذا تعاملت بقسوة شديدة.. تختار عبارات والألفاظ تعلم
أثر وقوعها في نفس الشباب، نكل واحد منهم ما يناسبه من الألفاظ
الجارحة.. وكانت توجه هذه الألفاظ حتى للشباب المسالم الذين تقع
أعينهم عليها دون قصد، على الفور تنتعهم قائلة: «صحيح برص»؛
مما جعلها في كثير من الأحيان تخوض معارك دامية.

والحقيقة أنها ليس عندها مانع أن تسوق أحداً إلى قسم الشرطة..
بل من الممكن أن يتطور الأمر للشابك بالأيدي؛ فهي تحمل في
شنتها يدها شيئاً أشبه بكرياج مصنوع من السوستة المعدن، حجمه
لا يتعدى ١٠ سم، عند دفعه في الهواء بقوة يتمطط ويتجاوز طوله
التر، في آخره كرة معدن ثقيلة، إذا ارتطمت في رأس أحد كفيلاً بأن
تُسقطه أرضاً.. أخذت هذا الشيء من المدام، فضلاً عن «إسبراي

الشطة؛ رشة واحدة في وجه أي شخص ستحوطه لضرب لبضع دقائق.. ذات مرة تحرش بها رجل أربعيني في محطة المعادي أثناء ذهابها للعمل، وقف خلفها وضربها على مؤخرتها؛ فانقضت عليه في عنف، وظلت متشبثة به في قوة، وقبضت على قميصه، وظلت تسدول الركلات القوية السريعة، وتبصق في وجهه مع سيل من السباب.. تجمهر الناس حولها، وأصيبت هي بكدمة في كتفها من أثر ارتطامها في عمود الإضاءة.. بينما أدمي أنف هذا الرجل إثر لكمة عشوائية منها.. كان من موظفي مصنع ٥٤ الحكومي؛ لذلك انحاز له عمال المحطة، وتجمهر حولها زملاؤه.. رؤيتها لدمائه زادت من عزيمتها وقوتها، واستعرضت قوتها على الملأ. وتدخلت بعض النسوة، ولكن دون جدوى.. وتمكن الرجل من طرحها أرضاً، وانطلق وحواف أصدقائه، وظل يصرخ واصفاً إياها بالعامرة.. وانفض التجمهر، وبدأ على الجميع عدم التعاطف معها. تقلصت عضلات وجهها، وأطلقت سيلاً من الألفاظ البذيئة للجميع.. وكالعادة بصقت على الأرض، وذهبت منفعة.. ولكن ظلت بينها وبين نفسها سعيدة بضرب هذا الرجل، تستدعي صورة أنفه الدامي؛ فتغمرها السعادة.

«وأخيراً وليس آخراً»

أما حرصها على ألا تفقد عذريتها مع هؤلاء الشواذ، فنابع من إيمانها بقيمة العذرية.. العذرية عندها ليست فقط غشاء هشاً سهل الاختراق، ولكنها روح ينبع منها الاستقرار والأبناء؛ فلا ينبغي أن تلوث. وذات يوم طلبت من المدام الإقامة معها، ولما لمحت في عينيها بوادر الرفض، قالت بسرعة: «سأقوم بجانب عملي بعمل آخر». فقالت لها المدام: «ماذا ستعملين؟». فأجابتها: «تنظيف المدرسة» واستطردت:

«رغم أن هذا عمل شاق.. فضلاً عن طهي الطعام، وتنظيف الملابس..
وأنقاضي ثلاثمائة جنيه فوق راتبي بعد أن تخصصي نفقات طعامي».
ووافقت المدام على هذا العرض. ومكثت عند المدام أشهرًا طويلة،
شعرت بالراحة من الإقامة في الحي الإنجليزي. ولما مرت المدرسة
بفترة ركود، أصبحنا صديقتين حميمتين..

في هذا اليوم استيقظت داليا حوالي الساعة الثانية عشرة، كانت
قد قضت سهرة طويلة مع المدام في النقاش حول مصير المدرسة،
امتدت حتى الثالثة فجرًا.. استيقظت مذعورة بعد سماعها بكاءً
شديدًا وتنفُّسًا سريعًا عنيفًا متقطعًا مصحوبًا بكلمات غريبة.. انتفضت
من فوق السرير، واندفعت إلى حيث مصدر الصوت؛ فوجدت المدام
جالسة في الصالة وقد احمر وجهها من أثر البكاء، وبدت ملابسها
وحذاؤها قد تعفرا بالتراب إثر رحلة شاقة؛ فتساءلت في ذعر:

- ماذا حدث؟ هكذا قالت وقد شحب وجهها، واندفعت تلقائيًا
إلى المطبخ وجاءت بكوب ماء، تناولته المدام وأخذت جرعة،
ثم مالت بظهرها على المقعد، وكأنها خرجت لتوها من أعماق
بحر عميق بعد صراع عنيف مع الماء الثقيل.. التقطت أنفاسها في
يسر.. وعادت داليا تسأل:

- ماذا حدث؟

فعادت المدام تبكي من جديد.. مسحت أنفها الذي احمر، وقالت
بعد لحظات تجرعتها داليا في مرارة:

- ماتت صديقتي وحييتي «ليلي فتمير».

مدام «أندرا» تجاوزت الأربعين عامًا، لكنها تملك جسدًا رياضيًا صلبًا؛ مما يجعلك تظن أنها في الثلاثينيات.. طولها وجسدها متناسقان، وجهها أملس، عيناها عسلتان.. كل شيء في وجهها صغير وملموم؛ الأنف، الفم.. وشعرها الذهبي المجعد القصير تجمعفه في ضفيرة واحدة.. على أن مقدمة شعرها قصيرة لا تتصل بالصفيرة؛ فيبدو هائشًا، فيعكس شكلاً مثيراً للضحك، كأن طفلاً رسم صورة للشمس فأضاف لها عينين وأنفاً وفماً.. هكذا تبدو. جاءت من المجر مع شقيقتها؛ حيث أسلمت وتزوجت من رجل مصري يعمل في سوق الكاسيت، فأقامت في القاهرة منذ نهاية الثمانينيات، وعادت إلى المجر واستقرت فيها عدة أعوام، بعدها قررت أن تأتي إلى القاهرة مرة أخرى وتفتح مشروعها، واستأجرت شقة لتعليم رقصة «السالسا»؛ هي من الأوائل الذين فتحوا مدارس لتلك الرقصة في مصر، وبالطبع لم تعانِ ركوداً أبداً؛ فقد قصدتها أغلبية كبيرة من الأجانب القاطنين في الحي الإنجليزي، فاستأجرت شقة أخرى كبيرة في شارع ١٥، وبدأت تعمل هي و«ليلي فتمير» في تعليم الرقصة للراغبين، حتى راودتها فكرة تكوين فرقة كبيرة تقدم عروضاً في الفنادق والحفلات الكبيرة.. وأنشأت الفرقة، التي كانت تضم روسيات ومصريات من الجنسين، وعملت الفرقة في أكثر من فيديو كليب لأشهر المطربين في بداية التسعينيات.. ولكن شيئاً فشيئاً تقلص عدد الراغبين في تعلم هذه الرقصة، التي تحولت لشيء عمل قديم بعد أن ضربت التسعينيات موضة الأغنيات الصاخبة، وكانت على رأس هذه الأغنيات أغنية «ماكارينا».. انجذب لها جيل التسعينيات من مختلف الطبقات؛ ليس في مصر فقط، ولكن في العالم أجمع، وصرخت المدام في جنون:

- جميع الشباب يرقصون «ماكارينا».. في النوادي، والحدايق،

والشوارع.. وأيضًا في المدارس.. أنا ضحية هذه الأغنية اللعينة.
وجلست المدام تنتظر من يطرق باب المدرسة بفارغ الصبر، وكان
رواد المدرسة في هذا الوقت من النساء المتقدمات في السن. وعلى
الرغم من أن المدرسة انتعشت إلى حد ما، فإنها كانت تشعر
بالكآبة من إيقاعهن البطيء. وفي ذات يوم، جاءت لها سيدة ممن
يتدربن عندها، وقالت لها:

- مدام «أندرا»، أنتِ لستِ ضحية هذه الأغنية.. أنتِ ضحية
الجهل.

كانت المدام تجلس كعادتها في البلكونة تحتسي قهوتها الفرنسية التي
تعكف على صناعتها في تأنٍ.. اعتدلت فوق المقعد وقالت في دهشة:
- أنا لا أفهم شيئًا.

ضحكت السيدة وجذبت مقعدًا وجلست إليها، وقالت:

- أنا إسبانية.. وهذه الأغنية أصبحت حديث العالم.. أزعم أن هناك
أناسًا لا يعرفون إسبانيا، لكنهم يعرفون «ماكارينا»؛ هذه الأغنية
التي تتسم برقصتها وإيقاعها المبهج تتحدث عن فتاة خائنة
مجرمة خانت حبيبها مع صديقين له عندما ذهب إلى الجيش.
فضحكت المدام وقالت:

- يعني الموضوع فيه خيانة!

لم تعد المهندسين تروقه؛ فقرر تركها.. ثمّة رائحة تزكم أنفه؛
رائحة «ليلي فتمير».. صورة جثها لا تفارق خياله.. فقد الاستمتاع
بأي متعة، خاصة عندما يقترّب من مكان الحادث ينقبض قلبه..

وصفتها صحيفة بفتاة عاهرة انتحرت من الطابق الرابع، وأخرى وصفتها بأنها تعاني اضطراباً نفسياً من أثر الحرب. قرأ قصتها في الجرائد: «فتاة بوسنية هربت من جحيم الصرب لتتحرر في مصر». شعر «نوراف» بالغيظ من «عبدون النور»؛ فاقتفى أثره، وعلم أن استطاع أن يفلت من العقوبة، لكنه أغلق الشقة، واعتزل القوادة. وعاش «نوراف» أشهراً من المرارة، وفي النهاية قرر أن يترك الحسى ليتخلص منها تماماً. وأخيراً استقر في الحسى الإنجليزي، في عمارة فيكتوريا.. عمارة ضخمة وقديمة، شرفاتها بحرية، تطل على ميدان فيكتوريا.. «حسى هادئ وكثير» هكذا وصفه. ثمة هدوء في باراته قتل طموحاته نحو الشهوة. قصد «بار الكرة الذهبية».. البار يضج بالنساء الإفريقيات؛ لذلك يضج أيضاً بالفرنسيين والألمان الشواذ متعقبي الفتيات الملونات. البار في مبنى قديم، وتملكه سيدة مصرية كانت تعمل في العقارات، متزوجة من شاب مسيحي، فرض سطوته على البار وعليها، وجعل له مكانة كبيرة في هذا الوسط، يستقطب البلطجية لحماية البار، وحمايته هو شخصياً.

بنظرة محترف، استطاع «نوراف» من أول وهلة تقييم البار. كان يزحف وراءه «عبدون النور»، وقال له:

- ده مش مقامك يا «نوراف» بك.

- شيء جديد.

- أغلب المومسات اللي هنا أنا عارفهم كويس؛ من الجنوب مسيحين، وأنت تدري المسيحين مش نظاف.. أنا خايف عليك.

- لا تقلق.. أنا حيت أحفل بيك بعد الغيبة دي.

- آه.. الحال اتغير. هكذا زفر عبدون في يأس.

- عشان الحادثة؟

- نعم.

جلسا على البار معاً يحتمسيان البيرة، وسط ترحيب شديد من الفتيات بعبدون.. شملهم «نوّاف» بنظرة قرف.. وقال عبودون وهو يطرد دخاناً كثيفاً متنهّداً في عصبية:

- كانت شؤم.

- وأنت غبي. هكذا قال «نوّاف» في لهجة فظة.

خفض عبودون رأسه، وقال بانكسار:

- معلش يا «نوّاف» بك.. يبدو أنها كانت عازمة على الانتحار، وأرادت ذلك في منزلي.

فقال «نوّاف» يستفزه:

- لكنها كانت لذيذة، ولكن مجنونة.. والحقيقة أنها لم تتحرر.. أنت لست غيباً فقط، ولكنك ظالم.. هي لم تتحرر، أنا من دفعت بها من الشرفة.

- ماذا تقول.. أنت؟!!

- نعم، أنا من قتلها.. ولكن اثبت يا حلو.

- أنا مقتلك.

- تقتل مين يا كلب؟ نزل إيدك يا حيوان.. والله أصرعك برصاصة لا تساوي جنيهاً.

وألقي عبودون بالكأس على الأرض؛ فأحدثت صوتاً جذب أنظار السرواد، وانقض على «نوّاف».. وقبل أن يسدد له لكمة، استبقه

«نَوَّاف» بلكمة قوية من أثرها سقط على الأرض.. فتوقفت الحرى
في البار، واقترب منها العاملون.. وظل «نَوَّاف» واقفاً بثبات.. إلى
أن قام عبدون في هدوء، وأخرج منديلاً قماشاً من جيبه وجفف
به الدماء، وتناول جرعة ماء، وظل شاردًا لدقائق.. أوقد سيجارة
ونفث دخانها في هم، ثم قال له بنبرة تدل على عجزه وانكساره:

- أنا بيتي اتخرب.

- عشان تعرف تختار البنت كويس.. مش تجيب بنت مجنونة هاربة
من حرب.

- حيت أبسطك.

- أنت خربت مزاجي. ثم واصل:

- ورغم كل هذا القرف، بعطيك فرصة أخرى.

- أنا لا أعمل.

- اسمع يا بابا.. آخر مرة أعطيتك متي دولار، وكانت هتبقى
التيجة كارثة لولا ستر الله.

- «نَوَّاف» بك، أنا حيت أخدمك.

- حبيبي.. أريد مالي في الحال.

- بذلك على مطرح هايل.

- بابا.. المال.. أنا لستُ ريبب المواخير، كنت بعطيك فرصة، لكن
طلعت حمار.

- مش هتندم يا «نَوَّاف» بك.

ودار «نَوَّاف» برأسه يتفحص البار من جديد، وكان قد ضج أكثر

في هذه الساعة المتأخرة.. الأصوات مختلطة، والضحكات صاخبة،
ويبعث سماءه خليط من خيوط الدخان.

- أي مطرح تريد أن تدلني عليه؟

انفجرت أسارير عبدون، واعتدل فوق مقعده العالي وقال:

- أنا الآن أعمل عند جماعة خواجات.. سواق.

بدا على وجه «نوّاف» الاندهاش، وقال:

- سواق!

- نعم يا «نوّاف» بك.. لحين الهجرة؛ لن أستطيع العيش في القاهرة،

ألم أقل لك إن بيتي اتخرب. واستأنف:

- وذات مرة طلبت مني المدام أن أوصلها لمدرسة الرقص.

- مدرسة رقص!

- نعم يا «نوّاف» بك.

- وكانت عبارة عن شقة كبيرة في شارع ١٥.. صاحبة المدرسة

امرأة خوجاية، بتعلم الرقص للنساء والرجال.. ويعمل عندها

بنات على الفرازة، يقمن بتعليم الراغبين.

- وماذا تريد مني؟

- تقدم في المدرسة.. وبإذن الله مقبول.

- أنت بتضحك عليّ.. أليس كذلك؟

- حاشا لله «نوّاف» بك.. أنا بذلك على المزاج كله.. بعد أن تُقبل

في المدرسة، ستخضع للتدريب؛ يعني طول النهار من حضن دي

لحُضن دي.. وتدرّي رقصة «السالسا»، كلها أحضان.

تفكر «نواف» قليلاً، ولمعت عين «عبدون النو» بثقة، ثم أردف:

- بها شيء جديد ممتع.

وتساءل «نواف»:

- وما طبيعة الرقصة بالضبط؟

- رقصة مستوردة من أمريكا اللاتينية.. بتعتمد على الأجسام

الطرية والمؤخرات الكبيرة.

- واو! هكذا قال في سعادة.

- بفلوسك يا «نواف» بك، سيخضعن لك.

أخرج محفظته وأبرز منها ورقتين فئة العشرة دولار، وقذف بهما إلى

عبدون وهو يتسم في سعادة.

ما هذا السحر! ما هذا الجمال! الموسيقى الكلاسيك تصدح

في الصالة الكبيرة المفروشة بباركيه لامع، والملفوفة بمرابيا كبيرة،

انعكست عليها أجسادهن.. فيها عالم كبير يضج بالجماليات، فيها

الدنيا كلها، مقطع طولي وعرضي لأجمل حسناوات العالم. واسترخى

على المقعد الدافئ في لذة، وتمنى لو أن يظل هكذا جالساً؛ لا يريد

أكثر من ذلك.. إنه معهن بعيد؛ بعيد عن المشاحنات، والصحراء،

وحرب القدماء، والدماء، والتقاليد والعادات التي فرضت على

الضعفاء.. إنه بعيد عن كل هذه السخافات.. عالم متحرر.. مؤخرات

ليس لها رابط ولا ضابط، ونهود متحررة تتنفس، ليست مربوطة

بأجبال الجاهلية.. وجاءته المدام، وقالت له بعربية ركيكة:

- أي خدمة؟

- أريد أن أقابل المسئول من فضلك.
- أنا المسئولة هنا.. أنا «أندرا»، ماذا تريد؟
- أريد أن ألتحق بالمدرسة.
- رائع.. تفضل. هكذا قالت، وقد بدا عليها نوع من الاندهاش.
- جلس «نواف» وجلست أمامه.. بدا أمامها قزماً، شعر بأنها تعلم بنيته الخبيثة؛ لذلك جاهد في أن يبدو طبيعيًا.
- ماذا تريد بالضبط؟
- أربكه السؤال وتوتر.. لكنه سرعان ما قال:
- أليست هذه مدرسة؟
- نعم.
- إذن أريد أن أتعلم.. أعتقد أنه لا يوجد شيء آخر.
- يوجد.
- ما هو؟
- نحن ندرّب على أنواع مختلفة من الرقصات.. الرقصة الأساسية التي قامت عليها المدرسة هي رقصة «السالسا».. لكن هناك من يرغب في رفع لياقته بنوع آخر من الرقصات.. هذا ما أقصده بالضبط.
- وأنا هنا لرقصة «السالسا» فقط.
- تحت أمرك. ثم اتجهت نحو مكتب صغير جذبت منه دفترًا، وعادت لتجلس مرة أخرى.. بدأت تدون بعض الأشياء، ثم نظرت في ساعة يدها ودوّنت التاريخ، وأردفت:
- ما اسمك؟

نوّاف الرشيدى.

سنتك؟

٢٥ عامًا.

أين تقطن؟

هنا في هذا الحي.

عظيم.. سنقوم باختبار لياقتك؛ لتحديد البرنامج المناسب لك.

تمام.

سنبدأ بحصة واحدة في الأسبوع.

قليل.

سنكثف الحصص تدريجيًّا. هكذا قالت وهي ترفع عينيها في

وجهه.

فقال وهو متذمر:

تمام.

ثمن الحصة عشرون دولارًا. ثم نظرت في عينيه نظرة طويلة؛ إنها

بالغت لترى رد فعله الذي سيحدد رغبته الحقيقية.. وسرعان ما

قال دون تردد:

ما فيش مانع. هزت رأسها وأدركت سبب مجيئه، فواصلت:

وكلما زادت الحصص، انخفض السعر.

المهم عندي هو الإتقان في التدريب.

سترى مستر «نوّاف».. والمواعيد من خمسة مساءً حتى التاسعة.

- تمام. هكذا قال وقد بدا عليه الضيق؛ من ضيق الوقت، إنه يريد أن يسهر وينام في المدرسة.
- أهلاً بك مستر «نوّاف». وقامت المدام وصافحته، وقالت له:
- تستطيع أن تجلس لتشاهد أنواع الرقصات.
- بالطبع. وجلس يتفحصهن بعناية.. جذبتة واحدة فقط من بينهن، تحت جلدها البرونزي تفور الدماء، بركان يتأهب لحرق العالم.. من تركها هكذا متحررة؟ ما لها لا تنظر لي.. أنا هنا أيتها الفتاة.. «نوّاف الرشيدي» يتحدث.. مفرورة، تقود الفتيات بصرامة.. أرهقتهن التمارين العنيفة، أما هي فإنها بمئة رثة.

أحياناً تكون في حاجة لاتخاذ موقف يعطيك مصداقية عند الناس، ربما يكون الأمر أنت لست ضده، لكن الغالبية ضده؛ فتنازل عن موقفك وتنحاز لموقف الغالبية؛ فقط لتكسب ثقتهم.. وهذا ما فعله عبد الكريم حين سمع قصة «نوّاف الرشيدي»، وما يتبعه من سلوك سيئ. اربدّ وجهه، أو تصنّع ذلك، وتحدث بصوته الجهوري وبلكته المزوجة بكلمات إنجليزية كثيرة وعربية ركيكة:

- أنت يا دكتور فعلت الصواب.. حذرته؛ أليس كذلك؟

قال الدكتور عبد الجواد الجالس جواره وقد بدا قزماً:

- طبعاً.. وهزقني، وتوعد لو ذهبت مرة أخرى هيرميني من البلكونة.

- عظيم.. إذن ما سأفعله هو الإنذار الأخير. ألقى هذه الجملة بعصبية، ثم انتفض واقفاً.. فبدا طوله قد تجاوز الجالسين، غير

جسده السمين.. له بشرة سوداء، ولحية كثة أسفل ذقنه وخفيفة عند الصدغين.. يفوح منه عطر طيب كالذي يملأ جو المساجد في شهر رمضان.. يرتدي الجلباب القصير النقي المكوي بعناية.. ويدس قدمه في صندل من الجلد الطبيعي تبرز منه أصابعه الغليظة. نزل إلى «نواف» بخطى سريعة أحدثت ضجيجًا واسعًا.. ثم وقف أمام شقته، وبقبضته الكبيرة الصلبة طرق الباب بشدة. كان أعضاء اتحاد الملاك قد اتبعوه من بعيد يترقبون ما سيفعله بشغف.. في لحظة خرج «نواف» عاري الصدر، محتقن الوجه.. فوجد عبد الكريم في وجهه يقف كتمثال من الجرانيت.. ارتعد وحاول التماسك، ثم تساءل بلطف:

- خير يا مولانا؟

اقرب منه، ثم مسكه من ذراعه النحيفة، وجذبه نحوه بقوة.. فترنح «نواف».. ثم سرعان ما ترفز، ودفعه بيده اليمنى في صدره؛ مما جعل عبد الكريم يستشيط أكثر، فسدد له لكمة سريعة قوية جعلته يرتطم في الباب، ويتدحرج لداخل الشقة كأنه كرة.. ثم نهض بسرعة، وأغلق الباب في وجهه صائحًا:

- أنا هبلغ البوليس.. أنت إرهابي عايز تموتني.. أنا مش هسكت. بينما هندم عبد الكريم ملابسه، وقال بصوت عالٍ:

- افعل ما تستطيع فعله.. ولكن حذارٍ أن تفعل الفحشاء هنا يا كلب.

بعد أن جاء «نواف الرشيدى» ليقطن في الحي الإنجليزي، قرر أن يقيم حفلًا كبيرًا يحضره أصدقاء عرب ومصريون؛ وداعًا لحي المهندسين.. وأطلق على هذا الحفل «حفل الهجرة»؛ أراد أن يجدد دماء أخرى غير التي عكرتها هذه الحادثة. ويعلم «نواف الرشيدى»

أن الحى الإنجليزى لا يليق به، يقطنه الأجانب.. حتى البارات فيه
تتلخص فى الجلوس، والاستمتاع بتناول مشروب، وسماع الموسيقى
الكلاسيك. العمارة الضخمة التى تقع فى ميدان فيكتوريا أصبحت
شاهدة على أفعاله، سجلت له أول حفلة؛ حيث ضجت العمارة كلها
بزواره الذين توافدوا عليه. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة
بعد منتصف الليل، وإذا بفتيات يأتين فى ملابس مشيرة يصطحبن معهن
شباباً خليجين ومصريين. طفت على مدخل العمارة رائحة العطر التى
أيقظت البواب فى ساعة متأخرة، ناهيك عن الضحك والحديث بصوت
عالٍ يشبه الصراخ.. كان جالساً صامتاً.. اكتفى بمراقبة مؤخرات
الفتيات.. كلهن جميلات، لكنهن يفتقدن الأنوثة التى يجب أن يمزقها.
وفى صباح اليوم التالى، استيقظ على طرق شديد على الباب
أحدث ضجيجاً هائلاً.. قام مفزوعاً لاعتنا كل الأشياء، فتح الباب
فوجد رجلاً قصير القامة يبدو من مظهره أنه تجاوز الستين عاماً..
تفحصه، ثم صاح:

- أنت مين وعايز إيه؟

- أنا الدكتور عبد الجواد عويس؛ رئيس اتحاد ملاك العمارة. هكذا
قال بزهر وترفع.

- اتكلم مع مدام ناهد. هكذا قال وهو يغلّق الباب، فاستوقفه
الدكتور وقال:

- اسمع يا أستاذ، أنا جى أحذرك أنت.. مدام ناهد ليها كلام تانى
معايا. قال ذلك وهو يشير بإصبع الاتهام فى وجهه، كأسلوب
متبع مع الجميع.

- نعم.. تحذرنى أنا؟!

- شغل الخليج ده مش عندي هنا.. اللي حصل إمبراح لو اتكرر
هنظردك من العمارة.. ده بعد ما نستدعي بوليس الآداب ونعملك
فضيحة.

- طظ فيك وفي بوليس الآداب.. وأنا بحذرك لو جيت هناتاني،
أنا هرميك من البلكونة.. أنت اللي فاهم؟ ثم صفق الباب في
وجهه بعنف.

احتقن وجه الدكتور، وانصرف على الفور إلى شقته. لاحظت
زوجته انفعاله الشديد؛ فتساءلت:

- مالك؟

- مدام ناهد مش هتجيبها البر.. لتاني مرة تأجر الشقة لخليجين،
أنا مش فاهم إيه حكايتهام مع هؤلاء بالضبط؟ أنا خلاص
قرفت.. أنا حالاً معمل اجتماع للملاك؛ عشان نشوف حل
للمسخرة دي. والتقط الساعة وطلب سكان العمارة.

الدكتور عبد الجواد عويس هو طبيب بشري على المعاش، تولى
رئاسة اتحاد ملاك العمارة فور خروجه على المعاش، والحقيقة أنه
أثبت أحقيته لهذا المنصب؛ فتحولت العمارة في عهده إلى تحفة.. اهتم
بحديثها الأمامية، واستقطب لها بستانيًا اعتنى بها وزرعها.. وغير
رخام المدخل والسلم وماكينه المصعد. وكان يطلب من الملاك أن
يجمع بهم كل شهر، ينتظر هذا اليوم بفارغ الصبر؛ لي طرح عليهم بدقة
كل قرش أنفقه في صيانة العمارة؛ ليس للأمانة فحسب، ولكن منعة
الدكتور تكمن في أن يجتمع بالملاك.. يجلس على رأس المائدة، ويفرد
أمامه أوراقا كثيرة لا تعرف ماذا دوّن فيها بالضبط، يتأنى في شرح
كل تفصيلة.. وسرعان ما يتحول الاجتماع لحوار طويل بينهم؛ حوار

عن أحوال بعض السكان الذين تركوا الشفق لمستأجرين، وأحياناً
يتطرق الحوار للسياسة العامة. ويمتد الاجتماع حتى الغروب، يكون
الدكتور قد تشبّع وأفرغ طاقته المكبوتة، واستعرض مهارته ولباقته.
الدكتور يمتاز بجسد مدملك قصير، ووجه مكتنز بالشحوم، يضع
فوق عينيه نظارة طبية طراز (قعر كوباية)، لا يعتني بشعره؛ لذلك
يبدو دائماً هائشاً.. يستخدم إصبعه في حديثه، ويشير به علامة على
التوعد. كان دكتوراً في قصر العيني، وخرج على المعاش وتفرغ للعناية
بالعمارة. يبدو عليه الانضباط، والحقيقة هو منضبط فعلاً. له عادات
دائماً ما تثير استهجان الآخرين، يتعامل مع من حوله كأنه مواطن
أوروبي متحضر.. مثلاً عندما يرى معركة في الشارع، يذهب للاتصال
بالبوليس، وهذا تصرف طبيعي؛ لكن الشرطة لا تأتي أبداً، وإذا جاءت
تكون بعد أن تنفض المعركة، لكن لديه ثقة عجيبة بالشرطة؛ فإنه
مؤمن جداً بدورها، يتحدث دائماً بالقوانين. الدكتور عبد الجواد لا
يفتح باب شفته لأحد جاء دون ميعاد مسبق، وهذا طبيعي، حتى لو
حطم الباب. وله طريقه في التعامل مع المتاجر؛ فعندما يطلب طعاماً
من أحد المطاعم، يقول: «أنا العميد عبد الجواد» ولا بد أن تكون في
صيفة أمر، كأنه يعطي أمراً لأحد جنوده؛ ليضمن أن الطعام سيأتي
بسرعة، علاوة على جودته. وعندما يتحدث إلى صيدلية ليطلب منها
دواء، يقول: «أنا الدكتور عبد الجواد.. عايز كذا وكذا» علاوة على
إضافته الأخيرة: «الدكتور عبد الجواد رئيس قسم الجراحة مستشفى
قصر العيني»؛ ليضمن دواء غير منتهي الصلاحية. ويزعجه جداً قطع
الأشجار، كم يجزئه هذا، كم من المرات التي حرر فيها محاضر في
قسم شرطة المعادي، ولكن دون جدوى. وكان البعض يقول عنه إنه
على المعاش؛ فاضي.. ولذلك مزعج.

في مساء هذا اليوم تم الاجتماع في شقته، قص عليهم ما حدث، فانفعلوا بشدة. كان يُجلس البواب عند باب الشقة، فاستدعاه وقال له بحدة:

- أنت لازم يكون لك دور يا رمضان، بلاش تبقى أنت والكرمي حنة واحدة.. إيه معندكش نخوة؟ دا حتى أنت صعيدي يا رجل.. امنع أي مومس تطلع للحيوان ده.. ولو اعترضت، تكلمني وأنا هبلغ البوليس. قال البواب باضطراب:

- أنا مش حمل مشاكل مع مدام ناهد.. كلمها أنت يا دكتور. وانزعج الدكتور من أن يواجه هذه القوادة؛ فاحتقن وجهه وصاح في نرفزة:

- خلاص اسكت، وامشي استنى بعيد.

كان البواب رجلاً ريفياً ضخماً تجاوز الخمسين عاماً، يتمتع بجسد صلب، لكنه يخشى أي شيء يهدد رزقه، حتى لو كان منع مومس من الصعود لشقة. قال أحد الجالسين للبواب بمكر:

- انزل بلغ السيد عبد الكريم أنه يحضر الاجتماع معنا، وأننا في انتظاره.. هذا لو لديه وقت.

تساءل الدكتور عبد الجواد:

- المستاجر الجديد الإفريقي؛ أليس كذلك؟

- أيوة يا دكتور.. ومن حسن حظ هذا الشاب أنه كان غائباً لأكثر من أسبوع، كان مسافراً.. لسه الصبح شايفه.. ده اللي هيقفه عند حده. ونطق آخر خمس كلمات بنبرة مشحونة بالغيظ، ثم أعقبها بضرب التراييزة بباطن يده بقوة:

- بس ده مش من ملاك العبارة.
- مش مهم.. المهم أنه يتعاون معنا.
- وتفاضى الدكتور عن أن السيد عبد الكريم ليس من الملاك، رغم أن هذا أزعجه؛ فهو يحب أن يكون كل شيء منضبطًا.. لكن فكرة أن يخلصه من «نواف» جعلته يوافق فورًا.

- هه.. يقدرش حد يمشيك يا أستاذ «نواف»؛ دول كلهم ولا ليهم لازمة.. اللي يكلمك فيهم حط صباعك في مؤخرته. هكذا تحدثت «ناهد راشد» بتهكم وثقة كبيرة.
- واجعين لي دماغني يا مدام ناهد.. أنا مش عارف أذاكر دروسي.. لو لا قدر الله حدث رسوب هذا العام، هتبقى مصيبة كبيرة.
- هتنجح السنة دي والسنة اللي جاية إن شاء الله.
- رغم أن مدام ناهد تعلم أنه أنهى تعليمه الجامعي، فإنها دائمًا ما تجاربه.
- هشوف. واستأنف: البواب الزفت هو سبب المصايب دي كلها.. هو كلب الدكتور عبد الجواد.. أي حاجة تحصل يجري يقولها على طول.. ده مش لازم يستنى.. لازم يمشي فورًا.
- البواب مش هو المشكلة.. ورغم كده مخلصك منه.
- كمان الرجل الإفريقي الإرهابي كان هيموتني.. أنا مش لازم أستنى في العبارة.. أنا هموت هنا.
- حدجته بنظرة حادة، ثم قالت في غضب:

- وبعدين.. أنت مش بتسمع الكلام ليه؟ مش قلت مخلصك.
هكذا قالت بنرفزة. فأذعن لها وصمت؛ فالسيدة لديها قدرة كبيرة
على فرض سطوتها على أصدقائها من الخليجيين، فهي تتعامل
معهم بثقة زائدة؛ ثقة تغريك بمعرفة مصدرها.. لكن في حصة
صغيرة ستعلم دون أن ترهق نفسك؛ فقد ذهبت المرأة للعمل في
الخليج لبضعة أعوام، بعد أن حصلت على دبلومة في التمريض،
عرض عليها أحد المصريين هناك أن تعمل خادمة لكنها رفضت
ذلك، وقررت أن تعمل «بوابة» لتكون في خدمة سكان العمارة
جميعًا، وليس فردًا واحدًا.. استطاعت في بضع سنوات أن تكتنز
من المال ما يكفي لتبدأ بداية قوية، قصدتها كثيرات من النساء
اللاتي جئن للعمل، واستطاعت أن تكون مركزًا واسعًا يستقبل
الوافدات، وفي النهاية قررت العودة والراحة. أنشأت شركة كبيرة
للعمارات، وابتاعت في الحي الإنجليزي فقط أربع شقق خصصت
شقتين للبعثة الدبلوماسية الإسرائيلية؛ لذا تتمتع بسلطة قوية في
قسم شرطة المعادي، وفي الهرم شقتين، وفي حي المهندسين شقة
واحدة. وقصدها الأصدقاء الذين حرصت على إقامة علاقة
معهم بعد تركها هذه البلاد، فوجهت لهم الدعوة للقدوم
إلى القاهرة لقضاء وقت يستمتعون فيه. وبحرفة قوادة ماهرة
أصبحت مركزًا كبيرًا للوافدين العرب، لكن المرأة لها تاريخ
حافل في هذه الممارسات. وقد اعتادت ناهد راشد تلك المواقف
والمواجهات الساخنة بينها وبين سكان العمارات التي تملك فيها
شقة، لكنها وللأمانة حريصة على أن تحصن نفسها؛ لذا لها أكثر
من طريقة، فذات مرة اقتحم بوليس الأداب شقة الهرم وقبض
على ثلاث مومسات، وكان بها ثلاثة رجال من الخليج، ولما

حضرت إلى التحقيق انفعلت وقالت بحدة مقرونة بثقة كبيرة:

— أنا لا أعرف هؤلاء.

واتضح أن المدام تؤجر الشقق لبعض المواطنين السودانيين الذين يعملون عندها، أو الذين سافروا، ثم يقوم هؤلاء بتأجيرها لأولئك من الباطن، بعلمها طبعًا؛ وبذلك تكون المدام في مأمن من أي اتهام. فعلى الرغم من أنها لم تتلقَ تعليمًا قويًا، فإنها تملك عقلاً قادرًا على الطرح والجمع والضرب، وعلى أن يخطط للمستقبل بحرفية، فلها مقولة دائمًا ما تعلمها للعاملين عندها؛ تقول لهم: «ابن في ابنك، ولا تبني له». لذا ألحقت ابنتها منذ الصغر بالتعليم الخاص، حتى التحقتا بالجامعة الأمريكية، بل حرصت أن تفصلها عن حياتها تمامًا؛ اشترت لها شقة لا يعرف طريقها أحد، واستقطبت لها خادمة إفريقية قامت على تربيتها والحفاظ عليها.

تكره الرجال؛ لذا تتعامل معهم بحدة ونفور جعلهم يتشبثون بها أكثر، ويتوددون لها. ولكن وللأمانة ظلت وفيه لزوجها، لم تبع نفسها قط، مات زوجها بعد معاناة مع مرض التهاب الكبد الفيروسي، وأكثر ما شغلها هو جمع المال؛ فاحترفت القوادة، واكتشفت أنها موهوبة، فتدفقت الأموال، واهتمت بابنتها ثم بنفسها. تدخن الحشيش، وتتجرع أكواز البيرة بشراهة، بعد أن أفتاها شيخ بحلالها. ورغم ثرائها ظلت وفيه للسيجارة السوبر، تقول إن السيجارة السوبر بينها وبين كوز البيرة شيء مثل الاندماج.. التفاهم. إنها تشعر بالمتعة واللذة، ولا تدخن الحشيش في سجائر، وإنما تضعه على أحجار الشيثة بعد أن تفركه بعناية بالمعسل.. هكذا تكافئ نفسها، فهي تشعر بأنها تنجز عملاً شاقًا وعليها أن ترتاح، وأن تستمتع. أما كرهها للرجال،

فنتاج عن قرفها، فهي لا تقبل للجنس بشراة، فإنها تستطيع أن تشعر
بالمثعة من مجرد التفكير في الماضي، ولو كانت شراة لتزوجت، فهي
لا تقبل بعلاقة تُغضب الله سبحانه وتعالى، لكنها تشعر بأن ليس لها
رجل على البسيطة قادر على إمتاعها، كل نية تحكي هفتيت عن
قرف الرجال، وشذوذهم؛ لذا اكتفت بأخشيش ونيرة.

كلما تذكرت الماضي البعيد، ازداد مقتها تنقير... عاشت فنون
قاسية، وعانت أمها وأبوها مع المرض، كم يخيف هذا الوحش
القادر على إهلاك أعنى إنسان على الأرض؛ وحش المرض... لذا
تجري فحوصات شاملة على نفسها كل شهر في مستشفى نساء،
وعلى الرغم من أنها تجاوزت الستين عامًا، فإنها تمك جسدًا رشيقة
ومشوقًا؛ فقد اعتادت ممارسة رياضة المشي قدوة بالأجانب، فهي
تؤمن بأن الخواجات - على حد تعبيرها - لا يخطنون؛ لذا تحذو
حذوهم في كل شيء.. مارست الرياضة فحافظت على لياقتها، لا تصبغ
وجهها بشذوذ وإنما تقتني المساحيق الطبيعية، فتشعر بأن وجهها مورد
كفتاة صغيرة. أما شعرها الغزير فدائمًا ما تقرأ له في سرها سورة
الفلق خوفًا من الحسد؛ فالفتيات يُكثرن من ثنائهن عليه، فشعرها
ذهبي طبيعي، ولم يضرب فيه الشيب حتى هذه السن. جسدها صلب
وعروقها نافرة، وترتدي البنطلون والبلوزة، وتشمر الأكمام، وتصدر
لمن لا تعرفه تخلصًا فظيعة يرعد أي شخص كأنها جاءت لتخوض
معركة عنيفة. وأيضًا لا تشعر من حديثها بأنها نصف متعلمة، ولكن
تشعر بأنها امرأة أرستقراطية لبقة، تستخدم في حديثها ألفاظًا إنجليزية،
وأحيانًا فرنسية، هذا أمام الجمهور الراقى من أصدقائها الأثرياء..
أما أمام جمهورها من الفقراء، فتتحول إلى ناهد راشد القوادة.

نزلت وطرقت باب البواب بعصية، فخرج البواب، وفور رؤيتها
أريد وجهه، وأدرك أنه في مواجهة معركة.

- خير يا مدام. هكذا تساءل بانزعاج

- بقولك إيه، شغل الفلاحين ده مش علينا.. مالك ومال «نواف»
بك؟

- مليش صالح بالأستاذ «نواف».. اتكلمي مع رئيس اتحاد الملاك.

- أنت بتهددني بالدكتور بتاعك.. أنا همشيك أنت وهو.

أوقدت سيجارة ونفثت دخانها في وجهه بعصية، وظلت تحملق
فيه وكأنها تريد أن تستأنف معه الحديث لإهانتة فقط.. لكنه قطع
عليها السكة بكلمات قليلات.

فقالت بسخرية:

- فين سيدك دلوقتي؟

- موجود في شفته.

وظلت المرأة في حيرة.. إنها تريد أن توبخه، وكان هناك شيء ما في
نفسها يدفعها تلقائياً لإهانة البواب؛ فقالت له في حدة:

- أنت فاكر نفسك نظيف.. لو اعترضت طريق «نواف» بك مرة
أخرى، همسح بيك الأرض.

وانفعل البواب.. لكنه تماسك قدر استطاعته، فقال لها:

- شوفي حالك يا مدام.

- أنت اتجنت؟

فخرجت زوجة البواب، وكانت امرأة في منتصف الثلاثينيات،
فقالت لها في حدة وقد وضعت يدها حول خصرها استعدادًا
للمعركة:

- عيب يا مدام تكلمي جوزي كده.. احترمي نفسك. ودفعت
زوجها جانبًا لتحتل مكانه أمام المدام.

- الله.. الله.. البومة بتكلم. وألقت السيجارة على الأرض، وجذبتها
من شعرها وقالت لها وهي تلهث من الغيظ: وحياة أمك يا
مرة.. المرة الجاية هطفي السيجارة في «.....».

وحال بينهما رمضان، والتف حولهم الأطفال الصغار يكون أهم
التي سقطت على الأرض من دفعة قوية من «ناهد راشد»، التي
قالت وهي تلهث:

- أنت مش هستنى في العهارة دقيقة واحدة.

- الأرزاق على الله.

- طيب.. هنشوف.

وصعدت للدكتور عبد الجواد، وكان يبدو عليها النرفزة، وظل
وجهها محتقنًا، وطرقت الباب وصاحت من ورائه: «أنا مدام ناهد
راشد.. افتح الباب يا دكتور.. مش معقول كده». كان صوتها عاليًا
أحدث رنينًا مزعجًا.. ولولا نداؤها ما كان فتح لها.. ولما فتح الباب،
استقبلته بالصياح:

- معقول كده يا دكتور.. أتهدل في العهارة، وتهدلوا المستأجرين
بتوعى؟

- مش هتكلم على الباب يا مدام.. اتفضلي.

دخلت الشقة وجلست وجلس هو أمامها مفتخرًا بنفسه، يشعر بقوته وسطوته على العمارة؛ فهو يديرها بقبضة من حديد.. فقال الدكتور في هدوء استمده من ضعفها أمامه:

- اسمعي المفيد يا مدام.. الولد اللي اسمه «نواف» طول الليل يجيب مومسات أشكال وألوان.. وإحنا عمارة محترمة.. ودي مش أول مرة تحصل.. أيضًا المستأجر اللي قبل منه.. هي إيه الحكاية بالضبط؟
- جرى إيه يا دكتور، أنت هتقولي أسكن مين وما أسكنش مين؟ هكذا قالت منفعة.
- لأ طبعا، بس في أصول.. العمارة بتسكنها عائلات محترمة، مبصحتش اللي بيحصل.. راعي الجيرة ياستي.
- أنا مش جاية أناقش قصة المستأجر.. عارفة كويس أنه شاب محترم سايب بلده وجي متغرب عشان يتعلم.. مش فاهمة إيه اللي بيحصل.. بدال ما نكرم الضيف نحاسبه عشان زميلة جاءت تذاكر معاه.. أنا جاية عشان أتبرع بمبلغ لصيانة العمارة.. شكلها بقى يقرف.. والحمار اللي مش عارفة أنت جايبه منين قاعد بس بحط مناخيره في شئون العمارة، مش ينظفها ويعتني بيها.. سايب عياله المبربرين يلغوصوا في المدخل والأسانسير.
- أنا البواب بتاعي شاطر يا مدام ونظيف.. هو في بوابين اليومين دول عندهم ذمة؟
- في إيه يا دكتور بالضبط.. هو قريبك؟
- خلي بالك من كلامك يا مدام. هكذا احتج الدكتور؛ لقد أهانتة إهانة كبيرة بهذه الصفة.

ويبدو أن السيدة ارتاحت لترفزته؛ فبدأ وجهها صافياً.. أوقدت
سيجارة والتقطت شنطتها الكبيرة وفتحتها، ثم قالت:

- أنا هتبرع بـ ٢٠٠٠ جنيه. وأبرزت من حقبتها قيمة الإيجار الذي
أخذته من «نواف»، ومدت يدها بالمبلغ، فاستوقفها الدكتور
وقال:

- مش هاخذ ولا مليم.. أنت بتدفعي كل ثلاثة أشهر زيك زي
باقي السكان.. متشكرين.

ومضى يوم واثنان.. والبواب جعل شغله الشاغل «نواف
الرشيدي»؛ فقد كلفه الدكتور بمراقبة تحركاته في العمارة، واستقوى
الدكتور بالشيخ عبد الكريم.

قال له الدكتور:

- رمضان، أنت تتزرع هنا على الكرسي ده.. أنت بتقوم بمهمة
جلية لمنع تدنيس العمارة.. متخفش من حد. وسعد البواب
بهذه الكلمات.

كان الدكتور ينزل ليتفقد الحديقة الأمامية والمدخل والبدروم،
ويطرح اقتراحاته بصوته الرفيع الواثق، فيتبعه رمضان بهز رأسه..
يظل الدكتور من الصباح حتى صلاة الظهر في محيط العمارة
بالقميص المكوي، والكرافتة الرفيعة السوداء ذات الخطوط الحمراء،
والبنطلون القماش طراز السبعينيات بدون كسر، والحذاء الكلاسيك
اللامع. أحياناً يلتقي برئيس اتحاد ملاك عمارة مجاورة، ويتحدثان في
تطوير الشارع، بل يعكفان على كتابة تقرير وإرساله لرئيس الحي.
كم يجد الدكتور متعة في ذلك؛ فيشعر أن وقته قد ازدحم، وأنه يقوم

بأعمال كبيرة.. فهو يخاطب رئيس الحسي ويحدد ميعاداً معه، رغم أنها لم يلتقيا، لكن شعور المسئولية يساوره فيشعر بالسعادة. يطلب من رمضان أن يصنع له كوب شاي بالنعناع، ويستغرق في محادثات شبة تنتهي بقرارات يخططها بعناية في كراسته. أما إذا وقعت حادثة في الشارع أو محيط العمارة، مثل حريق في صندوق كهرباء، أو انفجار ماسورة مياه، أو طفح بالوعة صرف صحي.. فإنه يأتي بسرعة، يستقبله المتجمعون حول الحادثة باحترام وتقدير، ويشرعون في شرح ما حدث، بل يسعدهم إنصاته لهم بعناية، ويتركونه يعاين الحادثة بجدية مفرطة، يظنون صامتين هادئين مترقبين، وسرعان ما يهز رأسه الكبير ويدون ملاحظاته بعناية في كراسه يحملها معه طوال الوقت.. ويرشف من الشاي واضعاً يده في جيبه، مستغرقاً متأملاً نشاطه وهمته.. ويتهد ويهز رأسه قائلاً: «البلد بتنهيار.. اتفوخص على المسئولين» ويجاوبونه بهز رؤوسهم. ولما يترك المكان ويراجع تأثيره القوي على الناس، يقول:

- قال على المعاش.. دا أنا بفضل الله أستطيع إدارة دولة، مش عمارة.. لكن المحسوبيات.. البلد دي يا رمضان بتحارب الكفاءات.. مش من مصلحة النظام أن واحد زيي يكون في الحكومة.. الإخلاص والأمانة أصبحا عاراً.

وفي ذات يوم، وقف ميكروباص محملاً برجال الشرطة، ونزل شرطي وتقدم نحو البواب وقال له:

- أنت بواب العمارة؟

- أيوة يا سعادة البك.

- معاك رخصة؟

شعر البواب بالاضطراب، وقال له عاجزاً عن الرد:

رخصة.. أي رخصة يا سعادة البك؟ أنا بواب.. مش سواق.

رخصة العمارة.. العمارة يا ناصح.. رخصة فيها سحتك الوسخة دي، وعليها شعار الدولة، وبتقول إنك حارس.

لا يا سعادة البك.. مش معايا رخصة.

يعني أنت جيت من بلدكو من غير لا أصل ولا فصل، وعملوك بواب على عمارة مهمة زي دي.. أنت مين؟ وبلدك إيه؟ وأثناء حديثه كان قد التف حوله بضعة رجال.. وبإشارة يدركونها جيداً، مسكوه وجروه للسيارة وسط صياحه وصياح أبناء الصغار.

أنا مش فاهم يا حضرة الضابط من إمتى كان للبوابين رخصة؟! هكذا قال الدكتور عبد الجواد مستعجباً.

إجراءات جديدة يا دكتور.. المنطقة زي ما أنت عارف يسكنها دبلوماسيين كبار من الأمريكان والإسرائيليين، والمنطقة محتاجة تأمين على أعلى مستوى.. وعشان كده في إجراءات جديدة.. مش كل واحد هارب من بلده ولا متشرد هيقى بواب على عمارة مهمة زي دي.. كل مفاتيح العمارة تبقى في إيده.. من السهل إن أي حد يسيطر عليه بالمال، ويعمل من سطح العمارة وكر لقناص ينش شخصية مهمة هنا ولا هنا وتبقى مصيبة، وأول من سُبُال هو رئيس اتحاد الملاك. ونظر للدكتور.

ثم استأنف:

- دي حماية لك.. ثم البواب هيطلع، بس مش هيستنى في العبارة
إلا بإقرار منك شخصياً.. ها.. هل تستطيع تحمل هذه المسئولية؟
شعر الدكتور عبد الجواد بالعجز.. وهز رأسه الكبير، وذهب
باتناً.

واستطاعت مدام ناهد الإطاحة بالبواب بكل سهولة، واتصلت
بـ«نوّاف» عن طريق التليفون المنزلي فرد عليها، فقالت له:

- خلاص مفيش بواب.. ومفيش حد هيقدر يتعرضلك تاني..
اعمل اللي أنت عايزه يا بني.

وتفكّر قليلاً في هذا الخبر بعد أن وضع الساعة، وهمس في نفسه:
«حرام!».

على الرغم من أن «نوّاف» يسعى للأذية، فإنه لا يستطيع تحمل
وقوعها. اشتد به الحزن على أطفال البواب المسكين، ومكث في شقته
يوميّن لا يبرحها أبداً. على الرغم من ممارساته، فإنه متواضع جداً..
في بداية عهده في العبارة، كان عندما يمر بغرفة البواب وتُسكّر أنفه
رائحة الملوخية، يطرق بابه ويقول له:

- الله على رائحة الملوخية يا رمضان. ولما كان رمضان يدعوها لتناولها
معه، لم يكن يتردد لحظة واحدة.. فيدخل الغرفة الضيقة الواقعة
أسفل السلم، ويجلس على الأرض.. وعندما يأتي له رمضان
بومسادة ليجلس فوقها، يقول له:

- يا سيدي كلنا منها.

ثم يستأنف في ضحك:

- لا تحدثوني على الطعام.. هكذا علمني والدي.

ويتناول الطعام بشراهة، ثم يعقب عليه بكوب شاي بالنعناع.
وأحياناً كان يشتري الملوخية لتطبخها له زوجته رمضان، وكان رمضان
يعترض قائلاً:

- زوجتي لا تعمل عند أحد.

فيقول له:

- أنا لا أريدها تعمل عندي.. أنا أريد أن تطهو الملوخية، وأنا
أتناولها في غرفتكما.. إذا سمحتها طبعاً.

ف«نوّاف الرشيدى» بسيط لدرجة كبيرة؛ إنه يتعامل بالفطرة التي
تربى عليها في منزل «الرشيدى». وقرر أن ينتقم من الدكتور عبد
الجواد؛ فنزل لشقة الدكتور، وصاح أمام بابها بدافع التعزية والشار
للرباب؛ ففي نظره الدكتور هو من تسبب في قطع عيشه:

- افتح الباب يا دكتور، أنا «نوّاف الرشيدى». وعاود الطرق بقوة.

انفعل الدكتور بشدة.. ولما خرج، وجد «نوّاف» واقفاً أمامه؛
فتساءل:

- في إيه؟ هكذا بادره الدكتور في عنف.

فقال «نوّاف» في برود:

- معي أغراض يريد حد ينزلها.. والبواب مش موجود، ياريت
تشوفه فين.

- احترم نفسك.. أنا مش شغال عندك.

- أنا محترم، وابن ناس محترمين، وبدفع فلوس عشان حد يخدمني.

- البواب مش موجود.. اخدم نفسك اليومين دول لحد ما تشوف
غيره. ثم صفق الباب في وجهه.

بهذه الواقعة أراد «نواف» أن يعكس على الدكتور، وأيضاً يتبرأ من طرد البواب. كل هذه الأشياء كانت تسعده؛ ف«نواف» خليجي ثري يستطيع أن يقطن في فيلا مستقلة، ويستقطب فيها العاهرات والشواذ ويفعل كل ما يريد، لكنه لا يستمتع ولا يستلذ بالمتع السهلة التي لا تعقبها ولا تسبقها إثارة وجهد شاقين؛ الجزء الأساسي من متعته هو الحصول على الشيء بمنتهى الصعوبة؛ ولذلك وجد متعته في هذه العهارة.. فقد تعذب كثيراً لجلب مومس، وفي كل مرة كان يفسد عليه المتعة سواء الدكتور عبد الجواد، أو الشيخ عبد الكريم.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. هكذا بادر الشيخ عبد الكريم الدكتور في الصباح، وكان الدكتور واقفاً مع أحد البوابين طالباً معاونته في جلب بواب له أصل وفصل.. ومعه رخصة.. إلا أن قصة الرخصة أحدثت هلعاً عند البوابين، الذين تساءلوا بعفوية عن الجهة المنوط بها استخراج «رخصة حارس عقار».

- وعليكم السلام يا مولانا.. حمد لله على السلامة.

- الله يسلمك.. خير، جئت أمس من السفر ولم أجد الحارس.

تنهد الدكتور في أسى، وقال:

- الشرطة طردته.. قال إيه معهوش رخصة.

- مش فاهم.

فقال له الدكتور بالإنجليزية:

- ليست لديه أوراق للعمل حارس عقار.

- عال.. الشرطة يقظة.. لا بد أن يكون له أوراق تثبت جدارته

وإمكاناته في الحفاظ على أمن العمارة.. في أوروبا يحدث ذلك، وهناك شركات أمن تقوم بتدريب هؤلاء والعناية بهم.

- في أوروبا يا مولانا، لكن في مصر الحكاية مختلفة تمامًا.. من يوم ما البلد فرطت في الأرض الزراعية والكل باع واشترى فيها، الفلاحين هجروا الأرض واشتغلوا في العمارات.. هياكلوا منين؟ كانت الأرض حضناهم.. ماشيين على برنامج زراعي له حسابات في البيع والشراء.. من يوم ما كل واحد خد له فدانين، والبلد باظت.

- معلش كله يتصلح. هكذا قال الشيخ عبد الكريم جاهلاً ما يقوله الدكتور.

- يومين ونشوف بواب جديد.

- على بركة الله.

واستقل السيارة البيجو السبعة راكب، وكالعادة كان بها الشباب الملازمون له على الدوام.. يستقبلونه بأدب جم، وينحنون يقبلون يده، ثم يركب هو في المقعد الأمامي بجوار السائق، ويتكلم الشباب في المقاعد الخلفية.. تبدو عليهم الهيئة الريفية؛ ملابس بسيطة، ويطلقون لحاهم فتبدو هائشة متشرة عند الصدغين والذقن، أجسادهم نحيفة، ولكن يمتاز البعض منهم بقامة طويلة.. والنحافة لا تعني الضعف، ولكن يبدو عليهم القوة.. ملاحظهم بريئة أحياناً، وحادة أحياناً أخرى. انطلقت بهم السيارة إلى مكتبه في شارع ١٠٥ بجوار «عمر أفندي».. وفور وصوله، نزل وقصد المكتب.. رغم سمن جسده فإنه نشيط جداً؛ صعد السلم في عدة قفزات سريعة، ودخل المكتب المعبق برائحة البخور.. الشركة تستورد من السعودية أجود أنواع العسل والزيتون

الطبيعية، ومن باكستان البخور والإكسوارت الإسلامية من سبع ومصليات. شريكه هو الشيخ «حسان النخيلي»، تعرّف عليه أثناء عمله هناك؛ حيث كان يعمل في شركة «المقاولون المصريون» سائقًا. وكان معروف بـ«حسان العفي»؛ فعندما كان يقود السيارة الميكروباص المحملة بالعمال، كان ينطلق بها بسرعة لا تتناسب مع الطرق الصحراوية ذات المنحدرات الخطيرة، ودائمًا ما يعتمد أن يضغط على دواسة الفرامل فجأة ليرتطم العمال ببعضهم البعض في قوة شديدة؛ يتج عنها كدمات وتورمات في أنحاء الجسم، وسرعان ما كان يطلق ضحكة عالية تستفز البعض، ولكن من منهم يستطيع الوقوف له؟ إن لحسان جسد صلب، وقبضة حديدية، علاوة على شخصية قوية، جعلته يأخذ مركز القيادة وسط زملائه السائقين؛ فدائمًا يتحدث باسمهم.. وجهه أحمر، ولحيته كثة أطلقها منذ أن كان شابًا. التقى بعبد الكريم هناك، ونشأت بينهما صداقة عميقة. وكان عبد الكريم يعمل مشرفًا على المشروع، وكان محط اهتمام المسئولين. ولم تكن هذه وظيفته؛ فعندما جاء من «غانا» عمل في جني البلع تحت سماء حارقة، فقد جاء مسيحيًا، ولما اعتنق الإسلام عن إيمان وعقيدة - كما يقول - أكرمه الكفيل بعمل آخر؛ وهو الإشراف على العمال فقط. وكان الكفيل معجبًا جدًا به، ويحبه حقًا، كان يشاهده وهو يصلي أو يقرأ القرآن فيشعر بالسعادة؛ فهو له الفضل - بعد الله سبحانه وتعالى - في إسلامه. وبالمناسبة فإن الكفيل هو من أطلق عليه اسم «عبد الكريم»؛ كان يدعى «أومي بيليه عييدي»، فقرن اسم «عبد الكريم» باسم جده «عييدي»؛ فأصبح يُدعى «الشيخ عبد الكريم عييدي».

والتقى بالشيخ «حسان النخيلي»، الذي أقنعه بأن يعود معه لمصر وينشأ شركة لاستيراد البخور وجميع أنواع العطور. وجاء معه لمصر،

وتزوج من شقيقته، ولا ينسى عبد الكريم حين سمعها تنهكهم عليه وعلى بشرته، وقتها كان جالسًا منتظرًا في المنظرة؛ وهي مكان أشبه بصالة لاستقبال الضيوف يلفها الكنب الشرقي، كان ذلك في بيت «النخيلي» الكبير في حي البساتين.

- ده أسود قوي. هكذا اخترقت الكلمة أذنه؛ فتقلصت عضلات وجهه تأثرًا.

ولكن استطاع شقيقها أن يُلين عقلها، وأن يقنعها بقبول الزواج منه. وتزوجها عبد الكريم ليتقم منها ويعطيها درسًا في الأدب، ولكن عندما شاهدها نسي أي إهانة.. فقد جذبتة بنعومتها ورقتها؛ فالفتاة صغيرة، لها جسد مشير، تتحرك داخل الجلباب الفضفاض فتبدو أكثر إثارة.. أردافها المكتنزة وثدياها الكبيران يهتزبان بعنف من وراء الجلباب.. علاوة على وجهها المشرب بالاحمرار الفلاحي.. ومع ذلك عيناها سوداوان.. غير شعرها الطويل الغزير الفاحم. اقرسها في ليلة الدخلة، ظلت تصرخ.. ومع كل صرخة كان يزجر كحيوان يفترس صيدًا ثمينًا بعد جوع مُضنٍ.. ولم يتركها إلا بعد أن بدت في يده غير قادرة على التنفس. والحقيقة استمتعت بمعاشرتة، ووقعت في حبه، لكنها ظلت حبيسة شقة عمارة فيكتوريا لا ترحها أبدًا بعدما حدث. ففي أول خروجه لهما، جذبت أنظار المارة، وتلقى تعليقات لاذعة؛ لأنها بيضاء مشربة باحمرار فلاحي، علاوة على أنها صغيرة في السن.. وهو ضخيم، في منتصف الأربعينات.. فضلًا عن بشرته السوداء الداكنة، ولحيته الكثيرة.. كاد أن يدخل في أكثر من معركة مع المارة. ولما قال لها:

- إذا أردتِ أن تخرجي معي، فعليك ارتداء النقاب.

احتضن وجهها وقالت في تحد:

- أنا لا أداري جمالي أبداً.. وخلي بالك أنا فاهمة كويس.. وأنت
قبلت أن تتزوجني على هذا.

كانت «شيء» تستخدم معه نبرة صوت توحى بالثقة والكبرياء؛
فكان يستسلم بسرعة، ويقرب منها ويلمس بقبضته الكبيرة وجهها
قائلاً:

- بخاف عليك.

- من ماذا؟ أنا بنت ناس محترمين، ومتعلمة، وفاهمة كويس.. ولو
معدكش ثقة في نفسك تبقى مشكلتك.

- ماذا تقصدين؟

- لا شيء.

- شيء، هذا آخر كلام عندي.. الخروج بالنقاب. هكذا تخرج
الكلمات مصحوبة بنبرة توحى بعاصفة قادمة؛ فتصمت وتقرر
استئناف المعركة في وقت آخر. فعندما يتفض جسده الضخم
وترتج شحومه، تدرك على الفور أنه قد غضب؛ فتلجأ للصمت
خوفاً من أن يصفعها على وجهها فتفقد أسنانها وضروسها. وعلى
الرغم من أنها كانت تشعر بالقهر في هذه الشقة الفسيحة، فإنها
كانت سعيدة جداً بهذه الحياة المرفهة؛ فالرجل شملها برعايته
وأغرقها في العز، وجلب لها خادمة تُدعى «توفيقه» تفاصيل
جسدها وملامح وجهها تقرب بنسبة كبيرة منه؛ لولا شعرها
وقصر قامتها لظننت أنها هورا! فضلاً عن قوتها الملحوظة في
تعاملها مع الأشياء؛ مثلاً تستطيع رفع كنية ضخمة بمفردها،
وتحمل ثلاث كراتين مياه معدنية مرة واحدة. عبد الكريم لا

يتصرف هكذا عبثًا، ولكن كل شيء يخضع لخطة دقيقة. أما شياها فكانت تتصرف معه بذكاء مقرون بمكر؛ تعلم جيدًا متى تكون عبيدة، ومتى تدعن لرغباته دون مناقشة؛ فهي تعلمت وحصلت على دبلوم الزراعة بفضل إصرار والدها. أما السر الذي جعل شخصًا قويًا مثل «حسان النخيلي» يتجنبها، ويتفاضي عن الالتزام الذي فرضه على نساء البيت وهو ارتداء النقاب وتركها هكذا بالحجاب التقليدي، فيعود لقصة.. فذات مرة جاء حسان من السفر كعادته كل عام، وضجت الأسرة حوله يسألونه عن أحواله ويطمثون عليه، وكان ذلك وعمره لم يتجاوز الثلاثين عامًا، وكانت هي تقريبًا تجاوزت الخامسة عشر عامًا. وبعد أن قضى أيامًا في البيت ينعم بالراحة والطعام الشهي، بدأت تلاحظ عليه شيئًا غريبًا.. تؤثر.. قلق.. المهم أنه كان ينتظر بفارغ الصبر خلو البيت ويقفز بسرعة إلى السطح، فاتبعته مرة وأخرى، وهي تجهل سبب تحمسه للصعود إلى السطح. وفي كل مرة تتبعه، عند وصولها تجده قد اختفى تمامًا. ساورها الشك، حتى ذات مساء اتبعته بحرص شديد حتى النهاية، بعد أن كاد يشعر بترقبها في المرات السابقة؛ لذلك كانت حريصة جدًا في اقتفاء أثره.. فوجدته قد جاء بحبل غليظ على شكل ضفائر كبيرة، وعقله بإحكام في أحد الأعمدة الخرسانية، وألقاه بحرص بين يديهم والبيت الملاصق، ونزل عليه، وعند الطابق الثاني قفز داخل البلكونة؛ حيث كانت تنتظره جارتها المتزوجة، فقد دامت هذه العلاقة بينهما قرابة الثلاثة أعوام تقريبًا منذ أن تزوج جاره وجاء بهذه الحسنة. وتربصت به، واستعدت لصيده، وقد سحبت الحبل. ولما خرج يترقب كعادته، لاحظ أن الحبل ليس عالقًا في

مكانه؛ فخفق قلبه، ورفع رأسه تلقائيًا حيث السطح، فوجدها واقفة ثابتة كاشفة عن ابتسامة ساخرة. وألقت له الجبل باستهانة وهي تنظر له بمكر جعله يرتعد، وتسلق الجبل بصعوبة، وشعر بالمرارة وهي تنظر له، وللأمانة فكر في أن يترك الجبل ويسقط متحيرًا؛ ولكن بهذه الطريقة سيموت بفضيحة كبيرة. كانت المسافة بين الطابق الثاني والسطح لا تتجاوز طابقين بمسافة خمسة أمتار على الأكثر، ولكن قطعها في وقت بداله دهرًا. ولما استقر على السطح، جلس في ذهول ولم يستطع التحدث بكلمة واحدة، بل لم يستطع النظر في عينيها. وتركته ونزلت.. وبعد مرور خمس دقائق، سمعها تناديه بـ«حسان» من دون أن تقرن الاسم بالشيخ أو مولانا كعادتها؛ هكذا: «حسان، تعالَ عشان تاكل».

وشعر حسان بانتقام المولى عز وجل منه، وانزوى بعيدًا، مكث في المسجد ليل نهار لا يفعل سوى الصلاة والخشوع إلى الله. ولاحظ أهل البيت هذا الانزواء فتساءلوا، وقال لهم: «ربما مللت من المكوث في البيت». لم يستطع الجلوس في البيت أمامها ولا الصلاة.. وعاد بسرعة إلى السعودية؛ فقد قطع إجازته. وبالطبع عجز أهل البيت على فهم شيء بمن فيهم من النساء؛ فقد عجزت نساء البيت أيضًا عن تفسير هذا الإذعان المستفز لها. واستغل حسان حب والده لها، فقال هن: «لقد أوصاني أبي في محياه ومماته أمام الله ألا أغضبها أبدًا.. فأنتن تعلمن أنه كان يحبها». ولم يجد حسان فرصة للسطو عليها وتقيدها؛ لذلك كان يتجنبها دائمًا. فالفتاة عاشت طوال فترة الدراسة وغيرها ترتدي الحجاب فقط، وكان والدها يقول لها: «لا داعي للنقاب.. هذا الجمال خلقه الله ليرى النور، ويراه النور». حتى في الزواج استطاع أن يقنعها من باب أنها ستعيش في الحي الإنجليزي، وأنه ستكون هناك خادمة تحت

أمرها؛ «هذه فرصة لن تتكرر» هكذا ختم حديثه، ومن هنا وافقت.

دخل عبد الكريم الشركة، فوجد حسان جالسًا خلف المكتب يتفحص ملفًا ضخمًا. فجلس وهو يزفر بتنهيدة عميقة؛ فقال له حسان وما زالت عيناه في صدر الملف:

- مالك يا مولانا؟

- الصبغة بدأت تنتشر بين القوم.

- عظيم.. وهل هذا يجعلك تزفر هكذا في ضيق؟

- لا، هذا ليس له علاقة بالأمر.. وإنما هناك شخص يستفزني وجوده، وأفكر في إيقافه عند حده.

- من هذا؟

زفر عبد الكريم مرة أخرى، وقال وهو يهم بالقيام:

- لا تشغل بالك.. المهم طمني.

- عال.. والفضل لله عز وجل.

- الحمد لله.

في هذه الأيام انتشر المصحف المرتل بالصوت الخليجي في البلاد، وخاصة في الأرياف؛ أصوات ليست مألوفة على الأذان المصرية.. تقبلها البعض بسعادة، والبعض الآخر نفر منها واصفًا إياها بخلوها من الإحساس.. ولكن فرضت هذه الأصوات واقعًا ملحوظًا لفترة ما بعد السبعينيات. وكانت هذه الأصوات ترتل القرآن بنبرة رفيعة، سريعة، مشوشة بعض الشيء، تترك انطباعًا سيئًا مزعجًا.. ولكن إلى حد ما كان هذا الصوت يشبه الواقع السريع المشغول بجمع المال

فحسب. كانت هناك محاولة تدعمها قوة كبيرة لفرض سلوك ونمط معين على الأسرة المصرية.. انتشرت أشياء كثيرة في هذه الأيام؛ مثل ملابس المحجبات، والجلباب الأبيض الخليجي، فضلاً عن محال البخور والسبح.. وشيئاً فشيئاً اصطبغ الشارع المصري بصبغة ليست مألوفة للكثيرين. حتى العائدون من هذه البلاد، لا تعرف هل عهدوا إلى أنفسهم اتباع هذا النمط، أم ماذا حدث بالضبط.. تجد العائد جاء ومعه كل ما يمكنه من صبغ منزله بهذه العادات الجديدة، وسماع هذه الأصوات العجيبة. وتدفقت الأموال.. وكلما صدح صوت هؤلاء القراء الجدد، تدنت الأخلاق، وفُقدت القيمة الحقيقية لسماع القرآن. وتوسعت التجارة، وتضخمت شركة «العيدي للاستيراد».. فجانب استيراد البخور البكستاني، وسجاد الصلاة، والسبح المصنوعة من الخرز الفاخر والكريستال والفضة، والعسل الخليجي بثتى أنواعه.. دعمت الشركة في الفترة الأخيرة بعض الشيوخ؛ يعني استيراد الشيوخ أيضاً! جاءوا بعد أن بُنيت المساجد الكبيرة بأموالهم.. والتقوا بالأصدقاء، واستطاعوا أن يفرضوا نمطاً جديداً على المصريين. وظهرت أسماء جديدة أيضاً، لها مجلدات ضخمة، قام بعرضها وتبسيطها بعض التلامذة الذين عكفوا على تعليمها هناك.. وشعر الشيوخ بالسعادة لاستجابة الشارع المصري لهم، وقالوا إن هذا فتح جديد لمصر. نفّض حسان يده من الملف الضخم، واعتدل في جلسته، واستوقف عبد الكريم الذي قام لدخول مكتبه المجاور، وقال له:

- كل عام وأنت بخير؛ اليوم أول أيام شهر رجب.
- وأنت بخير. ثم تنهد، وعاد ليجلس مرة أخرى بعد أن لاحظ شيئاً في نبرته.

- هذا العام سيكون مختلفًا تمامًا. هكذا قال حسان في سعادة.

- كيف؟

- لن نوزع أي معونة على الفقراء مثل العام المنصرم.. ولكن سنقيم مائدة كبيرة.

- مائدة!

- نعم.. مائدة لإطعام الفقراء.. ستكون مائدة مختلفة تمامًا.

- كيف؟

- مائدة ضخمة سننفق عليها كثيرًا؛ سرادق كبير بجوار «عمر أفندي»، ولا بد أن يكون السرادق فاخرًا من حيث الترييزات والمقاعد.. وسنطعم فيها الفقراء، علاوة على أننا سنساهم في علاجهم وترميم منازلهم.. سنذهب ونقوم بتصوير دورات المياه والمطابخ وغرف النوم.. وبالطبع ستكون المناظر سيئة؛ لأننا سنختار أفقر الأسر وأقذر الأماكن.. ولكن كل هذا لا بد أن يتم تصويره بدقة بأحدث الكاميرات؛ لأن هذه الصور ستذهب إلى «أولي الأمر».. ومن خلال الدعم الذي سيتدفق علينا، سنستطيع الاستمرار بقوة. وهز عبد الكريم رأسه في حماس، وقال له:

- أنت من عائلة تعلم ماذا تريد بالضبط، ولكن الإسلام في حاجة للدعم أكثر من الفقراء.. فلو صحح الدين صحت النفوس.

فابتسم حسان في مكر، وقال له:

- على بركة الله.

لا يقل حسان النخيلي دهاءً عن عبد الكريم؛ فكلاهما من طينة واحدة؛ ولذلك برعا في التعامل مع بعضهما، وكوَّنا ثنائيًا رائعًا..

ولكن كان حسان دائماً ما يستغل عبد الكريم في طلب المعونة.. دائماً
يصدّره.. يستغل حب الشيوخ له وتعاطفهم معه، علاوة على أنه
ليس مصرياً؛ وهذا كان يطمئن البعض.

كان جالساً خلف مكتبه البعيد في أقصى الشقة، ورغم ذلك كاد
الطرق على الباب يخرق أذنه. جاءت زوجته وقد احتقن وجهها من
الغيظ، وقالت له في عنف:

- عبد الجواد، لازم تشوف حل مع هذا الحيوان.. دا مجنووووون..
أف، مش ممكن.

أحكم غلق الروب الحريز حول خصره، واندفع بقوة ناحية
الباب وفتحه وقد احتشد جيداً لمواجهته:

- أنت أكيد اتجنتت.. أنا هطلب البوليس.

- بس بس بس.. بوليس إيه؟ أنا عايز حقوقي.. أنا بدفع فلوس
هنا عشان بواب يخدمني.. فين البواب؟

- قولتلك مفيش بواب اليومين دول.. لسه بندور.

- خلاص لحين ما تلاقي، أنت بتقوم بخدمتي.

- آه يا قليل الأدب.. أنت أكيد مجنون.. أنا لازم أتكلم مع السفارة
بتاعتك.. أنت تعديت حدودك.. أنا هريك وأعرّفك من هو
الدكتور عبد الجواد عويس.

- أنت بترييني؟! أنت قد كلامك.. أنا أشهد العمارة كلها عليك.
وصاح بصوت خارق: يا نااااا.. يا جيران.. الدكتور يقول إنه
يريد أن يرييني من جديد.. أنا أمامك.. ريني. وتراجع خطوة

وقال في حسم: لا بد أن تتصرف.. إما أن تخدمني بنفسك، أو تجيب بواب.. وإلا من الآن فصاعدًا لن أدفع صيانة العمارة.. أنت فاهم؟ ألقى الجملة الأخيرة وهو ينصرف.. كان يشعر بسعادة لا حدود لها.. أصبح يومًا يطرق باب الدكتور ويلقي عليه هذه الكلمات، وأحيانًا كان صوت الدكتور يصدح في أرجاء العمارة وينفذ للعمارات المجاورة.. بداله «نواف» كابوسًا لا يستطيع التخلص منه.. فلجأ للسيد عبد الكريم.. يعلم أنه ينزل من العمارة بعد أداء صلاة الظهر؛ حيث تأتي السيارة البيجو وتنتظره ليستقلها إلى مكتبه. ظل الدكتور متظرًا مضطربًا.. ولما شاهد السيد عبد الكريم يخرج من المدخل، تصنع الدهشة وقال له:

- مولانا.. بدور عليك عشان أهنتك بحلول شهر رجب.
- وأنت بكل خير وسعادة. هكذا رد بلكنته الإفريقية الصلبة.
- لا، أنا لست بخير يا مولانا.
- لماذا؟
- أتذكر الشاب الخليجي؟
- نعم، وأحسده.
- عظيم.. منذ أن ذهب البواب وهو يفعل الأفاعيل، وعندما أتعرض له يصيح.. وأنت تعلم لا يمكنني التصدي له وحدي.
- أريد وجه عبد الكريم من الغضب والتوتر.. منذ أن علم بوجوده في العمارة، وهو لا يبرح الشقة إلا للعمل، ويعود بسرعة.. رغم وجود «توفيق» لكن لا يطمئن أبدًا، ولا يشق بزوجته، يعلم أن به شيئًا ناقصًا؛ وهو الجمال.. وهؤلاء النساء يبغثن عن الكمال في الرجل.. مجانين.

- آه الملعون.. أين هو؟ هكذا صاح.

- في شقته.

- تعال معي. وقطع الشيخ المسافة ما بين الشارع والمصعد في عدة

قفزات سريعة. كان الدكتور يهرول ورائه في سعادة طفل جاء

بوالده ليدافع عنه. وصعدا إلى الشقة، وقام عبد الكريم بطرق

الباب بقوة.. ولما فتح «نواف» الباب وشاهده أمامه جامداً،

وجهه مبريد، يتطاير الشرر من عينيه.. ارتعد، وقال في نبرة رقيقة:

- خير يا مولانا؟

- ليس هناك خير أبداً طالما لا تسمع الكلام ولا تصغي لتحذيري..

والله ما أسهل عليّ أذيتك.. ولكن تشفع لك إقامتي في بلادك

عمراً.. ولكن طالما أنت تصر على هذه الأفعال، فلك مني ما

هو مستحق.

- أنا لم أفعل شيئاً. هكذا قال «نواف» بسرعة.

- الدكتور يقول إنك تأتي بعاشرات بعد أن حذرتك.

- لم يحدث.. الدكتور يشتكيني لك لأنني أطالب بحقوقتي.

- أي حقوق؟

- أنا أدفع هنا في العمارة ليخدمني البواب في حمل متاعي؛ أليس كذلك؟

- نعم. هكذا قال الشيخ.

- والآن لا يوجد بواب.. وبما أن الدكتور رئيس اتحاد الملاك، فيجب

أن يخدمني.. أليس هو المسئول؟

التفت الشيخ للدكتور، وقال له في غضب:

- لا يصح أن تكذب عليّ يا دكتور.
- أنا لا أكذب يا شيخ.. هو يفعل ذلك ليشار مني.. أنا لست مسئولاً عن حمل متاعه.
- لا يا دكتور.. أنت مسئول.. ولا بد أن تتصرف بسرعة وتأتي بيواب. ونظر عبد الكريم لـ«نوّاف» نظرة طويلة تحمل شيئاً من الغيرة والحقد.. وانصرف عنهما وهو يزفر بتنهيدة عميقة.

تأملت داليا الصالة بنظرة طويلة، وزكمت أنفها رائحة شاذة؛ رائحة لا تنعش المزاج وتصفى الذهن، وإنما رائحة عطر رديء شعبي مخلوط برائحة عرق؛ فتج عن ذلك شعورها بالقرف. وتأملت بازدياء «نوّاف» وهو يرقص مع الفتيات، وقالت في نفسها: «من هذا الكائن العجيب الذي يعبث في أجساد البنات، ويزعم أنه يتعلم الرقص؟ هذا تحرش صريح، لا بد أنه مصيبة جديدة من مصائب المدام». وجلست مع المدام التي ملتها في الآونة الأخيرة، وقالت لها:

- هذه ليست مدرسة.

- اسمعي يا داليا، هذه مدرستي، وأنتِ موظفة هنا.. من فضلك احتفظي بوظيفتك في سكوت.. هل تفهمين؟
- نعم.. أفهم. هكذا قالت في استسلام ليست معهودة به؛ فبدأ غريباً على المدام.

وكان «نوّاف» قد شعر بالسعادة من التزامه الدقيق في حضور الحصص، التي كثفتها المدام من ثاني أسبوع تدريب لثلاث حصص في الأسبوع الواحد.. تراقبه من الردهة المؤدية لغرفة النوم، وتجده قد

عقد اتفاقات مع بعض البنات، خلاف رقصه معهن الذي بدا شاذًا؛ فهو لا يرقص ولكن يقوم بعملية تفويض في مؤخراتهن ونهودهن. ولكن «نواف» يدفع خمسة وعشرين دولارًا في الحصة الواحدة، خلاف الهدايا التي يقدفها على المدام. وبعد شهر من التعلم والمراقبة والاختيار، استطاع أن يدعو لـ«عبدون النور» بقلب خالص ويسامحه.. واتفق مع فتاة روسية تدعى «إريتا»، شديدة الجمال، لحمها طري، ورقيفة جدًا، فضلاً عن صوتها المثير.. قال لها في نبرة رسمية:

- متى ستأتين؟

- غدًا.

- لا.. بعد غد، ولا تتناول الطعام حتى تأتي.

- لماذا؟! هكذا قالت في دهشة.

- أريد أن أستمتع معك بطريقتي.. تناول قدرًا كافيًا من اللبن فقط.

وفطنت الفتاة لرغبته، وشعرت بالقرف، ولكن قررت أن تفعل ما يريد.. إن لديه المال. وتناولت الفتاة على مدار اليومين قبل الميعاد اللبن فقط، مع قليل من العنب. ولما جاءت له، قال لها:

- هل تناولت الطعام؟

- لا.. لا تقلق.. أليس لديك دورة مياه؟

- نعم.

- حسنًا.. سأنظف مؤخرتي جيدًا.. ستجدها كما تريد.

زَمَّ شفتيه، وفطن لتمرسها.. وقال لها في عصبية:

- هيا.

واستغرقت في الحمام وقتًا لا بأس به.. ولما خرجت له بدت مشيرة؛ قامتها لم تكن بالطويلة، مؤخرتها متماسكة صلبة، فضلاً عن نهدين قافزين وحلمتين منتصبين. جلست إلى جواره، وتجرعا أكواز البيرة بشراهة، وضاجعها على الكنية؛ استسلمت لرغبته، وبدأت تتعامل معه بحرفية.. استطاعت أن تجعله يستمتع؛ متى تصرخ، ومتى تقفز منه وتتوسل إليه أن يكف، ومتى تصده يدين ضعيفتين. وعلى الرغم من أن «نواف» كان يعلم أنها متمرسة، فقد أنعشه هذا الأداء الرائع. وبعد أن انتهى، قال لها:

- أنتِ ممثلة رائعة.. ولكن لا أعتقد أنني سأرغب في مضاجعتك مرة أخرى.

(أن تعيش في بيئة جاهلة وأنت جاهل.. أفضل بكثير من أن تعيش في بيئة جاهلة وأنت متعلم.. قطعاً ستعاني).

«أنا فتاة محظوظة وتعيسة» هكذا تقول.

تعلمت داليا الحقائق مبكرًا..

فلم تخضع لعملية الختان هي وشقيقتها؛ انزعجت أمهما من ذلك، وحسنت الأمر: «لن أشوه بناتي».

كانت فترة الدراسة في المدرسة الثانوية في الحي الإنجليزي مشحونة بالمواقف والنقاط المهمة، تتذكر هذه المواقف دائمًا كأنها تقوم بتنشيطها من وقت لآخر.. فذات يوم جاء شيخ من الأزهر، واجتمع بهن في بهو المرسم الضخم الذي تأسس منذ عام ١٩٥٠، وكان الشيخ شابًا

وسيًا بدا في عمامته وجلبابه أنيقًا، وجلس بجوار الناظرة، وتحدث عن حقوق المرأة في الإسلام في خشوع، وتلا كثيرًا من الآيات، وكان صوته هادئًا رقيقًا، وسرعان ما قال:

- من منكن لديها سؤال رجاء تكتبه في ورقة، وأندادة مستمر عليكم وتأخذ الأسئلة.

ودخلت الفتيات في وشوشة بدت شيئًا مزعجًا؛ خليطًا من الضحك والتهمك والغضب.. انتهت الفتيات، وبعضن بأسئلتهن. أخذ الشيخ يقرأها، وسرعان ما همس بكلمة في أذن الناظرة وقد شحبت وجهه، وقال بصوت عالٍ قد تغير وبدأ عصيًا:

- من منكن التي كتبت هذه الورقة ودونت فيها هذه العبارة: «ما هو الجنس؟» واستأنف: عيب يا بنات.. نحن في محاضرة مهمة، رجاء الجدية. وأخذ ورقة أخرى؛ فاحمر وجهه وقال: لا. لا. لا.. ميصحش الكلام ده.. مين قليلة الأدب اللي كتبت: «ياترى بتعرف تبوس بدقنك اللذيذة دي؟». ثم مال على الناظرة وقال لها شيئًا؛ فزمت شفيتها في نرفزة وأخذت الورقة منه.. وعاود القراءة من جديد، فأطال وقطب حاجبيه المستديرين، وقال: سؤال عظيم، ولكن لا أستطيع أن أجيبك عن. وناول الورقة للناظرة، التي التقطت نظارتها الطيبة وقرأت الورقة بعناية، ثم احتفظت بها. وبعد انتهاء اللقاء، جاءت دعاء وهي صديقة لداليا؛ تماثلها في كل شيء، إلا أنها كثيرة الكلام والبكاء، وقالت لها:

- داليا، ماذا أرسلت له؟

- لا شيء.

- لماذا؟

- نيت عنتي أسفة.. وماذا أرسلت أنت؟

- آخر ورقة امتنع عن الإجابة عنها.

- وماذا فؤنت فيها؟

فؤيت منها وفؤنت في مكر:

- فعادة سرية، حرم ولا حلال؟

فؤات دنيا، بساطة واستهانة:

- لا شيء في سؤال يدعو لعدم الإجابة.. أنا أجييك بالنيابة عنه:

نذينة.. لا أعتقد أنها حرام.

فؤنت دنيا من ممارسة العادة السرية منذ صداقتها بكلي، وهي

فتاة أمريكية.. كانت فتاة نحيلة، شعرها ذهبي ناعم، ووجهها مدور،

وأسنانها عريضة.. هي من أسرة من الأسر التي تعمل أمها خادمة

عندهم. كانتا جالستين في الغرفة، فقامت الفتاة وأغلقت الباب جيداً،

ثم جلست فوق السرير، وقالت لها:

- داليا.. ما زلت بدون صديق؟

- نعم.

- أشفق عليك.. مسكينة مثلي.. أصبحنا متماثلتين أيضاً في هذا.

- لماذا.. أين صديقك؟

- ظن أنه الفتى الوحيد في العالم؛ فقرر أن يذهب (واختتمت
بشجرة كبيرة).

- رائع.

- أنا أستفريك.. كيف لا تمارسين الحب إلى الآن؟

وأنا لست مشكلتي أنك فتاة غبية.. نحن مختلفتان اختلافًا كبيرًا
في هذا.. هل تفهمين؟

نعم. نعم. نعم.. ولكن هل تشعرين بالقهر؟ مثلاً ظهرك
يؤلمك.. تشعرين بصداغ.. تتوترين بسرعة؟
أحيانًا.. ولكن ثمة أشياء كثيرة هي السبب، وليس الصديق
المجهول.

هؤلاء الشباب كلاب.. يظنون أنفسهم كل شيء.
تبرّزي عليهم.

نعم، أنا أفعل ذلك كل يوم.

كيف؟! هكذا قالت وهي ترفع عينيها من فوق صفحات مجلة.
أتى بصورته وأمارس العادة فوقها.
أنتِ قدرة.. تفعلين أشياء مفرزة.
هذا ما يستحقه.

«كلي»، أنا أشعر بالقيء وأنا معكِ.

هاهاها.. أنتِ مثالية.

وأنتِ لا تتحدثين إلا عن مؤخرتك ونهديك الصغيرين.

نعم.. وأنتِ مؤخرتك كبيرة، ونهداكِ كبيران رائعان.

«كلي»، كفي.. أنا مرهقة.

الجنس سيريجك.. لا تتكبري.

أنتِ مجنونة.

أنا طبيعية.. فتاة طبيعية تمارس شيئًا طبيعيًا.. أما أنتِ فباردة.

- أنا لست باردة.

- هه..

وهكذا استمرت الحياة بينهما في هذا الأثناء. ولكن ذات يوم جلست بمفردهما في غرفة «كلي» تنتظرهما، وفتحت درجاً في خزانة صغيرة إلى جانب السرير، والتقطت مجلة؛ لفت نظرهما الغلاف وما عليه من امرأة عارية.. ظلت تقلب في الصفحات، وتأمل العارضات والأوضاع، والأسهم التي تُشير إلى الأعضاء التناسلية مع الشرح، فضلاً عن شرح العادة السرية وطريقة فعلها، وأسهم تشير نحو البظر.. تفاصيل دقيقة عنه؛ يحتوي أعصاباً أضعاف أعصاب القضيب عند الرجل.. وعند حدوث الإثارة الجنسية، يندفع الدم من خلال الأنسجة الموجودة في البظر؛ فيتمدد ويزداد طوله حوالي مرة ونصف عن طوله وهو مُرتخ. البظر هو العضو الذي تستمتع من خلاله المرأة.. وشرعت تقرأ بعناية وتلذذ، شعرت لأول مرة بأنوثتها.. جف حلقها، وخفق قلبها بقوة، وارتعشت يدها.. الحب.. ما هذا كله؟ رياه.. رياه..

وأعلنت الناظرة في طابور الصباح أن هناك سيدة ستأتي من الإدارة التعليمية لتلقي بهن، ولا بد من الحضور.. اللقاءات ستستمر على مدار أسبوع.

وحضرت داليا هذا اللقاء، كان في الرسم. وأثناء الانتظار وسط الضجيج، إذ دخلت عليهن امرأة في عباءة أنيقة وغطاء رأس مموج بترتر. كان وجهها مدوراً تراكم فوقه الشحوم، فضلاً عن ضخامتها. شملتهم بنظرة واسعة، وقالت بنبرة تفتقد أي معنى من معاني الود؛ نبرة أتوماتيكية اعتادتها، فبدت شيئاً تقليدياً مستفزاً:

- هدوء يا بنات.. أنتن فتيات الصف الثالث، أليس كذلك؟

- نعم. هكذا جاءت الإجابة في نفس واحد.

- هـدووووو يا بنات.

اتخذت مجلسها على المكتب الكبير، ووضعت أوراقها وشنطتها الخاصة، واتبعتها الدادة بكوب الشاي. ظلت لدقيقة تبحث في أوراقها، وكانت الفتيات قد هدأت وطأتهن إلا من همهمة خفيفة أشبه بحفيف جناحي طائر.

- يا بنات، أنا هنا لست مُدرسة، ولكن «أم».. هتكلّم في موضوع مهم جدًّا، وهو «العادة السرية عند البنات».

ارتفعت المهمّات، ولاحظت أنهن في حاجة لطريقة رسمية تجعلهن يلتزمن؛ فضربت سطح المكتب بيدها وصاحت بصوت قوي:

- بس.. ميصحش كده.. أنتن لستن صغارًا.

وهذا الإيقاع شيئًا فشيئًا، ثم صدر منها صوت نحنحة أعقبته برشفة من كوب الشاي، ثم قالت:

- طبعًا منكن من يعرفها جيّدًا، لكن لا تعرفن أخطارها.. طبعًا تسمعن عن أخبار الحوادث التي تقع كل يوم عن زوجة قتلت زوجها.. ودائمًا السبب يكون خلافًا عائليًا تقليديًا.. وهذا ليس حقيقيًا، لكن الحقيقة أن المرأة التي تمارس هذه العادة عندما تزوج تتحول لمرأة عنيفة شرسة؛ فهي لا تستطيع أن تستمتع بالعلاقة الحميمة إلا من خلال هذه العادة السيئة.. لماذا؟ لأنها تحولت إلى مدمنة.. فتشعر أن زوجها جاء ليحرمها من هذه العادة التي هي مصدر الاستمتاع الحقيقي لها؛ لذلك تشعر أن

معاشرته الطبيعية لها ما هي إلا عملية اغتصاب إذا ما تصدت لها بالبرود.. وهذا يحدث لكثيرات ستصدي له بالقوة، وهنا تكون الكارثة. بالطبع أنتن تعلمن قصة الفتاة التي ماتت هنا في الرسم منذ خمسة أعوام على وجه التقريب، الحقيقة أنها ماتت عندما مارست العادة السرية بطريقة خطأ، ففقدت عذريتها؛ لذلك انتحرت. هل فهمتن المقصد؟

وصاحت المرأة بعد أن وجدتهن قد انشغلن عنها بالتهاوس لبعضهن وقد شجبت وجوههن:

- لو سمحتن شوية هدوء. هكذا قالت وهي تتناول آخر رشفة، ثم جمعت أشياءها من فوق المكتب وذهبت.

المسافة من «عزبة البوليس» حيث تسكن إلى «الإدارة التعليمية» أربع محطات، قررت أن تأخذها على قدميها؛ سلكت الطريق من خلال شارع ٩ بمحاذاة شريط المترو، كم رائع من الأسئلة التي قررت أن تطرحها على هذه «المدرسة» الكذابة، طوال الطريق وهي ترتب الأسئلة. ولما وصلت الإدارة، وهي مبنى ضخم مرفق به عدة مدارس، سألت الفراش: «من فضلك الأستاذة منى؟».

- اذهبي لغرفة المدرسات.. هناك. هكذا أرشدها.

وفي الغرفة كانت جالسة وسط المدرسات تحتسي الشاي وتقطع من الكيك البيتي.

- ميس منى؟

التفت لها وقالت في ملل:

- نعم؟
- من فضلك أريد التحدث معك.
- عايزة ايه يا ماما؟
- نتحدث.
- اجلسي.
- ليس هنا.. بمفردنا.
- من أنت؟
- داليا محمد عبد المقصود، المدرسة الثانوية .
- مش فاضية دلوقتي.
- لكني أريد أن أتحدث.. مسألة مهمة.
- بعد غد سأذهب لعقد لقاء بالبنات.. انتظريني هناك.
- ولما شعرت أنه ليست هناك فائدة منها، نفخت بنرفزة، ثم ركلت المقعد وذهبت.. فصاحت المدرسة:
- صحیح بنت قليلة الأدب. ووجهت حديثها لصديقاتها اللاتي تفاعلن معها:
- كل بنت تظن أنها اشترتني.. هه.

ونهببت إلى مدام «جيسيك» والدة «كلي».. كانت امرأة راتعة، نصف داليا بابتها الثانية، ودائماً ما تشملها برعايتها. فقد اعتادت داليا منذ صداقتها بـ«كلي» أن تقضي معها يومي الجمعة والسبت.. وفي

هذه الأثناء أرادت أن تفهم منها بعض الأشياء؛ فتركت الكلي، تنام.
وذهبت إليها في المطبخ:

- أهلاً. هكذا بادرتها.
- داليا، تعالي.. اجلسي.. ها، ما أخبارك؟
- زفت.
- أوه.. ماذا حدث؟ هكذا قالت وقد تقلصت عضلات وجهها.
- أريد الحقيقة؟
- أي حقيقة؟
- حقيقة كل شيء.. أنا لا أعلم لماذا يفعلون كل هذا معنا؛ إنهم يضلوننا ويلوثوننا.
- داليا.. أنا لا أفهم.
- وجلست المدام أمامها، وقد أفرغت لها جرعة ماء وقدمت لها الكأس:
- تكلمي.. ماذا حدث؟
- هناك أشياء أريد أن أعلمها.
- ما هي بالضبط؟
- العادة السرية.. الجنس.. كل شيء..
- قطبت حاجبيها الدقيقين وقالت:
- واو.. وهل هذه الأشياء لا تعرفينها؟!
- نعم.. لا أعرفها.
- أستطيع أن أشرح لك.

- أرجوك.
- حسناً.. بعد الغداء نجلس معاً ونتحدث في كل شيء.
- وجلسنا في المكتب بعد أن تناول ثلاثهم الطعام.. أوقدت المدام سيجارة، وقالت لها وهي تنفث الدخان:
- هذا موضوع يطول شرحه.. ولكن لدي سؤال.
- تفضلي.
- حتى هذه السن وأنتِ على مشارف السابعة عشرة لا تعرفين شيئاً.. ماذا يدرسون لكنّ في المدرسة.. أليست هناك توعية؟!
 - سطحية.. ليس هناك أي شرح.
 - معقول.. هه! وأشاحت بوجهها بطريقة ساخرة، ثم أطلقت دفعة دخان وواصلت:
 - تعتبر مادة الثقافة الجنسية جزءاً من التوعية حول مواضيع الصحة العامة، وتطرح أموراً متعلقة بتشريح الجسم البشري، والوظيفة الجنسية، والأمراض المتقلة عبر الجنس كالإيدز.. وكذلك الميول الجنسية، والإجهاض، ووسائل منع الحمل.
 - لا أعرف لماذا لا يتحدثون في هذا؟
 - زمت شفيتها، وقالت في نبرة مشحونة بالغيظ وقد اقتربت منها:
 - لا بأس.. العادة السرية تعتبر نشاطاً جنسياً صحياً وطبيعياً، ولا ضرر طبيّاً مهماً من وراثتها. وسكتت المدام لحظة، ثم قالت: انتظري يا داليا. وجاءت بعد دقيقتين بصورة كبيرة للمهبل، وقامت بشرح دقيق.. هذا هو البظر، من خلاله يتج الاستمتاع، الوسيلة الآمنة هي استخدام ماء الشطاف.. كيف تكون الحالة

مرضية وخطيرة؟ عندما تمارسها الفتاة في كل مكان؛ في المواصلات العامة.. في العمل.. هنا نعلم أن الحالة مرضية، مستعاني منها ومعها زوجها الذي سيفقد معها ممارسة الحب.. لذا يجب أن تكون بنفسا طبيعياً يتكرر كل بضعة أيام للحد من التفكير والأرق. واقتربت المدام منها، وقالت بصوت منخفض:

- هل تعلمين أن «كلي» قطعت علاقتها بصديقتها؟

- نعم.

- هل قالت لك السبب؟

- لا.. لكنها كانت تسبه كثيراً.

هزت رأسها ونحّت الصورة جانباً، وقالت:

- السبب أنه كان شاذاً جنسياً.. أراد أن يجامعها من الخلف.. تصوري يا داليا، هذا الحيوان أراد أن يدمر ابنتي.. أنبأني بذلك، وطرده من تلقاء نفسها.

- لماذا؟

- لأن هذه العادة تقتل المرأة في أنوثتها، فضلاً عن الأمراض الناتجة عنها.

- أمراض؟! هكذا قالت داليا وقد شحب وجهها.

- أوووه.. أمراض كثيرة.. يرافق ممارسة الجنس الشرجي عدد من المضاعفات، منها زيادة فرصة انتقال الأمراض التي تنتقل جنسياً؛ كفيروس السورم الحلিমى البشري، والإيدز، وفيروس التهاب الكبد، والإصابة بالتهابات القناة البولية التناسلية، والتهاب فتحة

الشرح، وتوسُّع العضلة الشرجية مما يسهل خروج البراز تلقائيًا،
والبواسير، وسرطان الشرج.

«آآه.. ما هذا الصداع الذي يخرق رأسي ويشطره نصفين؟ ما هذا
كله؟!» هكذا قالت داليا في نفسها وهي تضع يدها حول رأسها، ثم
قالت:

- هذه أشياء لا أعرفها.. ولو كنت تزوجت وطلبها زوجي مني،
لظننت أنها شيء طبيعي. ماما كانت تحدثنا على استحياء..
وعلمتني وشقيقتي الكثير.. أما «الجنس الشرجي» فلم تحدثنا فيه
من قبل.

- اعتقد أن السيدة سميرة لم تتخيل أن يصل شذوذ بعض الرجال
لهذه المرحلة الحيوانية.

ثم اقتربت مدام «جيسكا» من داليا وطوقتها، وقالت بحنان:

- داليا، دائمًا أثق بك.. أنتِ ابنتي، ودائمًا تبحثين عن الحقيقة.

وأجهشت داليا بالبكاء، وقالت:

- أنا أبكي لأنني اكتشفت بعد كل ذلك أني جاهلة.

- لا تقولي ذلك.. أنتِ رائعة.

ولما هدأت، أخذت المدام تشرح لها كل شيء.. ولما أزف الوقت،
اتفقت معها على عقد لقاءات أخرى. وارتوت داليا بالمعلومات
والحقائق التي تجمعتها على مدار ثلاثة أشهر. كانت مدام «جيسكا»
امرأة رائعة من مُدرسات المدرسة الأمريكية اللاتي عملن مع مدام
«ميريا» في برنامج التوعية في بداية تأسيس الرابطة.

- أنا لست «قوادة».. هل تفهم؟ هكذا قالت المدام لـ«نوّاف» الذي حثها مرارًا وتكرارًا على أن تضغط على داليا لتقوم بتعليمه. وواصلت بنبرة رسمية:
- اسمع.. أنا أشك في سلوكك من البداية.. ولكن طالما المدرسات اللاتي قمن بتعليمك لم يشتكين منك، تركتك.. لكن أنا لستُ غبية؛ ثلاثة أشهر وأنت لا تستطيع فعل حركة واحدة تدل على تعلّمك أي شيء.. ولا أظن أنك إلى هذه الدرجة غبي.. أنت تضر المدرسة.
- مدام.. لا أسمع.
- مستر «نوّاف»، ابحث لك عن ماخور تجد فيه متعتك.. هنا مدرسة محترمة.
- ماخور.. مدام أنتِ تهينيني.. أنا لستُ شاذًا.. ولا مرأيًا.. أنا شخص متمدن يريد أن يتعلم شيئًا صحيحًا.
- وأنا لا أستطيع مساعدتك.
- فرصة أخيرة.. حاولي أن تقنعيها بمقابلتي.. وإن لم أتعلم في خلال شهر واحد، قومي بفصلي.
- للمرة الألف، داليا لا تتعامل مع العرب والمصريين.
- سأدفع الضعف.. أنا في حاجة للتعلّم.. مستقبلي يضيع.. أرجوك.
- لاحظت أنه يسخر منها، فقالت بحدة:
- أرجوك لا تستفزني أكثر من ذلك، أنت لا تؤمن بهذه الأشياء.. أنت لديك متسع من الوقت، وتبحث عن إضاعته في اللهو.
- لا.. أنا أحاول أن أحافظ على لياقتي.. ألا ترين أنه قد ظهرت كسل ذهنية حول خصري من جديد؟

وضعت يدها فوق رأسها، وأشاحت بوجهها، وتنهدت بصعوبة،
وشعرت بمكونات رأسها ترتج داخل جدار الرأس.. وتمتمت:
«كابوس». ثم واصلت في يأس:

- هذه المرة لو رفضت، أرجوك لا تأت مرة أخرى.. ابحث لك
عن مدرسة أخرى.

- موافق.

ابتسم وقدم فأساعة سويسرية قيّمة.. نظرت المدام له وأخذتها
وهي تبسم، ثم قالت: «لنر».

عالم ليس له حدود، سماء عالية تترين بملايين النجوم اللامعة،
وهواء مشبع برائحة البحر النقية، وموسيقى كلاسيكية تملأ الفراغ
الواسع بين السماء والأرض، ظلت تطير وتطير مثل كائن رقيق،
الرقص متعة.. حرية.. رفاهية. في هذا العالم تتجرد من الأفكار؛ تبدو
كطفل يراقب العالم من حوله وهو يضحك، ليس هناك شواذ.. ولا
مال.. ولا تجارة.. ولا حرب.. ولكن نقاء. ولما تضغط المدام على زر
إغلاق مسجل الموسيقى، تعود لهذا العالم، ويتهي كل شيء جميل.
تعلم بمن جاء ليتعلم الرقص، ومن جاء ليقرب منها ويلمس
جسدها.. هكذا توافد على المدرسة بعض الرجال المصريين الأثرياء،
وكان من بينهم رجل أربعيني ثري، وجاء ذات يوم وطلب من مدام
«أندرا» تعلم الرقص، وكانت هناك فتاة من صربيا تقوم بتعليمه،
وكان لا يفعل شيئاً إلا أن يحتضنها لفترة لا تتجاوز العشر دقائق، ثمضي
في إطار أتوماتيكي ممل، وسرعان ما يتركها ويذهب. وذات يوم وداليا
في الحمام، سمعته يتحدث إلى المرأة قائلاً: «أنا مريض.. مريض».

وتولت تعليمه بعد رحيل صديقتها؛ حيث سافرت إلى إسبانيا. وفي أول حصة، قال لها:

- أنت غبية لا تستطيعين تعليمي.

وقالت المدام لها:

- يأتي كل ثلاثة أيام ليقضي وطره في مدرستي؛ يا للحقارة..

والشدوذ.. والقرف! هؤلاء لا بد أن يقضوا نصف حياتهم يبحثون عن العلاج، بدلاً من أن يلوثونا ويقرفونا. وهكذا مهدت المدام بهذه المقدمة لتحدث معها في شأن «نواف»؛ فقالت بلزوم:

- ولكن لا حيلة.. لم يعد الأجانب يهتمون.. حتى المصريون لا

يرغبون في أن تعلمهم فتاة مصرية.. وينصرفون واحداً تلو الآخر.

- شواذ ولاد كلب.. هذه مدرسة محترمة يا مدام، وليست منزلاً

للدعارة.. أليس كذلك؟

- نعم.. نعم.. ولكن يقولون إنهم يثقون بتدريب المدربة الأجنبية

عن المصرية.. أنت لستِ مطلوبة.

- مدام، ليس لي عمل آخر.

تظاهرت المدام أمامها بأنها لا تستطيع أن تُبقي عليها، وانشغلت

عنها بترتيب الصلاة، ثم قالت وهي تتصنع اللامبالاة:

- خلاص، تستطيعين أن تقومي بتدريب «نواف الرشيدى».

- مدام، هذا ليس إنساناً.

- لكنه سيستطيع أن يدفع المال الذي يسد راتبك وجميع النفقات.

وشردت تفكر في تركيز، وقد أدركت ما كانت تخطط له.

اتصلت «ناهد راشد» بـ«نوّاف الرشيدى» لتطمئن عليه، وتدعوه لحضور حفلة كبيرة في فيلتها في شارع ٧. وحضر في الميعاد.. كانت فيلا «ناهد راشد» قد سُيّدت بالحجر الفرعونى؛ فهي فيلا ضخمة، لها حديقة واسعة، من طابقين، الأثاث قليل؛ فبدأ البهو واسعاً جداً، أجزاء منه تُفتح على الحديقة. حضر «نوّاف» وتفقد الجو العام؛ فتيات مصريات، فضلاً عن بضعة رجال من العرب ومن المصريين الذين يعملون سمسرة عقارات. مساحة من الحرص فرضتها في بيتها ومكتبها. أما إدارتها للدعارة، فتقودها بالتليفون فقط. اختلط الجميع في جو مشحون بالضحك.. سمسرة، ورجال عرب، وأثرياء، وعمال بطاء، فضلاً عن الخدم.. كل هؤلاء اختلطوا ببعضهم في مزيج رائع. ورجبت بـ«نوّاف» وقبّلته كما تُقبّل المرأة ابناً لها، وجلس جوارها، وهذه مكانة كبيرة جداً، وجاءت له فتاة تحمل كوز بيرة، تناولها وأخذ جرعة كبيرة، ثم تجشأ؛ فضربته المدام في صدره بود. وجاء لها رجل عراقي يدعى «أيسر إمام الأخضر».. كان قصيراً وله كرش كبير، وجهه مدور أحمر، له شارب كث، وعينان ضيقتان مرهقتان تنتشر فيهما الشعيرات الحمراء، فروة شعره صفحة بيضاء.. جلس وقال لها: - منذ أن حضرت وأنا لا أرى هذا المزيج الرائع سوى هنا في فيلتك؛ حيث المدعوون يكونون سواء.. لا فرق بين غني وفقير، ووزير وغفير.. وهذا الأمر لا أراه إلا هنا وفي المساجد فقط!

وتشعر المدام بقدرتها على تقديم هذا المزيج؛ إنهم يخضعون لها. كان «أيسر» يأتي إلى هذه الحفلات فقط ليراقب الجميع ويسخر منهم، عندما يتحدث عن الدين تجده خاشعاً، فضلاً عن أنه لا يمكن أن يترك صلاة أبداً، يحافظ على الصلاة حتى إذا حان موعدها في حفل مثل هذا؛ يضع كأسه جانباً، ويدخل غرفة يغلقها خلفه بالفتاح،

ويؤدي الصلاة في خشوع.. لا يهتم بأراء الناس فيه، يعرف جيدًا أنهم ينكرون هذه الأفعال عليه، ولما يلاحظ ذلك في أعينهم يقول: «هل تشاهدوني أترنح؟ هل تشاهدوني أسب المدام؟» وتنظر له كأنها احتجت.. ثم يستأنف: «عذرًا يا مدام.. عندما أفعل ذلك تكون الخمر أطاحت برأسي، وعند هذا لا أستطيع أداء الفريضة» ويشير إلى رأسه ويقول: «افهموا». تتم في هذا النوع من الحفلات صفقات كثيرة بين رجال الأعمال والسماسة، وتخضع هذه الصفقات لموافقة المدام، فضلًا عن العمولة. وقال لها رجل مصري ثري يملك شركة صرافة يدعى «جابر الفكهاني».. له جسد مربع، أنيق، يصف شعره بعناية، وجهه أيضًا مربع، كل شيء فيه مربع:

- أنا لا أعترف أبدًا بهذه الاتفاقية بين مصر وإسرائيل.
- لماذا؟ هل وجودهم في شقيقي ليس برهانًا على الاتفاقية؟ هكذا قالت المدام في سخرية.
- ولا سفارتهم برهانًا عليها. هكذا قال وهو يرفع الزجاج من على فمه.
- أنت تخاطر بحياتك. قالتها، وسرعان ما ارتفعت ضحكتها الجافة، وضجوا من حولها يضحكون، ثم قالت وهي تتصنع الاحتجاج:
- لمعلوماتك يا مستر جابر، أنا امرأة أنقذت الدولة من فخ كبير.
- ما هو إذن يا كونتس؟
- أمثالي هم من صبغوا هذه الاتفاقية بما يسمى «صاف بالبن حليب يا قشطة».. أنا من الشعب، وأعاملهم معاملة الأم لأبنائها. وواصلت بنبرة تحمل قدرًا من الجدية:

- للأمانة، هم قوم مهذبون.
- نعم أعلم ذلك.. ولكن وجه اعتراضى أننى لن أعترف بوجودهم إلا إذا الشيكل تداول هنا بين العامة.
- وضحك من حوله، وقالوا له:
- أنت تعلن الحرب.. أنت وقع تريد أن تنفص علينا حياتنا. هكذا تبادلوا الألفاظ فيما بينهم وهم يضحكون.
- وتحدثت المدام لـ«نوّاف» الذي ظل يتابعهم دون أن ينس بكلمة:
- مالك؟ هكذا بادرتة.
- لا شيء.. فقط أتابع الجلسة.
- أي جلسة؟
- جلسة الأمة العربية.
- هاهاها.. أنت لا تعجبني اليوم.
- لا شيء..
- الدكتور عاد يقرفك من تانى؟
- لا.. أنا الذي أقرفه، عامله شغلتى.. هاهاها. هكذا قال في سعادة.
- برافو.. أي ساكن في العمارة يضايقك، أنا أؤدبه.
- بفكر أذهب إلى الإسكندرية أرتاح شوية.
- عال.. لو تحب تأخذ معاك بتّا، أنا أرسلك الغندورة فيهن.
- لا.. أريد أن أكون وحدي.
- لما ترجع كلمني.

- أكيد.

وقضى السهرة بينهم وهو يتجرع البيرة ويدخن.

انتقت داليا «نواف الرشيدى» لأول مرة عن قرب، تصافحا بالأيدي وجلسا في الصالة، وبدأت تدون في نوتة بعض الأرقام، ثم شطرت انصفحة بخط رأسي، وكتبت في اليمين «البرنامج الغذائى»، وفي اليسار «البرنامج التدريبي». بدت أمامه في هيئة رسمية، لم تنظر في وجهه أبداً؛ ظلت تحدثه وعيناها على الجدول. أثارتة جديتها، راثحتها كانت تنفذ إلى قلبه فتسكره، ثدياها رائعان، لا توجد حول خصرها أي ترهلات تخنق المؤخرة.. ظل يتأمل ملاحظها بعناية كأنه يرسمها لوحة.. أناملها الرقيقة، أظافرها النظيفة الخالية من أي طلاء، أنفاسها الحارة، شفتاها الصغيرتان المكتنزتان، أسنانها البيضاء ثقوية، جبهتها العريضة والقصة التي تحجبها على استحياء.. رفعت وجهها وقالت له:

- أول حصة يوم السبت الساعة الخامسة.

- اسمعى.. داليا، أنا أريدك صديقة. هكذا قال وهو يحاول أن يبدو خجولاً.

وضعت النوتة جانباً، وقالت بنفس النبرة الرسمية:

- هذا سيكلفك.

ارتاح لهذه البداية، وكاد أن يقفز.. ثم قال وهو مستمر على أن يبدو خجولاً:

- عيونك لك.

- لا داعي.. خليهم عشان بس تعرف تشوفني.

- هاها.

قامت وقالت بنبرة رسمية وهي تصافحه:

- هذا المكان ليس مناسبًا للحديث، انتظرن في مطلع الأسبوع القادم الساعة السابعة في مطعم «بالم» فندق «ريدز دنس».

ظلت داليا على مدار ثلاثة أيام قبل لقائها «نواف» تفكر في الهجرة؛ لا مكان لها في مصر، هي درست التجارة في جامعة القاهرة وتفوقت، فضلاً عن إتقانها الإنجليزية وشيئاً من الفرنسية بفضل تربية أمها وحرصها الشديد عليهم في الصغر. ويبدو أن الثقافة التي تشبعت بها منذ الصغر أثرت على حياتها؛ حيث تبلورت الأفكار التي طالما قرأتها وحاولت تطبيقها على الواقع، فاتخذت شكلاً محددًا واضح المعالم؛ وهو الإيمان الشديد بنفسها وقدرتها، لذلك فشلت في الحصول على وظيفة، فذات مرة طلبها مدير فندق «ريدز دنس» وقال لها: «هناك وظيفة في الريسشن.. موظفة استقبال». وسعدت جدًا بهذه الوظيفة وذهبت لتقابلته (وكان صديقًا لوالدتها، يدعى الأستاذ رأفت الفيومي)؛ فقال لها: «داليا، أنا أعرفك جيدًا، وأعرف الست الوالدة وأشقائك، وأثق بقدراتك جدًا رغم أنك ليس لديك إلا الإنجليزية.. لكن سأعطيك الفرصة». والتقط ورقة من أمامه وقال لها: «املئي الفوارغ بما لديك من الأجوبة». والتقطت منه الورقة وأخذت تقرأها وتملأ الفوارغ.. التاريخ: ٢٠ فبراير عام ١٩٩٢. الاسم: داليا محمد عبد المقصود. السن: ٢٤ عامًا. سنة التخرج: ١٩٩٠. حاصلة على بكارليوس تجارة بتقدير جيد جدًا، أتقن الإنجليزية ببراعة.. وأثناء استغراقها في التدوين، وصلت لخانة مكتوب فيها «المرتب الذي ترغب فيه»

استغربت العبارة التي ليس لها حد أدنى ولا حد أقصى.. ظلت
تقرؤها في تركيز؛ فاستفزتها جدًا، فكتبت بخط واضح حيث ضغطت
على القلم: «أريد ألف وخمسمائة جنيه مصري، مع إضافة عشرة في
المئة كل عام.. هذا هو المرتب الذي أرغب فيه.. وهذه هي قيمتي».
وبالطبع مزقت الورقة، ولم يحدثها المدير الذي صادفها في شارع
١٨ أكثر من مرة.

والآن تفكر في الهجرة؛ لن تستطيع العيش هنا. وبما أنها لا تحتكم
على أي مال، قررت أن تخوض من جديد رحلات الزواج، وقالت في
نفسها بعد لقاء «نواف»: «يبدو أنه المحطة الأخيرة، وبعدها الهجرة!».



الإعداد لتلك الرحلات يعد عملاً مرهقاً؛ رحلة زواج هي في
الأصل اتفاق بين رجل وامرأة على المتعة، ولكن أي متعة تمنحها؟
إنها ترفض الجماع الكامل، تمنح جسدها في حدود قاسية، لا يتقبلها
الرجل الكامل، حتى وإن أفرطت في تبادل القبلات التي تمارسها
ببراعة، أيضاً هذا ليس كافياً، لا بد من الشعور بالراحة، وهذا
لن يحدث إلا عقب الجماع الكامل، تستند على بعض القدرات
التي تمتلكها، وأيضاً ثقافتها الجنسية؛ فهي تعلم بالضبط أن الرجل
في طبيعه البخل الجنسي، وخاصة الرجل الشرقي. شعرت بأن هذا
ال«نواف» غير الرجال العواجيز الذين أرهقتهم بقبلة فموية وهي
تشتم في شواربهم رائحة الأب المدخن، ولكن لم تخض رحلة مع زوج
شاب، والآن جاءت اللحظة الفاصلة «نواف الرشيدى».. وتنهدت
من الأعماق، ونظرت في الساعة المثبتة وكانت تشير إلى السادسة
والنصف.. بدلت ملابسها؛ حيث ارتدت نصف بالطور، أسفله

فبعض من الصوف له ياقة عالية، وينظفون جينز، وانتعلت كعبًا عاليًا، وذهبت إلى الفندق؛ حيث المسافة ما بين المدرسة والفندق لا تتعدى خمس دقائق سيرًا على الأقدام.

الحي الإنجليزي في المساء أكثر هدوءًا، في شارع ١٨ يسود الهدوء الشامل؛ حيث تكون الفيلات غائصة وسط الأشجار الكثيفة، فضلاً عن الإضاءة الخافتة التي ترسلها الأعمدة القديمة؛ فكانت تسمع صوت حذائها بوضوح. ومن ميدان مصطفى كامل سلكت طريقها، إلى أن وصل لها صوت سائقي التاكسي المتمركزين على ناصية الشارع ليلتقطوا رواد البار، أو المطعم، أو ديسكو فلاش.. أنعشها صوتهم ومزاحهم.. وصلت الفندق، وكان عبارة عن عمارة ضخمة في شارع ١٨، تبدو في الشارع كشيء شاذ؛ تعتبر هي البناية الوحيدة الشاهقة في الحي، من آخر طابق فيها تستطيع أن تكشف الحي كله؛ سترى مشهداً رائعاً حيث الأشجار العملاقة والمساحات الخضراء تغطي الحي بأكمله. يعرفها أغلب العاملين في الفندق من عمال الريسبشن، أو مطعم «بالم».. صعدت إلى الطابق الثاني حيث المطعم، وبنظرة شاملة وجدت «نواف» يجلس بجوار الشرفة التي تكشف الشارع، كانت الستائر تنعم بهزة خفيفة من أثر تدفق هواء مارس القارس إلى حد ما. ابتسم عند مشاهدتها، فأقبلت عليه بخطى سريعة توحى بمدى رشاقتها.. صافحته وجلست وهي تقول:

- اتأخرت دقيقتين فقط.. ما شربت حاجة؟

- لا.

أشارت للنادل، فجاء، فقالت له:

- من فضلك، اتنين بيرة هولستن مع بعض المقرمشات.
- هادئ وملل هذا الحمي. هكذا بدأ حديثه.
- أين تسكن؟
- على بُعد مئة متر في عمارة فيكتوريا.
- رائع.. أعلم جيدًا أن لا أحد يستطيع أن يقطن هذا الحمي إلا إذا كان يريد الهدوء.
- وأنا لا أريد الهدوء أبدًا.
- ضحكت؛ فأنعشته الضحكة، ثم قال:
- متى ستذهبن معي؟
- عندما نكتب العقد.
- أي عقد؟!
- العقد العرفي.
- اندهش، ثم تراجع بظهره في المقعد وقال:
- لا أفهم.
- أنا لن أخرج معك إلا بعد كتابة العقد.. هذا لا نقاش فيه..
- وبعد انتهاء الرحلة تمزق الورقتين.
- حاصرته الأفكار اللذيذة، وسيطرت عليه رغبة في الإذعان لكل شيء تقوله؛ فقال:
- موافق.. ما باقي الشروط؟
- الليلة ثلاثون دولارًا.
- واو.. مش كثير؟

- والجماع ليس كاملاً.
- كمان.
- والدفع مقدم.
- كلام جميل.. بس أنا بستفيد إيه؟
- تجربة جديدة.
- هذه ليست تجربة.
- أنت مش عايز تستمتع؟
- أكيد.
- خلاص.. هستمتع بطريقة مختلفة.
- وما هي هذه الطريقة التي تخلو من الجماع؟
- بسيطة.. إن لم تستمتع معي، نمزق الورقتين وتأخذ نقودك.
- شعر «نواف» بسعادة كبيرة من تلك التجربة الفريدة، وقال لها وهو متحمس ومتشوق:
- نكتب العقد غداً.. ونسافر غداً.
- تريدني كم ليلة؟
- عشرة أيام.. ولو التجربة عجبتني، نضيف عشرة كمان.
- موافقة.. إيدك على ثلاثمائة دولار.
- بعد كتابة العقد بعطيك المال.

تناولا البيرة، وظلت لنصف ساعة تحدثه عن الرقص وفوائده..
 اكتفى فقط بهز رأسه بطريقة آلية، بينما هو بينه وبين نفسه يرغب
 في الفتك بها، على الرغم من أن ملامح وجهها كانت تميل إلى الجمال

المثير، إلا إنها كانت لا تبدو مومسًا، أنصت لها بكل جوارحه، وهمس في نفسه بجزع بعد أن استفزته ثقتها بنفسها وحديثها المزوج بالكلمات الإنجليزية: تخوض هذه التجربة مع شخص لا تعرفه. ورغم ذلك واثقة من نفسها.. ولاح في وجهه شيء من الجدية، وقال لها:

- مفيش أي شيء اليوم.
- لا. هكذا قالت بنبرة رسمية.. وعادت تأخذ جرعة من الزجاجة، ومالت نحو طبق البطاطس المحمرة والتقطت منه عدة أصابع، وراحت تأكل وتتجرع البيرة في صمت. وبعد انتهاء الجلسة التي سيطر الصمت على ربيعها الأخير، قام ووصلها إلى المدرسة.. وأثناء جلوسها بجواره في السيارة الجيب شروكي الزيتي الفاتح، المميزة بعبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» المنقوشة على زجاجها الخلفي، قال لها:

- تعلمين أنني أتيت أمس للجلوس في هذا المطعم الملعون؟
- لماذا؟
- لأتدرب عليه.. مثل ما يفعله لاعبو الكرة حين يتدربون على ملعب سيخضون عليه مباراة مهمة.
- وتدربت جيدًا؟
- ضحك وقال:
- أنا لا أستطيع التكيف مع هذه الأماكن الأجنبية؛ طبيعتي غير ذلك. لهذا حتى لا أكون متوترًا من المكان، أردت أن أزوره.. هذا كل ما هنالك.
- أنت تخطط لكل شيء جيدًا.

- هذا ما تعلمته وأحرص عليه.. لا أفعل شيئاً إلا إذا درستُه بعناية.
- وصلا المدرسة، فنزلت من السيارة، فاستوقفتها وهو يقول:
- سأنتظرك. ثم ودعها بابتسامة، ولما ابتعدت شيئاً قال: فإكراني خليجي حمار بنت المومس.. «أرافقك دون جماع.. هه بس هنستمع».. وحياة أمك.. هه.. سنرى.

رن التليفون الخاص بالعمارة في شقة الدكتور عبد الجواد؛ فانزعج جداً، ولولا أنه منتظر عامل الصيدلية ما كان رد. التقط السماعة، وصاح بانفعال:

- أيوة يا سيدي الدور الرابع.
- مساء الخير يا دكتور.
- مساء النور.. مين بيتكلم؟
- سيادتك الدكتور عبد الجواد عويس؛ رئيس اتحاد ملاك العمارة؟
- نعم.. أنت مين؟
- أنا العميد عمرو الشرقاوي من مكتب حراسات الوزراء.. من فضلك عايز أقابل سيادتك.
- كده من غير ميعاد.. هل هذا يصح يا سيادة العميد؟
- بعذر لسيادتك.. بس الأمر مهم.
- خير؟
- أنا اعتذرت يا دكتور، وبقول أمر مهم.. مش هاخذ أكثر من عشر دقائق.

- أنا نازل.. انتظرنى في مدخل العمارة هفتح لك الباب. وانطلقت
زنة من الباب، فدفعه العميد ودخل.. وبدأ عليه الانفعال،
وحدّث رجلاً معه:

- دا يبدو أنه مش طبيعي.. هبحقق معايا.

- معلش.

نزل الدكتور بعد لحظات قليلة، وتقدم نحوهما بثقة، ومد يده
يصافحهما.. وجد رجلاً أنيقاً في بدلة كاملة، ملامحه تدل على أنه
موظف حكومي؛ تفوح منه رائحة تقليدية، ربما رائحة الردهات
الحكومية، أو الأوراق والأخبار الرديئة المنسكبة عليها.. عرّف نفسه
للدكتور بأنه «العميد عمرو الشرقاوي من حراسات الوزراء».
وكان يقف بجواره شخص آخر، كان يرتدي صديري سميكاً مرقعاً
بالجيوب، ويبدو أنه محشو بأشياء ثقيلة، وأسفله تيشرت ملتصق على
صدره وذراعيه؛ فبدأ مفتول العضلات.. علاوة على البنطلون المرفع
بالجيوب، التي كان يبدو عليها كذلك أنها محشوة بأشياء ثقيلة؛ فبدت
متهدلة. كان يبدو من هيئته أنه ليس مصرياً.. وجهه مشرب بالبياض
الأوروبي، وشعره ناعم.. كان مبتسماً في ثقة، بينما أثناء وقوفه لم يتوقف
عن الالتفات حوله.. وعرّفه العميد عمرو الشرقاوي قائلاً:

- السيد «يودا» رئيس الحرس الإسرائيلي.

- أهلاً وسهلاً.. خير يا فندم؟ هكذا قال الدكتور بعدم اكتراث.

- هي العمارة مفيهاش بواب ولا إيه؟

- أسأل رجالتك يا سيادة العميد.

- خير؟

- رجالتك طردوه بحجة أنه معهوش رخصة.
- معقولة؟! مممم.. أنا هشوف موضوع الرخصة ده. هكذا قال بنبرة لم ترق للدكتور الذي حدجه بنظرة حادة، ثم قال في سخرية: يا ريت؛ أصل العمارة دلوقتي عُرضة للسرقة.. والصرافة السكان خايفين.. وكان أنا مش بنام؛ ليلاتي الحرامية بيحوموا حول العمارة.. أنا بشوفهم بنفسي كل ليلة من الشرفة.. في غياب نام للبوليس. آخر جملة قالها ضاغطاً على مخارج الألفاظ.
- أنتم عمارة محظوظة يا دكتور.
- فنظر الدكتور لـ«يودا» وقال:
- أهلاً وسهلاً.
- السيد «يودا» هو رئيس الأمن للجالية الدبلوماسية الإسرائيلية في الحي.. قبل ما تسكن الجهة الدبلوماسية، بيعاين بنفسه مرافق العمارة.
- ومين اللي هيسكن في العمارة؟
- القنصل الإسرائيلي يا سيدي.
- وإيه المطلوب مني؟
- تدلنا على مداخل ومخارج العمارة.. وكان عايز أشوف سطح العمارة، والجراج، وقائمة بالسكان. بدا على الدكتور الانزعاج، وشعر أنه سيحل بدلاً من البواب؛ فقال محتجاً:
- مش الواجب يكون مع سيادتك صاحب الشقة. واستدرك:
- صحيح هيسكن في شقة مين؟

- مدام ناهد راشد.
- هذه امرأة لا يأتي من ورائها الخير أبدًا.
- معلش يا دكتور، مش هتزعجك أكثر من ذلك.
- ولماذا لا تأتي معك الهانم؟ دي مش أصول.. رئيس اتحاد ملاك
العمارة مش بواب يا سيادة العميد.. الأصول أن الهانم كانت
حضرت معكيا.. معقول؟ هكذا انفعّل الدكتور وقد احمر وجهه،
ولمعت جبهته العريضة، وخلع نظارته الطيبة ومسحها بالمنديل
القماش الكرومات.. ولما هداً قال لهما:
- تفضلاً.
- ومن أول لحظة بدأ «يودا» يصور كل ركن في العمارة؛ بداية من
المداخل والمخارج، حتى خلفية العمارة صورها، علاوة على الشوارع
الجانبية.. بالإضافة لسيارات السكان؛ صور اللوحات المعدنية الخاصة
بكل سيارة. ثم صعدوا للشقة التي تركت مفتاحها مع رئيس
الحرس؛ صور الشقة ركنًا ركنًا، وصور الشوارع من أعلى. ثم صعدوا
السطح وعابنه، وعابن ماكينة المصعد، وهنا علق الدكتور قائلاً:
- إحنالسة مغيرين الماكينة. هز «يودا» رأسه بود، واستكمل معايبته.
ثم طلب منه العميد قائمة بأسماء السكان للتحري عنهم في أمن
الدولة، فقال له الدكتور بنبرة لا تخلو من الزهو:
- كل السكان ناس محترمين؛ أطباء ومهندسين وموظفين حكومة..
مفيش غير شقة المدام.. مستأجرها شاب خليجي بيدرس في
جامعة القاهرة.

- مدام ناهد صديقتنا، ونحن عندنا علم به. وهنا ابتسم رئيس الحرس بود؛ فهو يعرفها جيداً. وكان رئيس الحرس يتقن العربية بطلاقة.. ثم قال له العميد قبل أن يرحل:

- ستكون عمارتكم محظوظة إذا ما قطنها القنصل.. ستحميها وزارة الداخلية، وستؤمن من كل الجهات.

هز الدكتور رأسه في لامبالاة. ولم يمر أسبوعان حتى جاءت الموافقة من الجهات الأمنية، وسكن العمارة القنصل، واستقر أمام العمارة عدد ثلاثة جنود من الداخلية ومعهم رقيب. وفي المدخل استقر رجل أمن ببذلة أنيقة من حراسات الوزراء المكلفة بحراسة الأشخاص المهمين.. علاوة على تمرکز سيارة نجدة على ناصية الشارع، ورجل أمن ناحية الجراج الخلفي. وسعد الدكتور بهذه الحراسة القوية، وكلف إحدى الخاديمات في العمارة بمسح السلم والمدخل في الأسبوع مرتين، وكتب بياناً وضعه على باب المصعد كتب فيه: «على الراغبين من سكان العمارة في تنظيف عرباتهم أن يتصرفوا.. العمارة ليست مسئولة». كان أغلب القاطنين في العمارة من الموظفين القدامى، بعضهم مستأجر هذه الشقق بيضعة جنيهات، وكانت مثل هذه المصروفات ترهقهم؛ إذ إنهم تعودوا دفع ملايم مقابل خدمات كثيرة.. فمثلاً عندما عرض عليهم الدكتور جلب شركة أمن تحرس العمارة، لم يوافقوه؛ فالشركة ستأخذ نظير الأمن ما يعادل ٢٠٠٠ جنيه، بينما البواب سيتحصل طويلاً وعرضاً على ٣٠٠ جنيه، وسيقوم بتنظيف السلم والمدخل والسيارات.. ولذلك كانوا مصريين على جلب بواب. وكانت خزانة العمارة تنعشها فقط الشقق التي يقطنها الأجانب، بعد أن تركها أصحابها ليستفيدوا منها. وكانت العمارة ضخمة؛ الدور الواحد تحتله ثمان شقق، بارتفاع تسعة أدوار.

وبعد أسبوع، شعر سكان العمارة بقيمة الأمن الخاص؛ حيث طرأ على العمارة الانضباط، لا أحد يستطيع الدخول والخروج مثلما كان يحدث.. حتى المارة من الناس كانوا يتفادون المرور أمامها. وفوجئ «نوّاف» بهذا الكم من الجنود المدججين بالبنادق، واتصلت به «ناهد راشد» وقالت له: «نوّاف.. هؤلاء الجنود لا يستطيعون أن يقتربوا منك؛ هؤلاء لحماية سيادة القنصل فقط. ولو تحب يا حبيبي تسكن في شقة ثانية، أنا تحت أمرك». فقال لها: «نتكلم لما أرجع من الإسكندرية». وسمع طرقاً شديداً على الباب، ولما فتح الباب وجد الدكتور واقفاً أمامه حيث برز صدره في ثقة وقوة، وقال له ملوحاً بإصبعه:

- وزي هتجيب موسى هنا ازاي؟

- أنت بتحداني.. أنا بجيب اللي عايزه.. وريني بتمعني ازاي؟

- دا كان زمان يا بابا.. النهاردة العمارة في حماية الإسرائيليين.. شكوى صغيرة مني أطرده من العمارة والبلد كلها. وانصرف عنه الدكتور، لكنه سرعان ما توقف واستدار مرة أخرى ورفع سبابته وقال:

- يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.. بقى يا ربى اللي يظهر العمارة اليهودا

(السيد عبد الكريم رجل محترم، فضلاً عن أنه رجل معتدل، لم يسجل تاريخه أي شيء يضر بمصلحة القنصل.. في حاله.. لا يفعل أكثر من جمع المال. أما صديقه حسان النخيلي فهو رجل متعاون، وله فضل كبير. زوجته هي شقيقة حسان، تزوجته لتستمتع بحياتها؛ لا يهمها أي شيء سوى مصلحتها فقط.. هي امرأة غبية؛ لو سألتها:

هل تعرفين اسم رئيس الجمهورية؟ غالبًا ستقول لك: تدفع كام؟!
فلا خوف من عبد الكريم).

سافرا الإسكندرية في سيارته الجيب شروكي، أخذت معها ملابسها
في حفية صغيرة، كان الاتفاق على أسبوع واحد. قاد السيارة بسرعة
رهية، فقالت له:

- هتزل في فندق إيه؟
- أنا لا أحب الفنادق.. هتزل في شقة.
- لم نتفق على ذلك. هكذا قالت بسرعة وقد شحبت وجهها.
- شقة سوبر لو كس.. مملكة يا ماما.. فندق إيه وقرف إيه.
- لم نتفق.
- أنا بعذر.. ولكن كنت أخبرك عليك لأنني ظننت أنها مفاجأة،
كما أنت تخبين عني مفاجأتك.
- وهكذا أدركت داليا أن الرحلة ستأخذ مسارًا آخر؛ فندق يعني
الونس، وإذا ما حدث شيء النجدة على الباب.. أما الشقة فهي
ملكه فقط، ستخفقها الجدران. وشعرت بانقباض في فم المعدة؛ هذا
الانقباض الذي لا يعقبه الخير أبدًا.. ونظرت له محتجة؛ فطقطع
بلسانه وقال:
- لن تندمي أبدًا.

استخدم الفاظًا استفزتها «حييتي.. ماما».. فضلًا عن حركات
ورقصات كان يؤديها وهو جالس أثناء القيادة.. سياب المارة والسيارات
المجاورة، تحديه لهم، دفعه للمخالفة المرورية بسخرية وتهكم، بصفه

على الشرطة.. شعرت أنه ينبغي لها شيئاً، ودفعها غرورها فقط لاستئناف الرحلة، رغم أنها كانت تستطيع النزول والعودة. واعتدت في جلستها واسترخت فوق المقعد، وتظاهرت بالنوم، فضلاً عن رفع قدميها فوق التابلوه.. وعلا صوته وهو يغني.

وصلا العمارة؛ عمارة ضخمة على كورنيش الإسكندرية.. هرع نحوه البواب الضخم، وحمل الحقائب، وأمطره بالسلامات.. وصعدا للشقة، وكان يزحف وراءه حاملاً حقائبه:

- الشقة نظفتها كويس يا «نوّاف» بك.. كل شيء تمام.

الشقة فسيحة تطفى عليها الروح الخليجية، تنقسم لأكثر من قاعة عربية.. شلت ملقاة على الأرض، ومقاعد وتريزات من خشب الأرايسك، علاوة على الكؤوس النحاسية. تفقدت الشقة الكثيرة التي تملؤها رائحة البخور العتيق الخانق.. فتحت النافذة فتدفق هواء البحر؛ فغمر الشقة بالحياة، فقال لها:

- أنتِ هتشبي من هذا البحر.. تعالي غيّري ملابسك.

بدت السماء في هذه الليلة كثيفة؛ لم تُطعم بنجمة واحدة، وبدا القمر قائماً تكتفه السحب الرمادية، ومع ذلك كان الهواء يعصف بالستائر حاملاً نسيم البحر المنعش. وكانت العمارة لا تقل كآبة عن هذه الليلة؛ إذ كانت تخلو من روح السكان.. بعد ثلاثة أشهر بالتمام والكمال ستختق بالمصيفين، أما الليلة فإنها كريهة. بدّل «نوّاف» ملابسه، وخرج لها وكانت جالسة في الصالة الشرقية تتفقد الأشياء. تقدم نحو المسجل وألقمه شريط كاسيت بحوي أغاني خليجية، ثم طرح نفسه فوق الأرض وظل يردد الأغاني باستفزاز، بينما يشير

لها أن تفعل مثله.. جلست على البار وقد استقرت في عينيها نظرة فاحصة، فتقدم نحوها وجلس بجوارها وقال:

- إيه مش ناوية تغيري ملابسك.. هيا عشان ترتاحي من السفر..
أما أنا فلا سبيل لي إلا الرقص حتى الموت.

التقطت زجاجة بيرة من على البار، وأفرغت في جوفها جرعة كبيرة، ثم مالت نحوها وقالت:

- الموت هو السبيل الوحيد للنجاة!

- من؟

- الحياة..

- أتفق معك.. لكنني لا أريد الموت على الفراش.

- تريد الشهادة؟

- في سبيل المتعة.

- أي متعة؟

- امرأة تقتلني.. أو أقتلها.

- وأي متعة هذه؟

- لست لي طاقة بالفلسفة.. ولكن قتل امرأة واحدة عندي يساوي قتل ألف شيطان.

أفرغت جرعة أخرى في جوفها، والتقطت سيجارة من علبة أمامها وأوقدتها، وقالت في حماس:

- تريد أن تقتلني؟

- لا.. لمعلوماتك أيتها الخسنة، انقتل أنواع.. ليس موت الجسد فقط.

- حدثني.

- انشاء عاة كبير؛ كبير جداً، ومر خطير لا يعرفه أحد.. تزوجت، فسمعت بأنني اسلخت، ثمة أشياء لا تُرى إلا عند الاحتضار.. والزواج هو الموت؛ يعني انصدام بين اثنين.. ورأيت عالماً كبيراً وخضيراً.. تمنيت أن أكون بلا قلب، وبلا رغبة حقيقية فيهن.. المرأة تستطيع أن تقتل الرجل بأقل مجهود؛ كائن جاء بفعل الخطيئة.. لذا استمتع بفتنهن.

- كيف؟

- أن اسلخن عن أنوثتهن.

- لا أعرف ماذا تقصد.. ولكن ثوق تماماً أن ليست كل النساء قاتلات؛ فيهن المقتولات أيضاً.

وأراد أن يغير مجرى الحديث، فقال لها:

- تزوجت من قبل؟

- لا.

- أنتِ عذراء؟

- نعم.

- الآن أدركت لماذا لا ترغين في الجماع الكامل.

- لك المتعة.

- سنرى.

وجاء نيسر بعد حديث ضويير مشحون بالأفزاز، قاومت بقوة
فسفته نظمة معجونة بتساذية.. واصرفت في حديثها معه إلى الحياة
في مدرسة، ونرقص، ولأجنيات.. وحدثها عن «إربنا» فقالت له:
«صديقتي». وهز رأسه وقاد: «تممكنة، نكنها سهلة». وجلست في
تبيكونة منضحة بفضء شرفي ثبت به من على الأريكة، وصنع لها
فجاء شدي ثقبلاً. وضلا يتحدثان وينظران لظلمة البحر المخيفة،
ويسمعن أمواجه التي كانت تتحطم فوق الصخور.

ثم تناولوا العشاء من مطعم قديم؛ قطع من الفيليه والجمبري
العزازج، وأعقب ذلك بكوزي بيرة.. ثم قالت له:

- تحب الأز؟

نظرها وقال:

- ماذا تقصدين بالضبط؟

- سأقدم لك عرضاً رائعاً.

ودخلت غرفة النوم، وبدلت ملابسها بارتداء ملابس داخلية
ساخنة مصنوعة من الحرير الفاخر، وخرجت له. جلس يراقبها في
فهمول؛ بدا لونها البرونزي لامعاً تحت النجفة.. واستقرت عيناه على
مؤخرتها المستديرة؛ فقال:

- بالراحة عليا.

وشعرت بالسعادة من انبهاره، ورقصت حتى خارت قواه.. وظل
يلهث وراءها في الصالة، وفي كل حركة كانت تؤديها كانت تكمره
رائحتها.. شعر بأنه سيموت كما تمنى فوق أفخاذ امرأة قادرة على
احتلال العالم بجمالها.. هذه هي النهاية يا «نواف».. من أين جاءت

هذه الملعونة بهذه الثقافة؟ لو أنها ترقص عارية لما فعلت فيه هذا،
وانما الإثارة تكمن في حجب الأشياء كما فعلت.. المؤخرة بين يديه،
لا يفصلها عنه سوى خيط رقيق من الحرير، لكنه يبدو فيها كجدار
عالٍ تمامًا.. ومنبع السعادة يراه مكتئبًا يتنفس في استقلال وينظر ل
متعاليًا؛ ما زال المنبع مغلقًا، من يستطيع أن يقترب؟ وفرد ذراعيه
واحتضنها، وسرعان ما صرخ وسقط تحت أقدامها.. فتركته ودخلت
الحمام. أوقد سيجارة وبدأ ينفث دخانها في عصبية؛ استطاعت أن
تستدرجه بكل سهولة، إنها متمرسة ملعونة. وشعر بالمرارة، ولعن
داء القذف السريع، وقال في نفسه: «هذه المرة لها». وذهب لها حيث
غرفة النوم، وجدها ترتدي ملابس الخروج؛ فسألها في غيظ:

- رايحة فين؟

هزت كفيها وقالت:

- أبدًا بحب أكون جاهزة.

- اسمعي يا داليا، نحن نعقد اتفاقًا آخر.

- اتفاق آخر؟

- نعم.. أنتِ لا تنوي أن تفقدي عذريتك، وأنا موافق وعند
كلامي.. بس الحب بحر واسع، ويمكن ترضيني من غير ما
تفقدني عذريتك.. قلتِ إيه؟

- ودا اللي أنا عملته معاك.. هو أنا قصرت؟

- سيك من شغل العيال المراهقين اللي حصل من شوية.. ماما،
فتحي مخك معايا.. أنتِ فاهمة كويس ماذا أريد.

- بينا اتفاق، وأنا لم أدخل بوعدتي.. أنت استمتعت؛ أليس كذلك؟

- هه.. اسمعي يا ماما.. الحب بحر ه واسع، وأنا معلمك شيء جديد.
- تقصد إيه بالضبط؟
- مؤخرتك لذيفة.. دفعت فيها كثير.. أريد أن أدلكها بالزيت.
- آه.. أنت تقصد الجنس الشرجي. هكذا قالت وقد جلست على حافة السرير تسمعه.
- الشرجي.. المؤخري.. أي شيء.. المهم ما قلت إيه؟
- أنت مريض قدر.. تقدر تبحث عن ولد شاذ تمارس معه هذه القذارة. هكذا قالت دفعة واحدة، بيد أنها لمحت في عينيه نظرة لا تطمئن.
- وقال وهو يتصنع الهدوء:
- لماذا كل هذا.. متخسري إيه؟
- اسمع يا «نواف».. ليس من العيب أن نعترف بأمراضنا، العيب أن نبحث لها عن حيل ضعيفة.. يبدو أنك مريض، ويجب أن تعترف بذلك؛ ليس من أجلك، بل من أجل زوجتك وأبنائك في المستقبل.. لذلك يجب أن تذهب للطبيب وتعالج، بدلاً من أن تمارس مع زوجتك الجنس الشرجي؛ زوجتك أم أبنائك.. هل تفهم؟
- آه يا ملعونة يا مومس.. أنت بتعطيني درس وبتصفيني بالمريض.. أنا سأفعل كل شيء معك عشان تجيبي سيرة زوجتي وبيتي تاني يا بنت المومس.
- أنت قدر.. مريض.. اذهب لزوجتك ومارس معها شذوذك.
- خلاص.. أنا بوريك.

- خلاص.. أعطني الورقة وخذ نقودك. هكذا قالت وهي تتراجع عدة خطوات.
- بعينك يا ماما.
- يعني إيه؟
- أنام معاكى بالطريقة اللي بتريخني.. وبعدين أعطيكى الورقة وأكثر.
- أنت أخذت حقك بما فيه الكفاية. هكذا تحدثت وهي تتصنع القوة والبرود.
- ضحك بسخرية ومال بعيدًا عنها، وقال:
- إيه يا ماما.. شيفاني حمار.. واحدة مومس زيك بتضحك على «نواف الرشيدى».. لا يا حبيبتى، حقي وهاخده.
- ملكش حق عندي. هكذا قالت في حدة عنيفة، واستفزتها بشدة كلمة «مومس» التي ظل يردد لها طوال الوقت؛ لذلك شعرت بأنه تخطى كل الطرق السلمية، وبأنها في مواجهة معركة عنيفة.. وتراجعت عدة خطوات أخرى، واقترب منها وتحدث بفظاظة توحى بنفاد صبره:
- قولتلك مش واحدة زيك تضحك عليّ.. أهون عليّ أموت ولا واحدة زيك تضحك عليّ.
- قلتلك خد فلوسك.. واعتبر المسألة لم تكن.
- لازم أكسر أنفك.. فاكرة نفسك مين.. أنت مومس وبس.. وشوية الشطارة اللي بتلعبي بيهم على الناس ميمشوش معايا.

وأدركت أنها في مواجهة عنيفة، وظل صدرها يعلو ويهبط بسرعة
كأنها قطعت مسافة كبيرة راكضة، وقالت بخبث:

- متعتك مش عندي.. مش هقدر أساعدك.. اسمع الكلام.

- لا.. عندك.. هيا، لديّ زيت طبيعي مستورد يستخدمه الخواجات
عشان يسهل المرور.. مش هتحسي بأي ألم.. الخواجات دول
ملاعين.. ما تركوا شيء إلا وصنعوه.

- أنت قذر. ثم نظرت له بتحدّ وقد كورت قبضة يدها الصغيرة،
بعد أن تقدم نحوها وأصبح في مواجهتها.. فقال:

- فاكرة أنك ممكن تمنعيني من حقي.. بالعكس، رفضك ده جزء
من متعتي.

- طلبك مش عندي.

أوقد سيجارة ونفث في وجهها الدخان، ثم مسكها من شعرها
وجرها نحو السرير بقوة.. حاولت إبعاد يده لكنه كان الأقوى، ثم
مرعان ما بدت مستسلمة، فقالت بصوت لاهث:

- سبني أدخل الحمام أغير.

فقال لها بإصرار:

- مش ضروري.. أنت كده أفضل؛ بريد أمزق ثيابك.. حته.. حته.

واستطاعت بعد عناء أن تقنعه بتبديل ملابسها؛ فقد شرعت
توسل إليه، وتُقبل يده لكي يتركها تبديل ملابسها.. كل ما هنالك
أنها كانت تريد فقط أن تختلي بنفسها بضع دقائق.. وارتاح لإذعانها
بهذا الشكل؛ إذ بدت عليه القوة بعد أن تراخت معه وتلاشت قوتها،
فظل يمسرها بالفاظ بذينة. كان يتلذذ حين يدفعها أمامه فتترنح أو

تسقط على الأرض. وأرسلها إلى الحمام بصفعة على مؤخرتها، وظل هو يتجرع أكواز البيرة ويحضر أشياءه.. عطر «سلطان»، والزيت.. إنها ليلة لن تتكرر. شعر بالسعادة، وتخيّل وهو يفقدها أنوثتها لأول مرة؛ فصرخ من فرط النشوة. وفي الحمام جلست تفكر في هذه الورطة، تصيب العرق من جبهتها البارزة، وظلت تجفف عنقها وشعرها، وتقرض أظافرهما.. وسرعان ما التقطت من شنطتها «إسبراي الشطة»، تعرف جيدًا أن هذا الإسبراي قادر على حمايتها؛ رشته واحدة في عينه ستندم الرؤية تمامًا.. ورجت الإسبراي جيدًا ليتفاعل السائل بسرعة ويتدفق من الأنبوب مُرَكِّزًا، وهمست بصوت رن في أذنها فقط: «لن يستطيع الحيوان الشاذ..» وضربت الأرض بقدميها، واندفعت خارجة في خطوة سريعة. ولما خرجت وجدته جالسًا فوق السريير يدخن بانفعال، وبدا الدخان كثيفًا يكاد يجيب موضعه فوق السريير.. ثم ظهر وجهه مكفهرًا تلوح فيه أشياء غريبة.. عيناه حمراوان محمقتان، وأنفاسه عالية يهتز لها صدره بشدة.. كانت الغرفة يسودها صمت رهيب مخيف؛ حيث امتلأت بأنفاس الخوف ونظرات الترقب من كليهما. وكانت تشعر بداخلها بإحساس لم يتأبها من قبل في ظل هذه الرحلات؛ خوف.. قلق.. لكن الأمر كله كان يتوقف على كلمة ينطقها هو، لكنه ظل فوق السريير يتابعها بعينين تنطقان بالشر، ثم قال:

- أنتِ مش قولتِ متغيري ملابسك.. أنتِ مجنونة.. وأنا أجن؟

كان الإسبراي في يدها، ولم يلاحظ ذلك؛ إذ كان بالكاد يلاحظ من صغر حجمه.. وقالت في مكر:

- إيه رأيك نسهر الليلة؟ ومدت يدها وفتحت الدولاب وهي تلتقط سترتها، وكانت تراقبه بحذر كأنها تسابق الزمن.. فهي

تعلم أن اللحظات التالية قد يتوقف عليها أشياء كثيرة، إن لم تكن حياتها.. نزل من فوق السريبر، ومضى نحوها بخطى سريعة مندفعة في جنون لا يبرره سوى نفاذ صبره تجاهها، وتكلم بفظاظة: تظنني خليجي عادي ممكن تضحكي عليه.. لا يا ماما.. أنا باخد حقي بالكامل.. والحين.

حقك أخذته.. ده كل اللي عندي. هكذا قالت بقوة واستعداد، ثم رشت الإسبراي في وجهه؛ فقفز تلقائيًا عدة خطوات للخلف. طارده بعد أن اندفع خارج الغرفة، لحظة فاصلة لا تتعدى الثانية أنقذته، حين التفتت له ورفعت يدها في وجهه، وكان يظن أنها ستلكمه.. بالطبع تجنببت المواقع التي ينتشر في جوها السائل؛ لذلك كانت مرافقة له في كل ركن يهرع إليه. ولما فرغ أنبوب الإسبراي ألقته به على الأرض، واندفعت نحو الغرفة.. عجز «نواف» للحظات عن تفسير هذا الشيء الذي كانت تطارده به، وانقض عليها وصاح نائراً:

أه يا ملعونة.. ماذا تريدان بالضبط.. هذه اللحظة لن تنسيها أبداً يا بنت المومس. ثم مديده نحو ثدييها، واعتصرهما بقسوة.. انفعلت، ونجحت في التخلص من يده، وعادت للخلف عدة خطوات.. كان شعرها الأسود ما زال يحمل بقايا الماء؛ فبدأت مستسلمًا في خصلات ثقيلة، وعيناها اتسعت وكأنها قطعة شرسة تصارع من أجل البقاء.. أخذت وضع الهجوم استعدادًا له.

كيف تمنعيني من حقي يا مومس يا بنت المومس؟ أنا بوريكى ليلة سودة. وجرها بقوة من شعرها؛ فشعرت بألم شديد.. ثم مسكها من عنقها في محاولة لخنقها؛ فصدرت منها حشجة، وبدأت

قدمها في ركل الهواء حتى ارتطمت في عدة أشياء؛ فأحدث ذلك ضجيجًا.. ولم تستطع التخلص من قبضة يده. كان يتصرف نحوها بجنون.. ركلها بقوة؛ فصدرت منها صرخة ارتجت لها جدران الغرفة الكئيبة.. وانحل وعيها لأحاديث الأمهات والمدرسات البنات لا يُركلن في المؤخرة.. هناك نوع ضعيف من غشاء البكارة ينفذ لأي ركلة في جدار المؤخرة.. حذارِ يا بنات، وأي شيء تحافظ عليه وتقاتل من أجله مثل هذا الغشاء العجيب، الذي يمنحها ثقة وراحة، تستمدهما من عيون المومسات المنكسرات الضعيفات.. وانتفضت بعد أن بصقت في وجهه بلغيًا.. وانفعل أكثر، فترجم ذلك إلى مضاعفة الخنق؛ فبدا وجهها منفوخًا تعلوه زُرقة مخيفة، وبدت عيناها وكأنهما على وشك الانفجار.. نفرت عروق الرقبة المخنوقة، وكذا يدها، وحاولت بكل ما لديها من قوة أن تفرز أظافرها في لحم يده.. كان جسدها كله يرتج ويرتعش بقوة من شدة التركيز وتوجيه القوة كلها في أصابع يدها، لكنه ظل صامتًا مترقبًا منفعلاً مصراً إصرارًا عنيفًا.. وحل إحدى قبضتيه من عنقها، ثم سددها للكمة قوية من أثرها ترنحت قليلاً للوراء؛ وشعرت بأنها تُبعث من جديد.. إنه تركها.. ودون أن يقصد منحها الفرصة.. كادت تسقط على الأرض.. وتقدم نحوها بعد أن أمطرها بالسباب، ومد يده نحو مؤخرتها بقوة، ثم حملها من فوق الأرض؛ فزكمت أنفه رائحتها النظيفة كأنها طفلة نقية، وهذا ما استفزه جدًّا؛ شعر بمتعة طالما افتقدتها منذ أن فعل ذلك مع زوجته التي استسلمت بسرعة.. ولكن هذه المرة تأتي بعنف؛ عنف جعله يشعر برغبة في استمرار المعركة حتى الموت.. دس يده نحو مؤخرتها، لكنها دفعته بما فيها من

قوة.. ثم عاد إليها مرة أخرى، فدفعته وهي تمضي خارج الغرفة
بمضي مثاقلة. خنق بها ومسكها من شعرها حتى صرخت،
ثم صفعها على وجهها؛ فهالت على حافة الدولاب الأريسيكي
مستندة عليه، وبركبتها ركلته في خصيته؛ فوقع على الأرض
وهو يعوي من فرط الألم. لكن عينه كانت تراقبها بحرص..
ولما تحركت نحو الباب، تحامل على نفسه ولحق بها، ثم صرخ:
يا بنت المومس. وسدد لها لكمة سريعة في أنفها؛ فشعرت بأن
الغرفة تدور بها، وبسائل دافئ يتدفق من أنفها وفمها.. ثم مالكت،
وتصورت سريعاً ماذا لو سقطت، وما الذي سيفعله.. وانحل
وعبها إلى ذكرى بعيدة عما يجري.. فترى سعيد شقيقها وأمها
سميرة يتشاجران كالعادة، أو مشاهد لها وهي ترقص مع الفرقة
تحت سحر الموسيقى الغربية.. هكذا كانت ترى وتحدث نفسها.
ومضى نحوها وهو يعاني ألماً وغيظاً، ثم أمسك برأسها ودفعاها
في حافة الدولاب؛ فارتطمت بقوة، وبدأت تتشنج وعيناها
متسعان، وتدفقت الدماء من رأسها.. ثم وقف يلتقط أنفاسه
ويستظر سقوطها أرضاً وهو قابض على خصيته بين راحتيه
متألماً.. تلتفح جسدها بالدماء التي ما زالت تتدفق من أنفها
ورأسها.. وبدأ نهداها عارين يعلوان ويهبطان بسرعة مع كل
شهقة، وبدأ الدم يسيل فوقها ويشكّل ممرات متشابكة. جفف
الدم بعنف وهو يعتصر نهدياها، ثم فك أزرار البنطلون الجينز..
أحست بيديه تعبان بها، ورأته عارياً، كانت تراه وكأنه خيال
أو من وراء ضباب، كأنه يضع قدمه فوق رأسها داخل حوض
ماء وهي عاجزة عن التنفس.. ظل جسدها يتفض بسرعة
وكانها تحتضر، وشعرت بأنه هو الموت يتجسد فيه بكل قسوته؛

فقررت أن تقاتل من أجل الخلاص. هكذا ظلت تقاوم بكل قوة، وشعرت بشيء به سخونة دافئة يستقر بين يديها، ويقرب من فمها.. وكان هو يرتعش ويتساقط العرق منه بغزارة، وبدا قضيبه خاملاً من أثر الركلة.. لكن ها هي اللحظة التي طالما انتظرها بفارغ الصبر.. الآن عليه أن يستمتع بها وهي واقعة تحت يديه غارقة في دمايتها، لكن الخوف والركلة جعلاه عاجزاً عن فعل شيء؛ فقام من فوقها وصاح بصوت خارق:

- آآه.. يا بنت المومس.. أنا بخلص عليكى. فركلته ركلة أخيرة، لا تعرف أين ستذهب، كأنها تسديدة كرة في نهاية ماتش مهم يحدد مصير الفرقة.

وساد صمت مخيف.. سمعت صرخة مكتومة، وصوت حشرجة، ورأت شبحاً جالساً فوق الأرض عارياً.. زكمت أنفها رائحة الدماء، وظلت الغرفة يسودها هذا الرعب وهذا الصمت.. وراحت في غيبوبة لا تتعدى دقائق، شعرت بعدها ببرودة شديدة تنفذ إلى عظامها.. فتحت عينيها بصعوبة، وتحسست أردافها العارية، ثم وجدته منكشأ على بعد أمتار قليلة.. رفعت البنطلون الذي كشف عن جزء من مؤخرتها، وقامت مستندة على الدولاب، ثم أسرعت في جمع أشياءها.. كانت تتحرك في صعوبة، وتكتم أنفاسها خوفاً من أن يشعر بها، تنظر نحو الباب وكأنها ترجوه أن يقرب.. فتحت الباب بحرص ثم خرجت، ونزلت عبر السلم الضيق المظلم، تحسست الحائط حتى أضاءت النور.. كانت تشعر بهبوط بعد أن فقدت قرابة نصف لتر من دمايتها؛ حيث لم تتوقف أطرافها عن الارتعاش، ولما انتهت من نزول السلم، ووقفت أمام العمارة الشاهقة الكثيرة، تنفست في ارتياح، ما زال شعرها مشبعاً بالدماء حتى بدا ناشفاً، وشفتها

السفل متورمة وما زالت تنزف من أثر اللكمة.. طعم الدماء العالق في لسانها جعلها تشعر بنوع من الخوف؛ خوف من الموت، أو مصير بائس.. أخرجت من حقيبتها قبعة من الصوف وغطت بها رأسها، ووقفت تنتظر تاكسي يقلها إلى محطة مصر. نظرت خلفها وتخيلت لو لحق بها، لكنها كانت مطمئنة؛ إن المعركة في الشقة تختلف كثيراً عن الشارع.. وكان البحر أمامها يترامى في ظلمة موحشة، وكانت أمواجه تضارب في ثورة.. لمحت خيالاً وراءها؛ فتطلعت خلفها بترقب، فوجدت البواب واقفاً يتأملها في صمت.. كانت ملامحه تبعث على الرهبة؛ ضخامته، ونظرته الثاقبة التي تشع من عينين كبيرتين. فتح فمه وكأنه يتشاءب، ثم قال بطريقة حاسمة:

- «نواف» بك لسة فوق؟

لم تجبه. ثم استأنف قائلاً:

- هو حاسبك ولا لسه؟ ثم استأنف بنبرة أمره لما وجدها صامتة: أنتِ خرسيت؟ ردي عليّ.. أنا ممكن أحاسبك. ثم مسحها بنظرة شاملة وقال: أعطيني رقم تليفونك.. الموسم داخل علينا، وأنا زبايني من عينة «نواف» بك.. الثلثين والثلث.. ها قلتِ إيه؟ نظرت له وقالت بنبرة لاهثة:

- مش وقته. كانت تريد أن تتخلص منه بسلمية؛ لن تستطيع أن تخوض معركة أخرى، وخاصة أن هذا القواد على استعداد لسحقها تماماً، لن تتحمل صفة واحدة من يده الغليظة. ابتسمت بصعوبة، وتقدمت بضع خطوات، أوقفت تاكسي، وجلست على المقعد الخلفي ووجهته في صوت مبجوح: «أقرب صيدلية من فضلك». وانطلق بها، تأملت كل شيء، حتى لحظات الموت.. نظرت خلفها

فشاهدت البواب يتعمد شيئاً فشيئاً؛ فشعرت بارتياح.. تأملت اللحظات الحديثة التي ما زالت تحمل أثرها.. كل ذلك تأملته في ذهول، وتخيّلت لو كان ضاجعها.. وسرعان ما امتقع وجهها أكثر، واتسعت عيناها، وهتفت في نفسها: «الورقة!». وضعت يدها على جبهتها وشعرت بالمرارة. انحدر السائق إلى شارع المحطة، وتوقف أمام صيدلية عتيقة.. نزلت بصعوبة حيث بدأت تشعر بالألم، ثم تحركت إلى داخل الصيدلية.. استقبلها طبيب عجوز، ونظر لها طويلاً وقال لها:

- ماذا حدث؟

- محاولة لسرقتي. وجاء بالمطهر وطهر الجبهة والشفة في حالة من البرود، وقال لها بصوته الواهن:

- القطع اللي في الجبهة لازمه عدة غرز.

- أكيد؟

- ده مش ممكن يكون بني آدم، أعتقد أن في كسر في الأنف، والشفة متورمة وملتهبة.

- كلب.

وجاء بالدواء ومعه كوب ماء، تناولت عنده بعض المسكنات والمضادات، وانطلقت إلى التاكسي بسرعة ووجهته: «محطة مصر من فضلك».

ما هذا العالم المخيف؟ الشهوة.. اللذة.. الشذوذ.. المال.. يا الله، متى تخلصني من هذا المستقع الذي أغوص فيه؟ ما هذا الكائن العجيب؟ كاد يقتلني.. مريض.. مجنون.. هل مات؟ آه.. واستنشقت

عبر الصباح وقالت: «آه.. ما ألد الحياة هنا بين الحدائق.. ما ألد العيش مع قوم يعقلون!». ونزلت من التاكسي وصعدت إلى الطابق الرابع، وطرقت الباب، وجاء صوت المدام مستعلماً:

- من؟

- أنا داليا.

فتحت الباب؛ فاندهمت وقالت في ذعر:

- ماذا حدث؟

- الضريبة.. لا بد من دفع الضريبة يا مدام.

- داليا، لتذهب الفلسفة إلى الجحيم.. ماذا حدث؟

- معركة مع «نواف».

- «نواف»!

- نعم.. كان يريد أن يفتصمني؛ فدافعت عن نفسي.. وكانت النتيجة كما تشاهدن.

- وهل توصلتما لحل.. أم انتهى الصراع بينكما على لقاء آخر؟

- لا أعرف.. تركته يعاني ركلة في خصيته.

- داليا، أنا لا أريد مشاكل.. هذا الخليجي الشري يستطيع أن يفعل أشياء كثيرة.. أرجوكِ اتركي المدرسة.

- لا أستطيع.. لا بد من الإقامة معك بضعة أيام.

- سيأتي إلى هنا.

- لا يستطيع أن يفعل شيئاً.. أنتِ امرأة غريبة.. صدقيني لن يتعرض للمدرسة أبداً.

جلست وفردت ساقها فشعرت بألم، فكشفت عن ساقها؛ فإذا بأثار الركلات قد تركت بقعاً حمراء.. كان وجهها خالياً تماماً من المساحيق يحمل آثار معركة حديثة.. الشفة تورمت وشطرت من الجانب، والعينان يغشاهما الأرق.. تحسست القطع في جبهتها، وكانت الدماء تجمدت فوقها.. قشرت بأظافرها الدماء الجامدة؛ فانسالت دماء جديدة.. وكان شعرها يحمل آثاراً للدماء؛ فكانت الخصلات مجمدة أشبه بالقش المتبل. جاءت المدام بطبق مياه دافئة وقطن وبعض المطهرات، وراحت تطهر الجرح وتداوي الشفة الملتهبة، وظلت داليا تتحدث بعصية وهي تسعفها: «ماذا كان يريد؟ أظنه من البداية ليس سوى.. أشعر أنه مريض.. لديه المال.. يبعثر أمواله على كل شيء تافه». فقالت لها المدام: «داليا، لا بد من الذهاب للطبيب.. ولا بد من تحرير محضر في القسم».

وأقامت داليا عند المدام خمسة أيام؛ فاعتنت بها جيداً، واستردت عافيتها.. وفي مساء اليوم السادس سمعا طرقاً شديداً على الباب؛ فأدركتا مجيئه.. فدخلت داليا الغرفة بسرعة وخرجت المدام، وفور فتحها للباب اندفع بجنون لداخل الشقة يبحث عنها.. صرخت المدام بصوت عالٍ أرعده، وجعله يتوقف:

- اخرج بره يا حيوان.
- مش قبل ما أخذ المومس اللي عندك.. يا قوادة.
- أنا مهطلب البوليس.
- تمام.. عشان يقبض عليك.. أنتِ قوادة.. وأنا مش هسيب حقسي.. المومس اللي عندك كانت هتموتني.
- معنديش حد.. اخرج بره. ودفعته في صدره بقوة وصاحت:

- أنا أتصل بالسفارة حالاً.. أنت مجرم ولص.
- أنا مقفل هذه الشقة.. وأنتِ هتشفوني «نوّاف» بيسوي إيه.
ووقف مذهولاً عاجزاً، ثم نفخ في ضيق وانصرف.

كان يشاهدها، لكنه عجز تمامًا عن الوقوف واللحاق بها.. كانت الركلة قوية.. استرخى تمامًا فوق الأرض وشعر بأنه يحتضر.. تذكر والده؛ فانقبض قلبه.. حاول دفع هذه الذكرى بعيدًا. وكانت الغرفة تدور به، وكانت أطرافه ترتعش.. فقد الحديث والحركة، وشعر بالعجز التام. ولما شاهدها تقف أمامه، ارتجف وانكمش أكثر.. كانت ترفع رأسها للسماء وتتحرك بقوة.. تنظر له تارة.. وللسماء تارة أخرى.. ماذا تريد هذه الملعونة؟ الدماء تغطي وجهها.. هل أصبحنا أنا وهي أموات؟ ما هذا العالم المخيف؟ والغرفة يكتنفها هذا الظلام والسكون المطبق. ولما تحركت نحو باب الغرفة وفتحته، تدفق منه الهواء؛ فاستنشقه بصدر واسع، وشعر بالراحة شيئًا فشيئًا.. ولما سمع صوت غلق الباب، ارتحى تمامًا لمدة لا تقل عن ساعة. وبعدها قام ودخل الحمام، تفقد قضيبه بحرص وصاح: «يا بنت المومس». واتصل بمدمام «ناهد راشد» التي قهقت بصوت خرق طبلية أذنه.. لكنها في النهاية قالت له معاتبة: «عشان تبقى ترمرم.. المهم ضع حوله ثلجًا، ولا ترتدي أي سراويل ضيقة حتى يسترد قوته» وعادت تضحك من جديد.. واستدعى البواب، وركله بالشلوط وقال له: «كيف تركها تمشي يا حمار.. سرقني.. أنت غبي».

في «بار الكرة الذهبية» ظهر «نواف الرشيدى» مرة أخرى، كان واقفاً يحملق في الفتيات.. زكمت أنفه رائحة البيرة الشعبية الرديئة «ستيلا»، غير الضجيج الذي نتج عن الزحام.. ثم مرعان ما تقدم بسرعة ليجلس بجوار فتاة إفريقية تتحدث العربية بطلاقة، كانت تتجرع البيرة باستمتاع.. كان يبحث عن داليا، ربما يجدها؛ يعلم أنها تتردد على مثل هذه البارات.. بادر الفتاة الجالسة جواره قائلاً في هدوء:

- هي تشبهك.. بس طويلة حبتين.. آه لو أطولها، مش هسبها غير خالصة.. وليك الحلاوة.

- اسمها إيه؟

- داليا.

تأملت الاسم لبضع ثوانٍ، ثم قالت:

- لا أعرف واحدة بهذا الاسم. واستأنفت:

- هي لازم داليا؟

- لا طبعاً.

- خلاص أنا بعوضك عن ستين داليا.

- يا سلام.. أنت من وين؟

- السودان.

- آه.. يا سلام.. والدي دائماً يقول ناس السودان طيبين.. مخلصين.. خدامين.

- نعم. هكذا قالت وهي تمط شفيتها الغليظتين محتجة على لفظ «خدامين».

فاستدرك «نواف» بسرعة:

- تعرفي «عبدون النو»؟
 - مين فينا لا تعرف سيدي عبدون.. أيامه كانت كلها خير.
 - وين راح؟
 - بطل شغل.. هو يشتغل على خفيف.
 - كان يشتغل عندي سواق.
- أخذت الفتاة جرعة من زجاجة البيرة ونظرت له مندهشة، ثم قالت:

- معقول.. أنت تبقى مين؟
- أنا «نواف الرشيدى».
- من وين؟
- خليجي.
- واوا هكذا قالت في سعادة.. ثم اعتذلت وقالت له:
- أنت بتكلم مصري شوية، حتى طريقة ارتدائك للملابس مصرية.
- من عاشر القوم أربعين يوم.. أنا بقالي كام سنة.
- داليا سرتك؟
- لا.
- ليك عندها إيه؟
- متعة.

- أنا بمتعك.
- أنا ليا في المتع دروب مجهلها الأغبياء.
- أنا أصلاً محجوزة للخواجيات.. بس عشان أنت محترم أنا معك في أي درب.
- هل تعلمين معنى كلمة الدرب في اللغة العربية؟
- لا.
- تنحنع «نوّاف» وأخذ وضع الوقار في جلسته، وقال:
- اللّزْبُ: هو المدخل الضيق.. وأنا بعشق المداخل الضيقة.
- آه.. أكيد داليا من النساء اللاتي يشمزنّ من البصق. وواصلت:
- متعتك عندي.. تحب في بيتك ولا عندي؟
- تهد بضيق وقال:
- عندك. وغمغم: «الدكتور عبد الجواد حصّن العبارة.. الله يخرب بيته».



استعاد «نوّاف الرشيدي» قدرته على ممارسة الجنس، خاصة وأنه يمارس الجنس بطريقته الخاصة؛ حيث يأتي المرأة من دبرها، وهذا يستلزم قضييّا حديدياً يستطيع خرق المؤخرة بسهولة.. وصلاً إلى شقة في عمارات نيركو، تطل على غابة من أشجار الزيتون.. كانت الشقة لفتيات إفريقيات، استخلصت منهن غرفة، ودخلت به، ثم قالت له:

- اجلس هنا.. بحضر الشغل وأجي علطول.

وجاءت له الفتاة شبه عارية تحمل صينية فوقها زجاجة ويسكي
«بلاك ليبل» وكأسين.. تجمرع أول كأس ثم الثانية، ثم نحى الزجاجة
جانبا.. وبدأت له الفتاة باردة كلوح ثلج.. وقضى معها ليلة مملّة؛
حيث كانت سهلة جدًا، رغم أن ملامحها مشيرة، وجسدها ملتهب..
سمحت له بأن يأتيها من دبرها، بل هي التي طلبت ذلك.. وكانت
مؤخرتها من كثرة المران فيها واسعة.. وسهلة.. ليس بها أي متعة..
أفسدت عليه الليلة.. وبعد ما انتهى، قام ونهرها صائحًا: «أنتِ
واحدة باردة.. أنا مفيش بنت خلتنى بالحالة دي غيرك يا حلوفة» ثم
قذف في وجهها الورقات المالية، وخرج من الشقة يبحث عن داليا.

الجزء الثالث

«صباح الخير يا مستر جونز»

هكذا قالت سميرة، وهكذا أصبحت هذه التحية روتينية منذ أكثر من عشرة أعوام؛ منذ أن عملت عند السيد «روجر جونز» مدير المدرسة الأمريكية.

بداية أسبوع العمل دائماً ما تكون بداية ليست نشيطة، يفرها الكسل والاسترخاء، وعادةً يبدأ الجسد يتعباً تلقائياً في اليوم الثاني، لكن الأمر يختلف عند السيدة سميرة التي تجاوزت الخامسة والخمسين عاماً، وما زالت تعمل خادمة، وهذه مهنة شاقة تحتاج لجهد.. تمارس عملها بنشاط وعناية، كلما أثنت عليها ربة المنزل تشعر بالطمأنينة؛ إنها ما زالت تعمل ولديها القدرة على ذلك.. ما زالت تنفق على نفسها دون الحاجة لأحد.

أعدت السيدة سميرة نظاماً روتينياً في حياتها منذ أن عملت؛ فهي تخرج من البيت في السادسة والنصف صباحاً.. تأخذ دُشاً بارداً أو ساخناً - حسب الطقس - وتجلس تتناول الإفطار، ثم ترتشف فنجاناً من القهوة. وبعد ذلك ترتدي ملابسها الأنيقة الغالية؛ التأبير الكامل، والحذاء الكلاسيك اللامع، وتترك شعرها مرسلأً على كتفيها يفوح منه رائحة الصابون المستورد. يوحى وجهها المدور بأنها ما زالت في الثلاثينيات من عمرها.. العينان البهتان البراقتان تستظلان تحت حاجبين دقيقين تعكف على رسمها بمهارة، وأنف ملموم صغير، وفم دقيق ذو شفيتين صغيرتين محمرتين، دائماً تمتصهما ليكتنزا، لكن عند العنق تظهر التجاعيد الخفيفة. في سيرها تبدو شاردة.. تجدها تسير بتؤدة، هي تعتمد ذلك؛ حتى لا تفقد رائحتها النظيفة. تستقل المترو من محطة طُرة حتى محطة المعادي وثكنات المعادي، فهي

تقطع هذه الرحلة في الأسبوع أربع أو خمس مرات منذ أكثر من
لحمة عشر عامًا. وتعود في المساء في الساعة الخامسة، تبديل ملابسها
وترتدي العباءة الفضفاضة المشغولة بالخرز، وتتناول الغداء، وغالبًا ما
تناوله بمفردها، ثم تصنع فنجان القهوة المضبوط. وتنتقل للجلوس
في البلكونة الخلفية التي تطل على القناة الضخمة الجافة الممتدة إلى
النيل، وتناطح شرفتها شجرة التوت العتيقة، فترنو إلى زقزقة العصافير
حينًا، وتتصفح الجرائد بعناية حينًا آخر بعد أن تضع فوق عينيها
عويونات طيبة رقيقة. وبعد ذلك تصنع طعام الغد، وتضعه جاهزًا
في الثلاجة؛ فهي عادة قديمة منذ أن كانت حديثة العهد بالزواج، ولا
تنسى أن تُعيد ترتيب دولابها من جديد، هذه مسألة لا تملها أبدًا؛
ملابسها الغالية تُعد شيئًا عظيمًا في حياتها.. ثم تجلس أمام التريجة
وتراقب ملامح وجهها الأخذة في الذبول، كوردة في طريقها للنهاية..
تضع الكريم المرطب حول عنقها وأسفل عينيها، ثم تخلد إلى النوم..
هذا النظام لم يتغير طوال عشرين عامًا تقريبًا.

لكن في ليالي الشتاء الطويلة ثمة ذكريات تداهما؛ فتذكر زوجها
عندما كانت تندس في أحضانها وتستمتع بالدفء.. إنها سنوات
الحب، وتزفر بتهيدة عميقة تدل على حرمانها. وسرعان ما يداهما
ألم في ظهرها؛ ألم داهمها منذ وفاة زوجها، فتغمض شفيتها الذابتين،
وتغمض عينيها في تأثر، تمنى أن يأتي من يخلصها من هذا العذاب،
تعرف جيدًا أن الرياضة التي يجب أن تمارسها المرأة ليست في التمارين
التقليدية، ولكن التمارين التي ترحم المرأة من ألم الظهر هي تمارين
الحب؛ لذا يُثيرها دائمًا البيت الخالي الهادئ، فتحرر شيئًا فشيئًا تخلع
ملابسها كاملة، وتراقب جسدًا بعناية، وسرعان ما تشعر بحرارة
لذيذة تستحوذ على جسدًا كله؛ لذا تُطفئ هذه الحرارة التاجية

في عروقها بطريقة خاصة؛ حيث تقف أسفل الدُّش وتفتح المحبس بحرص، فيتدفق منه سرسوب أشبه بخيط رفيع.. يبدأ مجراه من رأسها مرورًا بالنهدين الكبيرين، ثم يسلك طريقه حيث منبع السعادة والشقاء.. وتهدأ المرأة، وتخرج من الحمام ووجهها مورَّد.

هكذا استطاعت أن تتغلب على هذه الشهوة لسنوات طويلة، ولكن بعد بلوغها الأربعين عامًا شعرت مرة واحدة أنها نسيبت هذه الحياة في ظل زحمة العمل والجهد الذي تبذله؛ فتجمد طموحها الجنسي تمامًا، حتى من العادات التي كانت تريحها.. ولكن لسنوات طويلة كان يأتيها محمد عبد المقصود في المنام؛ يداعبها أو يواسيها.. وأحيانًا كثيرة في السنوات الأولى التي أعقبت وفاته، كانت تقوم مفزوعة وتصرخ: «الأولاد!». تتذكر هذا المساء البعيد.. ليلة مظلمة؛ لا يتنفس فيها القمر، ولا تبدو النجوم في سماءها.. لكل واحد منا ليلة كئيبية في حياته، يرى فيها آيات الجمال تتحول لأشياء قبيحة.. في البلكونة الكبيرة جلس أمامها يحكي كعادته.. عرضت عليه أن تعمل، فقال لها: «السيانس الآداب لا يؤكّل عيشًا.. منها لله مدام أنجل؛ هي من أفتعتك بدراسة هذا التاريخ». وكانت سميرة تنفعل بطريقة درامية وتقول له: «لا تسبها.. إنها كانت مؤمنة جدًا بالتاريخ الفرعوني والإسلامي.. أرجوك توقف». عرضت عليه أن تعمل في خدمة الخواجهات، لكنه قابل العرض بالرفض التام.. وظل صامتًا ينظر في اللاشيء، ثم قال:

- أريد أن أطمئن.

ونظرت له وقالت مندهشة:

- محمد، ماذا حدث؟

- أريد أن أطمئن على تربية الأبناء؛ من حيث التعليم والرعاية..
سميرة، سيكون الحمل ثقيلاً، ولكنني أثق بقدرتك. وجلس
يرتشف القهوة.

كانت هذه هي الليلة الأخيرة؛ أراد أن يطمئن قبل الرحيل.
استيقظت على أذان الفجر، فوجدته مطروحاً على الأرض؛ وكأنه كان
نائماً على الكنبه وأثناء النوم سقط من أعلاها، ولما حاولت أن تُوقظه
أدركت أنه مات.

بعد الوفاة جاء الأقارب، وقال لها أشقاؤه:

- نحن نريد الأبناء.

فصاحت بعنف:

- أي أبناء؟!

- الولدان.

«آه يا ملاعين تريدون الأرض» هكذا قالت في نفسها.

ترك لهم محمد عبد المقصود ثلاثة أفدنة، تصارع أشقاؤه على أخذ
الولدين ليضعوا أيديهم على الأرض. هكذا فطنت سميرة لموقفهم؛
الذي ظاهره مودة وباطنه نعمة. وباعت الأرض واشترت هذه الشقة
لتضمن لهم المأوى، بعد أن كانوا يقيمون فيها بالإيجار.. عانت
سميرة منهم جداً، وكذلك من أقاربها وأشقائها.. قاتلت بضراوة
لتربي الأبناء.. إنه أوصاها ألا تغفل عن تربيتهم.. وعاشت في شبه
عزلة عن أقاربها.

كانت «عزبة البوليس» مكوّنة من عدة منازل، لا يتجاوز عددها
العشرة، في بقعة كبيرة جداً بمحاذاة قطار البضائع، يفصل بينها وبين

«ليمان طرة» قناة ضخمة ممتدة إلى النيل.. المنازل في هذه البقعة الهادئة ليست ملتصقة؛ بين كل منزل وآخر عدة أمتار، فضلاً عن فناء واسع تظله أشجار الكافور العتيقة.. لكن المنازل رغم كونها في بقعة هادئة إلى حد ما، فإنها مصبوغة بمسحة شعبية رديئة.

ومنذ وفاة محمد عبد المقصود وهي تعمل.. وبفضل إتقانها اللغة الإنجليزية، وبعض الصداقات القديمة مع حارسي الفيلات والسائقين النوبيين، استطاعت أن توفر لنفسها أكثر من فرصة عمل عند شخصيات مهمة من الأجانب.. في أول عهدهما بالعمل، كان الأبناء لا يزالون صغاراً في حاجة للرعاية؛ لذا كانت تعد لهم الإفطار، ثم تفصل خرطوم الأنبوبة، وتذهب وتوصي جاريتها السودانية أم ياسين أن تأخذ بالها منهم (الأمر الذي كان يرتعد منه سعيد وهو طفل؛ فيشاهد أم ياسين بضخامتها وبشرتها السوداء عفريتاً! لذا كان يُلقى الألعاب من يده، ويهرع بسرعة ليختبئ أسفل السرير خوفاً منها، ويظل يلهث من فرط الخوف). وتعود السيدة سميرة لهم عند الغروب، محملة بالألعاب والحلوى، التي عادةً ما تجلبها من عند الأجانب التي تعمل عندهم، غير أنها لا تنسى أن تقص عليهم تعاليم مدام «أنجل» باستمرار؛ تجمعهم حولها وتقول لهم: «كان والدي يأخذني كل عطلة أسبوعية عند المدام، كان زوجها مستر «ليدجر» أستاذاً للعلم الاجتماع في جامعة القاهرة.. وكان بيتها جميلاً جداً؛ منزل صغير وسط حديقة معشوشبة تكتنفها الأشجار والنباتات الرائعة.. كنا نجلس في الحديقة، وتقوم بتعليمنا أشياء كثيرة». وسرعان ما تتوقف وتحمل هي بدلاً من مدام «أنجل»؛ فتوجه الأسئلة لأبنائها قائلة: «هيا فكروا معي، ماذا لو هاجم اللصوص البيت في غيابي.. هيا؟».

فتقول داليا بسرعة:

أهرب.

خطأ. هل هناك إجابات أخرى؟

أصرخ. هكذا يقول سعيد.

خطأ. هل هناك إجابات أخرى؟

أحاول الاتصال بالبوليس. تقولها مديحة في ثقة.

أعتقد أن اللصوص أذكى من أن يتركوا لأحد فرصة رائعة هكذا.

هل هناك إجابات أخرى؟

ماذا نفعل؟ هكذا يقول أشرف في هدوء.

عظيم.. تحاولوا التعامل مع هذه اللحظة بهدوء، أعلم أنكم أمام رجال غرباء جاءوا متسللين إلى البيت ليسرقوه، ولكن لا بد أن يكون التصرف عقلانيًا؛ إنهم لن يترددوا في أذيتكم.. لذلك الأمر الأول: عدم الخوف. ثانيًا: الاختباء في مكان لا يصلون إليه، مثل البلكونة أو أسفل الأسيجة؛ لأن أغلب اللصوص هدفها المال، وليس الأطفال. أما إذا وقع أحد في أيديهم، فلا يخاف أبدًا؛ لأن الخوف عامل جبار في نفوس اللصوص.. هولص، وأنت خائف. لكن الحقيقة أنه أكثر خوفًا منك، فإذا ما تضاعف خوفه ستكون النتيجة كارثية؛ لذلك ينبغي الهدوء، وليس ذلك فقط.. تحدثوا معهم، وتعاملوا ببرود كأنهم أصدقاءكم! لا تستفزوهم، ادعوهم لتناول الطعام.. كل هذه الأفعال ستحد من تهورهم.. على الأقل سيتركونكم وهم مندهشون، سيظنون أنكم مختلفون. أعلم أن هذه الخطوات صعبة جدًا، ولكن لا بد من إتقانها جيدًا. على الأقل

إنه تستطيعوا فعل ذلك، تظاهروا بالنوم، ولا تعارضوهم أبدًا.
وامتنعت أن تعلمهم جيدًا، وقد كرمتها مدرسة الشريعة
الابتدائية، وأعطتها لقب الأم المثالية. لكن أمر لحظة مرت بها السيدة
سميرة هي تلك التي تداول فيها العاملون في الحي من سائقين
ويوابين قصة وفاة زوجها، وكانوا يقصون هذه القصة ببراعة؛ حيث
يأنفون في شقاتها ليحلبوا لها المساعدات، فضلاً عن اختراع قصص
أخرى عن عدائها الشديد لأقاربها.. لذلك جاءت لها المسئلة عن
دار الأيتام في الحي مدام سامية - وهي امرأة أرسقراطية من سكان
الحي القدامى - وقالت لها:

- سميرة، الجمعية تستطيع أن تساعدك في تربية أبنائك. وقبل أن
تسأنف حديثها، قالت سميرة في حدة:

- شكرًا على اهتمامك يا مدام. هكذا قالت وقد احتقن وجهها
ولمعت عيناها بشدة، وأضافت: أنا مش ممكن أفرط في أولادي؛
تقبلينها أنت؟ وتركتها بسرعة قبل أن يتطور الأمر.

بكت بمرارة، وقاطعت الكثيرين من أصدقائها الذين استثمروا
فستها هذا الاستثمار الرخيص من وجهة نظرها، وشعرت أنها لا بد
أن تتقم منهم. وقالت في نفسها: «كيف يظنونني؟ شحاتة مثلهم،
أستطيع أن أتخلى عن أبنائي لضغط النفقات؟». وحدثهم بحدة: «لا
أستطيع التخلي عن أبنائي.. كيف فكرتم في ذلك؟».

هذه الواقعة فرضت عليها نمطًا جديدًا في التعامل مع هؤلاء؛
فلم تعد تجلس تناول الشاي معهم، ولا تحدثهم، ولا تتوسط لهم
عند الحاجات.. أصدرت فرماتًا بأنه لا مساعدات، ولا خدمات؛
إن التواضع مع هؤلاء لا يصلح.. فالسيدة سميرة لا ترى نفسها من

نفس الطبقة؛ هم جهلة، وهي متعلمة، هم أشخاص قدرون، وهي نظيفة.. وثمة فوارق كثيرة بين أبنائها وأبنائهم، الذين أحياناً تصحبهم معها، فلا تستطيع أن تفرّق بينهم وبين أولاد الذوات. واستغلت ثقافتها ومعاشرتها للأجانب في جعل الخدم من بوابين وسائقين يخضعون لرغباتها وتسلطها؛ يعني ظلت لفترة طويلة تدير المنازل من على رأس المائدة. وللأسف صدّرت صورة سيئة عن المصريين، انعكست على معاملة بعض الأسر لهم؛ كل ذلك عقاباً لظنهم أنها مثلهم. ونشأ أبنائها في كنف الخواجهات، واستطاعت أن تهتم بأهم جانب في تربية أبنائها؛ وهو القراءة.. جلبت لهم قصص «مارك توين» و«تشارلز ديكنز»، فضلاً عن الألعاب.. إضافةً إلى حرصها الشديد على دروس يوم الجمعة؛ ليست الدروس الدينية فحسب، لكنها كانت تخصّ الابتين بدرس «غشاء البكارة»؛ فتأتي لهما بورقتين يضاوین، ثم تثقبهما من النصف وتأمّرهما بكتابة أي موضوع يخطر في بالهما، ولما تندججا في الكتابة ويصل الخبر عند الثقب، يتعكر مزاجهما وتتوقفا عن الكتابة، ثم تقول لهما: «هذه هي حياة الفتيات؛ هنا. لو أن الورقة سليمة ستمتلئ، أما إذا كانت مثقوبة فإنها لن تمتلئ، أو بالأحرى لن يُكتب فيها أصلاً؛ لأن مصيرها الحقيقي هو سلة القمامة».

ولما كانت السيدة سميرة تمرّ بلحظات سعيدة مثل تفوق أبنائها في الدراسة، كانت تتصرف مع الخادّات والسائقين بتواضع؛ فتشعر للحظات أن الله يكافئها بتفوق أبنائها.. لذلك قررت أخيراً أن تفك الحصار شيئاً فشيئاً، وبدأت المساعدة تتدفق على البوابين والسائقين بعد أن كانت محجوزة بكلمة منها. ولما وصل الأبناء لمرحلة الأمان من وجهة نظرهما؛ وهي الثانوية العامة، بدأت تجلس مع النساء. ولما كنّ يُحضرن لها مقعداً لتجلس عليه، كانت تمنع في البداية وتفرط في

الحديث عن التواضع، فهي تجد متعة في الحديث بمعهن؛ متعة تعكسها
رغبة في إبراز الفارق الكبير بينها وبينهن.. لذلك كانت تستعرض
عليهن ثقافتها، وتجلس ويجلسن من حولها في دائرة.. وبعد حديث
طويل معهن عن الحياة والدنيا، تركهن وتذهب. ولكن كل ذلك
لم يصبغ الواقع باللون الوردى؛ فهي خادمة.. مهما فعلت خادمة..
تعلمت ثقافت.. خادمة؛ مهمتها أن تنظف المنازل. وكبر الأبناء، وشيئاً
فشيئاً تنازلت عن غرورها، وجلست على الأرض مع النسوة يتحدثن
بحرية أكثر، وظلت تعمل بطريقة آلية. ومرت السنوات وهي صلبة
تعمل بقوة من أجل أبنائها.. والتحق الأبناء بالجامعة، وتخرج أشرف
- الابن الأكبر - في كلية التجارة، وظل يحلم بالوظيفة.. وكان أشرف
يختلف كثيراً عن أشقائه، حتى في ملامح وجهه؛ فهو يشبه أعمامه
من حيث الطول والعرض والشعر الأسود المجعد، فضلاً عن ملامح
تميل في قسامتها إلى الصرامة؛ الجبهة العريضة المجعدة بخيوط عرضية..
لمعة عينيه التي تفتقد الضحك.. تدخينه بشراة.. وتوتره الدائم..
كل ذلك جعله يختلف تماماً عن أشقائه، فضلاً عن قربته من أعمامه
وزيارته المتكررة لهم. وذات مساء جاء ودخل غرفته، واستغرق فيها
ساعة كاملة.. خرج منها مرتين قطع فيها الردهة في خطى سريعة
إلى الحمام، ثم عاد.. كان الأشقاء متواجدين ومعهم الأم.. بعد ذلك
خرج عليهم وفي يده حقيبة كبيرة، وقال:

- أراكم على خير.

التفتت له السيدة سميرة وقالت:

- إلى أين؟

- الكويت.. جميع أوراقى استوفيت أمس، وميعاد الطائرة بعد ساعتين.. مع السلامة.

- أنت وشأنك.. أنت تفكر مثل أعمامك. وأشاحت بوجهها عنه.

ونظر إليها نظرة طويلة كأنها يريد أن يقول شيئاً ولا يستطيع، وهز رأسه في لامبالاة، ونظر لأشقائه نظرة شاملة؛ فهي لا نظرة عطف ولا نظرة قسوة، كأنه يرى أمامه غرباء.. بينما لم يعبا أشقاؤه الثلاثة بقراره، ولا بسفره المفاجئ. وكانت داليا ترى فيه صورة طبق الأصل من أعمامها؛ إنهم يسافرون للخليج ويعملون هناك.. وهكذا سافر أشرف بلا وداع، ولا كلام؛ كأنه سيبتاع علبة سجائر ويعود.. ولم يتحدثوا في أمره كثيراً.. «إنه تعلّم ويعرف ماذا يريد» هكذا قالت سميرة وقد شعرت بالحزن لبعض الوقت. ومضى عام، وأرسل لهم برفقة يقول فيها إنه تزوج من فتاة من تايلاند تعمل طيبة بشرية، وإنهما سيرحلان لبلد آخر.. إنه لا يريد أن يطمئنهم عليه.. إنه لا يعبا بذلك أبداً.. ولكن أراد أن يقول لهم إنه يعيش على الأرض، وإنه نجح، وسينجح. وقالت سميرة بحكمة: «هه.. تزوج من عرضة أسيوية، وربما خادمة. لكنه سيظل هكذا متعالياً عن أي واقع يمر به؛ إنه مختلف عنكم تماماً». وتحيات السيدة سميرة بعد ذلك بقلب أم يحنو أحياناً ويقسو أحياناً أخرى، لأن تتلقى الطعنات بصدر مفتوح.. هذه هي النتيجة الطبيعية لطريقة تربيتها لأبنائها؛ ألم تفرض عليهم تعليمات ما زالت ترن في آذانهم كأنها صيحات قائد في كتيبة: «كل واحد مسئول عن نفسه، لن يساعدكم أحد». براءة استطاعت أن تجعل منهم أنانيين، اختارت أن تربيهم على هذا النمط لتضمن سلامتهم من الأقارب.. كم عانت منهم، ومن تسلطهم؛ لينشأوا هكذا

غرباء، أفضل بكثير من أن ينشأوا في كنف الأسرة والترابط المفسوش
المش.. لكل واحد منهم عائلته، ومصيره المرهون بتدبيره وذكائه.

تحت وطأة راحتها القويتين تنن في لذة، وتشعر أنها تقوم بفك
عظامها، ثم تقوم بتشحيمها وتزييتها بزيت الكافور، ثم تعيد تركيبها
مرة ثانية.. «آه.. كم أنت رائعة يا أم ياسين!».. أصابعها القوية
تفوص في لحمها، وتتخلل عضلاتها، وتسمع طقطقة العضلات
فتطربها.. في كل مرة تعيدها شابة في العشرينيات؛ شابة قادرة على صد
هواء الخريف بقلبها الدافئ.. قادرة على تسلُّق جبال الثلج عارية..
قادرة على الصراخ كطفلة متمردة.
كفاية يا أم ياسين.

على أن أم ياسين لا تتوقف أثناء عملها عن الضحك، وثنائها
المواصل عن جمال جسدها وبكارتته. ولما يكون مزاج سميرة غير
رائق، على الفور توقفها بكلمة واحدة: «هجيلك سعيد».

وهنا يجتقن وجه المرأة، وتستأنف عملها صامتة. ولما تنتهي من
عملها، يتورد وجه سميرة، وتشعر براحة نفسية كبيرة.. ثم تلتقط
شنطتها، وتدس في يد أم ياسين ورقات نقدية. تمنع المرأة بكلمات
اعتادت أن تقولها بعد أن تحول زبائنها لأصدقاء، ثم سرعان ما
تلتقطها وتدسها في شنطة يدها.. وتختتم سميرة:

- متزعليش.. سعيد ابنك.. وتشعر سميرة بألم في قلبها؛ الوحيد
الذي أخفقت في تعليمه وعلاجه هو سعيد.

وأثبت الأبناء أنهم تشربوا هذه التعاليم؛ فمديحة - وهي أصغر الأبناء - عندما كانت تقرضها مبلغاً من المال، تقول لها: «ماما، أنا عندي التزامات؛ لا تتخلفي عن السداد في الميعاد الذي اتفقنا عليه». ومديحة لا تقل في جمالها عن داليا، بخلاف شيئين فقط؛ الأول شعرها المجمع. فرغم أنها اقتنت أجود وأفخر أنواع الزيوت المستوردة والمحلية، فإنه يبدو كما سلك المواعين». وعندما كانت تشاجر مع داليا، كانت توجه كل طاقتها وقوتها لشد شعرها ومحاولة جذره.. وكانت لا ترتاح إلا وفي يدها شعيرات منه.. هكذا كانت تتقم منها؛ فتشعر بالراحة. والحقيقة أنها جميلة جداً؛ بشرتها برونزية، لا تضع المساحيق بكثافة؛ تكفي فقط بشد خطين من الكحل عند أطراف عينيها، فضلاً عن اقتنائها أفخر الإشارات لتغطي شعرها، رغم أن شعرها المجمع متناسق تماماً مع ملامح وجهها؛ ولكنها ترى غير ذلك. فلو بدلنا شعرها لبدت داليا قبيحة، ولبدت مديحة كذلك أيضاً.. فكل واحدة منهما تمتاز بجمال خاص. أما الشيء الثاني فيمكن في قصر قامتها؛ فربما لا يتجاوز طولها ١٥٠ سم.. فضلاً عن أنها مدملكة، وليست دملكة ناعمة، ولكن أردافها وذراعيها مكتنيزتان بالعضلات. لذلك فإنها تشعر بالغيرة من داليا التي منذ الصغر وهي تمجذب الأنظار، وتمحو وجودها تماماً.. وكانت دائماً تقصر على سميرة وهي في المرحلة الابتدائية ما تراه من مغازلة المارة لداليا وتجاهلها هي، فتقول: «ماما، الناس ينظرون لداليا ويغمزون لها» ثم تقوم بأداء الطريقة. وكانت سميرة تسمع وترى ذلك؛ فتسقط على الأرض من فرط الضحك. أما مديحة فكانت تشعر بالغيظ، وتستأنف في نرفزة: «لماذا لا يفعلون معي مثل ذلك؟».

وفي النهاية، لجأت لنقد داليا عن طريق الدين؛ فقالت لها ذات

مرة: أنا براهي ربنا.. أنت مسمعتيش إمام المسجد قال إيه في الخطبة
اللي فانت عن الفتاة غير المحجبة.. قال إنها شيطانة.

ولكن مهيا بلغ نقدها من حدة، فإنها سرعان ما تشعر بالعجز؛
فتنحى جانباً، وتجلس تفكر في هذا الشعر الذي أرقها مادياً ونفسياً.
وذات مساء، عادت إلى البيت فوجدت أم ياسين جالسة مع أمها،
فقالت لها وهي تنزع الطرحة من على رأسها وتلقي بها على المقعد:
- أف.. يا إلهي، ألا توجد طريقة تجعل من هذا الشعر شعر بني
آدمين؟

فضحكت أم ياسين وقالت لها:

- أنت تعيشين بين الخواجات.. أنا لا أفهم كيف لا تستعيرين منهن
قصات وتسريحات.

- ماذا تقصدين بالضبط؟

- أعلم أن شعرك جذوره ناشفة.. ملوش غير حل واحد.

- وما هو؟ هكذا سألت مديحة في اهتمام.

- زيرو.

- نعم؟

- القصة تكون زيرو يا مديحة.. ويا سلام لو تركت جانباً وأزلت
الأخر.. في الحال الحي كله هيتحدث عنك.. صدقيني، جمالك
ليس في الشعر.. جري، ولن تخصري شيئاً. لو فسلت لا قدر الله،
أنت كده كده بتضعي فوق رأسك الحجاب.

اتسمت عينا مديحة في تأمل واضح وعميق للفكرة، واتخذت
ملامح وجهها شيئاً من الجهد، وقالت في حماس:

- تعجبنى فكرة القصر.. والله ما هو قاعد على راسي من بعد النهاردة.

وقالت لها أم ياسين بعد أن وجدتھا جادة:

- لا بدّ من بعض الإكسوارات؛ قرط في الأنف، وواحد في الأذن يكون طويلاً.

غرقت مديحة في التركيز، وبدأ عليها الاهتمام، ولمعت عيناها بالسعادة. وفي ذات الليلة أخذت هذا القرار المصيري، وبقلب قوي يحمل مرارة الأعوام الخالية استطاعت أن تمسك بالماكينة الكهربائية، وبضربة واحدة أطاحت بجانب.. في المرأة شعرت لأول مرة بأنها تخطو خطوة غريبة لم تُكرّس لها الوقت الكافي للدراسة. لكن ظهور وجهها مشرقاً بهذا الشكل، دفعها لتستكمل عملية الخلاص من هذه الغابة الكثيفة من الشعر الرديء. وبعد أن أزالّت جانباً، شعرت أن ذلك أكثر إثارة. ثم استدعت أم ياسين؛ مما جعل سعيد يتفرض ويذهب إلى غرفته وهو متذمر. وجلست المرأة تقص الأطراف بمهارة. وجذبت مديحة يثاراً، وتأمّلت رأسها في ذهول؛ تغيرت للأفضل بكثير، بدت جميلة، أشبه بالمطربات الأمريكيات، كيف غابت عنها هذه الفكرة؟ فلتجياً أم ياسين المرأة ذات العقلية الجبارة. وقفزت في الهواء في سعادة كبيرة، وأطلقت ضحكة عالية نابغة من أعماق قلبها، وهزت رأسها في سعادة، وخرجت للأشقاء وقالت لهم في سعادة طفلة:

- ما رأيكم؟

اندهشت داليا وقالت لها:

- رائع ومثير. وظلت تتأملها وهي تحييها على جراتها.

بينما قال لها سعيد:

- الآن أنا فخور بك.. وجهك ازداد بريقًا.

أما سميرة فقالت:

- ابحشي عن زوج شاذ يقبل الزواج منك. ثم حدجتها بنظرة ذات معنى.

على الرغم من أن سميرة تعتمد ألا تتدخل في قراراتهم، فإنها تضطر أحيانًا لتيههم لطبيعة المجتمع الذي يعيشون فيه.

واستكرت مديحة قولها بإيحاء من رأسها، ولكنه وقع في نفسها وقعًا مؤلمًا. شردت للحظات تفكر، وهمست في نفسها بجزع: «زوج؟ أي زوج تقصده؟ إن الزوج الذي أريده ليس موجودًا في هذا المجتمع القذر».

- لماذا لا تستطيع السيدة سميرة استدعاء أم ياسين إلى البيت في وجود سعيد؟

الإجابة: لأنها سودانية.

- وما معنى ذلك؟

- إنها سوداء، أو تميل بشرتها إلى السمرة مثل أهل أسوان.

- وهل هذا يزعجه؟

- بالتأكيد.

كان سعيد في ملامحه أقرب إلى أمه، إلا أن وجهه طويل أملس؛ الأمر الذي كانت داليا ومديحة تحمدانه عليه. يفرق شعره الناعم من النصف؛ فيبدو رائعًا منسدلاً على الجانبين. عنقه طويل، وله منكبان نحيفان؛ لكن في الملابس تبدو الكتفين ممتلئين قويتين. يمتاز بالطول والنحافة غير الملحوظين؛ فهو في تفصيلة جسده من حيث الطول

والرشاقة يبدو كداليا. بشرته بيضاء مائلة للحمرة، دائماً وجتاه
وشفتاه محمرتان كأنه يصبغهما.

منذ أن كان طفلاً وهو يكره، بل يمقت، الإنسان الأسود. عندما
شاهد أم ياسين، تلقائياً وصفها بالقردة. ضربته سميرة ونهرته،
وقالت له: «أنت حيوان». وعلى الرغم من العقوبة القاسية التي
طبقتها عليه، فإنه لم يتراجع عن موقفه. كانت تخيفه ملامحها وهو
طفل؛ إنها سوداء، والتراث الأطفالي يقول إن العفاريت لونها أسود
قيح. ظل بينه وبين نفسه يكرهها ويحتقرها، ولا يستطيع أن ينظر في
وجهها أبداً. وقاتل بضاوة ابنها ياسين، وعمل على تخريض الصبية
عليه. وكان يُلاقي من الجيران ما يؤكد له أنه على الحق المبين؛ فطالما
وصفوا أم ياسين بالمرأة السوداء، وطالما وصفوا ابنها بالقرد الصغير..
عبارات كثيرة كان يسمعها فيطمئن. ولما فشلت الأم في علاجه، قالت
له: «أنت لا تفهم». ويرد عليها بقوة لا تعرف مصدرها بالتحديد:
«أنا أفهم كل شيء.. هل تقبلين أن تكوني مثلها؟ إنها أشبه بالفوريلا
التي شاهدتها في الحديقة». وللأمانة كانت سميرة تصرخ في وجهه
قائلة: «أخرس يا حيوان يا قرد.. أنت مريض.. فاهم.. مريض».

وكلما تقدم في السن، ازداد مقته لأصحاب البشرة السوداء، ظل
كرهه موصولاً بفصول من القذارة التي كان يمارسها ضدهم؛ مثلاً
تجده يسخر منهم بتأديته حركات القرد أمامهم، ثم يشير لهم أنه يقوم
بتقليدهم، ويقول بتهكم: «افعلها؛ هذه طبيعتك.. بدلاً من الذهاب إلى
الحديقة، سادفع لك.. أنت قرد، لماذا تقلد النبي آدمين؟ افعلها إذن».

إلى هذا الحد كان سعيد بشعاً، تقيّم الجمال عنده مرهون بلون
البشرة.. ليس الجمال فحسب، بل الأدمية أيضاً.. لو أن الفتاة شقراء،

فإنها تستحوذ على قلبه من أول نظرة، بل يجد نفسه مفرماً بها، بل خاضعاً لها. أما لو كانت سمراء، فإنه لا يجد حرجاً من أن يصق في وجهها.. لن يتأخر سعيد عن خوض معركة دامية لو شاهد فتاة شقراء بصحبة فتى أسود.. حتى لو لم يستطع التغلب عليه، فإنه يشعر بأن ضميره ارتاح ولم يعد يؤنبه؛ لأنه سجل اعتراضاً صريحاً أمام العامة، اعتراضاً سيرغم هذه الفتاة الغائبة عن وعيها على تقييم الأمر من جديد.. هكذا يؤمن سعيد بهذا الدور. وإذا علم بأن صديقاً له سيتقدم لخطبة فتاة، أول سؤال يطرحه عليه هو: «ما لون بشرتها؟» فلو قال له: «سوداء»، فإنه يبذل مجهوداً كبيراً لإقناعه بتركها. ذلك غير متابعته لمباريات كرة القدم بين المنتخب الوطني والمنتخبات الإفريقية، رغم أنه لا يهوى ذلك؛ ولكنه يشعر بلذة أقرب إلى الرعشة الجنسية لو الفريق الوطني تغلب على نظيره الإفريقي، فضلاً عن استمتاعه بسماع التعليقات العنصرية؛ فعلى الفور ينظر لقاتلها بإعجاب. هكذا يمارس سعيد استمتاعه بالسخرية من هؤلاء.

تعلق بالحى الإنجليزى منذ أن كان فى الثالثة عشرة من عمره.. فذات مرة ذهب ناحية ملاعب الرياضة الخاصة بالمدرسة الأمريكية، تسبق السور العالى وشاهد الأطفال يركضون وراء الكرة. ولم يتمالك نفسه؛ فقفز داخل الملاعب، وعرض عليهم بإنجليزية ركيكة خدماته كحارس للمرمى. وقبلوا عرضه، ووقف حارساً للمرمى، وأدى مباراة رائعة. ولكن أثناء الخروج، شعر بالخطأ الذى ارتكبه؛ حيث شاهد رجال الأمن.. وحاول أن يعود من حيث أتى، لكنه فشل، وتم القبض عليه بواسطة رَجُلِي أمن، وأشبعاه ضرباً لا يلىق بطفل. وتوسل إليهما أن يتركاه يذهب على ألا يفعلها مرة أخرى، ولما بشر لهما على عم متولى. وكان متولى حارس العقار القديم الذى يقطنه

السيد «روجر جونز» مدير المدرسة الأمريكية، والذي تعمل أمه في خدمته. وجاء عم متولي يهرول، وصاح يعنفهما على فعلتهما قائلاً: «إنه يتيم.. سأتصل بوالدته». وجاءت السيدة سميرة تلهث من فرط القلق. ولما شاهدته يبكي متألماً ومن حوله رَجُلِي الأمن يقفان في بلادة ويعلنان عن فعلتهما بقسوة، تلقائياً التقطت هراوة عبارة عن عصا بيسبول قديمة، ولم يستطع أحد السيطرة عليها؛ حيث حطمت أثاث الغرفة تماماً وهي تصرخ: «يا أولاد الكلب يا مجرمين».. فأصابت الاثنيين بكدمات قوية في أنحاء الجسم.

وذهبوا جميعهم إلى قسم الشرطة، وبدا موقفها ضعيفاً، وظلت في حيرة، ونظر لها الرجلان نظرة خبيثة، ثم قال واحد منهما: «الن نتنازل عن حقنا».

- ضربا ابني يا سعادة البيك.

- ابنك حرامي.. دا اعتداء على رجال الأمن يا ست إنتِ.

- لا يا سعادة البيك، ابني أراد اللعب.

- ينط من فوق السور زي الحرامية!

- يا سعادة البيك.

- مفيش كلام، اسكتي.

لم ينقذها سوى السيد «روجر جونز»؛ حيث جاء بواسطة البواب، وقال للضابط:

- كل شيء ينتهي فوراً؛ هذه الملاعب مسئولة مني. وأذعن الضابط لأوامره، وأغلق المحضر.

ونظر لرجلي الأمن، وقال لهما في عنف:

- أنتما لا تعقلان أبدًا.. هذا طفل؛ كيف تضربانه بهذه القسوة؟
حتى لو هناك لص تسلق السور، يجب التحفظ عليه وسزاه.
لكنكما تصرفتما كما لو أنكما حيوانات.

وقال سعيد:

- تستطيع الذهاب إلى الملاعب في أي وقت. واستطرد مبتسمًا:

- هل لديك زي لاعب كرة؟

فهز رأسه نافيًا؛ فقال له:

- اذهب غدًا لمستول الملاعب مستر «بن مور»، وهو سيفعل كل شيء.
ومن هنا، ارتبط سعيد بالحى الإنجليزي ارتباطًا وثيقًا.

«أنا إيمان عابد»

أو إيمان خلف عابد، والدي خلف أو عم خلف كما يطلقون عليه في هذه البقعة القذرة. لا أحب أن أتحدث عن أحد؛ يكفيني فقط أن أتحدث عن نفسي. يقولون إن فتيات المنصورة جميلات.. نعم جميلات رائعات.. ودائمًا ما أرى في أعينهم نظرة خيثة، أدركتها فيما بعد: «آه يا ملاعين»، وأنا أقول لهم: أن المنصورة كانت سوداء، وجاء الاحتلال فأصبحت أكثر سوادًا، ورحل الاحتلال فأشرقت الشمس عليها، فصبغت فتياتها باللون الذهبي اللامع. من يقول إن الجنود قاموا باغتصاب النساء، عذرًا فهو «حمار» لم يقرأ التاريخ. ولما قرأتُ التاريخ، شعرت بشيء أثلج صدري، وجعلني أنام وأغوص في أعماق الوسادة بقلب دافئ مشبع بالسعادة. الآن وبعد هذه السنوات الطوال من القهر والظلم، أستطيع أن أفسر نظرة الحقد في أعينكم

أيها الخبثاء الجهلاء، فساؤكم تشبهكم؛ ولذلك اخترعتم ووثقتم هذه الأكاذيب.. ألا إن لعنة الله على الجاهلين.

«أنا إيمان عابد»

في المدرسة كانوا يأتون بي في المقدمة؛ أقف على رأس الطابور الصباحي، في الفصل أجلس على أول ديسك، دائمًا ما كانوا يصدرونني كواجهة لهم. ألقى نشيد الصباح، أو نشرة الأخبار المملة، أو أنشد أبياتًا من الشعر، وهذا ما كان يسعدني «الشعر». النميمة شيء رائع للجانبين. طالبا شعرت بأنني الضحية؛ شعور كان يملؤني بالسعادة، وأعلم أنهم كنّ يشعرون بالسعادة في الحديث عني. فأننا أختلف كثيرًا عنهن؛ وردة بيضاء وسط عشب أسود، طبيعي أن أكون محلًا للنميمة.. ولكن دعونا من النميمة.

«أنا إيمان عابد»

قررت أن أفصح عائلتي، أو بالأحرى أبرز العوار الذي أحدث فيها شرخًا عميقًا بين جيلين. نحن نموذج لمجتمع كبير تترامى أطرافه في بقاع المحروسة، ونحن أبناؤها. ولكن من من هي محروسة؟ هذا سؤال من الأسئلة السخيفة التي ألحت على عقلي الفارغ.. آه علمت؛ هي محروسة من الأبالسة! ولكن هل هذا يعني أنها خالية من الأبالسة؟! إذن هذا العوار أو الشرخ الضارب في أعماقها من أحدثه؟ دعونا من المحروسة. للأسف أنتمي ليثة قنرة؛ سواء بيثيًا أو ثقافيًا. يأتي الأقارب، ومنذ الصغر أجدهم يتحدثون عني، ويقولون: «إيمان عجوزة». وتضحك أمي. وأدركت فيما بعد أنهم يتحدثون عن الزواج، ومنذ الصغر وأنا أعرف معنى الزواج ودهاليزه. يذهبون بي للأفراح ويتصدع رأسي، ولكن لا بد أن أذهب،

حتى ضاعت الطفولة ولم أستمتع بها؛ حيث تزاممت بأفكار غريبة
وتصورات جلبت لي الكوابيس. وأحياناً أنظر لأمي الجالسة أمام
المرآة تتزين لأبي، وأقول في نفسي: «لن أكون صورة منها.. لن
أجلس أنتظر من يأتي ليستمع على حسابي». أقول لكم سرّاً؟ نحن
لا نعرف أي شيء عن الجنس.. نحن حوّلنا الجنس من متعة كبيرة
لواجب نؤديه بطريقة آلية مملّة.. وهذا ما تعلمته من القراءة في هذا
المجال؛ سرّاً طبعاً. ولا بدّ أن أتعلّم؛ خلق الله عقلاً لي لأتعلّم، وإلا ما
الفرق بيننا وبين المخلوقات الأخرى؟ أليس كذلك؟ هكذا كانت
أمي تمارس حياة تقليدية تعيشها سائر النساء في بلادنا. وأبي استمر
على هذا الإيقاع المنتظم؛ يعود ليجد كل شيء مهيباً له، الجميع لا بدّ
أن يدعن له. هذه هي الحالة التي كانت تجري عليها الأمور في بيتنا.
لا أنسى موجات التحرش التي مررت بها؛ سواء من فراش المدرسة
القدر الذي اغتصبني، أو من المارة. وكنت حيثيذ في الصف الخامس
الابتدائي. لا تستغربوا، ولا تندهشوا. هذا الفراش مريض. حتى هذه
اللحظة ما زالت رائحته تزكم أنفي، ما زال يسكتني هذا الشعور
القاسي حين ضمنني بقوة بذراعيه؛ فشعرت بأنني أموت.. غابة من
الشعر الأسود كانت تغطي وجهي الغائص في صدره العريض.. ولما
زججرت، نفضني من يده بقسوة. ونال عقابه؛ تم نقله لمدرسة أخرى!

«أنا إيمان عابد»

لأمي تعليقات أفادتني كثيراً، واستغربها الكثيرون.. كانت أمي
من المنصورة، وهذا يوفر عليّ وصف جمالها، أنا مثلها وليست هي
مثلي. جمالها كان رائعاً، إلا أنها كانت ممتلئة شيئاً ما. وأتذكر أن والدي
كان يحب أن يراها «مربربة».. دعنا من أمي. لنركز في تعليقاتها.. في
فصل الصيف يكون الجو حاراً، والشمس في أوج تألقها حيث تبعث

بأشعتها الملتهبة. وكانت أمي ترغمني على ارتداء الملابس التي تغطي جميع أجزاء جسدي؛ ممنوع منعا باتا أن أرتدي قميصا بنصف أكمام. لماذا؟ حتى لا تصيبي أشعة الشمس، فيتحول لوني ويبدو برونزيا، الأمر الذي جعلها ترغمني على فعل ذلك حتى ولو بالضرب. ولكن بعد ذلك، قدمت لها الشكر. في بلادنا نستنكر الفتاة السوداء، وننعتها بالبومة. لماذا البومة؟ لأن البومة يُضرب بها المثل في الشرم وقبح الصورة (هل تصورتم بشاعة البيئة التي نحيا فيها؟)، فضلا عن عشرات المشاهد السينمائية التي تسخر منهن سخرية بلغت حد القذرة، ناهيك عن النكات. لذلك الفتاة السوداء في بلادنا منبوذة؛ الأمر الذي جعلني لا أكف عن شكر الله لأنه خلقني هكذا شقراء. فأنافاة شرسة، لا أستطيع أن أترك أحدا يسخر من لوني.. ربما كنت أصبحت سفاحة قابعة في أحد السجون شديدة الحراسة. المهم منذ أن كنت صغيرة والأنوثة تبدو عليّ؛ ثدياي كانا كبيرين منذ أن أنممت الأحد عشر عامًا.. وهذه حقيقة؛ حقيقة جلبت لي مشكلات كبيرة. ظن الكثيرون أنني أتركهام للأأيادي تعبت فيهما. ولكن كانت نسبة هرمون الأستروجين في جسدي عالية جدًا. وضربني أبي بقسوة، ووقعت على التريجة؛ فتحطم زجاجها وتناثر على الأرض، فوقع عليّ؛ وهذا أحدث قطعًا طوليًا في فخذي، وتم علاجي. وشعرت بالمرارة، أقسمت بالله أنه لم يمسنني أحد، ولكن هيهات هيهات أن يصدقوني أمام هذا الثدي المكور.. وبدأت أربرب، وهنا لجأت لجارتي داليا التي وصفت لي برنامجًا غذائيًا ورياضيًا رائعًا. اتبعته بعناية، حتى توقفت عملية التضخم التي كانت تزحف فوق جسدي؛ ولكن ثديي ظلا كبيرين.

«أنا إيمان هابد»

هناك حقائق كثيرة غائبة، أو بالأحرى نتعمد طمسها ومحوها. الحقيقة التي يجب أن نؤمن بها ونسلم لها هي أننا قوم جاهلون.. نعم.. لا تفعلوا وتصبروا غضبكم عليّ. وهذه حقيقة أخرى؛ نحن قوم همجيون.. نعم.. في بيتي توارث الأجيال عبر أزمان من الطحن النفسي والجسدي، عبارات كانت بمثابة تحذير. انحصرت هذه العبارات الرنانة في فئة هي الأكثر شيوعاً في أنحاء المحروسة. تفكرت فيها ووقفت عندها كثيراً، وتساءلت: لماذا اقتصرَت عبارة «ابن البلد» على الفقراء؟ وهل أولاد الذوات ليسوا أبناء البلد؟ هل أولاد الذوات جميعهم سفهاء منحلون عديمو الوطنية، وأبناء البلد «الفقراء» هم فقط من يتمتعون بالشهامة والحس الوطني الجامح؟ آه.. وهنا أدركت بُعد الجهل الذي استوطن فينا، ومدى المكر الذي خططه قوم استحلوا سلخنا وتدمير عقولنا. ولأنني كثيرة التفكير، وهذا أزعج الكثيرين خاصة في المدرسة، تابعت ذلك. ووجدت وأنا جالسة أرتشف شاي الساعة الخامسة وبيجواري أمي، فيلماً قديماً في التلفزيون.. جذبتني بقوة مقدمة الفيلم؛ فأنصتُ لها في اهتمام.. كانت بصوت شخص برع بقوة في رسم صورة واضحة لمجتمع يتحرر، كان صوته هادئاً يحمل في طياته مكرراً، وكانت المقدمة تقول: «حوادث هذه القصة تقع بين الحي الإنجليزي؛ حيث القصور الشاهقة، والأموال الوفيرة، والأرستقراطية.. وحي بولاق؛ حيث البيوت المتواضعة، والقناعة، والقلوب الطيبة». وتساءلت كعادتي بيني وبين نفسي: «هل القناعة والقلوب الطيبة مقصورة على الفقراء فقط.. والأغنياء ليست لهم قلوب، ولا لديهم قناعة؛ حيث الأموال الوفيرة والأرستقراطية؟».

للأمانه، لدينا إدارة رائعة تحسن اختيار المواضيع التي تناسب كل جيل.. مقلمة قوية تجعل من يسمعا من الفقراء يشعر بالقوة، ويجهد على هؤلاء، بل يسوقه جهله إلى أن هؤلاء قوم ينبغي سرقته، وقتلهم، وطردهم. وأيضاً من يسمع هذه المقدمة من الأغنياء بهذا الصوت اللافى، سيدرك أن الإدارة تعمل على صنع قبلة قوية، بإشارة واحدة ستفجر، وتحول قصورهم إلى ركام.. آه يا ملاعين. وصرخت في نفسي: «توقف». أقصد بذلك عقلي طبعاً؛ إنه لا يتوقف عن سوء الظن بالناس والإدارة. وقال لي والدي: «أنتِ مختلفة، تضيعين وقتك في الكلام الفارغ». وفي المدرسة قالت لي مدرسة التاريخ وكنت في المرحلة النهائية من الثانوية العامة: «ماذا تعرفين عن الفتح الإسلامي لمصر؟». قلت لها: «أعرف الكثير، لقد صدعتمونا به.. طالما سمعناه هنا، وفي خطب يوم الجمعة المملة، وفي التلفزيون». قالت لي: «أنتِ فتاة قليلة الأدب». وللأمانة شعرت بأنني تحطيت حاجزاً كان يحول بيني وبينها.. ظننت أنها سنسكت، لكن وصفها لي بأنني قليلة الأدب شجعني، فقلت لها: «الأحرى بكم أن تعرضوا التاريخ كاملاً؟». قالت لي: «ماذا تقصدين؟» وقد حدتني بنظرة مسمومة، فقلت: «تاريخ مذابح الأقباط على يد الرومان، أين هو؟» ونظرتُ لصديقتي مريم عادل، وأكملت: «أليس من حقنا أن نعرف التاريخ كاملاً؟ أليس من حق مريم أن تعرف كل الحقائق؟».

- «تعالى معي» هكذا قاطعتني بحددة، ودفعتني أمامها إلى غرفة الناظرة، وهناك ألت محاضرة طويلة. شعرت أنني في لحظة ما سأنتقياً على المكتب.. وفي النهاية قالت لي: «يمكن أنفصلك من المدرسة خالص، أنتِ فاهمة؟».

«أنا إيمان هابد»

أعرف حقوقي جيداً.. أحياناً أعرف ماذا أريد، وأحياناً أشعر أنني تائهة. المستقبل في ظل بيئة جاهلة يعد مستقبلاً غامضاً.. لا أحب أن أتخلص على أحد، ولا أن يتخلص أحد عليّ.. أكره في حياتي شيئين؛ الضوضاء، وأصحاب الأنوف الطويلة!

يعمل والدي سائقاً عند الخواجات كما يقولون. لشدة ما كان يفضيني حين يأتي محملاً بالملابس، والألعاب، والحلوى.. لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ هكذا أقولها ثلاث مرات، لدرجة أنه يظن أنني فقدت عقلي، ولكن العلة تكمن في شيء طالما تفكرت فيه طويلاً.. نحن فقراء؛ لذلك لا يستطيع والدي أن يرفض هذه القمامة. ولما يجدي منفعة، على الفور يشرع في محاضرة عن الواقع والحقائق، وكنت أنفعل وأقول له: «إنني أعرف حقيقة واحدة، وهي أنني إنسانة عندي كرامة.. بابا، يتنا ليس سلة قمامة.. أرجوك راع شعوري». وسرعان ما يتنحى عن مناقشتي؛ فأشعر بالذنب، وأذهب وأبكي بين يديه. وأشرقت على حياتي شمس دافئة؛ وهي شمس الجامعة. نظرتُ للعبة طويلاً، تأملتُ المباني العريقة. وذات يوم، جاء والدي سعيداً يحمل بشري رائعة.. قال لوالدي إنه تم تعيينه موظفاً في شركة «جاز خليج السويس»؛ حيث كان يعمل سائقاً لدى خبير أجنبي يعمل في الشركة، واستطاع أن يوظفه فيها رغم أنه تعدى السن القانونية. وتقدم نحوي، وقال لي: «إيمان، شدي حيلك.. الوظيفة تتظرك». ثم استأنف مفتخراً: «كما هو معمول به في هذه الشركات الكبرى، فإن أبناء الموظفين لهم الأولوية في التعيين».



رسب سعيد في الثانوية العامة ثلاث سنوات تفرغ فيها لخدمة
 الخواجات. ويوم أن قال له مستر «جونز»: «سعيد، أعدك بعد قضاء
 الخدمة العسكرية أن أوظفك في شركة سيفن للخدمات»، شعر بأن
 العالم يستقبله من أوسع أبوابه. لذلك بعد رسوبه العام الثالث، قرر
 أن يقضي الخدمة العسكرية؛ إنه لا طاقة له بالتعليم. وشعر بأنه في
 سباق مع الزمن، واطمأن بعد أن وعده مستر «جونز» بأنه سيعمل
 في فترات الراحة في الشركة ليتدرب، وفور الانتهاء من الخدمة
 العسكرية يقدم أوراقه، ويتم اعتماده موظفًا تابعًا للسفارة الأمريكية.
 وجاء لقاءه بجارته إيمان عابد، التي حددت أن يكون في حديقة
 الأورمان؛ ربما ليرى الجامعة التي ضحى بها.. طالما التقيا في حدائق
 الحي الإنجليزي الذي يحفظانه جيدًا.. إيمان عابد التي يراها الزوجة
 المناسبة له. وصل للحديقة، وبنظرة تجهل معالمها استطاع أن يصل
 لها. كانت جالسة وقد لفت ساقًا بالأخرى، وفي يدها كتيب صغير.
 لما تقدم نحوها، هزت رأسها في برود، وقالت له بنبرة جافة:
 - اعد يا سعيد.

تفحصها؛ حيث كانت ترتدي ملابس أبرزت أردافها وثديها.
 وشد ما شده احمرار الوجنتين، ولمعة العينين، والقصة التي تغطي
 جبهتها العريضة. بادرها قائلاً:

- يعني لازمته إيه المشوار دا كله؟ في إيه؟
- اعتدلت، وبدا على وجهها الجد، وقالت:
- إيه اللي سمعته من طنط ده يا سعيد؟ (هكذا تحب أن تستخدم
 هذه الألفاظ في حديثها، مثل «طنط» أو «أونكل»).
- سمعت إيه؟

- سمعت أنك هتخسر الجيش.
- ودي حاجة تصايق؟
- طبعا، لما تصبح مستهلك التعليم تبقى حاجة تصايق.
- أنا فاهم كويس هاهز إيه.. أنا هاهز أخلص من ربطة الجيش
هشان أتفرغ لمستقبل الحقيقي.
- المخرجات جننوك.
- المخرجات هينفعوني كثير.. دا المستقبل الحقيقي.
- تلاشت الجمودية من على وجهها، وتأملت عينه الواسعتين،
وقالت بنبرة رقيقة:
- متى نويت؟
- ماشي في الأوراق.
- ومضت لحظات صمت وكلاهما ينظر نحو السماء، التي بدت من
بين أفرع الأشجار الكثيفة ملبدة. واستأنف:
- النهاردة التعليم مش كل حاجة يا إيهان، وأقرب دليل على
كلامي شقيقي أشرف (وكان سعيد يحمل لشقيقه ضغينة.. إنه
هاجر وتركه.. وكان يصرخ في وجه أمه: «أنجيتيه ليضيع مستقبلي
فقط.. ماذا جنينا منه؟ وجوده السبب في دخولي الجيش، لو
كان مات كان أفضل، بوجوده ضييع ثلاث سنوات من عمري..
لماذا؟»؛ إنه ترك البلاد كلها بعد أن ظل يكدح في التعليم.
- لكن التعليم بالنسبة لي مهم جداً. هكذا قالت في طمأنينة.
- لماذا؟

- الوظيفة محجوزة.
- أي وظيفة تقصدونها؟
- عند بابا في شركة «جواز خليج السويس»، الوظائف محجوزة
لأبناء العاملين كما تعلم.
- أنا لا أعلم، ولا يشرفني أن أعلم.
- سعيد، ماذا تقول؟
- على العموم، ربنا يخيلك والدك.
- مالك بتقولها من غير نفس.. تقصد إيه؟
- أنا مش بحب الكذابين.
- تقصد مين؟
- خلاص.
- مفيش خلاص.. لازم نتكلم.
- اعتدل في جلسته وقد شعر بالقوة؛ إنه الآن موظف في أهم شركة
أجنبية، يستطيع أن يتقد أي أحد بقلب قوي:
- يعني إيه الشركة تعلن عن وظائف كل يوم، وعندما يتقدم لها
الناس تقول لهم: «الوظائف محجوزة»؟ والله قالوا كده لأشرف
شقيقي.. إنه روتين.. كذابين ولا لا؟ أنا أكره النفاق والكذب جداً.
- ولو، هذا حقي.
- عن أي حق تتحدثين؟
- أبي يعمل في الشركة.
- هناك أكفا وأولى منك.

- هذا حقي.
- أنتِ تعتبرينه إرثاً شرعياً إذن؟
- نعم.
- إذن لا أحب أن أسمعك تتقدين الإدارة مرة أخرى؛ الإدارة التي قمتِ ظهرنا.
- احتقن وجهها، وقالت في نرفزة ممزوجة بهدوء حذر:
- سعيد، أرجوك لا تخلط الأوراق.. هذا حقي.. أرجوك دع هذه الأفكار جانباً.. هذه فرصة لن أضيعها أبداً.
- خلاص.
- يعني إيه خلاص؟
- يالانمشي.
- استنى أنت.. أنا همشي.. الظاهر أن الخواجات اللي أنت بتخدمهم جتوك.
- هكذا قالت، وانصرفت بسرعة من أمامه قبل أن يتحدث.. وظل هو جالساً.



على الرغم من معرفتها بالحلي الإنجليزي من طول ما عاشت بالقرب منه وعملت فيه، فإنها الآن تجهل معالم الشوارع والفيلات؛ فقد تهدمت أسوار الفل والباسمين التي كانت تطوق الفيلات الرائعة، فضلاً عن هدم الكثير منها، وبدأت الشوارع كثيفة بعد أن حل بدلاً من هذه الأسوار التي كانت تعطر الشوارع برائحتها الجميلة، أسوار من الخرسان. وفي كل مرة تقف عند فيلا الخواجة

«روبرت بلاكينى» - وكان يشغل منصب وزير الاتصالات عام ١٩١٠ - وترفع بصرها إلى الفيلا الضخمة التي تعد أقدم فيلا في الحي، تشعر بالحزن لِمَا طرأ عليها؛ فتبدو في هيكلها الضخم كمعبد مهجور وقد سقطت أعمدته إلا قليلاً، وشُيدت العمارات الضخمة حولها فخنتها، ومع مرور الزمن بدأ ارتفاع السور لا يتعدى المتر، من خلاله ترمى الحديقة بنظرة تعيسة، كانت في السنوات الخالية تظللها أشجار الكافور والثمار. وتذكر السيدة سميرة مواقف عدة عن هذه الفيلا بالذات؛ حيث مرت بظروف كثيرة، وقطنها الكثيرون بعد رحيل مستر «بلاكينى».. بها نجأ سري في الحديقة، كان عبارة عن عدة حجرات تحت الأرض. كان القادة الإنجليز في أثناء الحرب العالمية الثانية يجتمعون فيه، أو يجتثون (على أن هذا النظام الهندسي في بناء المخابى، كان متبعاً في أغلب الفيلات الضخمة التي يقطنها القادة الإنجليز الكبار، أو اليهود الأثرياء؛ ليحتموا بها من الغارات الجوية). وأيضاً تحولت هذه الفيلا في الحرب العالمية الثانية لمستشفى عسكري أسترالي.. بفضل وظيفة والدها استطاعت الذهاب إلى هناك ودخولها، ومجالسة الطبيبات الإنجليزيات، ومراقبة الأمور بحرية كبيرة، وجلست ذات مرة في حديقة الفيلا. ومن الداخل، تبدو الحديقة واسعة رائعة، كأنك بداخل ملعب كرة. وكانت الفيلا تحوي أكثر من سبع غرف، فضلاً عن البهو الواسع، الذي استغلوه فيما مضى وحولوه لعنبر للمصابين. وشاهدت أيضاً المخبأ؛ حيث يبدأ بدرج حلزوني، مدخله من الخارج يوحى بوجود بالوعة.. نزلت على حين غفلة من المرضات، ومن ثقب في الباب شاهدت الغرفة التي كانت تبدو كقاعة اجتماعات؛ حيث تتوسطها تراييزة كبيرة محاطة بمقاعد. المرضات كن جميلات رائعات مبتسمات على الدوام، ونشأت بينها

وبينهن صداقة قوية.. فضلاً عن صداقة الجنود المصابين الذين ألفوا وجودها المريح بينهم. وتنتقل مع والدها حيث يقضي حوائج دكتور «مرك»، فيتركها عند مدام «أنجل»، ليعود لها في المساء. هذه الرحلة عاشتها حتى الخامسة عشرة من عمرها، منذ أن كانت في السابعة.

ولا شك أن السيدة سميرة لها معجبون كثيرون.. أي نعم يتمون لطبقة فقيرة إلى حد ما ثقافياً ومالياً، إلا أنها كانت تشعر بالسعادة من تلك النظرة التي تمسحها وتأكلها. خط السير لم يتغير منذ خمسة عشر عامًا، لم تنقطع سوى في الإجازات، أو لأسباب قهرية. لكن السيدة سميرة منضبطة جداً في مواعيدها.. يبدأ خط السير من محطة المعادي. ولو الوجهة في هذا اليوم إلى مستر «وليام مور» حيث يقطن في شارع ١٣ بجوار المعبد اليهودي، فلا بد أن تمر بفيلا الخواجة «بلايني» التي تشهد على ذكرياتها. أما إذا كانت الوجهة لبيت مستر «روجر جونز» مدير المدرسة الأمريكية، فتبدأ من محطة الثكنات حيث شارع ١٥، وهنا المسافة لا تتعدى خمس دقائق سيراً على الأقدام. وهكذا كل وجهة جمهور من البوابين، والسائقين، وموظفي الأمن الخاص.. الكل يعرفها ويلهث وراء كلمة منها.. وللأمانة، فالسيدة سميرة تتمخطر بطريقة تبدو متعمدة. فهي تعلم بكل شيء، وتعرف أنهم يتظرونها ويتمنون كلمة منها. فهي امرأة في ثوب «هانم»، وفي نفس الوقت خادمة.. وزوجها توفي منذ سنوات (لذلك كان يظنها البعض فريسة سهلة).. فضلاً عن جمالها وأنوثتها الطاغية. وبدأ البعض من هؤلاء الرجال يلقون بأوراقهم أمامها.. فالسائقون يعرضون عليها خدماتهم، وحارسو العقارات يسعون بجهد لإيجاد فرصة عمل لها (رغم أنها لا حاجة لها إلى العمل، ولكن لا سبيل لهم غير ذلك)، وضباط الأمن الخاص يستعرضون أمامها قوتهم،

ويبرزون مسدساتهم الصوت ليوحوا لها بنفوذهم، ويقدمون لها الخدمات بأصوات غليظة. وجاءت اللحظة التي جعلتها تكشف عن أنيابها؛ حين جاءها رجل آمن، وكان هذا الرجل على الرغم من أنه تخطى الخمسين عامًا يملك جسدًا صلبًا.. أوقفها في جراحة، وقال لها:

- صباح الخير يا ست سميرة.

وردت التحية بابتسامة رقيقة. وهنا انشرح صدر الرجل؛ فقال في لؤم:

- في شغل في بيت السفير السويسري.. بس الواد الجنائني له شرط.

وأرادت أن تستدرجه؛ فقالت في لؤم أيضًا:

- وما هو الشرط؟

- ينام معاك.

للأمانة، مكرها وذكاؤها لم يسعفاها للتخمين بتلك الإجابة. إنه قذر.. وقع. وتساءلت في نفسها مرارًا وتكرارًا بعد هذه الواقعة: «ما الشيء الذي دفعه إلى أن يتهادى بهذه الجراحة؟ ماذا شاهد عليها؟». وشعرت لأيام بأن رأسها يكاد أن يفرقع من فرط التفكير.. إنه قتلها.. شاهدها مومًا.. ياله من قذرا! وعجزت عن الحديث، وشعرت لمرة واحدة أنها عارية.. تقف مكسورة.. عاجزة عن النطق.. وقالت له حينذاك بنبرة توحى بعدم استيعاب الكلام: «أنا؟ هل تقصدني أنا؟». وصرخت في وجهه: «روح منك لله يا قواد.. أتفوحص عليك وعلى أصلك الواطي».

بعد هذه الواقعة تغيرت كثيرًا، حتى طريقة مشيتها تغيرت.. صدّرت لهم وجهًا حادًا.. حتى تحية الصباح كانت لا تلقى عليها عليهم. ولكن هذا الرجل كانت لا تستطيع النظر إليه، تراه من بعيد جالسًا

يرتشف الشاي وينحدث بثقة مع من حوله. وعندما تقرب، لا تقوى على رفع عينها لي وجهه، كأنه جامعها. وشيئا فشيئا، تناست هذه القصة. أما اليوم، فوجهتها إلى بيت مستر «وليام مور». اجتازت هبلا الوزير «هلا كيني»، ثم قسم الشرطة، حتى وصلت لبيت قديم من ثلاثة طوابق، شُيد على النمط الإسباني من حيث الأعمدة والزخرفة. صعدت إلى الطابق الثاني، وقبل أن تدخل سمعت صوت الموسيقى يصدح في جنبات الشقة؛ فأدركت أن مستر «وليام» استيقظ ويقوم بأداء التمارين الرياضية.



قطعاً تحررت أكثر بعد أن تخلصت من شعرها؛ شعرت أن عقلها تنفس وأصبح قادراً على التفكير السليم، عالم آخر بدا لها في شكلها الجديد، كأنها كانت مدفونة. كان الحجاب يفرض عليها أزياء لا تميل لها ولا تبرز مفاتها وجمالها، إنه لا يميزها عن الأخريات اللاتي يعملن في خدمة المنازل. والآن بعد أن تحررت منه، أطاحت بالأزياء القديمة التي طالما قيدت حركتها، وبدأت تقتني بعناية ملابسها الجديدة: البلوزات الشيفون، والبنطلونات الجينز الضيقة والقماش الفضفاضة، فضلاً عن الأحذية الرياضية والصنادل الصيفية. المسافة من طرة حتى محطة المعادي لا تعد طويلة.. نعم يرمقها كل من في المترو بنظرة استنكارية، وأحياناً يتلفظون بعبارة «لا حول ولا قوة إلا بالله» أو «استغفر الله العظيم»، فضلاً عن سماعها مراراً وتكراراً الحديث النبوي «لعن الله المشبهات من النساء بالرجال».. ولكن مهما بلغت حدة هؤلاء المتطفلين، فهي لا تُلقي لهم اهتماماً، واستعانت أخيراً بالووكمان السوني؛ تضع سمعته في أذنيها، وتخلق مع الأغنيات الغربية، وتركهم يتكلمون ويسخرون. ويفضل ملابسها الجديدة، تغيرت

طريقة المشي؛ بدت الخطوة أوسع، أشبه بقفزة.. وظهر عنقها طويلاً متناسقاً مع كتفيها. وكانت تترك أول زرين من أعلى مفتوحين؛ فتبدو بشرتها البرونزية اللامعة رائعة.. ويرتج ثدياها من وراء البلوزات الشيفون، كأنها بلونتان ثقيلتان محكومتان. وكانت البنطلونات تسقط من خصرها الصغير؛ فتبدو مثيرة. وتشتد السخرية والتهكم إذا ما انتعلت صندلاً؛ فهي تطل أظافر قدميها بالوان مختلفة، فضلاً عن الخواتم التي تلبسها في إصبع أو اثنتين في قدميها أيضاً. هكذا تحولت مديحة، وظلت لوقت طويل لا يعرفها أحد من الأصدقاء.

كانت مديحة - وما زالت - تختلف عن أشقائها؛ فهي أول من عملت منهم. منذ أن كانت في الجامعة وهي تعمل بكل جهد، كأنها تسابق شيئاً، أو كأنها ظمآنة وترى النهر بعيداً وتريد أن ترتوي؛ فتحاول التجديف بكل قوة وسرعة. معروفة مثل أمها تماماً في الحي، ولها أيضاً جمهور من المعجبين، وهم العاملون في متاجر شارع ٩، وفي مكتب البوستة الذي تدخر فيه نقودها.. لكنها لا تسمح أبداً لأحد بالخوض في حياتها الشخصية؛ الأمر الذي جعل المعجبين يكتفون بالنظر والتمني. ورفضت رفضاً قاطعاً منذ البداية العمل عند المصريين؛ لأسباب كثيرة، أولها طبقتهم، فضلاً عن احتقارهم لهذه الوظائف، وللأمانة أيضاً لأنهم لا يدفعون مثل الخواجات.. أما الأوربيون فإنهم يدفعون كثيراً، ويلتزمون بقوانين العمل. على أن شعور الوحدة زاحمها منذ الصغر؛ منذ أن رنت في أذنيها عبارة أمها التي كانت تقولها بحدة: «شغليه شوية.. أف»، وأمها تقصد بذلك عقلها. عندما كانت تختار في اختيار شيء، كانت تضطرب وتزعج من أن تسأل أمها؛ خوفاً من العقاب، فتقول في نفسها: «لا بد أن أشغله»؛ الأمر الذي جعلها تحقق في حل أمور كثيرة.. على أن أمها كانت معها

ومع الأشقاء على هذا النحو. لشدة ما شعرت بالوحدة في قراراتها، هذا الشعور وثرها وجعلها تتصرف بعشوائية طوال الوقت، لكنها في النهاية قررت أن تعد العدة لكل شيء.. أي فتاة مصيرها الزواج؛ لذلك استغلت غرفة شقيقها أشرف الذي هاجر، وحولتها لمخزن. وبدأت في جمع جهازها شيئاً فشيئاً، لم تتخلف عن مزاد واحد كان يقام في المدرسة الأمريكية أو النادي الأمريكي. فرعان ما تمرع بنقودها، وتفتش عن حاجتها. ويفضل صداقاتها، تأخذها بضمن بخس، وتنقلها لبيتها. فتكدست الغرفة بأدوات المطبخ كاملة؛ البوتجاز «الجيمس» الأمريكي، والثلاجة نفس الماركة، والأواني البورسلين، والملاعق.. كل هذه الأشياء عبأتها بعناية في كراتين كبيرة، وكل يوم جمعة تخصص لها ساعتين لتفقدتها وتنظفها.

في هذا اليوم استيقظت متأخرة نصف ساعة، فأنزعجت من شينين؛ عدم تناول الإفطار في «كافيتريا دوللي»، وسماح سيمفونية عن الالتزام بالمواعيد من مدام «براون»؛ المرأة الإنجليزية التي تعمل عندها منذ أربعة أعوام.. استقبلتها المدام متزعجة: «مديحة، لن أسمع بالتأخير مرة أخرى.. هيا تفضلي».

كانت المدام طاهية من العيار الثقيل، لا تحب أن يدخل أحد مطبخها، ولا تتوقف أثناء إعداد الطعام عن إلقاء الكلمات، ودائماً ما توحى لمديحة بأنها لا تحتاجها، وأنها تستطيع أن تقوم بجميع الوظائف. تجاوزت المدام الأربعين عاماً، وكان لديها ابتان توأم ملتحقان بالمدرسة الأمريكية. وكانت وظيفة مديحة في البداية هي رعاية الابتين؛ فكانت تعمل «جليسة أطفال». ولكن بعد أن دخلتا المدرسة، تحولت لعاملة نظافة في البيت. ولم تعترض المدام، وقبلت

أن تُبقي عليها رغم جهلها بالوظيفة (هكذا تذكُرها دائميًا)؛ ولذلك كانت تتدخل في توجيهها وتعليمها.

ولكن تقلص عدد الأيام إلى يومين فقط، هما الجمعة والسبت. وعلى الرغم من بخل مدام «براون»، فإن مديحة كانت تحبها. فقد تعلمت منها أشياء كثيرة، والمدام في نقل خبرتها ليست بخيلة، فضلاً عن إيمانها الشديد بفصل الأوقات.. فهي تعاملها برسمية شديدة أثناء العمل، أما بعد ذلك فتخذها صديقة.

أما في هذا الصباح فكانت قد قررت أن تتحدث مع المدام في زيادة راتبها، إلا أن المدام بدت مترعجة من تأخرها نصف ساعة. لكن «مديحة» تجاهلت انزعاجها مدفوعة برغبة في الانتهاء من هذا الأمر، فقالت لها: - مدام، أريد زيادة راتبي. إلا أن المدام حدجتها بنظرة عميقة وقالت:

- لا أستطيع

وفي صباح اليوم التالي، فعلت معها شيئاً رائعاً؛ حيث أعطتها شهادة تثبت حُسن سلوكها نحو تربية الأولاد والحفاظ عليهم.

ثم قالت لها: معذرة يا «مديحة» هذا كل ما أستطيع أن أقدمه لك

سعدت «مديحة» جداً بهذه الشهادة وذهبت وألصقتها على بوابة المدرسة الأمريكية، وأمام رابطة المغتربين، ولمدة طويلة لم تُؤتي ثمارها. وفطنت لأن الوظائف عند هؤلاء أيضاً لا بد أن تخضع للواسطة، وألحت على أمها السيدة سميرة حتى توسط لها مستر «جونز» للعمل عند عائلة مستر «دينس».

ومديحة فتاة بخيلة جداً.. نعم، هذه حقيقة واضحة مهما حاولت صبغها بحجج وبراهين كاذبة. فهي لا تلتزم بدفع نفقات البيت مثل

اشقائها، إلا بعد خوض معارك طاحنة.. وبدأت في رسم طريقها، وبدأ الطريق بيوم السبت. ويوم السبت تنتظره بفارغ الصبر منذ شهر مضى، بالتحديد منذ أن توظفت عند مستر «دينس»، بعد أن لاحظت شابًا وسيًا جدًا يترقبها؛ بدايةً من محطة المعادي حتى تفرغ من تناول إفطارها في «كافيتريا دولي»، إلى بيت مستر «دينس». ونظرت إليه بحدة، كأنها تقول له: «أعلم بمراقبتك». وكانت كعادتها تجلس في «كافيتريا دولي» بجوار النافذة الوحيدة. و«كافيتريا دولي» هي مطعم صغير يقوم على خدمة عمال المتاجر حوله، وأيضًا يخدم طالبات مدرسة الأميرة فوزية الإعدادية. عمال المطعم يعرفونها جيدًا، على أنهم لم يعرفوها بعد أن أطاحت بالحجاب وقصت شعرها. ولما عرفوا عليها، ظلوا الفترة طويلة يرمقونها باندهاش. وكانت تلاحظهم يتهايمون، فتضرب بقبضة يدها على الترابيزة؛ في محاولة لبث احتجاجها في نفوسهم بطريقة غير مباشرة، فهي لا تريد أن تخوض معركة معهم وتخسر تناول الإفطار في هذا المطعم الرخيص؛ إنها لا تستطيع أن تتناول الإفطار في مطعم «لوسيان» أو مطعم «أوليفيا» الآخرين.. وتجنبوها بعد ذلك. وفور جلوسها، يأتي إليها النادل يحمل سندوتشي الجبنة وكوب الشاي المخلوط باللبن. تلتهمهما، وتعقب عليهما بشرب الشاي باستمتاع؛ حيث تصدح من الراديو الصغير الأغاني الصباحية.. وكان هذا الجو ينعش مزاجها. وفي هذا الصباح كانت جالسة متوترة، ولكن ذلك لم يمنعها من تناول الإفطار بشهية كالعادة. وبعد خروجها من المطعم، وجدته واقفًا أمامها كجدار عال؛ حيث بدا طويلًا.. ظل يحملق فيها بجرأة جعلتها تشعر بالخوف. إن مظهره يطمئن، ولكن نظرتة كانت تشع بريقًا كبريق الذئب الذي يتأهب للانتفاض على فريسته.. فهرعت بخطى سريعة نحو بيت

مستر «دينس»، وكان هو يتبعها بسرعة، وحاول أن يتكلم لكن شيئاً
حال بينه وبينها.. كانت تبدو له عصبية. وفور وصولها بيت مستر
«دينس»، هرعت له وقالت بأنفاس لاهثة:

- هناك شخص يترقبني.

وانخفض مستر «دينس» من فوق مقعده، وقال بعصبية:

- شخص.. أي شخص؟!!

وخرج للشارع بحثاً عنه، وكان وجهه محمراً غاضباً.

مستر «دينس» مواطن أمريكي، موظف في شركة «بتروجيت
للبنترول»، طويل القامة، وله صدر عريض لا يتناسب مع ساقه
الرفيعتين، يبدو للبعض حاداً وللبعض مرحاً؛ فهو غريب الأطوار.
في أغلب الأحيان متجده يجلس على الطوار وفي يده كوز بيرة، وأيضاً
متجده أنيقاً جداً منضبطاً. أصدقاءه عديدون؛ عمال القمامة، والحيوانات،
ورجال الأمن. ينفق دولاراته على الجميع؛ يعتبر كل من في البيت عضواً
في الأسرة. بمعنى أن الأسرة لا تقتصر على زوجته وابنه «مايك» فقط،
ولكن تشمل جميع العاملين في المنزل؛ ولذلك كان غاضباً من محاولة
سرقه مديحة أو التحرش بها. وأخذ مواصفات هذا الشخص، وكان
ينصت لها باهتمام. وكانت هي تحكي كل تفصيلة بدقة. ولما انتهت،
التقط عصا يسبول، واستقل سيارته «الجيب»، وذهب ليبحث عنه.
ولما عاد بعد أن فشل في العثور عليه، أعد خطة مع مديحة، وهي
أنها إن وجدته مرة أخرى لا تُظهر خوفاً، وتحاول أن تستدرجه إلى
البيت.. ويستحسن أن يكون ذلك في يومي الجمعة أو السبت؛ حيث
إجازته. وقال لها:

- ربما يكون معتوها.. كوني حذرة.



عادةً، الضباط الكبار في الداخلية عندما يُوزَع عليهم الجنود حديثو التجنيد، يفضلون أن يفتنموا القادمين من الأرياف، وخاصةً الفلاحين القادمين من وجه بحري. وللضباط الكبار عدد لا يقل عن ثلاثة جنود؛ يقومون بخدمتهم وخدمة عائلتهم. فيختص جنديان بخدمة البيت، يكونان تحت أمر الزوجة؛ حيث يقضون لها حوائج المنزل من الطعام والشراب، وأحياناً يقومون بتنظيف الأثاث وغسل الملابس.. بل هناك بعض الزوجات تستغل الجنود في تقشير البصل ودق الثوم، ومن الجنود من برع في ذلك تمامًا! ولكن الأفضل أن يكون بينهم واحد من القاهرة أو الجيزة؛ ليكون السائق. لماذا يفضلون أن يكون من هاتين المحافظتين؟ أولاً، لمعرفته بالطرق. وثانياً، لطريقته في الحديث؛ لأن التحدث باللكنة الفلاحي مستفز لبعض الضباط؛ حيث تمتد الحروف، وتتضخم وتقلص؛ فتبدو مشوهة. علاوةً على أن قاطني القاهرة يرتدون الملابس الأنيقة، ويهتمون بمظهرهم. وحتى إن كانت الملابس رديئة في ماركتها، فإنهم يستطيعون أن ينسقوا أطقماً متناسقة.. خلاف الفلاحين؛ فهم يفضلون الملابس الزاهية. علاوةً على أنهم نادراً ما يغسلون وجوههم؛ إنهم تربوا على أن غسل الوجه لأبناء البندرا بالإضافة لتعاملهم مع البهائم.. إنهم لا يستطيعون التحدث بشياكة؛ ولذلك يذفونهم في المطابخ، أو أسفل العمارات. اقتنص سعيد مكانه مع العميد متولي عبد الظاهر مسئول التفتيش. وكان العميد ذا خلق، لا يترك فرضاً، ويُحسن إلى الفقراء؛ حتى إنه اختص غرفة بناها على نفقته في الجراج لتكون سُكنى للجنود. وكان سيادة العميد يقطن في منطقة «نيركو». وخصصت له الوزارة سيارتين؛ واحدة «فولكس

فاجن»، والأخرى «فيات ١٢٨٠». وارتاح لمظهر سعيد، وكان يقول عنه إنه «ابن ناس»، ويوجه الحديث لزوجته: «الولد زي الحواججات.. والله بيشر فني.. ده بيتكلم إنجليزي كويس». وظل سعيد يتودد لسيادة العميد السيارة. وكان زملاؤه ناقمين عليه؛ للمعاملة الطيبة التي يتلقاها من الأسرة كلها، علاوة على أن سيادة العميد رفض أن يقطن مع الجنديين الآخرين، وسمح له بالمبيت في المنزل، على أن يكون أمام العمارة في الساعة صباحًا. في هذا الصباح لم يخرج سيادة العميد، بل خرجت ابنته الكبرى دعاء. وعند رؤيتها، انقبض سعيد.. ووقفت أمامه، وبنظرة يدركها تمامًا ظلت ترمقه لشوان، ثم قالت بصوت طفولي:

- بابا مش خارج.. ينفع توصلني المدرسة؟
- لحظة أبلغ سعادة الباشا.
- اتفضل.

وعاد بعد دقيقة ليجدها جالسة في الكنية الخلفية تعبت في شنطتها. كانت دعاء فتاة جميلة ورقيقة، هي أشبه بفراشة في نعومتها ورققتها. وكانت ملامحها شرقية للغاية؛ عيناها واسعتان سوداوان كعين الغزال، وجبهتها عريضة، تجمع شعرها الأسود الطويل في ضفيرة واحدة. وكانت طوال الوقت تقبض بيدها على منديل، كأنها مصابة طوال العام بالزكام.

انطلق بها إلى حيث المدرسة. ولما وصل، نزلت وقالت له في رقة مبالغة:

- شكرًا يا سعيد.

ولفت سعيد نظر صديقاتها، وأبدى إعجابهن به، وتحدثن عن
أناقته.. ولم تعلق؛ فقط اكتفت بجملة واحدة:

- ده عسكري عند بابا.

واستغزها صمته وعدم اهتمامه بها، مختلف تمامًا عن الجنديين
الآخرين، ماذا يرى نفسه؟ وانشغلت تفكر فيه باستمرار، وأيضًا ظلت
تراقبه؛ فلاحظت أنه انطوائي.. وأيضًا يترفضه خروجها معه، كانت
تدرك ذلك من طريقته في قيادة السيارة، وكان يسعددها جدًا أن تراه
عصبيًا، ويتضاعف ذلك عندما تكون في صحبة صديقاتها. إنهن يبذُن
في نظره صغيرات تافهات؛ صوتهن عالٍ ومزعج، وتتركم أنفه رائحتهن
الطفولية.. حتى ملامحهن؛ إنهن لم يتدربن على تهذيب الحواجب، ولا
صبغ وجوههن بمهارة.. ينقصهن النضج، رغم أجسادهن الناضجة.
فتظل تسرق النظر له في سعادة لا حدود لها، كأنها تعاقبه بذلك.
ولاحظ أن الفتاة تلاحقه بعينها؛ إنها لا تتوقف عن النظر له حتى
وهي مع صديقاتها. وبدأت شاردة، تجلس في الكنب الخلفية وتظل
شاردة؛ بدا وجهها ممتقعًا طوال الوقت. وقالت له ذات مرة:

- لماذا لا تتحدث معي؟

وفور تفوهها بذلك شعرت براحة كبيرة؛ إنها تجاوزت لحظة تمثل
لها الحياة نفسها. وابتسمت بعد أن نظر لها في المرآة المعلقة أمامه وقد
قوس حاجبيه؛ مدعيًا الاستغراب. بينما الحقيقة أنه يدرك تمامًا أفعالها
الطفولية، ويلاحظ محاولات تقربها له. فقال لها بسذاجة مصطنعة:

- نعم.

وكان سعيد يعاملها برسومية مبالغ فيها؛ ليجعل بينه وبينها
حاجزًا.. فيحدثها بكلمات قليلة، ويستخدم معها كلمات «أفندم»

«حضرتك» و«تحت أمرك».. وكان يستفزها ذلك؛ إنه يعاملها كما يعامل أمها.. علاوة على أنها شاهدته أكثر من مرة يتحدث إلى فتيات أجنبيات، بل يُقبلهن في الشارع ويمزح معهن. فقالت مدفوعة بمشاعر المراهقة:

- لماذا كل هذا الغرور؟

واستعرض أمامها ثقافة اللامبالاة، وهز رأسه مدعيًا جهله بحدثها. فقالت بحدة:

- أنت تعلم كل شيء، ولكنك مغرور.

وظل على صمته وجهله المصطنع، ولكنها انفجرت بعد أن أزعجها تمثيله هذا الدور السخيف؛ فقفزت إلى جواره، وقالت بنرفزة وهي تشير بإصبع الاتهام في وجهه وقد اقتربت منه:

- اسمع، أنا فهماك كويس.. غرورك مش هيجيب نتيجة.. إنت فاهم؟
توقف بالسيارة، وقال في رسمية:

- ماذا تريدون بالضبط؟

ابتسمت، وملأت عينيها الفرحة، وعادت للمقعد الخلفي، وقالت في سعادة كبيرة؛ سعادة من ظفر بنصر:

- لا تفعل شيئًا.. أنا سأفعل كل شيء.

نشأت دعاء في بيت صلب؛ الأب شرطي قوي، والأم موظفة في رئاسة الحي. وكانت الأم صلبة في تعاملها؛ إنها تبدو موظفة في البيت، لا تتوقف عن إعطاء الأوامر. وكانت تشاهد قسوتها وقوتها مع الجنديين اللذين تم تكليفهما بالخدمة في البيت. وحمدت الله كثيرًا أن الوالد احتفظ بسعيد ليقود له السيارة؛ إنها لا تستطيع أن ترى واحدًا

مثل سعيد يعمل على كنس البيت وغسل الأواني وتنظيف الملابس.
ولما جلست بجواره في اليوم التالي، شاهد لأول مرة عينيها
الصافيتين تلمعان بالفرحة. وكانت يدها الرقيقة البيضاء ترتعش من
فرط السعادة. ونظر حوله، وقال لها:

- عشان خاطرني اجلسي في الخلف.

- مش ممكن.

- مينفعش حد يشوفك بجوارني.. لا تؤذيني.

- ولا ييمني.

وظل يدور في الشوارع الهادئة وهي جالسة بجواره لا تتوقف عن
النظر إليه، وقالت له:

- عامل مش واخد بالك.

- وماخد بالي ازاي؟

- بطل غرور.. ده أنا كنت خلاص...

- مالك؟

- خايفة (وكان خوفها نابعا من أن يتخلل عنها ويصدها بقوة..
لكنه استجاب، وتكلم).

- مين فينا اللي يخاف؟ إنت هتوديني في داهية.. هتسجن. هكذا
قال في صوت واضح.

امتقع وجهها، وقالت في سداجة:

- ليه؟

- هتجيتيني.. عشان قاعلة جنبني. فرعان ما قفزت الى الكنب
حقيقية.

- هذ.. كمه كويس؟

- كين.

- سعيدة ان عزيزك معايا على طول.

- ميختر.

- هكنه بين.

- بت عيزة ايه؟ هكذا قال في عصابة واضحة، لكنها استطاعت
ان تجدها، وقالت:

- يعني مش عارف؟

- بت مجنونة.

ضحكت وقتت:

- كويس بتك عارف.. خلي بالك واسمع الكلام.

واقففة ان سعيد كان يجب فيها براءتها، وطفولتها، وجنونها..
خصة ضحكها؛ كان يرى فيها البراءة بلحمها ودمها.. ما زالت
تقية ن ثوث بعد. كانت مختلفة عن شقيقتها التي تشبه اباه، كانت
تري بعد جنة؛ كل شيء مباح، ليست هناك قوانين اجتماعية تجعل من
قربها منه جريمة لا تُغتفر، وكم تساءل في نفسه بمرارة: «لماذا أنا؟
ومذا تريد بالضبط؟ وكيف أتخلص منها؟» ويضيف: «يلدوا أنني
ماكون ضحية مناقتها.. كم تبقى من هذه الأيام؟ يا الله، الأيام لا
تتحرك». وبلدت له في عهدا بطيئة، إن الأيام الجميلة تمضي بسرعة
البرق، أما معها فالأيام ثقيلة. كل يوم يمضي في سلام، بحمد الله..

من أين جاءت دعاء؟ إنها القدر الذي يستدرجه كل يوم للنهاية؛ وأي نهاية! وحاول أن يتجاهلها، لكنها أظهرت حدة كبيرة. فقرر أن يجارها، وألا يفضيها حتى ينهي المدة في سلام ويخرج لعالمه الكبير؛ الوظيفة، والمستقبل الواسع. لم يدفع بنفسه لدخول الجيش من أجل أن تحطمه هذه الفتاة الساذجة، لن يسمح لهذه المراهقة أن تدمر مستقبله؛ لذا قرر أن يكون صبورًا للنهاية.

وظلت الفتاة تفكر في أن تستخلصه لنفسها فقط؛ ليكون معها طوال الوقت. فقالت لأبيها ذات صباح وهم يتناولون الإفطار:

- بابا، أنا محتاجة سعيد معايا.

نظر لها الأب، وقال في غير اهتمام:

- ليه بس؟ عندك جوز خرفان.. اشمعنا سعيد كلكم طمعانين فيه؟

وارتاحت الفتاة لهذه الجماعية، فقالت:

- يحتاجه في حاجات كثير.. بيصور لي الملازم، ويعرف إنجليزي كويس.. وكمان شكله يشرفني أمام زمائلي..

- صحيح هو يشرف.. خلاص هو معاك، وأنا هخلي شاكر معايا.

وكانت الأم لا تهتم بشيء سوى وجود شخصين على الأقل في خدمة البيت. وعلى الرغم من حداثها، كانت تعامل سعيد باحترام، وكانت تشعر بالفخر عندما يقوم بتوصيلها إلى مقر الحى. إنه وسيم جدًا، وله جسد مشوق؛ فيبدو للجميع حارسًا شخصيًا. وتذكر واقعة حدثت في عيد الأضحى؛ حيث نزلوا للجراج، وجاءت بالجنديين وأمرتها بمساعدة الجزار. وظلت تعطيهما الأوامر، وتجعلها

ينظفان لحم الخراف ويضعانه فوق الصواني الكبيرة. فقال لها الجزلر
مشيراً إلى سعيد: «ابن سيادتك يحب ينبع بنفسه؟» وهز سعيد رأسه
رافضاً، وقرر الخروج من الجراج متعائلاً لإخراج.

وامتطاعت الفتاة أن تتخلصه نفسها. وفي كل مرة ينهب بها
ناحية ميدان السوارس حيث حصة الدرس، كانت تقفز إلى المقعد
الأمامي وتقول له:

- أنا مش فاهمة.. ليه ساكت على طول؟

- أنكلم أقول إيه؟ هكنا كان يحدثها بطريقة جافة.

- أحب أعرفك أكثر.

فكان يتحامل على نفسه، ويكظم غيظه، ويقول في ثبات:

- آنة دعاه، الباشا يوفيني.. أرجوك.

- ملكش دعوة بالباشا؛ أنت معايا أنا، والباشا أمر بكده.. ها؟

- هايزة تعرفي إيه؟

- حيت قبل كده؟

ارتبك، وشعر بأن مصية هبطت فوق رأسه، وقال لها:

- وسمك في إيه حيت ولا لا؟

احمر وجهها، وقالت بنبرة أمرة:

- طيب خلي بالك من السكة. وقفزت للمقعد الخلفي.

وظلت لعدة أيام لا تتحدث معه؛ تركب السيارة وتجلس في الكنبه
الخلفية، وتظل ملتصقة بالباب، وتنظر للسارة والطريق في تركيز بدا
تجاهلاً متعمداً. وعندما يصل بها للنادي، تظل تنظر له من بعيد

نظرات طويلة، وبتها مس أصدقاؤها عليه. وفي يوم عادت له، وقالت
بحدة مزيفة، وكانت عيناها تشعان بلمعة مخيفة من أثر الغيرة:

- مش لازم تبص على أصحابي كثير.. خلي عندك ذوق.

وشعر أنها لن تتركه إلا مسجونًا؛ فقال لها في يأس:

- الباشا لو علم بشيء هيسجنني.. ياريت تراعي ظروفي.

«صدق من قال إن النساء مجنونات؛ في طفولتهن وشبابهن
وشيوختهن» هكذا قال في نفسه.

- على فكرة، مينفعش نتكلم في العربية بالمنظر ده.. إيه رأيك
أعزمك على سينما؟

- مينفعش.

عضت شفتيها، وقالت بحدة صريحة:

- أنا هوريك هعمل إيه.

- طيب تقعد في العربية أفضل.

- نروح سينما، ده آخر كلام عندي.

وفي «سينما الثكنات» جلسا إلى جنب بعضهما في آخر صف، وكان
يُعرض فيلم «بودي جارد»، وتقمصت الفتاة دور البطلة التي وقعت
في حب الحارس الخاص. وظلت سابحة في الرومانسية، بينما ظل
سعيد جالسًا بجوارها كقنفذ، كلما دخل شخص ترقبه في خوف.
ولما انتهى الفيلم، لفت يدها حول يده وقالت:

- إيه رأيك في الفيلم.. فهمت حاجة؟

- لا. هكذا قال وهو يحمل يده من يدها.

- ازاي؟ الفيلم مليون عبارات ومشاهد الحمار يفهمها. ثم نفخت في نرفزة، وقالت بعصية:

- الفيلم شاهدته عشر مرات، وفي كل مرة أحلم تيجي تشوفه معايا.. ولما تيجي، تقولي مش فاهم.. أنت كذاب.. أنت فاهم كل حاجة.

- واية المطلوب مني.. حتى لو فاهم؟

هدأت ملامح وجهها الطفولية، وقالت بنبرة رقيقة تشبهها:

- يبقى كفاية أنك تحس بيًا، وبعد كده نشوف هنعمل إيه.

سألها مستر «دينس» مرة ومرتين عن هذا الشخص، وكانت تقول له: «إنه اختفى». فبهز رأسه مطمئنًا، وتقول له زوجته: «مديحة قوية». لمدة لا تقل عن أسبوعين لم تشاهده. واستأنفت سيرها المعتاد حتى المطعم، وعند دخولها وجدته جالسًا على نفس الطاولة.. احتقن وجهها واتجهت لتراييزة أخرى، وظلت تعبت في حقيبة يدها لتفادي النظر إليه؛ لكنها شعرت أن السهم قد نفذ، وأن عليها أن تستلم وتسقط. وظلت تأكل بنهم مطبق، وفي يدها المنديل الذي يزيل البقايا العالقة على شفيتها. واستكفت بأكل نصف السندوتش الأول، ثم ظلت ترشف الشاي بطريقة أرستقراطية.. وهذا طبعًا ليس معتادًا؛ المعتاد أنها كانت تلتهم السندوتشات وتبلع اللقيمات بالشاي.. شعرت به يأتي نحوها؛ نفذ إلى أنفها شذا العطر النافذ للأعناق.. رفعت عينيها، فوجدته واقفًا أمامها وعلى وجهه ابتسامة عريضة.

- أنا سمير.

هزت رأسها متجاهلة، وقوّست حاجبيها، ثم قالت:

- ماذا تريد مني؟

- أريد أن أتحدث معك.

- هل تعرفني؟

- أكيد... بس تسمحيلي أجلس.

- لا، إحنا ممكن نتكلم برة؛ عشان مقدرش أتأخر على العمل.

وأثناء دفعه للحساب، استطاعت أن تسترق النظر إليه.. وجدت شابًا وسيًّا للغاية؛ عينان سوداوان، وشعر أصفر ناعم.. طويل وعريض؛ أشبه بالخواجات. ولما جاءها، دعاها لتحرك أولاً بطريقة أرستقراطية. وفي الخارج كان الجو منعشًا، نسيت كل شيء، وتوقف عقلها إلا عن سماعه فقط؛ فقال لها:

- أنا اسمي سمير دانيال، والذي المهندس هاني دانيال؛ معروف في الخارج، له أعمال هندسية كبيرة في أوروبا. والدتي امرأة أمريكية. كنت عايش هنا في الحي الإنجليزي، إلا أن والذي قرر السفر فجأة، أو الهجرة، لكن مش قادر أتخلص من جبي لمصر؛ وعشان كده هتلاقيني موجود هنا على طول. أعمل مهندسًا في شركة «اباتشي للبترو»، وأقطن في شارع ١٢.

هكذا أراد أن يقذف كل ذخيرته دفعة واحدة. إن الاسم والمظهر لا يكفيان، لكن الوظيفة والنشأة سيضيفان شيئًا من المساحة للتقاط الأنفاس.. لا بدّ أن تنبهر. هو يعلم أنها تعمل في الحي الإنجليزي؛ براها تستقل المترو، إنها عاملة فقيرة.. لا بدّ أن تخضع وتستسلم لفضائله وقوته. فبدأ وجهها هادئًا صافيًا، وقالت بمكر:

- وماذا تريد مني؟

- الصداقة.

إنها كلمة لطيفة رقيقة.. إنه ليس غشياً ليقول لها إنه معجب بها من أول مرة.

فقلت بنفس النبرة وعيناها في اتجاه آخر:

- أي نوع من الصداقة تريد؟

- الصداقة ليست أنواعاً؛ أنا أشعر بالراحة لمجرد رؤيتك.

فهزت رأسها ببطء، وبدأ وجهها متورداً من السعادة.. وحركت شفيتها مرة ومرتين تريد الحديث، ولا تستطيع. واقترب أكثر منها، وظل يتأملها بشغف، ثم قال:

- أنا لا أعرف اسمك.

- مديحة. هكذا قالت بسرعة، وعادت صامتة متكاملة الهدوء من حولها. وكانت أقدامها قد أخذتهما إلى حيث منزل مستر «دينس».

- لماذا لا تتحدثين.. هل ضايقتك؟

- أبداً، ولكن لدي عمل.

- آسف.

وبدا عليها شيء مثل القلق، كأنها تائهة. فرغم ثقافتها وجراتها، فإن لسانها تجمد تماماً عن الحديث.. علاوة على أن قلبها كاد يخرج من بين ضلوعها، وجف ريقها.. ورفعت عينيها تنظر إليه، وقالت في نفسها: «هذا هو الحب من أول نظرة؛ أليس كذلك؟».

- ابتعد عنها أيها المعتوه.. خذ. خذ. خذ.

يقطن سمير في شقة عتيقة في شارع ١٢ المتفرع من شارع الشكنات، في عمارة من ثلاثة طوابق.. العمارة قديمة تسكنها الرطوبة؛ فتلاشى لونها الأصلي، وبرزت عظامها من خلال البلكونات والأعمدة، وبرز الحديد صَدِّئًا.. علاوة على أن مواسير الصرف الصحي كانت ترشح؛ فبدت خلفيتها رديئة أشبه برثة هالكة من أثر التدخين. يقطن في الطابق الثاني. والشقة إيجار قديم، حاول الدكتور مرزوق أن يستخلصها منه ويبيعها، لكنه رفض رفضًا قاطعًا. «حتى لو وزنها ذهب، لن أتركها» هكذا كان يقول له. وكان السكان أيضًا يرفضون رفضًا قاطعًا ترك الشقق، أو حتى رفع قيمة الإيجار. إنها شقق رائعة في أفضل قطعة في الحي الإنجليزي، وواسعة، وتكتنفها الأشجار.. ورغم ذلك لا يسعون لترميمها. وجاء الدكتور مرزوق بمقعد وجلس أمامها في حجرة. في كل صلاة فجر يدعو الله دعاءً طويلًا، يكون فيه خاشعًا لله سبحانه وتعالى؛ أن تسقط هذه العمارة، ويبيعها؛ ليتحول ثريًا في لحظة واحدة. ويدعو على المهندس الذي صمم أغلب العمارات لتصمد لمئة عام، أن يتليه الله بمصيبة لو كان حيًا. أما إذا كان قد مات، فليتبلى أبناءه وأحفاده من بعده. إلى هذا الحد كان الدكتور مرزوق ناقدًا.. الاسم يملك عمارة، لكن الحقيقة أنه يتسول طعامه. لم يكن الدكتور مرزوق ذا شخصية عدائية هكذا، ولكن من شدة ما مر به شعر أنه أخطأ. لكن شيئًا ما كان يطمئنه في سمير؛ إنه يستطيع أن يتغلب عليه، خاصة أنه لا يستقر في مصر.. سيحاول معه مرارًا وتكرارًا. وجلس يفكر في صيغة تدخل على هذا الملعون المتغطرس. وانتظره أمام باب

العمارة، حتى جاء في الخامسة مساءً؛ حيث موعد عودته من العمل. تقف أمام البيت السيارة «الجيمنس» الكبيرة، وينزل منها مودعاً أصدقاءه الأمريكيين في ود. وبصوت عالٍ، وجَّه له تحية المساء:

- مساء الخير يا أستاذ سمير. هكذا قال، وتقدم نحوه يضافحه.
- أهلاً يا دكتور.. في حاجة؟ هكذا قال بعربية ركيكة إلى حد ما.
- طبعاً.. عشان أبرئ نفسي أمام الله والقانون، العمارة على وشك الانهيار.. زي ما أنت شايف، الأعمدة تآكلت وبرز منها الحديد.. تعال معي. وجذبه ليشاهد الرشح الذي أحدث شروخاً كثيرة في جدرانها، وقال الدكتور بصوت واضح:
- العمارة قديمة، وأنتم مش ناويين ترمموها.
- وإحنا مالنا؟ هكذا أجابه سمير في برود.
- ازاي أنتم مالكم.. مين اللي ساكن في العمارة غيركم؟
- أنت مش صاحب العمارة، ويتاخذ الإيجار بانتظام؟
- إيجاراً هكذا صرخ الدكتور منفعلاً.
- اسمع يا دكتور، سنين طوال وأنت تتقاضى أجر الشقة، أليس كذلك؟ وأنت ملزم بأعمال الترميم.. أحسن ما أبلغ البوليس.
- اعمل اللي أنت عايزه.. بس أحب أقولك إن العمارة في أي وقت هتقع فوق دماغكم.

هكذا انفعل الدكتور في وجهه، ثم لوح بيده وتركه وذهب.



الدكتور مرزوق عبد العظيم هو دكتور جامعي.

والدكتور رجل مثقف. بعد أن رحل البواب، أخذ الغرفة الخاصة به وحوّلها لمكتبة صغيرة. يجلس وسط أكوام الكتب ليل نهار؛ يقرأ تارة، ويدعو الله أن تنهار العمارة تارة أخرى. فقد ترك التدريس منذ سنوات قائلاً: «إن التعليم في مصر فاشل، والمناهج فاشلة، والطلاب أغلبهم فاشلون مستهترون، وأنا لا يشرفني أن أكون ضمن تلك المنظومة». كان دكتوراً في الاقتصاد والعلوم السياسية، وكان يستمتع بالقراءة ومتابعة الأحوال العامة. يقضي نصف وقته في قهوة كليوباترا؛ يتناول الشاي، ويشهد السجارة الرديئة، يقدم أمامها نصائح التي اكتسبها من الحياة، على أن البعض كان يدعو للجلوس شفقةً عليه. طالما تردد على «كشري صلاح» أسفل الكوبري، وطالما تناول الطعام على عربات الفول. وكان السامرة يعرفونه جيداً، ويفرونه بمبالغ طائلة نظير الأرض، وكان يحتج ويقول بصوته العالي: «يعني أجيب معول وأهدمها بإيدي؟! ادعوا معي الله أن تسقط.. ولا تحدثوني عن الملايين، أريد أن أعيش مستوراً وأموت مستوراً».

وكانت زوجته قد تركته منذ عشرين عاماً، عندما كان يعمل في التدريس. وهناك قصص رخيصة تتردد عن علاقته بزوجه، يخلو للبعض أن يخوض فيها متسائلاً: «كيف خائته؟ وكيف هربت منه؟». لذلك بدا لهم في ثيابه الرثة، وقذارته، أن الجنون أصابه بعد خيانة زوجته له.. وهذه الحقيقة تريحهم جداً، يجدون فيها منفساً مريحاً لتبرير حالته. لكن الحقيقة أن الرجل طلق زوجته بعد أن فشل في أن يتقاربا فكرياً.. كانت تريده رجلاً مزيفاً يجاري العصر، ينافق، ويتغاضى.. إن قصة رفضه للمشاركة في بناء نظام فاشي مستبد هي التي أوصلته لهذه الحالة. كانوا لا يستوعبون هذه القصة أبداً.. ما

كانوا يستوعبونه هو أن زوجته خائنه؛ كم قال رواد القهوة في تهكم:
«هذا ليس صحيحًا.. زوجته خائنه».

بدا في السنوات الأخيرة مُهْمِلًا في نفسه، إلى حد عدم الاستحمام
لفترات طويلة، وتترك أظافره تنمو وتمتلئ بالقذارة.

كان الدكتور مرزوق يكره وبشدة سمير؛ كان يستفزه جدًا، نموذج
طالما صادفه في مسيرته الطويلة، كان يقول عنه إنه ليس طبيعيًا، وإنه
يضممر في قلبه شرًا للجميع. وكان الدكتور يرى في عينيه الخضراوين
مكرًا ودهاء لا يقوى على تحملها. وفي ذات مساء كان عائداً من
سهرة، وكان الدكتور جالساً على باب العمارة؛ فقال له:

- مساء الخير يا أستاذ سمير.

بدا على سمير الانزعاج، وكان وجهه محتقناً؛ فقال له:

- ليس هناك خير أبداً في مصر.

- لماذا؟

- لك حق تسأل لماذا.. ألم تعلم بمذبحة أبو قرقاص في المنيا؟ إنهم
علقوا رؤوس المسيحيين على أعمدة الإنارة.

- أنا أعلم بهذه الواقعة.. لذلك استقطبت أصدقائي وتقارعنا
الأنخاب، والحقيقة تأثرنا. هكذا تعمد الدكتور أن يبدو في هذه
الصورة.. يدرك تمامًا أن أمثال سمير لن يصدقوه إذا قال إنه تأثر
جدًا؛ لذلك كان يوفر على نفسه الخوض في قضايا خاسرة.

- هه.. ماذا تريد؟ هكذا قال سمير في عنف.

- لا شيء.. تبدو حزينًا.. غداً أو بعد غد نتحدث.

- حديث عن الشقة تاني مش هسمع.. لو هتقع على دماغى لن
أتركها.. أنت فاهم؟

وتركه وصعد وهو يقذف بنظرة حادة، وجلس الدكتور على
مقعده تعينًا يائسًا.

مستر «وليام مور» يبدأ يومه بالموسيقى، ويختتمه بالموسيقى. شفته
واسعة وتحتاج لجهد شاق لتنظيفها، وطالما فكرت السيدة سميرة في
تركه؛ لكن الرجل ظريف ولا يبخل عليها بشيء. فتحت الباب،
فوجدته في ملابسه الرياضية يؤدي بعض التمارين الصباحية في البلكونة
العريضة. مستر «وليام» تخطى الستين عامًا، لكنه يحرص وبشدة على
ممارسة الرياضة.. قصير وجسده ممشوق، وتبدو على ذراعيه وصدرة
العضلات المحاطة بتجاعيد الشيخوخة.. شعره غزير ضارب الشيب
فيه بكثافة، ووجهه مدور بشوش.. عيناه خضراوان ضيقتان، وأسنانه
كاملة.

- صباح الخير يا مستر «وليام».

- صباح الخير يا سميرة. هكذا يُلقى تحية الصباح عليها بصوت
أنهكته التمارين الشاقة.

فور دخولها ينهي التمارين، ويندفع نحو الحمام ليأخذ حمامًا باردًا
مهما كان الطقس. ثم يخرج إلى غرفته ليرتدي ملابسه؛ البدلة الكاملة،
فيبدو أنيقًا رشيقيًا. وأثناء ذلك تكون السيدة سميرة قد أعدت مائدة
الإفطار. يتناول الإفطار بسرعة، ثم يأخذ حقيته الصغيرة. وقبل أن
يخرج من الشقة يذهب لها في المطبخ، ويقول بنبرة رقيقة:

- هل تريدن شيئاً من الخارج؟

- لا شيء.

- مع السلامة. هكذا يقول بعربية ركيكة.

- مع السلامة.

على الرغم من أنها كانت تريد ترك العمل عند مستر «وليام مور»، فإنها سرعان ما أدركت خطأ الإقدام على هذه الخطوة.. فمستر «وليام» يعيش بمفرده، خدمته ليست مجهدلة، ويدفع كثيراً. أما شقته الواسعة، فالعمل فيها مرهق للغاية. ولكن السيدة سميرة تنظفها يوماً واحداً بجهد شاق، وباقى الأيام تمر على الأثاث بخرقة. المطبخ ضخم، لا يلبق برجل يعيش بمفرده، ولكن للأمانة مستر «وليام» لا يُفسده أبداً. حتى عندما تزوره صديقة، فإنها يطلبان عشاءهما من الخارج.. فضلاً عن سهراته المتكررة في «رابطة المقربين» أو «بار الكرة الذهبية».. إنها لا تستطيع العمل لدى أسرة كما حدث في السابق؛ الصحة لم تعد تحمل.. تلزم المقعد طوال الوقت؛ تشعر بألم شديد في المفاصل.. عشرون عاماً من العمل المتواصل. إن الخدمة في المنازل مرهقة جداً، عصفت بصحتها وقوتها. وتتهجد من الأعماق كلما شعرت بالألم، إن زيارة الأطباء ثقيلة على قلبها؛ لذا تلجأ لوصفات طبيعية، فالكيماويات لا تحسن المريض أبداً. وينتهي يومها وهي جالسة في البلكونة ترتشف قهوتها، وتتابع حركة الطيور فوق الأغصان. تعلم يقيناً أن مستر «وليام» رجل عرييد؛ تعلم ذلك من أصدقائها الخواجات، يقولون لها: «أنتِ محظوظة يا سميرة؛ فمستر وليام في الصباح غير مستر وليام في المساء.. إنه عرييد، طالما تشاجر مع رواد بار الكرة الذهبية، ومع المارة.. إنه قذر».

ويوم السبت مختلف في برنامجه عن باقي أيام الأسبوع؛ حيث لا يمارس التمارين الرياضية. يستغرق في النوم حتى العاشرة صباحًا. تكون السيدة سميرة قد انتهت من إعداد الطعام، وتنظيف الردهة، وتجهيز الحمام، وكوي الملابس. يقوم ويأخذ حمامه، ثم يخرج ويرتدي الروب الحريري، ثم يتصفح الجرائد وهو يرتشف القهوة المزوجة باللبن الطبيعي. وهذا اليوم تقول عنه السيدة سميرة يوم الشجار؛ حيث تذهب له في البلكونة وتقول له:

- أي أكاذيب تقرأ؟

يطوي جريدة «الأهرام ويكلي» جانبًا، ثم يقول:

- عذرًا.. نسيت أن هذا هو ميعاد الشجار الأسبوعي.

- لماذا تسمي المناقشة شجارًا؟ هكذا تتحدث سميرة بنبرة هادئة.

- لأنك تتحدثين حديثًا لا معنى له.. أنا لا أفهم ثقافة الاعتراض التي تعتقنيها؛ كل شيء مرفوض.. كل شيء مخلوط بالقذارة والأكاذيب.. سميرة، نحن لسنا في الجنة.

- أعلم.. نحن في الجحيم.

- أووه.. ألم أقل إنك قضية خاسرة؟

- أنتم معشر الإنجليز لم تخسروا أبدًا.. كل حروبكم حولتموها لقضايا إنسانية؛ فاغتنمتم منها الكثير.. أنتم من اخترعتم الكذب والخداع.. دماء البشرية في أعناقكم.

- هاهاها. هكذا يرد مستر «وليام» وقد تممس كالعادة تدريجيًا للحديث؛ فالسيدة سميرة قادرة على أن تبدو معارضة متجلدة.

- «دماء البشرية في أعناقكم».. يا لها من عبارة! من البداية ظننتك شيوعية.
- هاهاها.. هكذا تتوارثون الأفكار؛ من يعارضكم فهو قذر متعفن، أفكاره شيطانية.. هل تستطيع أن تجاوزيني عن معنى الديمقراطية في نظرك أيها السيد المحترم؟
- نحن من اخترعنا الديمقراطية وخصنا الحروب من أجلها.
- هاهاها.. أنا أعجز دائمًا أمام قدرتك التلقائية على تأليف النكات بهذه السرعة.
- أي نكات؟ هكذا قال، وقد أخذ وجهه يربد شيئًا فشيئًا. وهذه هي المرحلة قبل الأخيرة في فض النقاش بينهما.
- الحروب.
- حروبنا ليست نكاتًا، لقد دفع جنودنا حياتهم ثمنًا لتعليم الشعوب الجاهلة.. نحن نسعى دائمًا لنشر الديمقراطية.
- أرجوك توقف.. سأسقط على الأرض من فرط الضحك، وأنا امرأة مريضة.. توقف يا سيدي.
- سميرة، إما أن نتحدث دون سخرية وتهكم، أو لا داعي للحديث.. أريد الاستمتاع بهذه العطلة. هكذا قال مبدئيًا اعتراضًا بدا غير مقنع.
- حسنًا، لنستأنف الحديث.. بشرط أن تتوقف عن إلقاء النكات.
- أووه.
- أرجوك تحدث بحرية أكثر؛ أنت لست أمام الصحفيين، وليست أمامك كاميرا قذرة، ولا ميكروفونات؛ أنت تجلس بالروب

وتستمتع بسماع الموسيقى.. فضلاً عن تناول القهوة الفرنسية.
إذن، دع التكلفة وكلّيات الدبلوماسية إلى أوقاتها القنرة.

فاعتدل في جلسته، وقال لها:

- هيا تحدثني، ولكن دون سخرية.
- وهل نشرتم الديمقراطية في مصر؟
- حاولنا. هكذا قال بنبرة من فشل في شيء.
- نعم حاولتم بعد أن قتلتم الشعب في الثورة العظيمة عام ١٩١٩.. هل من مبادئ الديمقراطية قمع الثورات السلمية وسحق مطالب الأغلبية؟
- هذه ليست حقيقة؛ الحقيقة أن جماعات من الشعب خرجت عن السلمية وهاجمت جنودنا.. ارجعي للتاريخ جيداً.
- من الصعب أن تعارض قرار أو موقف موظف مؤمن جداً بوظيفته.
- ماذا تقصدين بالضبط؟ هكذا قال وهو يأخذ رشقة من القهوة.
- أنت مكلف من الحكومة الإنجليزية بممارسة هذه الأكاذيب؛ أليس كذلك؟
- سميرة، لن أسمع لك.. أنا لست كذاباً. هكذا يقول دائماً بعد أن يتفرض. وهذه النقاشات تسعده؛ لأنها تبرز موهبته الكبيرة في التمثيل.
- أنا لم أقل ذلك.
- أنت تصفيني بالكاذب.

- لا، هذه ليست الحقيقة.. الحقيقة أنك يا سيدي تنقل الأخبار المزيفة، وتبرع في نقلها للجمهور، رغم أنك تعلم أنها كاذبة.. لكنها ليست من صنعك، هم أفهموك أنها الحقيقة، وأنت لا بد أن تفهم ذلك، وأعتقد أنك فهمت.

هكذا يكون الحديث بينهما في العطلة الأسبوعية. ودائمًا ما تجد سميرة الراحة في الحديث والنقد اللاذع؛ إنه المنفس الوحيد لها. ومستر «وليام» يتحدث معها كثيرًا عن حياته الخاصة، وأيضًا يعرف أبناءها، وخاصة مديحة التي عملت يومين في خدمته أثناء مرض أمها. إذن، أيام السبت تنوع فيها الحوارات ما بين العام والخاص. وبعد أن تنفض هذه المناقشة الساخنة، يعود مستر «وليام» لغرفته وينام حتى الثالثة عصرًا، ثم يرتدي ثيابه «الكاجوال» وينطلق.



- سعيد، لماذا لا تستغل وقت فراغك في المذاكرة؟

وتفكر سعيد للحظات، وقال بعدم اكتراث:

- دي شهادة، وأظنها تحتاج لجهد كبير.. هستانف المذاكرة بعد قضاء الخدمة.

- أنا معك وهو فر لك كل شيء. بس خلي بالك، أنا مُدرسة رخمة قوي.. التلميذ اللي يقصر معايا، على طول أعاقبه عقاب قاسي جدًا. هكذا حدثته دعاء.

وأدرك أنه لا يستطيع الخلاص منها؛ الأمر الذي جعله لا يكف عن التفكير في شيء يجعلها تتعد عنه؛ فقرر أن يمتج على قريبا منه بافعال المشكلات. لكنها لم تؤثر عليها، بل تضاعف قريبا وحبها

له. وفي أول لقاء بينهما بعد ذلك؛ حيث ميعاد الدرس الأسبوعي، وفي هذا اللقاء تستطيع أن تجلس معه أكثر من ساعة كاملة، جلست في الكنب الخلفية. وألقى هو السيجارة، ونفض يده من الخرقه التي كان ينظف بها السيارة، ثم تحرك بها إلى حيث الدرس. فتحت الحقيبة وأخرجت منها ملازم كثيرة، فضلاً عن أدوات مكيية كاملة، ثم قالت:

- إيه رأيك؟

واستأنفت في حماس:

- سألت عن التعليم المنزلي، وعرفت كل حاجة.. حتى المصاريف وجدتها بسيطة. سعيد، لا بد أن تأخذ الأمر جدًّا؛ هذا سهل لي الحديث مع أبي في شأنك.

فتوقف بالسيارة فجأة؛ فارتطمت دعاء في ظهر المقعد الأمامي بعد أن دوت منها صرخة.

- ماذا تقولين؟

- وأنت ماذا تفعل.. أنت مجنون؟

- أنتِ لن يهدأ لكِ بالِ إلا وأنا في السجن.. أنتِ قطعًا مجنونة.

- إذا سمحت اهدأ.

- لن أهدأ.. أنا لن أسكت أبدًا؛ سأتحديث إلى سيادة العميد عن أفعالك، وليكن ما يكون.. أقصى ما في الأمر سينقلني. دعاء، كفاية.. لن أسمع بهذه التجاوزات مرة أخرى.

- اسمعني.

أدار الموتور، وبدأ يسلك طريقه إلى حيث الدرس. وشعر أنه أمام فرصة لن تُعوّض، وقرر أن يغتنمها؛ فقلص عضلات وجهه، وصدّر لها نظرة قاسية.. فضلاً عن صمته. ظلت تحدثه وتتوسل إليه أن يسمعها، لكنه قاوم وبشدة نبرتها الرقيقة. ولما وصل شارع دمشق، وقف أسفل بناية من ثلاثة طوابق، والتفت لها وقال بنبرة جافة:

- اتفضلي.. أنا مستني هناك. وأشار إلى «كافيتريا أفندينا» بجوار متجر عزيز موسى بائع الخمور.

فتزلت وهي تحدجه بنظرة سامة، ثم صفتت الباب بعنف.

قهوة أفندينا تليق بالشارع الكلاسيكي؛ حيث روادها من الأجانب والمصريين القاطنين حولها.. فهي ملاذ لأصحاب المعاشات. القهوة في طرازها شرقية؛ مقاعدها من الخيزران، وعلى جدرانها نقوش فرعونية مرسومة ببراعة.. فضلاً عن اللوحات القديمة. سقفها به تغطية من الأرايسك تتدلى منها زهور صناعية. جلس سعيد في الخارج، وجاءه النادل، فطلب منه شايًا. أوقد سيجارة، وراح يتأمل قولها. يدرك تمامًا أنها صغيرة، مراهقة، مندفعة في جنون. تريد أن تحدث سيادة العميد في شأني (نهار أسود).. إلى هذا الحد ساذجة.. تظن نفسها أين؟ تريد أن تزوج من الجندي.. هل صور لها عقلها أن أباهما يقول لها: «موافق.. أنبني سعيد أن يُحضر والدته غدًا للتحدث».. يا لها من مجنونة حقًا! وشعر بالتوتر، فصاح بعنف:

- الشاي.

وجاءه الرجل ووضع أمامه الكوب، فأخذ يرتشف منه ويتفكر.. حتى وقعت عيناه على «سيمون»؛ الفتى الإفريقي الذي يعمل في

منجر عزيز موسى.. شاهده ياتي من على الناصية وهو يدفع امامه صندوقاً كبيراً محملاً على إطارين. كان وجهه لامعاً، ويداه القويتان تنبضان بالعروق. وكلما اقترب «سيمون»، زاد توتر سعيد. ولما مر بمحاذاة السيارة، قام سعيد تلقائياً مدفوعاً بقوة غريبة، وقفز أمامه بسرعة، وأوقفه بيده، وقال بعنف:

- هل أنت أعمى أيها القرد؟

واستطاع «سيمون» أن يفهم كلمة واحدة من هذه الجملة، وهي كلمة «قرد»؛ من طول ما نُعت بها.

واندهش «سيمون» من هذا الهجوم العجيب، وقال له بإنجليزية ركيكة:

- هل تقصدني؟

- وهل هناك قرد سواك؟ أنت أتلفت سيارتي.

- أي سيارة؟

- إنت أعمى؟

ولم يستطع «سيمون» الكلام، كأنها في حلقه عُصّة. وقال بعد وقت استغرقه في الحزن والألم:

- إذا كنت أنا قرد، فأنت ابن موسى.

- ماذا تقول؟

وانقض سعيد عليه بركلات ولكمات سريعة، كأنه كان يتظر أي كلمة ترخص له الاعتداء. والتف الناس حولها. وخرج «مايكل» نجل عزيز موسى مدافعاً عن «سيمون»، وتبادل مع سعيد اللكمات

السريعة. فأدمي أنف سعيد، وشُطرت الشفة السفلى لـ «سيمون»..
ووسط كل هذا الانفعال، سُمع صوت أنثوي يصرخ: «سعيد، تعال
بسرعة.. دعاء أغمبي عليها».

بعد هجوم مستر «دينس» عليه، وبعد أن تفهم الموقف، اصطحب
لمنزله، وأجرت له زوجته الإسعافات الأولية؛ بينما كانت مديحة تقف
مذهولة يسيطر عليها الشعور بالذنب. ولما تعافى بعض الشيء، طلب
مغادرة المنزل، وذهب للمستشفى، ولم يمكث فيه كثيرًا. عالج بعض
الكدمات المتشرة في أنحاء جسده، وخيَّط القطع الذي كان يشق
مؤخرة رأسه.. كل ذلك تم في أقل من ساعة، لم تترك مديحة خلالها،
وكذلك مستر «دينس».. ظلت مديحة صامتة طوال الوقت، وكان
مستر «دينس» يداعب سمير ببعض الكلمات؛ فتجاوب معه، وظلا
يضحكان وقد نسي سمير الواقعة، وظلا يتحدثان في أمور العمل
بعد أن علم مستر «دينس» من سمير أنه يعمل في شركة «أباتشي
للبيترول».. وحدثه سمير عن أصدقاء له في الشركة، وفور وقوع
أسمائهم في أذن مستر «دينس»، كان يهز رأسه ويقول له: «هؤلاء
أصدقائي.. كل ليلة نسهر في رابطة المغتربين الأجانب.. لا بدَّ أن تأتي
إلى الرابطة».

- أين هي؟ هكذا قال سمير بفضول وهو ينظر إلى مديحة.
- في شارع ١٣.. ستستمتع، وستجد كل أصدقائك هناك.. كل ليلة
نميس نسهر هناك؛ حيث نلعب البلياردو، أو نشاهد المباريات..
المكان رائع.. كيف لم تسمع عنه؟
التفت سمير لمديحة، وقال لها:

- ما رأيك أن تسهرى معي في الرابطة ليلة الخميس؟

احمر وجهها، وقالت:

- ربما. كانت تشعر بالحرج من مستر «دينس»، الذي كان قد اقترب منها في البيت قائلاً في أذنها: «فتى رائع».

وصاح «دينس»:

- تعالي يا مديحة، سيروقك المكان.

فهزت رأسها في استجابة سريعة.

- ما أخبار صديقك يا مديحة؟ هكذا قال مستر «دينس» وهو يكتفم ضحكة.

- بخير.

- كان يوماً مأساوياً.

- نعم، لكنها غلطتي.

- المهم أنني لم أتماد في الإطاحة به.. عندما صرخت في وجهي وأنتِ تقولين بجنون: «مستر دينس، توقف.. توقف»، أدركت على الفور أن هناك خطأ.

تنهدت مديحة وقالت:

- أنت تصرفت بواقعية وبمتهى الطبيعية.. إنني أكره هؤلاء المتحرشين.

- نعم، أنا كذلك. وتذكري معي ما حدث لزوجتي «روين» عندما كانت في طريقها لعملها، واقترب منها شابان وتحرشا بها؛ مما

جعلها تركض منهما في هلع، فسقطت في حفرة؛ فتج عن ذلك كسر في معصمها. حينذاك بحثتُ عنها في الحى كله بعد أن وصفتها لي بدقة، وتمنيت من أعماق قلبي أن أجدهما لأحطم رأسهما.

هزت مديحة رأسها في ود، وقالت:

- لكنك حطمت رأس سمير!

بعدما أغمى عليها، حملها واندفع بها إلى البيت، وهناك استسلمت للبكاء. وراودته فكرة الهروب، ولكن بقي بضعة أشهر ويتهي كل شيء في سلام.. بضعة أشهر لا بد أن تمضي في سلام، وبعد ذلك يخطط لحياته ومستقبله دون أي قيود. ومر أول أسبوع ثقبلاً.. فعندما كان يسمع صوت سيادة العميد، يرتعد ويتفض. ولما زوجته تنظر إليه نظرة طويلة، تبتلعه الظنون في بشر عميقة موحشة. وقال في نفسه وهو يراقب زملاءه الذين يحملون لها الزهور المرسلة، متخيلاً ما آلت إليه من رعاية كبيرة: «الآن تجلس وتستمع بالإجازة، وتستشق الزهور، وتستطعم الحلوى، وتشاهد التلفزيون.. وأنا هنا فريسة للظنون والغد المظلم الذي لا يعلم باطنه إلا الله» هكذا أخذت الظنون تؤرجحه بقوة بين شيئين أفضلها مر. ولكن دعاء بدت فريسة سهلة للحزن الذي حولها لوردة ذابلة. وعجزت الأم عن أن تعرف سبباً واحداً لما آلت إليه ابنتها، وهي التي كانت منذ أيام تريد أن تأخذ العالم كله بين ذراعيها؛ فجندت جندياً لاستدراج سعيد.. ولكن سعيد فطن لناورات الخيشة، وأيضاً الساذجة؛ فحرص أكثر. ومضى أسبوع آخر؛ أيضاً ثقيل ومؤلم. لقد غشي البيت الهم والحزن؛ العميد بدا صامتاً يصدر تعليقاته بفظاظة،

والزوجة بدت حادة كثيرة الصياح مع الجنديين، وهو لا يعرف عنها شيئاً. وأخيراً، وبعد أن أنهكه الشك ونخرت الظنون عقله، ظهرت أمامه مشرقة.. لم يصدق أنها تتقدم نحوه، وفي عينيها نظرة عتاب كادت تُسقطه أرضاً.. وقالت بصوتها الذي افتقده وقتاً بداله دهرًا:

- من فضلك، ممكن توصلني الدرس.

ومضى أول أسبوع في سلام؛ تخرج معه، وفور خروجها من الشارع تقفز إلى المقعد الأمامي، وتظل تعاتبه وتتحدث معه دون توقف.. لم يخل حديثها معه من السذاجة فقط، ولكن اتخذ مساحات أخرى؛ مساحات تطرقت للزواج والإنجاب. وأدرك سعيد مدى الورطة؛ فخطط جيدًا لمجاراتها إلى أن تنتهي الستة أشهر الباقية في الخدمة. وقال لها ذات مرة بمكر، وكانا في السيارة وهي جالسة إلى جواره:

- أنتِ تلعبين بي.. تفهمين الواقع أكثر مني بكثير.. ولكن يجلو لك أن تلعب بي وبمشاعري؛ لذلك أقف منك موقفًا قاسيًا، ولن أستسلم.

هكذا قال، وختم حديثه بضحكة استفزتها. احمر وجهها المدور، واندفعت تعانقه وتقبله قبله فموية، استسلم لها ولذاقها.. كم كانت شفتاها رقيقتين، وأنفاسها حارة! واصطككت أسنانها ببعضها.. لم يصدق ما حدث.. بدت بين يديه كطفلة صغيرة تهرع من شيء مخيف.. لمعت عيناها بطبقة رقيقة من الدمع، وقالت:

- أنت تريد أن تتخلص مني.. وتعلم أنني أحبك.

وعجز عن الكلام، وبدت له السيارة عالمًا منفصلاً.. تجلس بجواره وتستعد لنوبة بكاء؛ إنها صغيرة وصادقة.. متى تعرف طبيعة الحياة؟ متى تجلس وتسخر من هذا المرء؟ هل يومًا ما ستجلس دعاء وتضحك على هذه الأيام، وتصف نفسها بأنها كانت معتومة

جاهلة وقعت في حب جندي فقير، لولا الظروف لكان قبع عند قدم أمها يقشر البصل ويدق الثوم ويغسل المواعين؟ إنها بريئة نقية، طالما حدثته عن احتجاجها على معاملة أمها للجنديين، وكانت تقول له: لماذا يستسلمان لهذه الأوامر؟ والله يا سعيد حاولت الدفاع عنهما كثيرًا، ولكن أحدهما قال لي: أنا لستُ حزينًا؛ أنا أفعل ذلك مع أمي. حبها لسعيد فتح أمامها عالمًا كبيرًا؛ عالم المهمشين، عالم لم تتخيل أن تطفه يومًا ما. ونظر لها، وكانت قد تراجعَت قليلاً والتصق ظهرها بالنافذة، ولاحظ على صفحة وجهها شيئًا مثل الخوف؛ فقال لها ضاحكًا:

- غدا سأكون إما كابوسًا أو حلمًا.

- ما زلت لا تثق بي. هكذا قالت بمرارة.

وأدار الموتور، وقبل أن يتحرك قالت له: «انتظر». فتوقف ونظر لها، فأقبلت عليه بقبلة أخرى استغرقا فيها وقتًا لا بأس به.. وأدرك بخبرته مدى جهلها في ممارسة القبلات؛ كانت تفتح فمها أو تطبقه. إن هذا أول عهدا بالحب، كانت رائحتها نظيفة، وإن كانت اختلطت برائحة الكتب المدرسية.. وفوجئا بطرق شديد على نافذة السيارة.. ارتعدا، وإذا بهما يشاهدان جنودًا أحاطوا بالسيارة، وضابطًا قد دفع رأسه في زجاج النافذة يتحقق منها، وصدر لها ابتسامة ساخرة، ثم هز رأسه في برود، وأشار لها بيده أن ينزلا ويستسلما في هدوء.. وشعر سعيد في أقل من ثانية أن الأشياء تتزاحم أمامه؛ فلم يشعر بأي شيء حسي، كأنه خارج الزمن، حتى حديثها بداله مثل موجات الراديو المتداخلة.. ثم تحول شعوره للتقيض؛ فبدأ كل شيء حوله محسوسًا.. صفارة عالية ظلت تدوي في أذنه، والجنود من حوله يتظرون أن يقبضوا عليه. وانحل وعيه في ثوانٍ، وشاهد نفسه في صراع أبدي مع

المعقول واللامعقول؛ إنه المصير.. وأي مصير جلبته له هذه الفتاة الساذجة؛ إنها دمرته، وحطمت أحلامه على صخرة الواقع المخيف الذي طالما حذرهما منه.. وشعر بالأسف، وتساءل في ذهول: هل انتهيت؟ وبدأت له دعاء شيطاناً أعظم في صورة فتاة رقيقة؛ شيطاناً استطاع أن يسوقه إلى هذا المصير الأسود.. إنه مع ابنة سيادة العميد في وضع مغل.. ماذا يفعل؟ إنها كارثة.. لا بد أن يتخلص منها ويواجه هذه الكارثة بمفرده. وبدأ كل شيء حوله ثابتاً، كأن الزمن توقف فجأة، كأنها النهاية، وتساءل في نفسه: «هل سيضحك على هذه اللحظة يوماً ما وهو جالس بين أصدقائه؟». وطرق الضابط بقبضة يده على النافذة، ونفذ له صوته الغاضب يحثه على الخروج.. فانطلق بالسيارة بسرعة أطاحت بالجنود في الهواء. فانتفض الضابط وصرخ، واستقل السيارة ومعه جنوده، وانطلقوا وراءه. انحدر بالسيارة إلى شارع بور سعيد، والسيارة من خلفه تكاد تلحق به، ودخل شارع ١٨ بسرعة كادت تقلب السيارة الصغيرة، وصاح بصوت خارق:

- استعدي للنزول.
- لن أستطيع.. يمكن أموت.. سعيد اهدأ.
- سيلحقون بنا.. لا بد أن أواجههم وحدي. واقرب من شارع ٨٥، وهنا صاح:
- اقفزي حالاً. وهدأت السيارة شيئاً، وكانت هي متشبثة بالمقعد. تناول شنطتها في حركة سريعة، ومد يده وفتح الباب وكاد يدفعها؛ لكنها صرخت وقالت:
- خلاص.. استنى عليّ. ولما تفكرت، ارتعدت وتراجعت. وكانت السيارة تجري بها ناحية ميدان مصطفى كامل.. عاد يصرخ

والباب مفتوح، وهدأ بالسيارة. واستعدت للنزول، ولكنه سرعان ما شاهد في المرآة العاكسة سيارة الشرطة تقطع شارع ١٣ من ناحية المعبد اليهودي؛ فانطلق بسرعة بينما كانت تقفز.. وسقطت فوق الأسفلت تتدحرج بسرعة حتى ارتطمت في بردورة، وهنا شعرت أنها في عالم آخر؛ لا تدري ما هذا العالم.. عالم اللاوعي.. إنها تطير في سماء لا نهاية لها.. وانتصبت واقفة، الأشياء من حولها سليمة، ولكن تشعر أن لا وجود لها.. الشارع ينعم بالهدوء، ثمة صفارة ترن في أذنها، شعرت بأن هناك زنة في رأسها، وانقبض صدرها، وهمست في خوف: «ماذا يحدث؟»، وسقطت على الطوار، تتدفق من رأسها الدماء كالنافورة، لا ألم ولا خوف.. لا شيء على الإطلاق.. ومرت من أمام عينيها صورة أمها وشقيقتها؛ فانزعجت وظلت تثن في ألم، وهمست: «سعيد، أنا بموت».

واستطاع الهروب من سيارة الشرطة؛ خبرته بشوارع الحي سهلت عملية الهروب، فضلاً عن أن السيارة لا تحمل لوحة معدنية من الخلف، حتى اللوحة الأمامية تبدو هالكة مطموسة.. على أن اللوحة تحمل أرقام سيارة ملاكي. فعلى الرغم من وجود اللوحة التي كان مقرراً إصلاحها، فإنه تقاعس عن فعل ذلك وألقى بها في شنطة السيارة؛ مطمئناً لكونها سيارة شرطة. إن القدر يقف معه حيناً، ويتخلى عنه حيناً آخر.. فضلاً عن أن السيارة تقريباً لا تخرج من الحي. ولما اطمئن شيئاً، عاد للبيت، وذهب يطرق الباب. فتحت زوجة العميد، وتساءلت:

- أين دعاء يا سعيد؟

قال لها بصوت أنهكه الخوف:

- لا أعرف.. انتظرتها، وعلمت أنها خرجت من الدرس من حوالي ساعة.

- يعني إيه؟

- لا أعرف.. ظنتها جاءت مع صديقة لها.

- لا.. لم تأت.

وعاد إلى السيارة في خطوات بطيئة، وشعر أنه في كابوس. وتلفت حوله، وشاهد كل شيء حوله ملموسًا.. الجنديان يقذفانه بنظرة حقد وتسامران، ومن حولهما البوابون يدخنون ويتحدثون ويضحكون.. وهمس في نفسه: «إنهما ينعمان بقذارتها وإذعانها». ودخل السيارة بحركة بطيئة كمن فاته ميعاد مهم ويعلم أن لا جدوى من التعجل، ونظر للمقعد المجاور، وشاهد في الدواسة فردة من حذائها؛ فدبت في يده رعشة، ووقع رأسه على عجلة القيادة كمن تلقى طعنة نافذة، وانقبض صدره، وظل منقبضًا في ألم، وتضاعفت دقات قلبه، وشعر بمرارة تجري فوق لسانه، وسخونة تسري في عروقه.. وأدار الموتور وانطلق إلى حيث الحادثة. بدت له الشوارع كثيبة، وكلما مرت بجواره سيارة شرطة يتضاعف ألمه وخوفه. ولما وصل، شاهد جمعًا من الناس وقد صنعوا حلقة نقاشية، وكلما اقترب تألم وتضاعف خوفه، كأنه يرى مصيره أمامه؛ نهاية لا مفر منها، ولا بدُّ له من المواجهة.. وألقى بنفسه بينهم بعد أن نزل من السيارة، واستعد بصدر مفتوح لتلقي طلقة تصرعه، وتساءل:

- ماذا حدث؟

وأجاب رجل طاعن في السن بجلباب، وعلى صفحة وجهه
المجمدة الحزن:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. بنت صغيرة، واحد ابن حرام ألقى بها
من السيارة وماتت. وأشار إلى موضع على الطوار، وقال:

- هناك صُرعت. وكان رجل كبير يأتي بالأتربة ويسكبها فوق بقعة
دماء كبيرة.

كان مستر «روجر جونز» رجلاً كبيراً في كل شيء؛ مكانته، ضخامته
الجسدية، وأيضاً قلبه.. لذلك كان يتسع للكثيرين. بعض الأجنب في
الحق الإنجليزي يصفونه بـ«العمدة»؛ فالرجل قدم خدمات للجميع،
وتستطيع أخذ المشورة منه بقلب مطمئن. مستر «روجر جونز»
مدير المدرسة الأمريكية، يقبع في مكتبه بمبنى المدرسة المطل على
الحديقة، ويشعل غليونه، ويتفكر دائماً في مستقبل هؤلاء الأطفال
الذين يلعبون ويمرحون أمامه. المسافة من البيت في شارع ١٥ حتى
المدرسة الأمريكية لا تتعدى سيراً على الأقدام عشر دقائق. أحياناً
يذهب على قدمه، وأحياناً بالدراجة.. يترقب الأمور بعناية، ويتزعج
من الضوضاء، حتى إنه لا يستطيع أن يسمع أبواق السيارات دون
أن يسجل احتجاجه. ويتعجب من تلك الأمور المستفزة، ويضع
يده على رأسه، وينهال بالسباب على المزعجين، ويطلب البوليس
الذي يحضر بسرعة؛ كل ضباط القسم يعرفونه جيداً، حتى الجنود
في الشوارع يعرفونه.. يفتدق على الجميع من أمواله. يبدو بالقبعة
الجلد الكبيرة الدائرية كعلامة مميزة، يضعها فوق صلعته الفسيحة
في الصيف والشتاء. والآن، أصيب مستر «روجر جونز» بوعكة
صحية ألزمته الفراش. أما زوجته، فهي امرأة رائعة وصديقة حميمة

للحيوانات، وتشعر بالأسف من معاناة الحيوانات المصرية؛ تقول:
ما ذنبهم؟ لماذا يعانون هكذا؟ كانت السيدة «جونز» ضخمة مثل
زوجها، وجهها مكنتز بالشحوم، ثقيلة في حركتها، تضع فوق عينيها
عوينات طيبة رقيقة تستقر على الوجنتين المكنتزين بالشحوم، تتحدث
سرعة، وتزعجها أيضًا انضواء، وكثرة الحديث في الأمور التقارعة.
وذات مرة، بعد أن لزم مسرًا زوجها انقراثر، أخذت القبعة الخاصة
به ووضعتها فوق رأسها، وارتدت مسرته الجلد، وأيضًا حذاءه..
وخرجت. ظننا الجميع مسرًا زوجها جونز، وبدأت تسلك طريقه
في خطى بطيئة إلى المدرسة وتعود. هكذا فعلت نعدة أيام. وذات
يوم، وجدت عامل قمامة يقود عربة كزويجرها حمار تعيس، وقد
انهال على الحمار بقسوة. لم تصدق، وصرخت، واندفعت نحوه ترطن
بالإنجليزية وقد وصفته بكل المعاني البذيئة.. وجاء الضابط وأصغى
لها باهتمام، وأبدى انزعاجًا مزيفًا من معاملة الحمار بهذه الطريقة،
وهز رأسه متضامنًا معها، وقال للعامل:

- يا ابن الكلاب.. تضرب الحمار قدام الحاجات.. إيه
بغهمش؟ دلوقت أصرت إنها تاخذ الحمار.

وصاح العامل:

- ازاي يا معادة الباشا.. أبوس إيدك.

فعدا للسيدة «جونز» المتظرة تأخذ الحمار، وقال:

- لن يفعل ذلك مرة أخرى، أنا أتعهد لك بذلك.

وصرخت في وجهه، وأشارت في وجهها بإصبع الاتهام، وقالت
في حدة:

- ثم غضب لشدرة.. ونيت فقط السفارة، وجمعية الرفق
بخيرون.. ما تحدث نكل العالم عن همجية هذا الحيوان.. أنا
صورت كل شيء.. ونزل أسمع له بالذهاب حتى يعطيني الحمار
ويجر العربية بنفسه.

وعد نصيف ندمر.. وقد نه بطريقة رسمية حادة:

- بعري بعري.. نيت دي ممكن تخليك تاكل براز الحمار.. اسمع
نكلاء وقت حمر.. ومشر بر كده، جر العربية بنفسك؛ وإلا
ولله دفتييت.. وث مش هسيك.. دي ممكن تلبسك قضية
كبيرة.. وقترب منه وواصل:

- حمر عنده مش زي عندنا.. فاهم يا حمار؟

وآذن ندمر.. وقت الحمار وجر العربية بنفسه، وتألّم. وقالت له
وهي تريت عن ظهر الحمار في عطف:

- ما شعورك لأن؟

وقدت نصيف:

- نيم شرخي لأمين.. هل تسمع لي من وقتك؟

فقترب شرخي.. وقال وهو يتسم في طمانينة:

- مكيذ.

- أوووووه.. نيت رافع.. ساعدني في جر الحمار إلى منزلي.. وأشارت
يلها نحو البيت، وكانت أحداث هذه الواقعة تدور في تقاطع
شارع القنطرة مع شارع الثكنات. وشعر الضابط بالخرج، وأمسك
الحمار وأخذ يجره، والسيدة «جونز» تمشي بجواره بخطى أنهكتها؛
حيث ظلت شحومها ودهونها ترتج بقوة. ولما وصلت إلى

- العمارة، قالت له:
- من فضلك أدخله إلى الحديقة.
 - فبدأ على الضابط الانزعاج وقال:
 - وقتي يا مدام.
 - آسفة أيها الضابط الأمين.
- ولما أدخل الحمار إلى الحديقة، وكانت رائحة الحمار لا تُطاق، صافحته بحرارة وقالت له:
- شكراً أيها الضابط الأمين.
- وفي صباح اليوم التالي أخذت الحمار، وعاونها بواب العمارة متولي الفيومسي، وذهبت به إلى «رابطة المغتربين الأجانب»، وقابلت مستر «لارس هيو»، الذي تقدم يصافحها بحرارة:
- صباح الخير مسز «جونز».
 - صباح الخير يا مستر «لارس».
 - ما قصة هذا الحمار؟ هكذا تساءل في فضول.
- نظرت للحمار في عطف، وقالت في حزن:
- هذا الحمار تعيس؛ تلقى ضربات على ظهره حتى تآكل الجلد وبرزت العظام.. كان يسوقه حيوان، ولكنني أمرته أن يجر العربة بدلاً منه. والآن يا سيدي، خذوه واعتنوا به.
- امتقع وجهه وقال لها:
- مسز «جونز»، أرجوكِ خذي هذا الحمار معكِ؛ هذا المكان ليس للحيوانات.

فقلت له محتجة:

- أتم تجمعون التبرعات لأجل هذه الحيوانات؛ أليس كذلك؟
- لا يا سيدتي، نحن نجمع التبرعات من أجل إصلاح المصريين..
- وأنتِ نديكِ علم بالبرنامج. أعتقد أنكِ دائماً ما تُشرفينا بزيارتك كل أسبوع لمراجعة الميزانية، وإلقاء نظرة على الحساب البنكي.
- وما الفرق؟
- أووه، الفرق كبير.. أولاً ليست لدينا زريبة لإقامة الحمار.
- نعم.. نعم.

وامتأف مستر «لارس»:

- تستطيعين أن تعني به.. ولكن من نقودك الخاصة.
- وعادت السيدة «جونز» إلى منزلها حزينة لعدم وجود ماوى للحمار، وكانت تعلم علم اليقين أن هذا الحمار يحتاج لميزانية كبيرة ليحيا في راحة. وأخيراً، امتدت لأن تربطه أمام منزلها في حديقة القناة، وجلبت له موظفاً يقوم برعايته.

جلست السيدة سميرة أمام مستر «جونز» في البلكونة العريضة التي تطل على شارع القناة، وكانا يتناولان القهوة. اعتدل مستر «جونز» فوق مقعده وقال:

- كان لا بدَّ لي من الرحيل ذات يوم يا سميرة.
- أعلم ذلك.. ولكن متى مرت العشرة أعوام؟! إنني لم أشعر بها أبداً.

- وأنا أيضًا.
- وبكت سميرة؛ فقال لها:
- لا تقلقي أبدًا.
- لا، أنا لستُ قلقة، ولكن أتساءل في نفسي: متى أتممت السنين
عامًا؟
- أو ووه.. سميرة، لا تذكريني بالأعوام، ولا تكثرني لتقدم عمرك؛ لا
بدًا أن تستمتعي بكل لحظة.
- نعم، سأفعل ذلك. هكذا قالت وهي غارقة في تفكير عميق،
كأنها تجاوبه لتخلص منه. لكن كان في قلبها وعقلها معارك قوية،
تشتعل أحداثها وتتطور في كل ثانية. وشعرت بالمرارة، واستطاعت
أن تتهاون قدر الإمكان.. واستفاقت على حديثه:
- سأضع لك في البنك مبلغًا من المال تنفقين منه.
- المال لا يهم.
- هذا حقك.
- أشكرك.
- سراسلك ونطمئن عليك.
- أتمنى ذلك.
- ودخلت عليها السيدة «جونز» تحمل في يدها فنجان قهوتها،
ونظرت لمستر «روجر» وقالت له:
- هل تحدثت معها؟
- نعم.

ونظرت المرأة للسيدة سميرة، وكان وجهها قد امتقع، واقتربت منها وقتت لها:

- سأفتقدك يا سميرة.

- وثنا كذالك يا سيدتي.

وتفكرت السيدة «جونز» قليلاً وقالت:

- هل تقبلين العمل في رابطة المغتربين الأجانب؟ أستطيع إقناع لأعضاء بقبولك.

هكذا جاوبت على نظرة مستر «جونز» لها.

هناك حُفّات في حياة الإنسان تجبره على أن يتوقف ليفكر فيما وصل إليه. ويقتند الأحداث التي مر بها، ويتساءل عما حققه وما أخفق فيه؛ زيم تتراءى له أشياء لم يلاحظها من قبل. هذه اللحظات ربما تكون صائمة. وربما تكون سعيدة، لكنها في مجملها حتماً ستغير مجريات لأمره؛ ستجعلك تتصرف بطريقة ما لتعيد إلى نفسك الثقة من جديد. أحرقت نصف علبة سجائر ماركة «مور» في أقل من ساعة واحدة، أعقبتها بفنجانين من القهوة السادة. كان وجهها شاحباً؛ فمنذ رحيل مستر «جونز» وهي لا تتناول الطعام بشكل طبيعي.. حتى إنها لم تظن الحى الإنجليزي إلا لخدمة مستر «وليام مور». وضع لها مستر «جونز» مبلغاً قدره عشرة آلاف جنيه مصري في بنك القاهرة، علاوة على إعطائها بعض الأثاث المنزلي؛ فقالت لها السيدة «جونز»:

- سميرة، سأقسم بينك وبين الرابطة هذا المتاع. وبالفعل دفعت إليها بأشياء ثمينة.

وقفزت مدبجة معلنة أنها ستشتري كل هذه الأشياء، ووافقت سميرة على بيعها إياها مقابل مبالغ زهيدة. وشعرت بالوحدة التي جرعتها أبناءها منذ الصغر وبالمرض مرة واحدة.. ظهرها عاد يؤلمها، رأسها، صدرها.. كل شيء بدا أمامها واضحًا؛ طريق طويل، طويل جدًا، يابس، شديد القيظ، لا بدَّ وأن تسلكه وحدها. واستدعت الذكريات كآخر سبيل لها للنجاة من الوحدة، وتذكرت أيام الجامعة، والشباب، والانطلاق.. ثمة ذكريات قادرة على أن تجعلها تظمن شيئًا؛ طالما واجهت كل شيء وحدها، يجلو لها خوض الممارك بمفردها، لا تحب الحميمة.. لذلك عاشت حياتها كلها تتعامل بالمادة فقط، لا مكان للمواطف في حياتها.. واهتز قلبها بقوة، وقالت في نفسها: «سأمت وحيدة.. لن يشيعني أحد.. ثلاثون عامًا من العمل المتواصل، ثلاثون عامًا من تنظيف المنازل وتربية الأبناء والصراع الشرس بين القلب والعقل، ثلاثون عامًا مضت بقهرها وذلها.. والآن، ما تبقى فقط حصاد». وتساءلت: «هل سأكون فريسة للأعوام الباقية؟ وكم عامًا تبقى ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً؛ عامان.. ثلاثة.. خمسة؟ والنهاية هل على الفراش، أم في الطريق، أم في أحد المنازل؟». ورفعت يدها إلى الله في خشوع تام، وهمست بصوت حنون: «اللهم توفني وأنا أقف على قدمي.. آمين».



توقف المترو في محطة الثكنات، لكنها لم تنزل؛ لم يعد لها أحد في هذه المحطة التي ظلت عشرة أعوام تنزل فيها حتى عرفها عمال المحطة والموظفون. وشملت المحطة بنظرة حزينة، وانطلق المترو حتى وصل محطة المعادي، نزلت وسلكت طريقها إلى منزل مستر «وليام سور».. طالما فكرت في ترك العمل عنده، والاكتفاء بالعمل عند

مستر «جونز»، لكن الأخير رحل، وبرحيله حرصت على الوظيفة الوحيدة الباقية. وكالعادة فور وصولها، سمعت الموسيقى تصدح. وفتحت الباب، فوجدت مستر «وليام» يؤدي التمارين الرياضية وقد ابتل جسده بالكامل. ألفت نحية الصباح عليه، فردها بصوت أنهكت التمارين العنيفة. وأعدت له الحمام، ثم الإفطار. فأخذ حمامه وتناول إفطاره، ومضى إلى السفارة. واستأنفت عملها في ملل وحزن واضحين. وذهبت إلى بيتها بخطى بطيئة، حتى إنها مرت بلحظات كانت تجر فيها حقية يدها على الأرض من شدة شرودها في أفكار كثيرة.. فقدت السيدة سميرة الشعور بكل شيء بعد أن استيقظت فجأة على الخامسة والستين عامًا؛ الأمر الذي جعلها تفكر في الادخار، والكف عن الإسراف.. لا بد أن تخطط للأعوام الباقية بدقة. وانتظرت بفارغ الصبر يوم السبت حيث العمل عند مستر «وليام»، بدا الملل في صورة وحش لا يرحم؛ وحش يكمن تحت جلدها، ويزحف فوق حياتها بقوته وقسوته.. القراءة لم تعد تُمتعها؛ إن الإرغام على الشيء يُفقد متعته.. هكذا تؤمن. وألفت بكل شيء على الأرض؛ الكتب، والتلفزيون، والراديو.. ومزقت ملابسها، وصرخت في عنف. ولما وصلت ليوم السبت الذي جاء بعد طول غياب، ارتدت ملابسها، وصبغت وجهها بالمساحيق، ونزلت في نشاط. استقلت المترو، ووصلت للعمارة في نشاط، وصعدت للشقة.. ولأول مرة منذ عملها عند مستر «وليام» منذ سبعة أعوام، لم تجده في البلكونة العريضة يؤدي التمارين الصباحية.. تفقدت الشقة في حرص، ولاحظت أن ثمة رائحة غريبة تغلف جوها الذي بدا كئيبيًا مظلمًا.. فشعرت بالاضطراب، وتفقدت المطبخ.. ولاحظت وجود صفائح صغيرة من أكواز البيرة، فضلاً عن صناديق من الكرتون بها بواقي طعام.

وتقدمت نحو غرفته وطرقت الباب في حرص.. وجاء صوته بعد وقت لا بأس به محشرجاً غاضباً. وابتعدت قليلاً. وفتح الباب في نرفزة، وبدأ لها شخصاً غريباً ملتفّاً في الروب الحريري.. وبدأ لحمه الأحمر مفرزاً، وتقلص وجهه وتزاحمت فوقه التجاعيد، وهتف مترعجاً:

- هذا ليس معقولاً.. لماذا تطرقين الباب هكذا؟

وتأملت لشوان، كأنها تتأكد منه.. لم يبدو لها من قبل في هذه الصورة، ولكن طالما سمعت عنه أنه غريب الأطوار.. واندفعت تبرهن إقدامها على ذلك. فشاهدت خلفه فتاة مصرية قصيرة، جسدها ووجهها مدوران، خمرية اللون، وشعرها أسود قصير. تفحصتها الفتاة، وتساءلت بإنجليزية ركيكة:

- أليست الخادمة؟

هز رأسه وهو يتسم لها في بلاهة، وقال:

- نعم.

- دعها تصنع لنا الإفطار. وأشارت لسميرة أن تنصرف إلى المطبخ.

ما زالت الصرخة لها إيقاع في أذنه؛ إيقاع مخيف يوقظه كل ساعة وأخرى.. صرخة ارتجت لها الجدران، واقتلعت القلوب، ونقر من وقعها البعض.. ليجد نفسه في مواجهة زوجة العميد.. بقلب أم شعرت أن ابنتها ماتت؛ فصرخت في وجهه بعنف وانقضت عليه:

- فين بتسي يا ابن الكلب؟ هكذا اندفعت نحوه وهي تصرخ. ولما مزقت قميصه، وكان هو مستلقاً استسلاماً كاملاً لأظافرها التي سلخت لحم عنقه، أبعدتها العميد عنه، وتحدث إليه في هدوء حذر،

وقد لمس من صرخة الأم شيئاً لا يطمئن. اريدَّ وجهه وظل يستجوبه،
وقبضة يده مقفولة استعداداً للكلمة لا يعرف مسارها. وضاق العميد
من صمته، فصفعه على وجهه بقوة؛ فتزفت الدماء من أنفه بغزارة،
وشعر أنه عبر منطقة الخطر، لكنه تمالك بقوة وقال في ثبات:
- لا أعرف شيئاً.. اسألوا أصدقاءها.

ساعات من المرارة تجرّعها بقوة وثبات انفعالي، وقال في نفسه:
«فات الكثير وباقي القليل.. المهم أنهم استعدوا لاستقبال الطامة
الكبرى». واستعد سعيد بقوة لمواجهة هذه الكارثة؛ سينكر كل
شيء، وسيستعين ببعض الحجج.. فضلاً عن أنها مرت قبل أن
تموت بوعكة لها سر عميق حير الأسرة.. وقال في نفسه: «شوية
صبر وتحمل، وسأستطيع النجاة». وقبل أن يتصف النهار، اندلعت
من الشقة صرخات أفزعت الجميع، كان لها دوي مؤلم في العمارة
والعمارات المجاورة؛ فقد جاء خبر الوفاة من مستشفى الفاروق.
وذهبوا إلى المستشفى، وكانت قد وصلت المستشفى جثة هامدة..
وحسب التقرير الطبي، كانت تعاني نزيفاً حاداً إثر كسر مضاعف
عند محيط المخ؛ سببه الارتطام القوي بجسم صلب نتج عنه هذا
الكسر الذي أدى إلى الوفاة في الحال.

خيم الحزن العميق على الأسرة، وعانى العميد إثر هذه الحادثة،
وعجز عن تفسيرها. ولما تم التحقيق في الواقعة، بعد التحريات
الدقيقة، تم التوصل إلى أنها إما أن تكون صدمتها سيارة، أو وقعت
من داخل سيارة. ولعب الحظ لعبة كبيرة مع سعيد الذي نجا
بأعجوبة، إنه مدين لهدوء هذا الحسي وهذا المحيط بالذات، مدين
له برقبته؛ فلو كان هناك جمع من الناس وشاهدوا الواقعة، لكان

انتهى. حتى سيارة الشرطة التي كانت تطارده كانت مشغولة بالعشور عليه.. ترى أنه لم يرتكب فعلاً مخلاً في الطريق العام فقط، وإنما كاد أن يدهس الجنود، وتجراً على الضابط بهذه الحركة الجنونية. وتلقى سعيد استدعاءات كثيرة من الضباط الذين هرعوا لإثبات كفاءتهم. وكان التحقيق معه يبدو ودياً. واستطاع سعيد أن يتجنب على الفتاة بقلب قوي؛ ففي كل مرة كان يقول بعد أن يستعرض ثقافة مغشوشة عن التدين وحرمة الميت: «الصراحة كثيراً ما كانت تطلب مني الذهاب إلى مقهى أفندينا، وأنتظرها هناك بالساعات حتى تأتي بمفردها.. للأمانة لم أر معها أحداً من قبل» هكذا يبدو في الجملة الأخيرة دقيقاً خبيثاً؛ يعرف أن مدلولها سيحمل معاني أخرى. وكان يخلو للضباط هذه النيمة، التي أحياناً تعقبها شحاتة، أو قسوة مفرطة من الضباط. حتى وقع في يد الضابط الذي هرب منه؛ وقع في يده بطريق المصادفة.. كان خارجاً من القسم، فواجه الضابط عند البوابة الرئيسية الكبيرة.. وتفحصه بتركيز، وسرعان ما صاح في عنف:

- استنى يا ض.

ولما وقف أمامه، عاد يتفحصه بدقة، وقال بغلاظة:

- بتعمل إيه هنا؟

- أبداً يا سعادة الباشا.. كنت عند أشرف بيك.

وبدأ له الضابط كشيطان أعظم استطاع أن يصل إليه؛ الجحيم والموت يتظرانه. وشعر بقصة في حلقه، وجف لسانه، وعجز عن رسم ابتسامة. ولما حاول أن يذهب، مسكه من قميصه، وأخذ يجره في صمت.. وفشلت كل محاولات سعيد للخلاص منه.. ظل يضحك في خبث وهو يقول: «سعادة الباشا، واخذني على فين؟» وظل

الضابط يجره بقوة، وأخيرًا تلفظ:

- دوختني عليك يا ابن الوسخة، وأنت هنا قدامي.

وظل سعيد في ثوب المكر متشبثًا؛ لن ينجيه إلا هذا الثوب، وقال في ثبات أو متظاهرًا بذلك:

- تقصد مين يا سعادة الباشا بالكلام ده؟ على فكرة أن جندي ويخدم عند سيادة العميد متولي عبد الظاهر.. لو سمحت يا سعادة الباشا بلاش سيرة الأم. هكذا قرر أن يبدأ بالهجوم.. بل ابتسم في ثقة كبيرة وقال:

- سعادة الباشا متظرنى.. أستنى، ولا حضرتك تكلمه إني في ضيافة معاليك؟

وظل الضابط ينظر له ويسترجع الصورة قبل أن يأخذ أي موقف. وقام بكرشه الكبير يتقدم نحوه، ووقف أمامه ووجهه يشع ببريق مخيف ونظرة حادة كسهم نافذ مسموم، ولطمه بقوة؛ فسقط سعيد على الأرض وصاح:

- سعادة الباشا، هو في إيه بالضبط؟

- هي اللي ماتت يا ض؟

وابتلع ريقه بصعوبة، وشعر أنه في عالم آخر؛ تزامت الأفكار في رأسه حتى عجز عن الرد، وقال مستغيثًا:

- في إيه يا سعادة الباشا بالضبط؟

- في جبل المشنقة يا روح أمك.

- سعادة الباشا، أنا أعرف حقوقى جيدًا، وأي تجاوز تاني أنا مش هسكت.

هز تضيق رأسه مستكراً قونه، ودار حوله نصف دائرة، ثم لكمه بقوة في صدره: قذرتف في حائط وتقياً بلفغاً، وأخذ يسعل متعمداً..
استند نساءً ونبصر على الأرض، وجاهد أن يبدو متألماً.. واحمر وجهه، وهتف بصوت يده متهدجاً:

- أنا بتصر ببيانة نعميد.

وجنس تضيق، ودر خاتماً كبيراً أنه فص أزرق في الخنصر، والتمط الساعة وهاتف نعميد:

- عافف انياوي يا فنده.. صحة معانيك.

-

- احمد فة سعادة الباشا، دايماً بخير.. أستاذن معاليك.

ثم رفع الساعة من على أذنه، وقال في عنف:

- اسلك بالكامل يا ضر؟

- سعيد محمد عبد المقصود. هكذا قال وهو جالس القرفصاء

عاقداً ذراعيه حول صدره، وقد بدا عليه الإعياء.

وعاد يتحدث:

- أسف سعادة الباشا.. سعيد محمد عبد المقصود؛ المراسلة بتاعك

معاليك، هيستى معايا شوية.

-

- في شُبهة يكون هو من تسبب في وفاة المرحومة.

-

- في اليوم المشؤوم دا سعادتك كان عندي دورية، وكان قاعد ناحية ميدان فيكتوريا.. أنا جي أسلم على سعادتك وأتكلم مع معاليك شوية.. دالو وقتك يسمع.

-

- أقل من ربع ساعة.. في حفظ الله. ووضع الساعة، ونظر له وقال:

- عرفت إنت هنا ليه يا ابن الشرموطة؟

وانتفض سعيده واقفاً، وكان قد خطط في أثناء جلوسه القرفصاء ألا يستسلم مهما حدث.. ليست هناك أي شبهة حقيقية ضده.. سيقا تل للنهاية.. محامي بتعريفه يخلصه من القضية كلها.. لن يسمع سيادة العميد أن تكون ابنته حبيته حديث الصحف والوزارة.. وقرر أن يبدأ خطته بالمجوم؛ فقال له بصوت خارق:

- سيادتك أنا فاهم القانون وحقوقى كويس.. ولن أسمع لك بإهانة والدي مرة أخرى.

- بتقول إيه يا ض؟

- اللي سمعته.. وأنا هخرج من هنا فوراً.. لا أنت ولا العميد يقدر يعمل معايا حاجة.. أما إذا كنت عايز تلبسني قضية، فهذا شيء آخر.

- قانون.. بتكلم عن القانون. هكذا قال الضابط ساخرًا، واستأنف:

- أنا مطبق عليك القانون. وصاح في عنف ينادي الأفراد المتمركزين في الردهة الطويلة، وأمر أحدهم بالتحفظ عليه لحين عودته.

وقبع في غرفة الأفراد، وتلقى تعليقات لاذعة من زملائه؛ تعليقات

ساخرة، وأخرى ماكرة.. لكنه للحظة شعر أنه لم يعد يتحمل كلمة عن دعاء؛ الفتاة الطاهرة، الفتاة الرقيقة.. وتساءل في نفسه: «ماذا لو كانت...؟» وسرعان ما شعر بسذاجة السؤال، وهتف في نفسه: «يا خسارة».. إنها ضحكت بحياتها من أجله. أما غرفة الأفراد، فكانت أشبه بزريبة لها جدران من الطوب وسقف من الخرسان.. ملابسهم ملقاة في كل مكان.. البق يتشر على الجدران، ويسكن الثقوب المتشرة، ويزحف على الأسيرة الخشب.. رائحة البطاطين قذرة، وقد تلبّدت من كثرة القذارة فالتصقت ببعضها.. وكانت الغرفة رائحتها مكممة. ومرت ساعة وساعة أخرى، والفضول ينخر في عقله وقلبه؛ فقد تحولت الصدمة تلقائيًا لمجرد قصة يتابع أحداثها في فضول. كان يعلم أنه سيقع في يد الضابط، مهما تخفى فإن الأحداث ستعاقب وسيقع في يده، طالما انتظر هذه اللحظة. لقد اجتاز الطامة الكبرى بعد مواجهة أفراد الأسرة. أما بعد ذلك، فيعلم أن الأحداث لن تكون مؤثرة بقوة. واطمأن لشيء في نفسه. وأوقد سيجارة، وعند أول سحابة شعر بألم في صدره؛ فصاح يسب الضابط في نفسه.

وجلس الضابط إلى العميد. وكان البيت تغشاه سحابة الحزن؛ الإضاءة خافتة في جنبات الشقة، وصوت الشيخ المشاوي يصدح من داخل غرفة الفتاة. وبدأ العميد مستسلمًا جالسًا في هيكل نحيف ضعيف، وقد تقلصت عضلات وجهه. وبدأ طوال الجلسة عابثًا؛ لا يتحدث إلا بكلمات قليلات. ولم يجد الضابط أي مدخل للحديث عن فتاته.. هل يقول له إنها كانت معه يتبادلان القبلات الساخنة، وإنه تخلص منها قبل أن يكشف أمره؟ ماذا يقول له؟ وقال الضابط بنبرة هادئة:

- معاليك أنا شاكك في العسكري دا.. أنا هوجه له الاتهام وأقدمه للمحاكمة.

ويدا العميد متألمًا، ورفع يده وقال له:

- اللي إنت شايفه يا عاطف.

ارتاح الضابط لهذه الإجابة، لكنه في نفس الوقت شعر بثقلها.. إن الأدلة ثقيلة، لن يتحملها على ابته؛ حتمًا سيفضب ويشور. لذلك قرر أن يتقم منه بطريقته. وقام من مجلسه، وودع العميد وهو ينحني قائلاً:

- ربنا يجعلها آخر الأحزان معاليك.

وعاد الضابط ووجهه مهموم؛ فأدرك سعيد أنه فشل في إقناع العميد المكلموم. ومسكه الضابط ولطمه بقوة، وتحمل سعيد وقع اللطمة بصبر نافد. وقال الضابط:

- دا القانون؛ أنت من النهاردة بتاعي.. خلاص أنت مسئول مني.

وأودعه السجن، وظل لأسبوع يمارس عليه كل أشكال التعذيب.. تم تكيله من ذراعيه وتعليقه، وجاء بالجنود الذين ظلوا يتناوبون عليه بالركلات.. وجرده من ملابسه، وظل أسبوعًا كاملًا عارياً في حجرة مترين في متر.. يتبرز في مكانه، ويتبول في مكانه.. لشدة ما كان يشعر بالعذاب من إهانتة بهذه الطريقة؛ إنه يستطيع أن يتحمل الركلات والصعق، ولكن لا يتحمل أن يجلس في مكان قذر.. والآن ينام ويجلس فوق البراز. ولما شاهد الضابط وهو واضع يده على أنفه متقرزًا، قال له:

- ها.. مين اللي كانت معاك في العربية؟

- مومس.

- مش بنت سيادة العميد يعني؟

- بقول لسيادتك مومس.

- تمام.

ونمت محاكمته عسكريًا، ودخل على القاضي وهو يعاني ألماً
ومرضًا. وقال له القاضي:

- أنت سعيد محمد عبد المقصود؟

- نعم يا فندم.

- ستة أشهر، ثم يستأنف المدة.

وأمضى سعيد ستة أشهر في الحجز العسكري؛ ستة أشهر من
المراة تجرعها بالملعقة.. لأول مرة يكره لون بشرته وحمرة الوجتين
التي كانت تسعده.. لأول مرة يتمنى أن يتبدل لونه ويصبح على حد
تعبيره «عبدًا»، هكذا قال: «اللون الأسود في هذه الزنزانة سيد، أما
أنا...». وبأوامر من الضابط تم التحرش به.. أول مرة كانت بعد
ليلة طويلة قاسية، احتفلوا به وضجوا حوله، وقالوا إن الله أمدهم
بعد طول غياب بـ«سعيدة»، هكذا أطلقوا عليه هذا الاسم. ولما
قاومهم نال علقه من نوع آخر؛ حيث غلب فيها التحرش على
أسلوب الممارك المعارف عليه.. امتدت الأيدي لصدرة ومؤخرته،
وأخذوا يفحصون فيه بقسوة. وعلى الرغم من كل ذلك لم يتسلم،
وظل يقاوم بقوة. ولما جلس ملتصقًا بالحائط، شعر عند بزوغ
الفجر بيد تجذب سرواله وتكشف مؤخرته.. انتفض، وقاوم بقوة،
واستطاع أن يحافظ على نفسه.. وأمضى المدة في ذل وممارك متواصلة.
وأثناء إحدى الممارك، التقط سجين من فمه موسى وشق بها ظهره،
حتى إن عظام الظهر ظهرت. ونُقل للمستشفى وتم علاجه، وعجز
عن معرفة من فعلها. وظلت الأيام ثقيلة موحشة.. أحيانًا كان يبكي
في نفسه ويناجي دعاء، وأحيانًا كان ينعتها بالشیطانة التي دمرت حياته

ومستقبله. ولما خرج من السجن وأمضى الثلاثة أشهر الباقية في الخدمة، شاهد أمه التي عجزت عن معرفته، وسألها دون مقدمات كأنه يسارع في الحصول على الوثيقة التي ستؤمنه:

- أين مستر جونز؟

- سافر. فسقط على الأرض، وظل يصرخ ويسب «جونز» ويهتف:

- الوظيفة.. آه.. كيف فعلها؟ كيف ينساني؟

واستسلم سعيد لهذه الوظيفة الحقيرة في «ديسكو فلاش».. عامل نظافة. يذهب في الصباح وينظف الديسكو؛ ينظف ما تُخلفه الليالي الطويلة المشحونة بكل أشكال الترف.. ودائمًا وأبدًا يشمل في كل صباح الديسكو بنظرة طويلة فيها شيء من الحزن، ويتفقد المقاعد والتراييزات، ويظل وجهه واجمًا. وأثناء عمله الذي يؤديه بملل، يظل يشاءب ويُطلق تنهيدات مسموعة تدل على الأرق الذي يعانیه؛ إنه لا ينام إلا ثلاث ساعات فقط؛ لأنه بعد أن يظل يكدح في تنظيف الديسكو، ويستسلم لأوامر جميل؛ المدير الفظ الذي لا يكف عن إرسال التعليقات له ووصفه بـ«الفتى الكسول»، يبدأ يومًا جديدًا عند الساعات الأولى من كل مساء.. يذهب للبيت ويرتدي ملابس جديدة، ويعود للديسكو زبونًا، ويلتقي بأصدقائه الأجانب والمصريين، ويظل معهم حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي.. يظل يتجرع البيرة، ويدخن بشراهة، ويرقص مع الفتيات.. ولا يتوقف طوال السهرة عن مراقبة أفعال الزبائن التي ترفزه بشدة؛ أحيانًا يتقباون خلف المقاعد، أو يضعون أقدامهم المتعبة أحذية كبيرة يحمل باطنها شيئًا من القذارة فوق التراييزات، أو أسفل أفخاذهم.. يعلم أنه من

سينتف كل هذه القذارة.. فضلاً عن أفعال الأجانب خاصة من
الأمريكان؛ أحياناً يتبولون تحت الترايبزات ويضحكون.. ولما كان
ينزل وينهب للمدير وينبه بهذه الأفعال، كان يقول له: «نحن في
ديسكو وهؤلاء سكارى» ولا يترك فرصة التهكم عليه. ويصرخ في
نفسه: «آه يا ملاعين يا أولاد الكلاب». ويصرخ وهو جالس بينهم:
«أين أنت يا مستر جووووونز؟».

كان انديسكو في الطابق الثاني، بجوار مطعم «بالمبا». ففي الطابق
ثاني ردهة طويلة تُقضي في نهايتها إلى الديسكو. أما المر، فمكتظ
بتفتيات الأجنبيات والمصريات؛ يدخن ويتعاطين الحبوب المخدرة..
نظرة التعنية على أشكافن؛ القطع المعدنية العالقة في الستهن..
ارتداؤهن الحواتم في الإصبع الكبيرة في كف اليد، علاوة على إصبع
ثقلم.. غير شعرهن الهائث، ووجوهن الطويلة المنحوتة.. وارتداؤهن
الملابس الفضفاضة؛ البنطلونات الجينز الواسعة. الساقطة من الوسط،
والبلوزات المشجرة، والتشيرتات الواسعة المتهدلة إلى الركبة أحياناً..
ولا يختلف الشباب عنهن كثيراً. وكان يتردد على الديسكو ابن
السفير الإسرائيلي، ويدعى زين. يأتي بصحبة «يودا» رئيس الحرس
الإسرائيلي. كان يأتي للرقص فقط مع أصدقائه وزملائه؛ حيث كان
ملتحقاً بالمدرسة الأمريكية. وتعرّف «يودا» على سعيد مصادفة؛ حيث
سمع شجاراً في الردهة المؤدية للديسكو. وكان سعيد واقفاً ونازعاً
حزام بنطلونه، ومهدداً به عدة أشخاص أمامه بينهم أجانب.. كان
فلك عند منتصف الليل، في أحد أيام الخميس من شهر فبراير عام
١٩٩٤. ويوم الخميس عادة ما يكون مشحوناً بالمفاجآت عند رواد
الديسكو.. فهم يعرفون بعضهم البعض، وقرروا في هذه السهرة أن
ينهبوا إلى بيت صديق لهم ليستأنفوا السهرة هناك؛ حيث يدخنون

الماريجوانا حتى الصباح. وكان من بينهم أصدقاء هيميون لسعيد، وقد اعتاد قضاء هذه السهرات معهم. ولكن في هذا اليوم كان بينهم عنصر مصري، تصدى له عندما شاهده يعزم على الذهاب معهم، وقال له بعنف:

- حدودك معنا تنتهي هنا عند باب الديسكو يا بابا.



تلبدت السماء بالغيوم، وكانت السحب ثقيلة تكاد تنفجر بالأمطار؛ فبدأ القمر خلفها قائماً، وكان الرذاذ يتطاير مع الهواء، وكانت الليلة تُنذر بأمطار غزيرة. وفي هذا الوقت من كل عام، يتحول الحي لشكنة مخيفة؛ حيث ترن في الأذان طقطقة عظام الأشجار العتيقة، فيخشى السكان من وقوعها فوق سياراتهم، أو فوق الفيلات الصغيرة. لذلك في هذا الفصل بالذات، يجتاط بعض الأجانب من هذه الكوارث الطبيعية بجلب عمال الحدائق، الذين يتولون بجهد شاق تقليم الأشجار الضخمة. في هذا المساء بدت الشوارع غريبة عليها، وبدت الفيلات في هياكلها المشابهة غائصة في غابة كثيفة الأشجار، وكانت الشوارع تستمد إضاءتها من كشافات النور الخاصة بحدائق الفيلات والمداخل، وكانت الأعمدة القديمة ثابتة فوق الطوار كأشجار النخيل تتدلى منها ثلاثة عناقيد تتخذها الطيور أعشاشاً بعد أن تعطلت. وصلت لفيلا رقم ٩ في شارع ١٣، كانت هذه الفيلا بالذات مضاءة بإضاءة قوية.. لمبات كبيرة تتدلى من أفرع الأشجار، والسور مزين بأفرع النور، وبدا المدخل الضخم ذو الرخام الأبيض لامعاً من أثر الإضاءة القوية. اجتازت البوابة الكبيرة؛ فاستقبلتها حديقة شاسعة ممتلئة بالمقاعد والترايبزات، يجلس

عليها أناس كثيرون يتحدثون ويضحكون، وحولم تبدو حركة العمال الأفارقة نشطة. وقفت صامتة تترقب الحديقة. كانت في هذه الليلة ترتدي بالطر أسود من الكاشمير، وقد أغلقت جميع أزراره، ودست ساقها الملفوفتين في جورب أسود شفاف، وانتعلت حذاء كلاسيكياً أسود، فضلاً عن استعدادها بقص شعرها بنفس الطريقة وباحترافية أكثر. شملت الحديقة بنظرة عميقة، وتفحصت الوجوه التي بدت لها مألوفة (إن مديحة سمعت وبقوة عن «رابطة المغتربين الأجانب»، لكنها كانت ترفض السهر فيها.. إن المكان قائم على التبرعات والحديث عن الفقر والجوع؛ لذا كانت تنفر منه.. أما الآن، فشعرت أنه لا يختلف كثيراً عن «النادي الأمريكي»). وسرعان ما استقبلها سمير في سعادة وهو يتفحصها بعناية، وكانت نظرتة لها تقول إنه لم يخطئ حين اتخذها صديقة.. بيد أنه شعر بالضيق من أنها خادمة عند أحد معارفه.. لكنه استدعى إستراتيجية ظل يارسها طوال حياته؛ وهي التركيز على الهدف، لا شيء يعيق طريقه نحوه.. وعند بلوغه وتحقق رغبته، يستعرض كل الشوائب التي كانت تحاول إعاقة، ويبدأ في مهاجمتها بقسوة شديدة، ثم يتخلص منها.. وجلسا على ترائيزة بعيدة عن «بار الشرفة».

- بكشفك لتاني مرة. هكذا بادرها.

احمر وجهها وهزت رأسها، ثم تساءل:

- أول مرة شاهدتك فيها كنتِ ترتدين الحجاب، ولكن لم أريد أن أسأل عن هذا التغيير إلا بعد أن تعرفيني جيداً.

- الحقيقة أنا مش مقتنعة به.. ولما أقتنع به سأرتديه. هكذا قالت في لامبالاة.

- هل أحد أجبرك على ارتدائه؟
- نظرت إليه بحدة، واستغربت أسئلته الملحة عن الحجاب؛ فقالت بنبرة حادة:
- دي حاجة تخصني وحدي.. في أسئلة تانية؟
- أبدًا.. إنتِ زعلتي ليه؟
- مفيش.
- حبيت أقولك بصراحة إنك كده أجمل ألف مرة.
- ابتسمت في ثقة وهزت رأسها.
- فأشار للنادل وكان إفريقيًا، فجاء بسرعة.
- كأس فوديكما ممزوج بالفلفل الأحمر.
- نظرت له وقالت مندهشة:
- إحنا مش بنموت من البرد!
- دا شرابي المفضل.. تشربي ليه؟
- نظرت للنادل وقالت:
- بيرة كارلسبيرغ.
- قرأتِ اللائحة؟ هكذا بادرها مرة أخرى.
- أي لائحة؟
- الخاصة بالرابطة.
- لا.

أنتِ الآن تساهمين في مساعدة ودعم الفقراء بشرب هذه الزجاجات..
وكلها تجرعتِ مزيدًا من الشراب، زادت مساعدتك للفقراء.
هذاراتع. هكذا قالت في عدم اكتراث.

هذه الرابطة تصرف بيزخ على دعم الفقراء.. وفي المساء متشاهدين
أناسًا محترمين من أعضاء الرابطة، من بينهم مستر إبراهيم
مسعود.. هذا الرجل دافع عنا كثيرًا ضد اضطهاد المسلمين لنا.
أي اضطهاد؟

اضطهاد المسلمين المتشددين لنا.. لا تنسي أن والدي ترك البلاد
لما ضاق منهم.. البلد تمارس العنصرية ضدنا. هكذا قال في
زهو، وهو يتقمص أمامها دور الضحية، وكم كان مجلولة أن
يمارس هذا الدور أمام الناس.

أنا لا أفهم في السياسة، ولا يعنيني ما تقوله؛ أنا أتصرف بطيعتي
مع من حولي.. مع العلم أنني أعمل مع مسيحيين كاثوليك، ولا
أشعر بأي عنصرية؛ سواء مني أو منهم.

أنتِ متعلمة، وأنا أقصد الجهلة.

وسألها في سداجة مصطنعة:

مستر إبراهيم مسعود مسيحي؟

لا أعرفه.. ولكن لا أعتقد أن من يدافع عن المسيحيين لا بد أن
يكون مسيحيًا.. ألم تقل إنني متعلمة لذلك لست متعصبة؟ ربما
يكون مسلمًا.. لا أعرف. أنا علاقتي بالسياسة مثل علاقتي
بالحيوانات؛ لا أحبها وأخاف منها.. هل تفهم؟ وأصرت أن تذكره
بنفسها؛ فواصلت:

- لذلك أرفض العمل في المنازل التي تسكنها الحيوانات.
- نعم. نعم. نعم. هكذا قال بسرعة بعد أن أشاح بوجهه عنها في شيء من الضيق، وقال في إصرار:
- بس لا بد أن تفهمي.. نحن نعاني يا مديحة.. حقوقنا مسلوقة.. يعاملوننا على أننا أغراب.. نحن أصحاب البلاد الأصليين.. هذه حقيقة يجب أن تعلميها. ولما لاحظ أنها ضاقت من الحديث في هذه الأمور، توقف وقال:
- أف.. الحديث في السياسة يعصبي. ها، ما رأيك في تناول كأس ويسكي ممزوج بالشيكولاتة؟
- فأوقدت سيجارة ونفثت دخانها، وقالت وهي ترفع حاجبيها مندهشة:
- يقدمونه هنا؟



عندما تستقر في عمل أمضيت فيه عمرًا، خاصة مع مدير تعاون معك كثيرًا، وموظفين تعاملوا معك وعرفوا قدراتك وكفاءتك، ستشعر بشيء من الاستقرار، وستمضي في عملك مطمئنًا للإيقاع اليومي الذي يدور حولك؛ فليس هناك من يترقبك ويقيم قدراتك، فأنت في مكانك هذا قد تجاوزت كل هذه المراحل، وأصبحت بفضل كفاءتك مصدرًا للكفاءة.. وبعد كل ذلك وفجأة، تترك هذا العمل بمديره وموظفيه، وتنتقل لمكان آخر، وتعمل تحت إشراف مدير آخر، وتعاون مع موظفين آخرين، وكل هؤلاء لا يعرفون شيئًا عنك وعن خبرتك في العمل؛ فيتعاملون معك ببدأ الأقدمية، مع العلم بأن قدراتك العملية والعقلية تؤهلك لأن ترأسهم جميعًا؛ فتجد نفسك

تلقائياً فاقداً القدرة على العمل معهم، فتستسلم لإدارتهم التي ربما تكون فاشلة، وتوفر اقتراحاتك وملاحظاتك تجنباً للإحراج والتهكم.. هذا بالضبط ما حدث مع السيدة سميرة.

أتمت سميرة في هذا اليوم شهراً على العمل المتواصل منذ أن تركت العمل عند مستر «وليام مور»، موظف قسم الإعلام في السفارة الإنجليزية. تزامنت فوق وجهها المدور التجاعيد بقفزة عشرة أعوام مرة واحدة. وبدأت حركتها بطيئة، تظل طوال اليوم واقفة في صدر المطبخ الكبير تراقب العمال وهم يعملون في نشاط. حتى مدام «ديوانا» تجاوزت الخامسة والستين عاماً، وبدأت غير مكترثة بشيء. تحتفظ فقط بسطوتها المزيفة على العمال؛ تلقي نظرة على حركة العمل، وتمضي للحديقة الخلفية ترتشف القهوة وتدخن وتسترجع الذكريات. وحاولت السيدة سميرة فعل شيء، لكنهم كانوا يأمرونها بالوقوف؛ حتى صاحت في عنف:

- الأحرى بكم أن تبتاعوا تمثالاً وتضعوه هنا بدلاً مني.. أنا لست هنا لكي أراقبكم.. أين العمل؟

ونظر لها «لارس هيو» من وراء عويناته الطيبة، وقال لها وقد جاء على صوتها العالي:

- ماذا حدث؟

- لا أعمل.

كانت رائحة المطبخ أشبه برائحة الإبط، وكان هؤلاء الأفرقة قديسين، وقالت في نفسها: «أي مكان قذر في العالم أفضل بكثير من الجلوس في البيت». وظلت لوقت لا بأس به تراقب أفعالهم التي كانت تحلو لها وتدهشها؛ فتجد بعضهم عكف على صنع

كأس من البول ممزوج بشيء من الكحول، وهو يقول لصديقه:
- سأقدمه له وأنا أقول: «تناول كأسك الخاص يا سيدي.. هه هه هه».

فضلاً عن أفعال أخرى كانت تتم بين بعض الرواد والعاملين في المطبخ؛ فكان القواد «سيمون» يقدم شقيقته لممارسة الشذوذ مع الألمان والفرنسيين؛ حيث يفضلون الفتيات الملونات. ولما جلست في ركن بعيد بالقرب من نافذة تطل على الحديقة الخلفية، لم يعترض أحد منهم. وبدأ لها هذا المقعد شيئاً مسلياً ترصد منه الإيقاع الغريب الذي يدور كل يوم بين العمال والرواد. ودخلت عليها مدام «ديوانا»، وقالت لها:

- هذا الحي يقطنه أكثر من ألف رجل وامرأة من البيض؛ نحن نخدمهم.. تصوري، نحن نخدم هذا العدد، إنهم يتناوون علينا كل ليلة، كل واحد منهم يريد شيئاً، ونحن يجب أن نكون جاهزين. وكانت هذه إشارة لها بأن لا وقت للجلوس. وحاولت فيها بعد أن تقرب من «ديوانا»، لكن «ديوانا» بخبرة أدركت ذلك؛ فقالت لها:
- لو أنك أصغر مني بعشرين عامًا، لآخذتك صديقة، وكنت سأقول لنفسي إنني محظوظة.

وقال لها أحد العمال، وكان يعمل في الطابق العلوي في صالة البلياردو:

- إنها مخبولة.. لا تهتمي بصداقتها.

ورصدت صراعات كثيرة بين العاملين من الأفارقة والرواد، وصراعات داخلية بين عمال صالة البلياردو وعمال المطبخ الرئيسي،

وعمال بار الشرفه وعمال بار الصالة الرئيسية. لكل قاعة رواد، ولكل قاعة لوحة إعلانات من الخشب ملصق فوقها عشرات الإعلانات. في صالة البلياردو الملصقات عن كل ما يخص البلياردو والمراهات، وفي بار الشرفه عن كل ما يخص مواعيد الحفلات، وفي البار الرئيسي عن الدعم وكيفية المساعدات.. فضلاً عن لوحة على الباب الرئيسي فوقها عشرات الإعلانات التي تخص الحي من شقق للإيجار ومزادات. كانت الصراعات أشبه بصراعات الأحزاب الكبيرة؛ الجميع يريد أن يثبت ولاءه، الجميع يلقي بالتهم على الآخر؛ لشدة ما كانوا يكرهون بعضهم البعض. وبدأ لها النادي كما كانوا يطلقون عليه؛ عالمًا مختلفًا عن العالم الذي عاشت وتربت فيه، ماخور كبير الكل فيه يظهر على حقيقته. إنها كانت تراهم في الصباح حيث النشاط والاستعداد للعمل، أما سهرات يومي الخميس والجمعة فأثبتت لها أمورًا كثيرة. وجاء «وليام مور» ومعه فتاته المصرية، وسمعت صوته فميزته، واسترقت النظر للحديقة، وكان جالسًا مسترخيًا والفتاة تجلس جواره، وسألت أحد النُّدُل عنه، فقال لها: «نعم، إنه مور.. بحب الفتيات المصريات.. هل لديك فتاة تريدن أن تقدميها له؟» فتراجعت خطوة، ثم بصفت في وجهه وهتفت: «قدر».

وتدخل «خرستوف» كبير النُّدُل، وقال له: «اذهب، وإلا كتبت فيك تقريرًا.. أنا سمعت كل شيء». والتفت لها وقال:

- لماذا تسألين عنه؟

- أبدًا، كنت أتأكد من الاسم؛ لأنني عملت في منزله بضعة أعوام.

يجلس في الشرفة العريضة في شقته بالطابق الخامس في عمارة الشرق، فيكشف منطقة الفيلات المسماة بمنطقة السرايات، تبدو أمامه الفيلات الرائعة بحدائقها الشاسعة كلوحة بديعة.. تذكر عندما قالت له أمه المرأة البسيطة ذات الأصول الإيطالية مدام «مزوزا»، والتي عاشت في القاهرة وكانت تعمل في الخياطة: «يودا، ستذهب لتعمل في القاهرة، وفي القاهرة يوجد الحي الإنجليزي، هناك سكرت أنفي رائحة الطين، والقمح، والهواء الرطب الآتي من النيل يحمل بين طياته رائحة الحياة.. هناك تنفس جسدي، وتشبعت مسامه برائحة الأشجار.. ستستطيع أن تتنفس، وتركض، وتكتشف للوجود سرًا، سرًا قديمًا؛ لعل الله نظر هناك، ثمة سحب تظلمه، لا أعرف بالضبط، ولكن هناك شيء لا يمكن الحديث عنه، بل الشعور به، مثل الحب، والكره، والعطاء، شيء يتجلى في كل ركن».

يستطيع أن يرسم لك الحي الإنجليزي على يده بدقة متناهية؛ المداخل والمخارج، العمارات والفيلات، حتى عدد الأشجار.. فضلًا عن معرفته الجيدة بسائقي التاكسي المتمركزين على بعض النواحي الكبيرة والمهمة. يضع خطة لكل الاحتمالات؛ فهو كبير الحرس، والجالية الإسرائيلية كلها مسئولة منه، ولا تتحرك إلا بإذنه ومشورته. يسهر في بار الفندق، يمل من أحاديث الأجانب، يفضل الحديث باللغة العربية لتقويتها. ويجلس في «ديسكوفلاش» متزعجًا، ولكن من وقت لآخر يلقي نظرة على إيقاع الديسكو؛ حيث يرتاده ابن السفير الإسرائيلي. والأصل من نفوره من الديسكو ليس الانزعاج فحسب، ولكن السر يكمن في ملكيته للسيدة «ويلها جرول» الألمانية. بيد أنها لطيفة معه جدًا وتتودد له ولابن السفير؛ حيث تعامله معاملة تليق بمكانته، لكن مهما فعلت فلان عليها أن تتحمل وزر الأجداد. لا

ينام أكثر من ست ساعات، ووقته كله يقضيه في الشوارع والأماكن العامة، وأحياناً لا يستقل سيارته؛ يمشي على قدميه بهيكله القوي، ويراقب إيقاع الشارع بنفسه وعن قرب. ولما لاحظ معركة سعيد مع الشاب المصري الذي تهكم عليه، وقف في صف سعيد تلقائياً، على الرغم من أنها مصريان، لكنه تعاطف مع سعيد بدافع طبقي؛ أمه كانت تعمل خياطة، ووالده كان تاجر سمك بسيط؛ فهو ينتمي لأسرة فقيرة مثله. وقال له بعد أن جذبته بعيداً بحرفية رجل حراسات كبير:

- اهدأ يا صاحبي. وهي كلمة بدت دارجة على لسانه من طول ما اعتاد التلطف بها؛ متعمداً في بعض الأحيان.. فضلاً عن كلمة «باشا» التي لا يتوقف عن إلقائها على من يعرفهم من المصريين. علاوة على تحيته المفضلة للبسطاء عندما يمر بهم كل صباح حيث يقول «صباح الفول والطعمية»

فقد دفع سعيد الفتى المصري دفعة قوية في صدره، جعلته يسقط فوق الأرض وسط زهول أصدقائه الأجانب. وجاءت مدام «ويلما» تسبقها عاصفة من الصيحات، ووقفت أمامه وقالت محتجة:

- أنت همجي، لا تصلح أن تعمل عندي.
وشوح سعيد بيده، وقال في عنف:
- أنا الآن لست في العمل؛ أنا من الرواد.
- ولو.. أنت تفسد جميع الأشياء.. اخرج من هنا ولا تأتي مرة أخرى.

وتدخل «يودا» على مضض، وقال لها:

- أنا شاهدت الواقعة.. صديقي ليس له ذنب في شيء.

- صديقك هكذا قالت في توتر، ثم ابتسمت في وجهه واستأنفت بنبرة هادئة:

- أنت تعلم أنني من الممكن أن أضحي بأي شيء غالي، مثل موظفي الجميل سعيد، من أجل راحة الرواد.

- لم يحدث شيء.

وهزت رأسها في حركة لاإرادية، ثم ذهبت.

- أنا «يودا» رئيس الحرس الإسرائيلي. هكذا قدم نفسه بسهولة لسعيد، ثم مد يده ليسلم عليه؛ فمد سعيد يده وصافحه. ثم قال له «يودا»:

- بهذه المناسبة أحب أن تناول العشاء معي.

- شكرًا.

- لا بد؛ نحن أصدقاء.. ستناول بيتزالن نستطعم مثلها في حياتك.

واستسلم سعيد لرغبته فقط لينسى ما حدث.. إن هذا الشاب طعنه في كرامته، منذ أن جاء الديسكو وهو لا يتوقف عن السخرية وإلقاء العبارات العنصرية؛ ليستفزه. كان الشاب يدعى رائد، وها هو الآن يفصح عن رأيه بصراحة ودون خوف.. ياله من لعين! لم يمر بهذا الموقف من قبل، متى جاء هذا المصري القذر الطبعي؟ ومتى استسلم لصداقته التي دائمًا ما كانت تشوبها ملاحظات يعجز عن مواجهته بها؛ من باب الكبرياء؟ وكلها تذكر موقفه يشعر بنفصه في حلقه، ويهتف في نفسه: «لماذا لم أضربه حتى الموت؟». وذهب بالمطعم «لاكازيتا».. على الرغم من معرفته بالمطعم، فإنه لم يدخله من قبل. المطعم يقدم البيتزا الإيطالي وغيرها من المأكولات، لكن أسعاره

غالبية. الجور العام في المطعم يأخذك لعالم قديم؛ الديكور الهادئ،
المقاعد الخشب المتلاحمة ببعضها ذات الظهر العالي، الترايزات الكبيرة
من خشب الأبنوس.. علاوة على الإضاءة المريحة للعين، والإيقاع
الأبرالي الرائع الذي يصدح في جنبات المطعم. كان كل الجالسين حولهم
من الأجانب الكبار في السن. التهم قطعة من البيتزا، بينما كان «يودا»
يأكل بنهم مستمتعًا بالطعام. ثم أعقبا ذلك بكوزي بيرة دون كحول.
- - ألمانية. هكذا بادره «يودا» في خبث.

- من؟

- تلك المرأة الشمطاء.

- هل تعرفها؟

- لا. هكذا أجاب «يودا»، ثم واصل بسرعة:

- لماذا؟

- لأنك تتهكم عليها وتسخر منها.. رغم أنها أذعنت لك، ولم
تطردني من وظيفتي احترامًا لك.

فارتبك وشعر بالخرج؛ فقال بمكر:

- كانت تحدثك بغلظة، وهذا ما استفزني.. أنا أكره من يستغل
الناس.

- هي امرأة شاذة بنت ستين كلب.

فضحك «يودا» من قلبه ضحكة جذبت أنظار رواد المطعم، وكنا
العاملين.. وهز رأسه موافقًا على قوله، وقال:

- نعم. نعم.. إنها شاذة حقيرة.. ابنة هتلر السفاح. وعاد يضحك بصوت عالٍ.



وبعد ذلك، تمتع سعيد برعاية كبيرة من مدام «ويلها جرول» أثناء عمله في الديسكو.. اهتمت بشئونهم، وسألته على استحياء:

- هل حقاً مستر «يودا» صديقك؟

- نعم، صديقي المقرب.. نتقابل كل يوم، ونتناول العشاء في «لاكازيتا».

لكنه ظل يترقب قدوم هذا المصري الذي طعنه في كرامته، وتحري الدقة بعد ذلك؛ فأى صداقة تجمعهم بأي أجنبي أوروبي، على الفور يسأله: «هل لديك صديق مصري؟» ولو أجاب بالنفي، على الفور يتخذه صديقاً. أما إذا كان له صديق مصري، فعلى الفور يقطع صلته به. وكان يقول في نفسه: «إن العنصر المصري قادر على إفساد أي علاقة بطبقته الأزلية». وظلت في نفسه الشحنة العدائية تتضخم لهذا الكائن الذي أهانه، واندفع في عدوانية شرسة.. فذات ليلة اقتحم هو وأصدقاؤه منزلاً لعائلة إفريقية تقيم احتفالاً، وظلوا يقاتلونهم بوحشية، حتى الأطفال لم يسلموا من همجيتهم. وأبلى سعيد بلاء حسناً؛ أفرغ الشحنة في هؤلاء، فضلاً عن كرهه الأزلي لهم. وصدحت الصرخات في العمارة، وتحولت الشقة لحطام، وهرع الأطفال ينجسبون، وجاء الرجال بالسكاكين من المطبخ يدافعون عن أنفسهم وأولادهم. ولكن منظر الأجانب وصيحاتهم والأسلحة البيضاء الحديثة التي يتحصنون بها، أرهبتهم.. وظلت النساء تصرخ.. ولما سمعوا بقدوم الشرطة هرعوا في سعادة غامرة؛ إنها مغامرة كبيرة أسعدتهم وملأت

وقتهم. مثل هذه الهجمات كانت تتكرر كل أسبوعين على الأكثر. وفي النهاية لجأ الأفارقة لـ «جماعة الرابطة»، وقالوا لهم كل شيء، ودفعوا لهم كثيراً حتى يتصدوا لهؤلاء الأجانب. وخططت «جماعة الرابطة» لهذه الهجمة الخطيرة التي لو كُشف أمرهم فيها، لتم طردهم من الرابطة وسحقهم. ولكن بدافع عرقي في المقام الثاني بعد النقود، تولوا القيام بهذه الغارة. وانتظروهم على ناصية شارع ٨٤، وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل. ولما خرجوا من «ديسكو فلاش» يترنحون من أثر الكحول والرقص المتواصل، هجموا عليهم، وظلوا يركلونهم بقوة وشراسة.. وظل الأجانب يهرعون في الشوارع الجانبية وهم يصرخون، ولم ترحمهم «جماعة الرابطة».. استطاعوا أن ينالوا منهم. تغيب الأجانب بعد هذه الحادثة التي تحدث عنها كل الناس في الحسي، وجاء رئيس المباحث وحقق بنفسه، وفي النهاية قالوا إنه خلاف بين الشباب وبعضهم أدى لهذه المعركة، وقال شاب للضابط: «كانت أقدامهم طويلة جداً؛ كانوا يركلوننا في وجوهنا بأقدامهم». وقال له الضابط: «أصدقك، ولكن جميع الأفارقة يتمتعون بأقدام طويلة.. سنجمع كل المقيمين في الحسي ونعرضهم عليكم». فقال آخر في تهكم: «إنهم هجموا علينا في الليل؛ فكيف نتعرف عليهم وهم والليل كانوا قطعة واحدة؟».

وافقد سعيد أصدقاءه، وظل يسهر وحده ويقول لمن يحضرون: «كم كنت أتمنى أن أكون متواجداً في تلك المعركة». وجاء رائد وقال له:

- سعيد، اعتذر لك عما صدر مني.

ثم عزمه على زجاجة بيرة، وبدأ يدعو للجلوس والخروج معهم. والحقيقة أن سعيد لم يشك في نواياه، وظن أنه رده بتلك الضربة،

وأنه بدأ يعمل له حسابًا.. وظل رائد طوال شهر يخطط له، حتى قال له ذات يوم:

- تريد أن تسهر معنا الليلة؟

- أين؟

- في بيت «كارولين».. كل شيء معد؛ الماريجوانا، وأجود أنواع الخمور، وأصدقاء «كارولين».. ها، ما رأيك؟

تفكر سعيد قليلاً، وقال له:

- لن تسمع لي المدام بمفادرة العمل.. أعطني العنوان وأنا سألتحق بكم.

- لا، أنا سأنتظرك حتى تنهي عملك.

اندهش سعيد من إصراره، والحقيقة ساوره الشك، وتساءل في نفسه: «ماذا يضمري في نفسه هذا اللعين؟» ولكنه عاد وقال: «ولتكن مغامرة» هكذا عزم على الذهاب معه رغم شكوكه. فقد استمد قوته من صديقه رئيس الأمن الإسرائيلي؛ فهو يعلم أن لا أحد يجرؤ على التعرض له. وأضاف: «أقصى ما هنالك معركة، وهو لاء أستطيع أن أسحقهم وحدي».

أنهى العمل واستبدل ملابسه، وخرج من غرفة العاملين وهو مشحون برغبة جامحة لمعرفة ما يضمره له هذا الرائد. نزل عبر السلم، وكان جو الفندق بعد الواحدة صباحاً يبدو هادئاً.. رجال الأمن الخاص يتمركزون أمام البوابة بقمصانهم الزرقاء، وموظفو الريسبشن يقبعون في هدوء خلف مكاتبهم. حياهم رجال الأمن بعبارات فكاهية؛ فهم يجبنون لأنه دائماً ما يعقد معهم الصفقات..

فأغلب رواد الديسكو يأتون ومعهم زجاجات الويسكي الفاخرة، ويطلبون فقط الخدمة؛ فيأخذ الزجاجات ويستبدل بها أخرى رديئة، وجرها بواسطة الأمن، ويبيعها لعزيز موسى، ثم يتقاسمون النقود.

كانت السيارة الجيب الكبيرة السوداء تستقر على ناصية شارع ٨٤، وبها يجلس رائد وأصدقائه الأجانب. لمح به يأتي من خلال المرأة، فبصق على الأرض بلفماً من كثرة التدخين، وصاح:

- صاحبي، اتأخرت كثير.

كان الجو شتائياً، وكان يرتدي جاكيت من الصوف له ياقة كبيرة، وينظرون جينز، وحقاء رياضياً.

- بس قولي، ازاي بتذهب للبيت في هذه الساعة المتأخرة وانت تقطن في «عزبة البوليس»؛ أليس كذلك؟

- لست بعيدة «عزبة البوليس». هكذا قال، وقد أيقن أن هناك ملعوناً.

- هيا بنا.

جلس في الكنبة الخلفية بجوار النافذة، وكانت يجلس بها اثنان آخران؛ رائد وفتى أجنبي ظل يضحك بهستيرية. جلس رائد في النصف، بينما كان يقود السيارة شاب آخر يبدو مصرياً؛ كان صامتاً ويدخن في شراهة. وكان يجلس بجواره فتى أجنبي ومسيم للغاية؛ له عينان زرقاوان، وشفتان شديدتا الاحمرار، وشعر كثيف يترسل حتى كتفه في لون ذهبي مشير. من لا يعرفه، على الفور سيظن أنه فتاة.

صاح رائد بصوت عالٍ:

- هيا.

وانطلقت السيارة في سرعة كبيرة، وظلت تجوب شوارع السرايات.
بينما سعيد يراقب كل حركة حوله، وقد شعر بشيء ما سيحدث.
مد رائد يده إلى الخلف والتقط زجاجة بيرة. ظل يرجها، ثم طرقت
الغطاء بخاتم غليظ في إصبعه الكبيرة؛ فتفجر السائل وتناثر عليهم.
ثم أعطاهما لسعيد، الذي التقطها وهو صامت في ذهول. وظل رائد
يلتقط الزجاجات ويطرقت فيها.. وقد أحدث ذلك بركة داخل
السيارة. ثم مد يده مرة أخيرة وأخرج مسدسًا، وصرَّوب الماسورة إلى
رأس سعيد وصاح:

- سأقتلك يا ابن المومس.

انكمش سعيد في رعب، وظل رائد يصيح بعبارات بذيئة وقد
احمر وجهه، ولمع رأسه الأصلع.. وكانت عينه حمراء إثر تجرُّع البيرة
والماريجوانا:

- هقتلك زي الكلب.

ثم بصق في وجهه، ولكمه لكمة سريعة. وانحدرت السيارة من
شارع ١٣، واتخذت وجهتها ناحية شارع بور سعيد.. وفي منتصف
الشارع عند فيلا السفير الإسرائيلي، اخترقت السيارة في جنون الحاجز
الأمني الخلفي للفيلا؛ مما أثار رجال الأمن المتمركزين حولها. وأثناء
ذلك، أطلق رائد عدة طلقات صوبها نحو بيت السفير، وظل يصرخ
هو ومن حوله.. بينما سعيد تتابه حالة من الذهول. وانطلقت خلفهم
سيارات الشرطة، وظلت تطاردهم في أنحاء السرايات.. وكانت
مطاردة شرسة، أيقظت سكان السرايات في ساعة متأخرة. وعند شارع
القناة، فتح رائد الباب من ناحية سعيد، وظل يركله بقوة والسيارة
تجري بسرعة.. ظل يهدده؛ إما أن يقتله أو أن يقفز.. وظل يركله بقوة

وقد استجمع قوته كلها. وعند ناصية شارع ٨٦ هدأت السرعة قليلاً، بينما ظل رائد يركل فيه بقوة وسعيد متشبث بالباب. ثم خارت قواه فقفز فوق حديقة، وهنا توقفت سيارات الشرطة وقبضوا عليه.



استمرت العلاقة بينهما طيلة شهر تنتهي وتبدأ في الرابطة، التي ملت جوها الكئيب، خاصة مديرها الدانماركي الذي لم يتوقف عن النظر إليها، ومحاولة التقرب منها بأكثر من طريقة؛ الأمر الذي جعلها تخطط جيداً لمعرفة موقف سمير منها. فاعتذرت عن الذهاب مرة واثنين، بل تهربت منه متعمدة، ولجأت لحيل كانت تقرأها في الكتب؛ فإن الرجل لا يطيق أن يرى حبيته أو صديقه سعيدة مرحة.. تغني.. ترقص.. من دونه؛ إن مدلول ذلك عنده أنها على علاقة بأخر، علاقة تسعدها، كأنها لا بد أن تكون من دونه تعبئة مهمومة.. «هذا هو الرجل في كل مكان؛ أنا في قدر» هكذا قالت في نفسها. ولما كانت تلمحه جالساً في الكافيتريا، كانت تمر جوارها وفي أذنيها ساعات الووكمان، وتصطنع الغناء.. بيد أن الووكمان يكون مغلقاً، فهي تغلقه لشيئين؛ أولهما لتظاهر بالسعادة إلى حد الغناء في الشارع، على الرغم من عدم رؤيتها إياه عدة أيام، والثاني لتجاهله إذا ناداه، وتبرهن بأنها لم تسمعه لأن الساعات كانت تسد أذنيها. وفي هذا اليوم انتظرها في الشارع، واستوقفها في حدة وقال لها:

- مديحة، ماذا حدث؟

خلعت الساعات من أذنيها، وقالت له في غير اهتمام:

- نعم؟

- ماذا حدث؟

- لن أذهب لهذه الرابطة مرة أخرى.. أنت فاهم؟ هكذا تحدثت بهدوء.

- لماذا؟

- دون سبب.. شيء ما شعرت به.

صعدا للمطعم وجلسا فيه.. تأملها في شوق، واقترب من وجهها فزكمت أنفه رائحتها؛ فأسكرته.. وقال بلسان مستسلم:

- هل أغضبتك في شيء؟

أشاحت بوجهها عنه، وكان وجهها عابسا. وأدرك أن هناك شيئا قد حدث؛ فقال لها مدفوعا برغبة ما:

- تكلمي.. ماذا حدث؟

عادت بوجهها له وقالت:

- ماذا تريد مني؟

- أنا أحبك.

- هه.. وماذا بعد؟

- ماذا تريد مني؟

قامت ووقفت أمامه وقد امتقع وجهها، وقالت له بحدة:

- أنا لم أطارذك في كل مكان، ولم أدعك إلى العشاء.. وأخيرا أنا ابنة ناس محترمين، ولا أقبل علاقة غير طبيعية.. أظنك فهمت.

- مديحة، انتظري.

نزلت عبر السلالم الرخامية للشارع العمومي، وسلكت شارع «وهيب دوس». فلحق بها، وجذبها من ذراعها، وقال لها:

- لا بدّ أن نتحدث.

وقفنا في الميدان أسفل الكوبري، وجلسا على مقعد يتوسط الميدان. استسلمت له وهو يمسكها من يدها ويجذبها نحو المقعد، كأنها طفلة صغيرة تتبع أباهما في استسلام.

كان جو فبراير رائعاً؛ رذاذ من المطر يتطاير في الهواء، وكانت السماء غائمة وتملأ الجو نسبات باردة، لكنها لذيدة منعشة. وضعت يدها في جيب الجاكت الجينز، ولفت ساقاً فوق الأخرى، وظل فمها يطرد بخاراً كثيفاً. وبينما كانت تنهد بسرعة وتسري في جسد راحة ناتجة عن قربها منها ومسكه ليدها، نظر إليها، وكانت عينه لها بريق غريب ليس مريحاً، فضلاً عن ملامح وجهه التي بدا عليها شيء من المكر. عقد حاجبيه، وظل يتنفس من أنفه فقط بعد أن أطبق شفاهه بطريقة من فطن لشيء فوفر حديثه.. ولما استمر صمتها قال:

- نتجاوز. هكذا قال بسرعة، كأنه يتجاوز لحظة حرجة بقفزة واحدة.. وعاد لوضعه في انتظار الإجابة النموذجية.

ظلت صامتة تنظر في اللاشيء، بينما تقفز السعادة داخلها.. وابتلعت ريقها بصعوبة وظلت صامتة؛ فاستأنف هو:

- نبدأ بعقد عرفي، إيه رأيك؟ هكذا بدأ أولى مناوراته بجرأة.

التفتت له وقد امتقع وجهها وسقط قلبها، كأنها هوت من ناطحة سحاب فتحطمت تماماً، وقالت:

- على فكرة في كثير من البنات المومس هن أجساد تماثل جسدي.. نستطيع أن تستاجر منهن ما تريد.. مع السلامة.

- أنا لا أفهم كيف أرضيك.

- إنت مش محترم.

- احترمي نفسك، ولا تتجاوزي في حقي.

- أنت تجاوزت.. من الأول أظنك تريد جسدي، ولكن كذبتُ ظنوني.

- هذا كل ما عندي.. ستعيشين معي، وستعمين بجميع امتيازاتي كمواطن أمريكي.

- أنت تصر على إهانتني.. أنا لست مومسًا مثل أمك. هكذا اندفعت بسرعة في سبابه، كرد فعل سريع لتحطم أحلامها.. إنه دمرها، وأفسد عليها الدنيا كلها؛ لذلك لم تستطع أن تتحامل على نفسها. لطمها على وجهها؛ فمالت على المقعد، واستندت بساقيها قبل أن تسقط على الأرض.. فتحسست وجهها في زهول، وشعرت أنه تجمد من اللطمة، وبدأت الدماء تنزف من أنفها. وكان هو واقفًا أمامها ووجهه أحمر شديد الغضب، مستعدًا بكل قوة أن يسحقها لو فكرت أن تهبه مرة أخرى.

بصقت في وجهه. ولما حاول أن يسدد لها لطمة أخرى، تنحّت جانبًا وضربته بحقيبة يدها، فارتطمت التسديدة في مؤخرة رأسه، وصاح:

- يا بنت المومس.. أنا هوريكي هاقدر أعمل إيه.

وفي لمح البصر تجمع الناس حولها، فدفعتهم وهي تجفف أنفها، وهرعت ناحية شارع مصطفى كامل.

عندما يمر الإنسان بموقف مخزٍ، أول شيء يفعله هو أن يسخر من نفسه ومن أفكاره، ويتهادى في رمي نفسه بالفاظ بذيثة؛ يكون دورها أن تُهدئ من انفعاله الشديد على نفسه. وعندما يهدأ، يشرع في التفكير

يهلوه.. يستعيد كل لحظة مرت في هذه التجربة، ويبدأ في شد خطوط تحت السقطات التي يظنها هي التي أوقعته في هذا الموقف المخزي. ثم يشعر بعد ذلك بالراحة؛ لأنه لم يكن مخطئاً.. هو تصرف بتلقائية بريئة، ولكن أسوء فهمه.

جفت دمعتي انزلقتا على خديها، وقالت بصوت سمعته هي فقط وكان له دوي هائل في نفسها:

- غية.

كانت تظنه الزوج الذي جاء لها وهي تقف في منتصف العشرينيات، شاب تحلم به أي بنت مثلها. واستطاعت أن تعامله بحرص، كانت تأمل أن يتزوجها وتعيش معه حياة طبيعية مثل أي فتاة. لن تستطيع العمل كجليسة أطفال طوال العمر. ورسمت لنفسها حياة رائعة.. الأطفال الذين ستحسن تربيتهم.. البيت الذي ستعتني به.. كل شيء ربت له جيداً. ولكن جاءت اللطمة؛ فاستفاقت على الواقع المرير:

- نتجوز عرقي.

وهمست في نفسها بحسرة: «أكيد خلع الحجاب له أثر في ذلك.. لقد أغضبت الله، وهذا هو جزائي.. آه، الحمد لله على هذا الجزاء في الدنيا. ومش بعيد يكون افتكرك إني فرطت في ديني بسهولة وتخلصت من الحجاب بضربة واحدة، فيمكن أن أتخلص من شرني وأقبل العيش مع كنهف عامرة».

ظلت الأفكار تعصف بها في كل اتجاه.. شعرت بالمرارة، وفقدت الشبهة لكل شيء. انتهت من العمل، وذهبت إلى أمها.. تمنيت أن تبكي بمرارة، وأن تقول كل شيء.. لكن في النهاية هي المسئولة.

قطعت المسافة من ميدان مصطفى كامل إلى شارع ١٣ في ربع ساعة تقريبًا، والمسافة بينهما لا تتعدى ثلاث دقائق سيرًا على الأقدام.. لكنها كانت تسير دون وعي بالطريق؛ حيث كانت تقف بين لحظة وأخرى وتستغرق فيها مرت به، ثم تعاود السير.

احتجزوه في مكتب أمن الدولة وجاء الضابط والقى نظرة طويلة عليه، وكان جالسًا معصوب العينين، وقال الضابط بنبرة تنم عن معرفة سابقة:

- «سعيد محمد عبد المقصود»
- أريد التحدث في التليفون .. هكذا قال يستغيث وهو جالس على مقعد بلاستيك
- لماذا؟ هكذا قال الضابط وهو يتأمله في هدوء حذر
- أريد السيد «يودا» رئيس الحرس الإسرائيلي ..
- طبعًا، ولكن هل سيأتي؟
- أكيد .. هو صديقي . هكذا قال في ثقة
- السياسة ليست فيها صداقة، تريد أن تورطنا مع إسرائيل، لماذا اطلقت النار على منزل سيادة السفير؟ ومن كان معك؟ هكذا قال في نبرة رسمية حادة
- أنت تعرفهم جميعًا ..
- بينهم أجنب؟
- نعم .

- أنت تعتقد بعد هذه الجريمة ستظل صديق مستر «يودا»

- طبعاً هو يثق فيّ

- على العموم هو على وصول .. سنرى .. ماذا سيفعل.

عندما دخل قسم الشرطة، انقلب وضج؛ «فقد جاء رئيس الأمن الإسرائيلي ليحقق بنفسه في الواقعة» هكذا ظن الضباط بعد أن دخل غرفة الضابط. كان مرتدياً صديري كاسي، ويبدو من أسفله خرطوم جهاز اللاسلكي.. فضلاً عن البنطلون متعدد الجيوب، والحذاء الضخم.. صافح سعيد بحرارة وصاح:

- ماذا حدث؟

- أنت بتكلم عربي؟ هكذا بادره الضابط بسداجة.

- نعم.

وظل الضابط يتابعهما في تأمل، كأنهما حبيان والتقيا بعد فراق فقال «سعيد» غاضباً:

- يتهمونني بضرب النار على بيت السفير الإسرائيلي.

- هه.. مش صحيح يا باشا؛ ده صاحبي، أنا بعرفه كويس. ثم أنا

حققت وعلمت أنها ليست واقعة مقصودة.. ثم الطلقة فشك.

هكذا تحدث «يودا» في سخرية شديدة.. والتفت إلى سعيد وقال:

- صديقي، هل أنت بخير؟

الجزء الرابع

يقول البعض إن «لارس هيو» ليس في حاجة لأن يعمل؛ فقد وُلد وفي فمه ملعقة ذهب، فهو ثري حتى النخاع؛ لذلك استجاب للعمل التطوعي، ورأس إدارة الرابطة.

وعلى الرغم من أن «لارس هيو» ثري جدًا، فإن مظهره بسيط، إلا من الأشياء الدقيقة.. يرتدي البنطلون الجينز الملطخ ببقع كبيرة، أو قميصًا له ياقة كالحة، بينما في يده ساعة «رولكس» مرصعة بالذهب الخالص.. أو ستجده يدس في قدمه حذاء ماركة «أكسفورد» الكلاسيكي، علاوة على أفخر أنواع العطور التي يقتنيها بحرص، وأيضًا الخواتم الذهبية التي تزين أصابع يده؛ حيث يرتدي خاتمين، واحدًا بحجر من الياقوت الأزرق، وآخر كلاسيكيًا بسيطًا. وأيضًا السيد «لارس هيو» بسيط في تعامله مع الأشخاص، ويجيد اللفة العربية، يعيش بمفرده في شقة صغيرة في ميدان دجلة، شقة تغطي عليها روح البساطة؛ حيث الأثاث قليل، ولكن دائمًا ثلاثه عامرة بأفخر أنواع البيرة وقليل من زجاجات الويسكي.. تجاوز الستين عامًا بيضع سنين، طويل وجسده ضامر، رأسه كبير مليء بالأفكار الإنسانية، وأيضًا بالشذوذ.. له شخصيتان منفصلتان تمامًا؛ فهو شاذ يميل للشيء الناقص، يفتنه الشاب الوسيم، يتأمله بعين جائعة، وبأي طريقة يقترب منه ويتخذه صديقًا، ويتبع معه أساليب دائمًا ما تثير دهشة الحاضرين، فله طريقة غريبة في السلام بالأيدي؛ حيث يقبل أصابع يده الخمسة أثناء السلام، فضلًا عن طريقته في أداء الحركة المزوجة بلغة ناعمة، وتقلصات مشيرة للامح وجهه المجددة.. ويعد أن يقترب منه ويصبحا صديقين، يبدأ في الفقرة الثانية؛ حيث يغازله بطريقة ليست مباشرة، فينعتة بقوله: «أنت تشبه امرأة جميلة».. وغالبًا بعض الشباب الذين عرفهم كانوا يتقبلون منه هذه المغازلات كنوع

من المزاح (السخيف بعض الشيء)، ولكن بقدره كبيرة يقرب شيئاً فشيئاً، إلى أن يصل بأن يلطمه على المؤخرة، فإذا استجاب الشاب يدعو إلى شفته ليتجرعاً معاً أكواز البيرة الفاخرة، ويضاجعه.. أكثر ضحاياها من الأجانب، ولكنه يحرص على سرية هذه العلاقات جداً وكأنها سر عسكري رهيب؛ فهو لا يستطيع أن يخسر كل شيء.. وأيضاً يميل للفتاة القوية؛ ليست قوة الشخصية، ولكن القوة العضلية.. الصوت المحشرج.. اليد الناشفة.. لذلك كان يميل للفتيات الإفريقيات؛ لأنهن كن يمارسن أعمالاً شاقة.. بعد أن يستدرج الفتاة، أول شيء يفعله هو أن يهدبها عطرًا رجاليًا؛ فمنهن من كانت تظن لدلول ذلك، ومنهن من كانت تظنه خطأ غير مقصود.. يتدفق الدم إلى وجهه عندما تسكره الرائحة، وعلى الفور يطلب منها أن تتحدث عن نفسها بصيغة المذكر، وأثناء الجماع لا يشغله إلا صوتها والكلمات التي ترددها بصيغة المذكر، فيقضي معها لحظات، يسترجمها كثيرًا فتعش مزاجه، وتجعله راضيًا عن كل شيء.

السيد «لارس هيو» مؤمن جدًا بأن كل شخص له دور؛ دور واحد فقط، إما أن يؤديه ببراعة، أو أن يخفق فيه فيحل البديل. أما الشخصية الثانية فتمثل في إيمانه الشديد بقيمة العمل الإنساني؛ فعندما أعلنت الرابطة عن حاجتها لعمال أفارقة يخدمون الرواد، توافد الكثيرون من الأفارقة، خاصة الفتيات، وفور علمهن - أي الفتيات بالتحديد - أن «لارس هيو» هو المدير والمسئول في الرابطة، شعرن بسعادة بالغة، لكنهن وجدن شخصية أخرى.. ظل «خرستوف» يدخلهن واحدة تلو الأخرى وهو قابع خلف مكتبه في الرابطة، وفوق عينيه عويناته الرقيقة ذات الإطار الذهبي، وكل فتاة تخرج، زميلاتها يجدن وجهها محتقنًا، وتظل تردد عبارات بذيئة؛ فالفتيات خضعن لبروتوكول

وظيفي قاسٍ.. يظل يوجه الأسئلة ووجهه في الأوراق، وبطريقة رسمية عندما يجرد الأوراق ناقصة، يزفر بتهيدة طويلة تنم عن استنكاره الشديد، ثم يقول: «ليس مطلوبًا مني أن أكرر الكلام كل مرة، أنتِ تقدمين للعمل في نادٍ يقدم المأكولات والمشروبات، طبعًا أن تقدمي شهادات موثقة تثبت سلامة صحتك من الأمراض، وأوراقًا تثبت إقامتك في القاهرة بطريقة شرعية، إجادة اللغة الإنجليزية أولاً ثم الفرنسية كما حددنا في الإعلان، شهادة موثقة تثبت إجادتكم الخدمة، وأخيرًا، وهذا هو الأهم «النظافة الشخصية».. ماذا أفعل بشهادة فذرة من أسرة كنتِ تقعين في خدمتها.. هل أنا أطلب المستحيل؟».

وانتهت تلك المقابلات التي استمرت أسبوعًا بعمل فتاتين «ليريس» و«دونا»، «وسيمون» وهو شقيق «ليريس»، وكان يعمل في متجر «عزيز موسى»، وفتاة ثالثة تم طردها في أول أسبوع عندما وجدها في المر المؤدي للحديقة الخلفية، وكان هناك شخص فوقها وقد طرحها على بطنها وأولجها فيها، وكانت العملية تنم عن اتفاق بينهما.. صرخ في عنف وقد انتفض بقفزة تلقائية ولطمها بقسوة، وركل الرجل في مؤخرته العارية، وصرخ في وجهه: «لن أرحمك يا ابن العاهرة»، والتفت لها وكانت قد ارتعدت وراحت تبكي في مرارة: «سأبلغ البوليس والسفارة وأطردك من مصر كلها.. أنتِ لا تصلحين للعمل في مكان محترم».. طردها بفضيحة كبيرة لتكون عبرة، وتم شطب عضوية تلك الزائرة.

هذه هي شخصية «لارس هيو» الثانية، وأثبتت للأعضاء جميعًا أحقيته في شغل هذا المنصب باقتدار.. كان الطرد أو الحرمان من دخول الرابطة هو المصير المحترم لكل من يحطم القواعد.

اعتادت مديحة أن تأتي كل صباح لتجلس مع أمها في الرابطة، أغلب العاملين لا يأتون في الصباح؛ لذا اعتمدت الرابطة على رواد المساء ويومي الخميس والجمعة. في الصباح ثمة رواد يأتون لتصفح الجرائد واحتساء القهوة، وأغلبهم من النساء اللاتي يحرصن على جلسات النيمة، وبعض الرجال الذين انتهت عقودهم فقررروا المكوث قليلاً قبل العودة إلى بلادهم.

كل صباح تأتي السيدة سميرة، فضلاً عن «ديوانا» و«خرستوف» و«دونا»، وشابين قويين يقومان باستلام الخضار الطازج من شركة «سيكم».. أما باقي العمال فيأتون في الثالثة عصرًا للإعداد.

كانت مديحة متزعجة جداً في هذا الصباح، دخلت من باب العاملين، وقصدت الحديقة حيث تجلس أمها.. حدجتها سميرة بنظرة فاحصة، وتساءلت في لؤم:

- ماذا حدث؟
- لا أريد الاستمرار مع السيد «دينس».
- لماذا؟
- أف.. ماما، لست لي طاقة بالأطفال.. رائحة البراز تسكن أنفي..
- أوف.
- أنتِ وشأنك.
- بالتأكيد.

وتابعت باهتمام العمال وهم يقومون بإعداد القهوة لبعض الرواد، واستلام الخضار، وكان هذا الجو ينعشها، عالم منفصل تمامًا، وجود الموظفين الأفارقة صبغها بشيء ما؛ شيء لا يمكن تفسيره، ولكن ثمة

شعور يداهمها وهي تراقب حركة العمال والأجانب الذين يجلسون تحت أشجار الكافور يحتسون القهوة؛ بأن هذه الرابطة ليست في القاهرة، وإنما في مكان ما.. ربما في مقاطعة صغيرة في إنجلترا، أو في ريف فرنسا.. ولكن حتماً ليست في القاهرة.. قالت سميرة:

- عملي يبدأ في التاسعة.. وما هو الوقت قد أزف بسرعة.. لم يبقَ على الشقاء إلا بضع دقائق.

- ماما، لن أضيع وقتك.. أريد العمل هنا.

وأثناء ذلك دخل «لارس هيو»، ولما شاهدها تجلس في الحديقة مع أمها لم يصدق نفسه، وقال في نفسه: «إنه القدر».. نعم إن «لارس هيو» لا يأتي إلى الرابطة إلا في المساء؛ حيث يبدأ مباشرة عمله.. ولما شاهدته سميرة وقفت ورحبت به مندهشة من قدومه باكراً، تعلم صرامته في العمل، لكنه ابتسم وتقدم نحوها، بينما كانت مديحة تستعد لمغادرة المكان بسرعة، استوقفها وقال:

- أهلاً.

فتدخلت سميرة وقالت:

- إنها ابنتي.. جاءت تسألني عن شيء.. هكذا بادرت به بسرعة.

- أي شيء؟ هل يمكن لي أن أعرف هذا الشيء؟

تبادلنا النظرات، وقالت سميرة في سعادة:

- إنها تبحث عن وظيفة.. هل يمكن لها أن تعمل هنا؟

اتخذت ملامحه شكلاً جدياً، وقال في نبرة رسمية:

- هل عندك خبرة في خدمة الرواد؟

- نعم.. كنت أعمل عند السيد «دينس» منذ عام، خلاف جدي
أمر. هكذا قالت في ثقة.

بدا الانزعاج عليه، وزفر بتنهيدة عميقة وقال:

- الآن تأكدت من كم المعاناة التي يجيهاها الأساتذة في المدارس؛
كثرة الشرح مرهقة، هل تعلمين أنني لصقت ورقة حقيرة هنا
أقول فيها للمتقدمات للعمل هنا إن ثمة اختلافًا بين العمل في
منزل لدى أسرة حقيرة، وبين العمل في نادٍ كبير؟
احمر وجهها وقالت:

- هذه حقيقة يا سيدي.

- خدمة أسرة تختلف عن الخدمة في النادي.. لا بد أن تفهمي ذلك.

- أعلم ذلك.. ولكن لديّ الخبرة.. علاوة على إجاد اللغتين
الإنجليزية والفرنسية.

- رائع.. سأحدث في ذلك مع الأعضاء.

وأثناء حديثه معها اقترب منها، وبطريقة لا إرادية مسك يدها،
وظل يعبث في أصابعها، والحرارة تتدفق في وجهه وأذنه حتى احمرتا..
يعرفها جيدًا، طالما راقبها وهي جالسة مع سميرة، هي من النوع
الذي يجبه، في عينيها تكمن القوة التي يسعى لها؛ نظرة قاسية،
فعندما تقطب حاجبيها يشعر بأنه واجبٌ عليه أن يفترسها، ويدخل
معها في معركة عنيفة، يستخلص منها عطر الحياة الذي ينعشه.

إذا وقف شخص أمام عاهرة متمرسة، وقال لها: «أنتِ عاهرة»، على
الفور ستشرب بينها معركة دامية ستكون فيها هي الأقوى، ستحاول

سحقه بكل ما أوتيت من قوة؛ لأنه ببساطة أهانها، ليس معنى أنها تاجر بجسدها أنها ستتركك تصفها بهذه الكلمات وتعقب عليها بالضحك، وتقول لك عندك حق أنا عاهرة.. مؤكدة أنت لا تعرف المرأة. ومديحة ليست عاهرة، ولكن عندما وقف أمامها وطلب منها أن تزوجه عرفيًا شعرت بأنها رخيصة جدًا، وظل هذا الجرح النافذ ينزف ألما شديدًا، ولكن استطاعت أن تتناسى كل ما حدث واعتبرت ذلك درسًا كبيرًا استفادت منه الكثير والكثير، وبعد أن هدأت النار شيئًا فشيئًا، تبين لها كم كان طبقًا حقيرًا؛ كان يشعر بالحجل من الجلوس مع مستر «دينس»، لاحظت أنه كان يصدر لمستر «دينس» ملاحظات على ما من حيث نُدره لونها البرونزي، وقصة شعرها، وقوامها وثقافتها.. دائمًا كان يبرز هذه الأشياء؛ ليؤكد له أنه لا يقبل بعلاقة مع خادمة إلا إذا كانت من صنف مديحة.

والآن وبعد أن عملت في رابطة المغتربين وسط جامبر من الأجنب، انتعش مزاجها وجيها، وأثبتت من أول أسبوع جدارتها وتفوقها في العمل على كثير من الإفريقيات.. كان «اليونيفورم» يبدو عليها جذابًا نظيفًا مكويًا بعناية، تعقد الفيونكة حول عنقها الطويل فتبدو في صورة رائعة.. طريقة تحدثها مع الرواد بكلمات لبقة قليلة، حركتها السلسة في حمل الكؤوس، ابتسامتها الواثقة التي يطفى عليها المهنية أكثر من المجاملة، إنصاتها لكلمات الرواد، إجابتها المختصرة بهزة رأسها.. كل ذلك جعل مديحة في مكانة كبيرة عند الأعضاء، وشعرت بالراحة في العمل، وجاء سمير ليُسهر كالعادة سهرة الخميس؛ حيث تضج ليلة الخميس برواد كثيرين أكثرهم من موظفي النفط.. ظل جالسًا يتفحص العاملات، حتى ظهرت، فأشار لها فجاءت، هزت رأسها في أدب، وأصفت له في اهتمام بالغ..

تفحصها في ملابسها التي استنكرها عليها بشدة، وقال وهو مترعج:

- منذ متى وأنتِ تعملين هنا؟

- هل ترغب في تناول شيء الآن؟ هكذا قالت متجاهلة سؤاله.

امتنع وجهه وقال:

- أنتِ هتفضلي كده تخدمي.. مش تعيشي معايا أحسن؟

زفرت بتهيبة عميقة تنم عن غيظها، واحتقن وجهها؛ إنه بلا رحمة، الجرح ما زال ينزف وما زال يضغط عليه بقوة. فقالت بحدة مقرونة بضغط نفس:

- ماذا تريد مني؟

- الحب.

- ليس عندي.

- كذابة.

- هل تريد أن تتناول شيئاً الآن؟ هكذا قالت بصبر نافذ وقد ضغطت على مخارج الألفاظ.

- بيرة.

إنه يكرهها، ويريد أن يؤذيها.. هكذا ترجمت نظرة عينه الزرقاوين؛ ولذلك فكرت بسرعة وقررت أن تبادر بالتصدي له قبل أن يتسبب في فصلها من العمل، والحقيقة أيضاً أنها وجدت لها فرصة للانتقام منه.. مستددة له ضربة قوية تعيد له عقله. فذهبت إلى «الارس هيو» في مكتبه؛ حيث كان جالساً ويجواره الأستاذ زاهر الذي رمقها بنظرة طويلة.. ولما وقفت أمامه، تساءل في لهجة جادة:

- ماذا حدث؟

- هناك زائر يصر على مضايقتي.

- من؟

- السيد سمير دانيال.

فقام مفزوعًا وقد احمر وجهه، وقال لها:

- تعالي معي. هكذا قال في هدوء بعد أن أومأ برأسه للأستاذ زاهر
مستأذناً.

وقف أمامه بقامته الطويلة، وانحنى وقال بلطف:

- ماذا طلبت أن تشرب؟

نظر لها مستغربًا، ثم قال بثقة:

- بيرة.

- أريدك أن تتناولها معي في مكثبي للتحديث في أمر مهم.. تفضل.

ظل يتبادل النظر معها، ثم تحرك معه في ثقة بدت في خطواته
البطيئة، وكانت تمشي خلفها، وكانت له رائحة تذكرها بخيبتها،
وقالت في نفسها وهي ترمقه من الخلف: «الكلب كان يريد أن
يستأجرني». ولما استقرا في مكتبه وكان زاهر جالسًا، قال له:

- أعرفك.. هذا السيد زاهر؛ أحد أعضاء في الرابطة ومالك الفيلا،
كما ترى رجل محترم يجب خدمة الناس.. تفضل بالجلوس.

جلس «لارس هيو» إلى مكتبه بعد أن تناول ملفًا ظل يفحصه
بعناية بعد أن وضع فوق عينيه عويناته، ثم قال له:

- أنت لست عضوًا.. أليس كذلك؟

- نعم.
- وليس لك أي نشاطات في الرابطة؟
- نعم.
- لماذا تضايق العاملة مديحة؟
- أنا....
- قاطعها «لارس هيو» في حدة، وخلع عويناته ووضعها جانباً، ثم قال:
- بدون كلمات كثيرة.. إذا رغبت في الجلوس، يكون ذلك باحترام.
- أنا محترم. هكذا قال منفعلًا.
- أكيد.. ولكن نريد مزيدًا من الاحترام. ثم ابتسم في برود، وقام بصافحه:
- تفضل مع السلامة. هكذا طرده من الرابطة.

ستبذل مجهودًا في التعرف عليها؛ لا لأنها تحولت لامرأة خليجية ثرية في كل شيء.. العباءات المشغولة بالخرز الكريستال، والمرصعة بالفصوص البراقة، علاوة على صبغ وجهها بالمساحيق، خاصة الكحل الطبيعي الذي يأتيها من الخليج مخصوصًا «الإثمد» هذا هو النوع الأصيل للكحل؛ حيث كان يُستخدم أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي جعل عينها كبيرتين.. ولكن من انتقائها كلمات خليجية اكتسبتها من زوجها تلقائيًا من المعاشرة، كلمات ممزوجة بذكر الله دائمًا؛ لا تلتفظ قولاً إلا وتعقب عليه بذكر الله، مثلاً «إن شاء الله» «بإذن الله» تقولها بصيغة تدل على إتقانها اللغة العربية.. فتستدعيها أثناء التسوق، وتشعر بالراحة من أنهم يظنونها امرأة خليجية؛ يعني

مثلاً تقول: «أنا عايضة كيلو طماطم» لكنها تقولها هكذا: «أريد من هذا» وتشير بإصبعها على الشيء، هكذا تمزج الألفاظ بالحركات في أداء ممتاز سرعان ما يحولها لامرأة خليجية ثرية بلا أدنى شك، لكنها ما زالت تحتفظ باللكنة الفلاحي؛ لأن عبد الكريم يحبها، وخاصة أثناء الجماع، فاستطاعت أن تمزج بين اللكتين ببراعة.. هكذا بدت شياء أو «الشيء» مؤخرًا، كما يجب أن يناديها عبد الكريم.

في هذا اليوم قررت أن تنزل لتبتاع لوازم شهر رمضان من السوبر ماركت، ارتدت العباءة وزينت وجهها، وانتعلت صندلاً رقيقاً من الجلد، واصطحبت معها خادمتها.. ابتاعت بضاعتها، ثم عادت إلى العمارة في تاكسي ييجو.. ظلت العاملة لمدة ربع ساعة تعمل على نقل البضاعة من السيارة لمدخل العمارة وهي منتظرة في المدخل بجوار المصعد، حتى جاء «نواف الرشيدى»، وفور مشاهدتها تسمر مكانه، وظل يتفحصها، ثم قال لها:

- من مكان العمارة؟

هزت رأسها بنعم، ثم ابتسمت في رقة.

- كل عام وأنت بخير.

- وأنت بخير.

- أنا «نواف الرشيدى».. من الخليج.

- أنا «الشيء» زوجة الشيخ عبد الكريم.

وأدرك تلقائياً سر عداوة عبد الكريم له؛ إنه يخشى على زوجته منه، ليست لديه ثقة بها، والحقيقة أن المرأة كانت جميلة، عيناها جريتان لم تكف عن النظر له، واستحوذت عليه رغبة في الانتقام منه فيها،

وبخبرة طويلة أدرك أنها سهلة، ستخضع بسهولة، هذا النوع ليس لديه ما يقاتل من أجله سوى المال، وعندما يتوافر لمن المال سيقبلن بأي شيء.. ولما استقروا في المصعد اقترب منها شيئاً فزكمت أنفه رائحة عطرها، فذكرته بزوجته، وظلت الرائحة في أنفه حتى استقر في الشقة، طرح نفسه على الأريكة التي تتوسط الصالون وراح يفكر في زوجته وأهله، آخر مرة وجهت له أسئلة محددة حول الإنجاب، وعانى حالة انقباض رهيب عند طرح الفكرة، هي لا تفهم أنه يكرهها، ويكره نساء بلدته، بل يكره جميع النساء؛ لذلك يتقم منهن، وشعر برغبة جامحة في استدعاء الماضي البعيد، ثمّة ذكريات يسترجعها فتريح ضميره.. محاولات اغتصابه وهو صغير التي فشلت ليقظة والده، الشيخ الذي كان يعمد في كل مرة أن يربت على مؤخرته.. الآن يتأمل هذه اللحظات في عمق ويسأل نفسه: «ماذا كان يشيره فيها؟» ويزفر بتنهيدة وحشية: «القلب مكسور، والنفس مريضة، والشهوة متأججة، والعالم يضج بالقاذورات، وقد صدق «عبدون النور» - خذوا الحكمة من أفواه القوادين - «المرأة لا يعنىها إلا المال».. وأنا سأخلص العالم من النساء، سأريح كل رجل في قبره مات من أجلهن، أو عاش وتجرع سمومهن، سأريه أنه نجا من الموت، بنقودي ستخضع وتستسلم، هلموا إلى فراشي لتشاهدوهن يصرخن ويتألن.. كفاكم مشاهدة الأفلام وقراءة القصص، إنه لوهم عظيم، ليست هناك نهايات سعيدة، الجميع يتاجر بالضعفاء والحالمين، النهاية السعيدة فقط عند الموت؛ العالم المحجوب، والصراط، والوقوف هناك بعيداً بين يدي الرحمن، والسؤال والجواب.. هناك فقط سنكتشف الحقائق».

وظلت الرائحة في أنفه تجلب له الذكريات المؤلمة.. قالت له زوجته آخر مرة في مرارة قبل المجيء إلى القاهرة: «نؤاف، متى

ستزوجني ١٢٠ عام وهي عذراء، وجاء السزّال كطعنة نافذة إلى قلبه،
وصرخ في وجهها متألمًا: «أنتِ زوجتي».

عام وهو بعيد، لا يستجيب لتوسلاتها في التليفون، لم تعد فيها أي
رغبة حقيقية، وعاش في مرارة، عندما كان يجامعها، كانت تنن في لذة،
وتغمض عينيها، وتقوم وتمكث في الحمام قليلًا، هكذا كانت تبدو
معها كأنها تأخذ جرعة من دواء ثم تهدأ، إنها مريضة كما قالت له..
وتأملها كثيرًا أثناء إعداد نفسها قبل الجماع، كان يراها تقدم عرضًا
غريبًا؛ تعطر مؤخرتها بماء الورد، وتصر على تحضير الزيوت التي
سهل المرور، إنه نظام ظلت تنفذه رغم أن الزيوت لم يعد لها دور،
ولكن تعلم أن هذه الطقوس تسعده، إنها ارتضت المرض.. والآن
وبعد عام من الفراق يتساءل في نفسه مفرًا صراخها في التليفون:
«هل تم الشفاء؟ أم استعانت بغيره؟ أم استعانت بقوائم السرير ١٢٠».



وضع أمامه الديك الرومي الذي تفوح منه رائحة أثارت
ليس فقط شهيته وإنما أعصابه أيضًا؛ تارة ينظر للساعة المثبتة
أمامه على الحائط، وأخرى إلى الديك الرومي.. مديده وظل
يكس أمامه على المائدة الحمام المحشي، والدجاج المحمر، والأرز
المقلقل، وأنواع المخللات المختلفة والطحينة والسلطة.. قام وبدأ
يتنفس باضطراب، ثم قال بصوت عالٍ: «الله أكبر.. الله أكبر..
متى يرفع المؤذن الأذان؟».. خرجت زوجته شيئا تتبعها توفيقه،
وجلست جواره تحملق فيه بقلق، تعرف أنه في هذه الساعة يفقد
أعصابه؛ لذا تكتفي بمراقبته، أو الانشغال عنه؛ لذا انكبت على
مزج العصير بالسكر، ثم دق جرس الشقة، هرول لفتح فوجد

خادمة الدكتور عبد الجواد تحمل صينية كثافة بالقشدة قائلة:
- الدكتور عبد الجواد يقولك كل سنة وأنت طيب يا مولانا.
أخذ منها الصينية، وصفح الباب في وجهها، وكشف الغطاء وإذا
برائحة الكثافة الساخنة تثير أعصابه أكثر.

لم يستطع أن يلتهم سوى نصف الديك الرومي بجانب طبق من
الطحينة والسلطة وبضع ملاعق من الأرز، ثم استرخى على المقعد
ومد قدميه، وسرعان ما علا شخيره الذي بدا كزجاجة وحش مخيف،
حاولت أن توقظه لأداء الصلاة لكنها خشيت.. ثم برزت شفاه
الغليظتان متحجرتين، فنهض وتناول زجاجة المياه وأفرغ في جوفه
جرعة كبيرة، ثم نظر لزوجته الجالسة بالقرب من البلكونة البحرية
حيث الهواء يتدفق؛ فبدا شعرها الناعم نائراً، وهي ساكنة متسلمة،
فذهب نحوها وجلس جوارها، أفسحت له مكاناً، لكنه سرعان
ما ضمها لصدره بقوة.. حاولت التخلص منه، لكنه حملها بعنف
ودخل بها غرفة النوم، قالت له وكأنها تستنجد:

- الصلاة يا مولانا.

تجاهل قولها وخلع جلبابه وألقاه جانباً، تراجعت هي بضع
خطوات، ثم جذبها وطرحتها فوق السرير، تحب وحشيتها جداً،
لكنه سرعان ما يتوقف، ويزفر بتنهيدة قوية هي مزيج ما بين
الآه والحشجة، ويتنفض من فوقها وجسده الضخم يرتج، ويدس
قضيبه في سرواله، ويذهب ليغتسل، وهذا هو الشيء الذي تكرهه
فيه؛ إنه يضعها على الطريق ثم يتركها ويذهب، رحلة تستأنفها بعد
ذلك بمفردها، لم تعلم شيئاً عن الجنس سوى التحام الأعضاء، لكنها
تشعر أن بحرته واسع، مؤكداً أننا نختلف عن الحيوانات، لم يقبلها، ولم

يداعبها.. ممارسة الجنس لا تستغرق أكثر من عشر دقائق.. تظل هي بعدها مستفرقة في لذة تستكملها بنفسها، تدخل الحمام وتعكف فيه أكثر من ساعة. لكن اليوم تذكرت هذا المساء القريب الذي شاهدت فيه «نواف»، إنه يشبه المغنين، ليس مثل هذا البغل زوجها، تخيلت معها في الحمام، وظلت تمارس العادة السرية، وشيئا فشيئا شعرت بالرغبة، ثم استرخت في البانيو، وطففت رغاوي الصابون أمام وجهها المورده، ولمعت عيناها، وهمست في نفسها: «ليس من حقنا أن نأخذ أكثر من المكتوب». وشعرت وهي عائمة في الماء الساخن بانتعاش لذيذ، فاستأنفت تأملها ومزاجها رائق.. وشكلت من رغاوي الصابون التي طفت بكثافة أمامها كلمتي «الحب» و«المال»، وظلت تتأمل الكلمتين، فإذا بكلمة الحب شيئا فشيئا تذوب في الماء، أما كلمة المال فإنها ظلت قائمة لوقت طويل، فقالت: «هو المال».. ولما خرجت وجدته جالسًا في الصلاة فلثمت يده، ثم جلست جواره والتصقت به كأنها تشعر بأنها خائفة.. ثم قالت له:

- ما أخبار المائدة؟

- بخير.. ولكن المصريين همج، أتعبوني؛ ولذلك قررت الراحة اليوم.

- ماذا حدث؟

- لا يعنيه سوى الطعام.. فور الانتهاء من إعداد الطعام، يتراصون متلهفين على الطعام دون شيء آخر، ولما اختبرتهم اطمئن قلبي ليا فعلته معهم.

- وماذا فعلت؟

- أوصيت الشباب أن يتصدوا لهم بالعصي.. وعندما رُفِع الأذان أجبروهم على الصلاة.. وقد صليت بهم في أول ركعة بسورة

«الواقعة»، والثانية بسورة «يس».. ولما انتهيت من الصلاة هرعوا نحو المائدة في همجية وتوحش، فتصدى لهم الشباب بالعصي حتى أجبروهم على التوقف.. ثم خطبت فيهم خطبة طويلة، كادوا أن يقتلوني، ثم انصرف البعض، والباقي انتظر حتى التهم وجبته.. علاوة على سرقة الأواني.. المائدة أظهرت معدن المسلمين الحقيقي.

تبتاع مدام «أندرا» الخضار واللحوم من مجمع الأهرام الاستهلاكي القريب من منزلها في شارع ١٥، في هذا اليوم كان طقس أكتوبر عنيفاً؛ حيث حمل الأتربة فوق تيارات الهواء البارد، فبدأ شعرها هائشاً، وبدأت في حركتها كالعادة نشيطة.. وفجأة سمعت فرملة قوية لسيارة تقف خلفها؛ فارتعدت وقفزت تلقائياً فوق الطوار وصرخت: «مجنون».

استقرت السيارة، ونزل منها «نواف» وعلى وجهه ابتسامة كبيرة، تقدم نحوها وصادفها، ثم قال معتذراً:

- مدام «أندرا»، آسف على إزعاجك.

تجمد الدم في وجهها، وبرقت عيناها بنظرة مخيفة، ثم لعقت شفيتها وهي تزدرد ريقها الجاف، ثم هتفت في عنف:

- ماذا تريد مني بالضبط؟

- مدام، عندي كلام كثير فيه فائدة عظيمة لك.

- مستر «نواف»، أرجوك ابعده عني.. أنت لا تأتي من ورائك أي فائدة.. أنت تأتي من ورائك المشكلات فقط. هكذا قالت وقد أشاحت بوجهها عنه.

- عشر دقائق من وقتك مش كثير.

تفكرت قليلاً وما زال وجهها عابثاً، ثم زفرت بتنهيده طويلة
وقالت:

- تفضل.

وجلسا في قهوة الثكنات، وللقهوة بهو كبير يتصل بالشارع وتظله
أشجار الجازورين.. وبعد أن جلسا في الشارع وجاء النادل بالشاي، قال:

- مش مطول عليك.. هو اتفاق.

- أي اتفاق؟

- أريد زوجتي.

- أوووه.. سبق وقلت لك إنني لا أعرف عنها شيئاً.. لماذا لا
تصدقني؟

- إحاسبي يقول إنك تعرفين كل شيء.

ظلت صامتة، فقال في مكر:

- خمسمائة دولار دفعة واحدة.

نفخت ذبابة استقرت على أنفها، وعصف الهواء بشعرها فبدأ
هائثاً أكثر، وقالت في تردد:

- ماذا ستفعل معها؟

مع إحساسه بالراحة لهذا الانتصار الجديد، اعتدل فوق المقعد
الخشبي، وأوقد سيجارة، وأخذ نفساً عميقاً ونفخ الدخان في لثة
وارتياح، وأعقبه برشفة من كوب الشاي، وبدأت السعادة على وجهه
مشرقة؛ سعادة ناتجة عن شعوره بالنصر، فضلاً عن سعادته بذكائه،
فقال:

- داليا زوجتي يا مدام.. كيف أوذي زوجتي.. ولا بد أن يكون لك دور.. فهميها أن الصلح خير.

على الرغم من شعورها بأنه حانث في وعده، فإن الخمسة مائة دولار كان لهم أثر كبير عليها، وقالت في نفسها: «فلتذهب داليا إلى قدمها، وظلت تردد: «داليا لا يُخاف عليها.. ليست ثمة خطر.. ربما معركة أخرى». ولما وصلت الشقة أعدت لنفسها فنجان قهوة، وراجعت الخطة التي أعدتها معه جيدًا:

- ستأتي في بداية الأسبوع القادم.

- تمام.. وماذا بعد؟

- في اليوم التالي تأتي في الساعة العاشرة.

- تمام.. وماذا بعد؟

- لا أعتقد أنني سأقيدها وأضعها في سيارتك.

- نعم.. أفهم.. سنكون في الشقة.

- لا.. لن تكون مدرستي مسرحًا لكما.. ستكون في مدخل العمارة.. ولكن عدني ألا تؤذيها.

- أعدك.

وذهب «نوراف» إلى شقته، تأمل الجنود الذين أحاطوا بالعمارة، وشعر بأنه في ثكنة عسكرية.. دخل وسط ترحيب من رجال الحراسة (فهو يقوم بجلب وجبة الإفطار لهم من أفخم المطاعم)، وفي المدخل ثمة أصوات صادرة عن الأجهزة اللاسلكية.. نداءات، صيحات، تعليقات.. لكنها توحي بيقظة كبيرة.. وقال في نفسه وهو يتأمل كل هذا: «كم من مجرم يتمنى أن يكون بدلاً مني ليقتل هذا القنصل.. لو

أنتي مؤمن بفضيتهم لصعدت للطابق الخامس وقتلته، ولكن الإيهان لا بد أن يكون على عقيدة، وأنا مؤمن جداً أن الله لن ينصر المؤمن إلا بعمله، وهؤلاء مؤمنون لذا كانت لهم الهيمنة، فلينعموا برضا الله عليهم.. أما نحن فنستقبل العالم بفضباننا ومؤخراتنا.. هذه هي جتنا.

خلال ثلاثة شهور بعد عودتها من الإسكندرية، وهي تخطط للهجرة إلى فرنسا، هاجرت صديقتها الروسية «إريتا»، وهاتفها من هناك وقالت لها: «لا بد أن تأتي إلى باريس.. اللجنة هي باريس.. الأضواء، والمسارح، والمقاهي.. كل شيء له أصل في باريس؛ سواء الثقافة أو الدعارة.. تعرفت على قوادة قالت لي في أول لقاء: أنتِ وسادة جميلة.. لم أنهم شيئاً، فعلمت أنهم هنا يطلقون على أمثالي وسادات.. إذا أردت أن تتاجري بجسدك فتعالى إلى باريس، وإذا أردت أن تعمل في الرقص فتعالى أيضاً إلى باريس، لا ينبغي أن تستمري مع أندرا أكثر من ذلك». وبدأت تستعد لهذا الأمر، وعاشت أسوأ فترة مع «أندرا»؛ تحملت بصعوبة مزاجها المتقلب، وعانت من عصبيتها، وفي كل مرة كانت تقاوم شعوراً بالغضب تجاهها، واستطاعت بمجهودها أن تجذب رواداً جددًا للمدرسة، طبعت إعلانات ولصقتها أمام المدرسة الأمريكية، ووزعتها في الرابطة بمعاونة مديحة، وبدأت المدرسة تتعش شيئاً فشيئاً، فضلاً عن ذهابها لسيدات كبار في السن تقوم بتدليكهن، ومساعدتهن على ممارسة الرياضة.. ولاحظت أن «أندرا» بدت مملّة أيضاً، لم تعد نشيطة، تنتظر النقود بفارغ الصبر، وتذهب إلى الرابطة لتجرع الخمور حتى تشمل، وتعود وبصحتها فتى إفريقي يظل يضاجمها في صالة الرقص، فتتظر لها متقرزة من وراء البارفان الفاصل بين الردهة والصالة، وتعود لغرفتها، وكانت تتساءل: «ماذا حدث للمدام؟!».

وفي ذات مساء من أيام أكتوبر، وفيما هي صاعدة للطابق الثاني حيث المدرسة، بعد أن ابتاعت الطعام، زكمت أنفها رائحته؛ «عطر سلطان».. ضغطت على الجرس طويلاً حتى أحدث رنيناً متواصلاً، ولكن لم تستجب لها المدام، فأدركت أنه كمين نُصب لها.. ألقت بالطعام على باب الشقة ونزلت بسرعة، فإذا بها تشاهده واقفاً في صدر المدخل ثابتاً، ولما استقرت أمامه أخرج من سترته الجلد مسدس صوت ابتاعه منذ عامين من متجر كبير في وسط البلد، وقال لها:

- رصاصة لا تساوي جنيهاً مصرياً أصرعك بها في الحال.

وتسمرت أمامه في ذهول، وأدركت أنه لا فرار منه إلا بالمواجهة، وظلت تتنفس بصوت عالٍ؛ فأدرك أنها خائفة، فشمع بالقوة المقرونة بالنصر المبين، وجعل يتأملها في حنين بدا في لمعة عينيه الواسعتين، فسكرته رائحتها الطفولية، وأراد، بل تمنى لو تركه يطوقها ولو للحظة واحدة.. ثلاثة أشهر وهو يبحث عنها، ويترقب بيت مدام «أندرا».. ثلاثة أشهر فقد فيها اللذة مع أشهى الفتيات.. استغزه هؤلاء اللاتي لا يعشن إلا بالمال، بحث عن واحدة فيهن تشبهها، واحدة تقول له لا.. بل تصده.. تقتله.. تبصق في وجهه.. لم يجد.. وقال في نفسه ذات ليلة قمرية وهو جالس في الشرفة الكبيرة: «لست أنا الذي تقتله امرأة».. بدافع الكبرياء ظل يتظرها.

- كان يمكن أموت. هكذا بادرها بنبرة حادة.

- ماذا تريد بالضبط؟ هكذا قالت بعد فترة صمت استطاعت فيها أن ترتب أفكارها، وبدا جسدها بعد أن اقتربت من الثامنة والعشرين ضامراً، ووجهها بدا أكثر نحافة، إن التفكير والتخطيط والخوف أثروا عليها حتى فقدت قدرًا كبيرًا من وزنها، فبرزت

عظام الوجه والرئة.. وظلت بعد أن تحدثت تنظر له طويلاً،
وهي تتنفس من أنفها فقط.

- حفي.

- أي حق؟

- حق الزوج على زوجته.

- كان اتفاقاً، وأنت أخللت به. هكذا قالت في عصبية حتى نفرت
عروق عنقها الطويل.

- ماما.. دامش كلام.. أنت بكده تبقي نصابة، و«نواف» ما عاشت
اللي تنصب عليه.. اعقلي.

تقلصت عضلات وجهها، ولمعت جبهتها رغم برودة الجو،
وظلت تفكر لبضع ثوانٍ، ثم قالت:

- مُتعتك مش عندي.

- لأ عندك.

زفرت بتنهيدة عميقة تدل على غيظها وقالت:

- تعال نتحدث بعيداً.

- فين؟ هكذا قال في سعادة عميقة.

- أبداً جوعانة.. نتعشى في مطعم «لاكاريتا».

هز رأسه في طاعة، وأغمد مسدسه في سترته، وخرجا من المدخل،
ولما اجتازت الباب شعرت بالحريية، الشوارع الواسعة بدت لها
ساحات خضراء مغرية بالركض فوقها.. ودار حول سيارته بتريث،
واستقر على عجلة القيادة، ونظر لها نظرة طويلة، وأدرك بسرعة ما

تنويه، وفيما هو ينزل من السيارة كانت قد انطلقت بسرعة كبيرة.. ركض خلفها، وأطلق رصاصة في الهواء، كان لها صدى قوي في الحسي، ولما دوت في أذنيها تعثرت أكثر من مرة من فرط الخوف، لكنها تحاملت بقوة غزالة تهرع من وحش مخيف.. قفزت بحركات بهلوانية من فوق أسوار الحدائق، واخترقت الطرقات بحرفية.. فعجز عن اللحاق بها، واستسلم لصراخه وسبابه، فعاد إلى «أندرا» وظل يطرق بابها في عصبية شديدة، ثم صاح بصوت خارق:

- مش هسيك يا «أندرا».. وحياتة أبي هعلق هذا الماخور.

ومكث في بيته يفكر فيها، بل بكى بكاء طفل صغير لم يحصل على لعبة، وتساءل في نفسه: «هل تكرهني؛ لذا ترفض معاشرتي بهذه الطريقة؟ أم هي ترفض العلاقة من الأساس؟ ما هذا الإصرار؟ ماذا تعرف عن هذه العلاقة؟ هل تحدث معها أحد عن نتائجها الكريهة؟ هل حدث وأن ضاجعها شخص ما فتألمت؛ لذا تمنع؟» وارتاح لهذا التحليل الأخير: «إنها سافرت مرارًا وتكرارًا في رحلات الزواج، مؤكدة ضاجعها رجل قوي في مؤخرتها.. من هذا الرجل الذي استسلمت له؟ وهل كان شابًا أم عجوزًا؟ آآه يا بنت الحرام».



وأقامت داليا بعد ذلك في شقة صغيرة، في بيت من ثلاثة طوابق، يقع بالقرب من المطعم اللبناني؛ تعلم جيدًا أنه يراقب منزلها ومنزل «أندرا».. واستطاعت بعد عناء وانتظار طويل أن تعمل في الرابطة، شهر ظلت فيه قابضة كغزالة جريئة؛ كل حركة بحساب، تبتاع طعامها بالتليفون، تخرج في الصباح فقط؛ لأنها تعلم أنه ينام حتى المساء، وأيضًا لإنجاز أوراقها نحو الهجرة، وسألت مديحة أن تقرضها، لكنها

اعتذرت كالعادة؛ لذلك عرضت عليها العمل في الرابطة، وقالت لها: «العمل في هذا النادي سيوفر لك كل شيء؛ المال والحماية، ربما لن تخاجي للهجرة». وفي أول يوم أثبتت جدارتها، ركزت فقط في العمل؛ ففتتها بعض الرواد بالفتاة التي تشبه الأفعى في صمتها وترقبها، وانتعش مزاجها شيئاً فشيئاً، وكان يضايقها فقط في هذا المكان ليلتنا الخميس والجمعة؛ حيث تضج الرابطة بموظفي النفط والمدرسين، وكان أكثرهم شواذ، تلاحظ ذلك بعد ذهاب مستر «لارس»؛ حيث يبرع «سيمون» في تسويق الفتيات، ومرة قال لها أحد الرواد: «داليا، أين تكمن مؤخرة الأفعى؟» فقالت له: «اسأل زوجتك».

كان فصل الخريف هذا العام رائعاً، كانت تتفقد هذا الجو في استمتاع، يذكرها الخريف بالطفولة؛ بأيام الركض وراء الفراشات البيضاء.. أشجار الصفصاف تجردت من أوراقها، وبدت في عينيها كامرأة جميلة عارية، والشمس ترسل خطوطها الصفراء المتلاثلة عبر الأشجار من اتجاه الشرق، وحفيف الأوراق بدا في أذنيها كسيمفونية رائعة، وقالت في نفسها: «الطبيعة رائعة، لم تُدنس، كل شيء ينعم بالصفاء والاعتدال، إلا هذا الكائن المخيف؛ الإنسان.. أما دنيا الرابطة فهي دنيا قذرة، يقول الكلب لي: داليا، اطلب عليك فاق كل تصور.. يا الله، متى تُرجمني من هذه القذارة التي تتعقبي؟» هكذا قال لها «سيمون» وكانت حثيذ في الحديقة تستمتع بتناول كوز بيرة مثلج، حينها قذفت السائل في وجهه وركلته في مؤخرته بعنف. كانت للرابطة رائحة غير مريحة، وكانت تشعر في جوها بالكآبة، وكانت تقول في نفسها: «هؤلاء الرواد أكيد يختلفون عن رواد الثاينيات».. تفقدت الصور، وسألت «خرستوف» الذي اقتصر وجوده على الإشراف فقط؛ فحكى لها عن سدام «بيريا»، وعن الأعضاء، والمكتبات، والنشاط الإنساني الذي

كانت تقوده، وقال لها: «لم يبقَ إلا المكتبات يباشرها السيد إبراهيم مسعود.. لكن الأجنب لم يعد لهم دور إلا دفع التبرعات فقط». واعتادت في هذه الأيام النوم مبكرًا، والاستيقاظ مبكرًا؛ تدرك تمامًا أن العمل في خدمة الرواد مرهون بالصحة.



صداقته «بيودا» كان لها أثر إيجابي على حياته كلها، شعر بذلك بعد أن أنقذه من الهلاك بسهولة، إنه أخرجته من الجحيم كأنه ملاك موفد من رب العالمين لتخليصه.. في الخارج استقبل الهواء بصدر واسع يستطيع استيعاب هواء الدنيا كلها، استرق النظر لضباط المباحث الذين قذفوه بنظرة مسمومة، إنهم لا حول لهم ولا قوة.. هل يستطيع واحد منهم اعتراضه؟ كم بدوا ضعفاء أمامه.. ما هذه القوة التي صبغها بها السيد «بيودا»؟! ولما وصلنا حيث سيارته في شارع ١٣ أوقف سعيد بحركة من يده، وراح يفحصها بعناية، ولما اطمأن استقلها، وجلس سعيد جواره صامتًا متأملًا كل شيء في ذهول.. إلى أن قطع عليه الصمت قائلاً:

- هل تعرّض أحد لك بالأذى؟

- لا.

- حسنًا.. هل لديك شيء الآن؟

- لا.

- إذن نتناول الإفطار معًا.

وفي مطعم «لاكازيتا» جلسنا في هدوء.. لأول مرة يشعر بهنا الإحساس الرائع، جلس كثيرًا مع «بيودا» في «لاكازيتا» وغيره، لكن

في هذه اللحظة بالذات شعر بشيء عجز عن تفسيره؛ هي تقريبًا حالة أقرب إلى حالة مصارع ظفر بانتصار كبير فجلس يحتفل مع أصدقائه، شاهد كل الذين يجلسون حوله أقزامًا.. تناول القهوة الفرنسية على معدة فارغة، لكنه شعر بأنه أكل بقرة؛ حالته النفسية كانت في أعلى معدلاتها. واستأذنه للذهاب للبيت، وقام يوصله إلى عزبة البوليس القريبة، لم يستغرق الوقت بالسيارة أكثر من دقيقتين.. وأكد عليه قبل أن ينزل من السيارة: «هاتفني لو تعرض لك أي شخص مهما كانت مكاتته».. فهز رأسه في سعادة وذهب.

ولما استقر في الشقة، أخذ دُشًا باردًا ف شعر برغبة في النوم، فهاتف جميل مدير الديسكو واستأذنه في ثلاث ساعات تأخير، وقال له جميل: «يا باشا لو تحب تاخذ اليوم كله إجازة مفيش مانع»، ثم استأنف بنبرة منخفضة كأنه يوشوشه: «أصل المدام راضية عنك جدًا». واستغرق في النوم حتى الساعة مساءً، ثم ارتدى ملابسه وذهب للديسكو، وهناك استقبله جميل بود، وكذلك المدام، لأول مرة يكشف أن لها ابتسامة، حتى عندما كان يضاجعها كان وجهها يظل حادًا قبيحًا، تمنى كثيرًا أن يجرها من شعرها إلى أقرب مرآة ويقول لها: «أنت قبيحة.. لا بد أن تفهمي ذلك.. المرأة لا تكذب». واستأنف السهرة في سعادة كبيرة، رقص وتجمع أفخر الخمور؛ الاسكوتش الذي يجنبه المدير، والبيرة.. وفي نهاية السهرة شاهد «يودا» يلقي نظرة سريعة على إيقاع الديسكو، فهرع نحوه في سعادة وصافحه بحرارة، وشعر برغبة في البقاء معه، قال له «يودا»: «اذهب لأصدقائك، واستأنف سهرتك». لكنه رفض وقال له: «أنت صديقي». ابتسم «يودا» في سعادة ووقف في البلكونة الكبيرة المظلة على الشارع، وتحدثا قليلاً حتى ظهرت «ويلما جرول»، ابتسمت لسعيد، وصافحت «يودا» بحرارة، ثم تركتهما..

بدا وجه «يودا» شاحبًا، وزفر بتهيئة عميقة، ثم بصق وراءها،
وقرر أن ينزل، فتبعه وجلس في سيارته، وجلس جواره، فقال له:

- لا أستطيع أن أشاهدها.

- إلى هذا الحد تكرهها؟

- مثلها تكره أنت الأفارقة. ونظر له واستأنف:

- ما زلت تقاتلهم؟

- أنا أكرههم جدًا.

- وأنا أكره هذه السيدة جدًا.

- لماذا؟

فرد مقعده وقال في ألم:

- إنها قصة طويلة.

- أي قصة؟

- قصة شعب يومًا ما كان سيُباد لولا إرادة الله.. ولكن حدثني لماذا

تكره الأفارقة؟

- إنها قصة طويلة.

فضحك «يودا» وقال له:

- يتسللون إلى إسرائيل الصغيرة من كل مكان.. أعلم أن إسرائيل

دولة يحلم بالهجرة إليها كل إنسان، لكن هؤلاء يلوثونها.

وهز سعيد رأسه في سعادة، وقال له:

- أنا أكرههم جدًا.

- لكنكم أفارقة، أبناء قبارة واحدة، فضلاً عن نهر النيل الذي يجمعكم.
- نحن فراعنة، ولسنا أفارقة.. أما النيل فمنذ الأزل مصري.
- هه. هكذا ضحك «يودا» بسخرية لم يدركها «سعيد»، وقال له في سعادة:
- سعيد، بيتنا شيء مشترك، وهو كرهنا لهؤلاء الكسالى.
- وابتسم سعيد وقال له:
- أريد الهجرة إلى إسرائيل الصغيرة.. وهذا لمصلحتكم أنتم.
- التفت له «يودا» بعد أن كان شاردًا في عالم آخر، وكانت ثمة موسيقى غربية تبعث من المسجل:
- أي مصلحة يا سعيد؟
- مقاتلة الأفارقة في شوارع تل أبيب. هكذا قال في سذاجة، أعقبها بضحكة صبغتها بنوع من السخرية المقصودة.
- وقال «يودا» ضاحكًا وهو يتحرك بالسيارة:
- يكفي أن تقاتلهم في شوارع القاهرة.. نحن لنا ملاحظات، لكننا نحبهم.



سبب نرفزة مدام «ويلها جرول» المرأة الألمانية صاحبة مطعم «بالما» و«ديسكو فلاش» ليس عدم انضباط العمال فحسب، ولكن عدم الاستمتاع جنسيًا؛ تقريبًا كل العاملين في المطعم مارسوا معها الجنس، حتى عمال مطعم «لاكازيتا».. عند ممارسة الجنس معها يجمر وجهها العجوز المترهل، وتظل تعنصر الرجل حتى النخاع؛ كانت

تمارس الجنس بشراهة. والحقيقة أنها كانت لا تطاق؛ فهي تجاوزت الستين عامًا، ورغم رشاقتها الناتجة عن الرياضة المستمرة؛ حيث لا تتوقف عن ركوب الدراجة الهوائية، فإنها خالية تمامًا من الأنوثة.. لديها خبرة كبيرة في ممارسة الجنس، تتقن فعل أكثر من عشرين وضعًا؛ حيث تفعل ذلك بسهولة وليونة، لكنها تملك نبرة صوت كفيلة بهجرة الكائنات الحية من حولها فور تحدثها؛ حيث لا تستطيع أن تميز إن كان هذا الصوت لذكر أم أنثى، علاوة على حشرجة مميزة أشبه بزجاجة حيوان. مكث عندها سعيد ليلة كاملة، جلس في الحديقة الصغيرة وتناولوا كوزين بيرة وحدثته بلزوم:

- مستر «يودا» شخص مهم.

- أعلم ذلك.

- هو يجبك.

- بالطبع.. وأنا أيضًا أحبه. هكذا قال في غرور.

حدثته بنظرة نافذة من وراء نظارتها الطيبة الكبيرة ذات الإطار البلاستيك الأسود، وقالت:

- سعيد، أنا أحبك.. ومسألة الحب بيننا ليست إلا لاندماج الروح.. أنت تعلم أنني أثق بك، وأترك لك جسدي لأنني أريد فقط أن نكون نسيجًا واحدًا.. سعيد، لا بد أن تفهم ذلك.

وفيما هو جالس مسترخٍ أنعشه نسيم الليل البارد، وجعل يفكر في حديثها، تمنى كثيرًا أن يمرها من شعرها لأقرب مرآة ويقول لها: «أنت فييعة.. وجهك قبيح.. انظري، المرأة لا تكذب مثل البني آدمين».. لكنه تراجع عن تأديبها في الحال.. لا بد من مراجعة مستر «يودا» أولاً.

وفي غرفة النوم ثمة طقموس جديدة أضافتها.. الشموع، زجاجة
الويسكي الفاخرة، شرائح من التفاح الأحمر، معزوفة هادئة كانت
تنعش الغرفة بإيقاعها الساحر.. خلع ملابسها وأخذ دُشًا باردًا
أنعشه، وخرج لها فوجدها أمام السبورة تستعد لإلقاء المحاضرة؛
كانت المدام قبل الجماع تشرح بدقة أهم تفاصيل الجماع، من خلال
سبورة صغيرة على حامل.. تبدأ في رسم الأوضاع بدقة، وترسم
القضيب وطريقة الدخول، فضلاً عن حركات كانت تؤديها وكأنها
هي الرجل.. وبعد أن تفرغ من الشرح المفصل، تطلق تنهيدة تنم
عن ضيقها، ثم تنفض يدها من الطباشير بطريقة عصبية، وتدخل
الحمام تغير ملابسها، وتأتي وقد بدت كعرائس الباربي، ثم تقفز فوق
السرير في انتظار النتيجة التي دائماً لا تُشبع رغبتها، وتمد عنقها الضئيل
وتقول بصوت محشرج يغلفه التهكم الصريح: «فراعنة.. هه..» كانت
شرسمة في كل شيء، حتى عندما تعطي تعليقات؛ تضع يدها عند عنقها
وتشير بقطع العنق، ودائماً ما تستعين بنبرة صوتها عندما تحاسب أو
تعاقب أحد العاملين.. على الرغم من أن غالبية العاملين مارسوا
معها الجنس، فإنه لا يجروؤ أحد على أن يبتزها، أو ينسى أنه موظف
عندها، كأن العاملين يؤدون هذا الشيء وكأنه من ضمن مهام العمل.

في هذا المساء نهرها عن هذه المحاضرة الثقيلة، وقال لها:

- ويلسا، دعيني أضاعجك على فطرتي.. ويلسا، لا ينبغي أن نتعلم
الحب، هو ليس نظرية حسابية، ليس ١+١؛ الحب إحساس، وأنا
أريد أن أقول لك إحساسي بالطريقة التي تريجنني.

- ماذا ستفعل؟

- سأحبك بطريقة ترضيني.

في هذا المساء ظلت تصرخ من فرط الاستمتاع.. كان يظن أنه يعاقبها عندما اختار لها أوضاعاً تؤلمها، وظلت فقط تزجر وكأنها تختصر، احمر وجهها وتفصد العرق منها بغزارة حاملاً رائحة ذكية سكرت أنفه، وقالت له:

- سعيد، لأول مرة تفهم الدرس.. هذا ما كنت أريده.

نظر لها في دهشة؛ فهل استمتعت فعلاً، أم إنها تألمت ولكنها تناقته من أجل «يودا»؟ وظل ينظر لها في حقد وهمس في نفسه: «إنها خنزيرة قادرة على إرهاب كتيبة كاملة».

وتركها واسترخى حتى أيقظته زقزقة العصافير، كانت نائمة بجواره وقد تقوس جسدها فبدأ ضيقاً، نظر لها في قرف، وارتدى ملابسه وخرج.. في الخارج كان الصبح قد تنفس ونثر الندى في فضائه الواسع؛ فبدأت الأشجار لامعة بأوراقها الخضراء.. استنشقت النسيم في سعادة، وسلك من شارع ١٢ شارع الثكنات، وظل يمشي بمحاذاة «دير الراهبات الألمانيات» حتى استقر في ميدان دجلة، فلاحظ سيارة «يودا»، فذهب نحوه.

ليلة طويلة جداً عاشها سمير.. يتذكر موقفه أمام الدانباركي «لارس هيو».. كيف أهانه، وكيف طرده، إنه لن يسمح لأحد أن يطرده من أي مكان، حدث قبل ذلك مع والده، ولن يقبلها على نفسه حتى لو كان الطرد من «ماخور».. أما المومس القنطرة التي تحرم جسدها على المصريين وترضاه للأجانب فويلها مني.. لن أرحمها، سأسحقها كذبابة.. هكذا عاش هذه الليلة.

وفي مساء اليوم التالي ذهب إلى الرابطة، وطلب من «سامبا» مقابلة السيد «لارس هيو».. ولما دخل المكتب كان جالسًا في جو هادئ؛ حيث الموسيقى الكلاسيك الرائعة تصدح في سماء مكتبه، حلاوة على الإضاءة الهادئة.. أشار له بالجلوس، فتقدم سمير وجلس أمامه.. ظل «لارس هيو» يتفحصه بنظرة نافذة توحى بشيء ما، ولكن شيء ليس سعيدًا.. بدأ عليه التوتر، ثم قال له بلكنة رسمية:

- ماذا تريد؟

- أريد التبرع.

- هذا شيء عظيم. ثم رفع عينيه وحملق فيه، وواصل بنفس النبرة:

- فقط؟

- نعم.

- لماذا تريد أن تتبرع؟

- هه.. أنت تحقق معي.. أنت لا تصدقني.. ماذا قالت لك عني هذه المومس القذرة ليجعلك تقف مني هذا الموقف الغريب؟

انتصب «لارس» واقفًا، وحرك يده بعصية، وقال له في حدة:

- لن أسمع لك بإهانة أي عامل هنا، أنت تجاوزت كل الحدود.. من فضلك اخرج بره.

وقف سمير وشعر بالعجز.. فقد للحظة القدرة على الحديث؛ لذا أغمض عينيه في محاولة للتركيز.. وسرعان ما قال معتذرًا:

- رجاء اقبل اعتذاري.

- من فضلك. هكذا أصر «لارس» على مقاطعته.. لكنه تمكن أخيرًا من أن يهدئه، ثم جلسا مكانهما مرة أخرى، فبادره:

- كل ما هنالك أريد فقط معرفة موقفك الغريب نحوي.
- لست هناك مواقف غريبة.. أنت تضايق العاملين هنا.. وهذا الموقف طبيعي في أي مكان محترم له قوانين من أهمها احترام العاملين.. لن أقبل من أي زائر إهانة العاملين هنا.. مهما كانت مكانته.. حتى لو رئيس أو ملك.. هل تفهم؟
- أعتذر مرة أخرى يا سيدي.
- لا بد أن تفهم القوانين يا مستر سمير قبل أن تتبرع بدولار واحد.
- أي قوانين؟
- نحن هنا نخدم الجميع.
- وأنا أريد خدمة عائلتي.
- أي عائلة؟
- المسيحيون الفقراء.
- إذا أردت أن تبرع للمسيحيين فقط، فاذهب للكنيسة وتبرع هناك.. هنا التبرع عام؛ يشمل المصريين وغيرهم أيضًا.
- توتر سمير واحمر وجهه، ثم قال:
- إذن أريد العضوية؟
- لست هناك عضوية للعرب.
- أنا أمريكي.
- أنت مصري.
- مصر ليست لها فضل عليّ لأحمل جنسيتها.. أنا أمريكي فقط، وأحمل الباسبور الأمريكي، وولائي لأمريكا.

- سأناقش ذلك مع الأعضاء.
- أين الدكتور إبراهيم مسعود؟
- ليس هنا.. توقف نشاطه في الرابطة.
- هو يعلم بقضيتي جيدًا، ويحارب من أجلها.. تحدث معه وهو سيقول لك كل الحقيقة.
- هنا القضية التي تشغلنا.. أنت لا تهتم بها ولا تعنيك.
- أظنك دانهاركيًا وتعني قضيتي وتراها واضحة.
- وأظنك أمريكيًا وولازك الكامل لأمريكا كما قلت.. لماذا كل هذا الاهتمام؟
- قلت إنها عائلتي.
- ليس هنا عائلات.
- هكذا بدأ «لارس هيو» حادًا لدرجة استفزته؛ فقام سمير وانصرف بسرعة، ثم عاد وقال:
- هل لي أن أجلس أتناول شيئًا؟
- دون مضايقة أحد.
- خرج سمير واتجه نحو الحديقة وجلس، وكان يبدو عليه التوتر، ظل يبحث عن مديحة، حتى وجدها وأشار لها في غطرسة، فجاءت:
- ما زالت دماغك ناشفة؟
- اسمع يا بابا.. أنت هنا عميل لك حدود معايا.. وأنا بحب أحافظ على شغلي ولي حدود معاك.
- أريد أن نتحدث.

- ماذا تريد؟

ابتسم في سعادة وقال لها:

- اجلسي.

- ماذا تريد أن تشرب؟

- زفت. هكذا قال في عنف، فاستدارت وذهبت وأرسلت له من قام على خدمته. وقال في نفسه وهو يقذفها بنظرة سامة: «من أين لها بهذه الثقة والقوة؟ سنرى يا بنت الحرام... ما زلتُ بداخل الحلبة لم أهزم بعد».

يجلس «لارس هيو» في مكتبه، ويستغرق وقتًا كبيرًا في مراجعة التقارير التي تأتيه كل أسبوع من المكاتب، يدون ملاحظاته بقلمه الباركر الذهبي في مذكرة يحتفظ بها دائمًا، يراجع ما يدونه كل ليلة، يضيف شيئًا، أو يطمس شيئًا، لكنه تأكد أن ثمة جيلًا قادمًا سيستطيع أن يفكر، سيرفض كل الحلول التقليدية، سيرفض الأجوبة النموذجية.. وهكذا يمكث في مكتبه طيلة اليوم يدخلن ويرتشفن من كوز البيرة الخاص به، وهو عبارة عن كوب كريستال كبير له مقبض فضي؛ تتقلص عضلات وجهه من فرط التركيز، ويتعش أكثر عندما يتذكر أن الرابطة كل يوم تتقدم، ويتوافد عليها الرواد. ولكن بعد عمل مدحجة في الرابطة، ظل يسرق لها النظر، فيزم شفته، ويهرب للبار الرئيسي حيث ينشغل بمحادثة بعض الأعضاء، لكنه شيئًا فشيئًا بدأ يدعوها لمكتبه ليتحدث معها في أمور كان يختلقها؛ مثلًا يسألها عن شخص ما يضايقها، عن راحتها في العمل، أسئلة بدت مملة وتقليدية، فيتعمد أن يبدو أمامها مشغولًا بالحفاظ على

نظام الرابطة، وهذا صحيح، لكنه كان يبالي في اهتمامه فقط لتبقى معه أطول وقت، فقط ليقتنص منها شيئاً؛ فيقف خلفها ويضع يده على كتفها، أو يحتفظ بيدها بين راحتيه، وهكذا.. حتى دعاهما ذات يوم، وقدم لها زجاجة عطر فاخرة.

انزعجت مديحة وقالت له:

- ما هذا؟

قال لها:

- هدية.

فقلت له بحدة:

- زجاجة عطر من مدير لعاملة.. هذا يعني أن راحتي سيئة؛
أليس كذلك؟

انزعج من رد فعلها وقال برسمية:

- أووه.. مديحة، ماذا تقولين؟ إطلاقاً.. هي هدية.

فهدأت شيئاً، ثم قالت له:

- ماذا تريد بالضبط؟

- الصداقة.

- ليست هناك صداقة بين عاملة ومدير؛ أليس كذلك؟

- أنا رجل متواضع جداً، وأرغب حقيقةً في صداقتك.

أما في هذا المساء فبدأ اليوم غريباً.. تأخر «لارس» وكانت هي منزعجة، لم تبدأ العمل، ظلت تنتظره في مكتبه.. ولما دخل عليها تفحصها بنظرة طويلة، وانزعج شيئاً من عدم ارتدائها اليونيفورم..

وتساءل فيما يشبه الاحتجاج:

- لماذا أنتِ هنا؟ ولماذا بهذا الزي؟

- مستر «لارس»، أمس قدمت لي عطرًا، واتضح لي أنه رجالي.. ماذا تريد بالضبط؟

نفخ «لارس» في ضيق وأراد أن ينهي هذه القصة؛ فقال:

- لم أخطئ.

- أنت تبهتني.. توقف، ولا تتحدث معي، ولا تقدم لي هدايا. هكذا احتجت.

- أنتِ تفهميني غلط.

- كيف؟

- مديحة، أريد الزواج منك.. ما رأيك؟

هدأت ثورتها، وشعرت بأن ثمة ضوءًا نفذ إلى الغرفة، ولاحظت في عقلها صورة لسرب حمام منطلق في الأفاق البعيدة، وظل هو يتحدث ويشرح إعجابه بها منذ أن جاءت الرابطة.. ونظرت له نظرة طويلة، كأنها تريد أن تتأكد من شيء، وسرعان ما هزت رأسها كأنها تنفض عن عقلها صورة مخيفة، وبدأت تركز في حديثه، انكمش وبدأت مستسلمًا في صورة لم تشهده عليها من قبل.. لمعت عيناه، واحمر وجهه، واقترب منها حيث التصق بها ومسك يدها، وراح يقبل أصابع يدها إصبعًا إصبعًا، وبدت أنفاسه ساخنة، وتهدج صوته.. واستسلمت مديحة لرغبته، فتركت له يدها يقبلها في شغف، فضلًا عن لمسه لمؤخرتها صراحةً، كأنها تعرض شيئًا للبيع وتترك الشاري يعاين بضاعته، واستعرضت كل شيء في ثوانٍ، إن «لارس هيو» سيوفر لها كل شيء.

- ماذا مستقدم لي؟ هكذا بادرته.
- فقال لها بعد أن تمنن في قولها بعض الوقت:
- كل شيء.
- وما المطلوب مني بالضبط؟
- أن تكوني زوجتي.
- تريد أطفالاً؟
- احمر وجهه وقال مستغرباً:
- ماذا تقصدين بالضبط؟ أنا لا أفهم شيئاً.
- مستر «لارس»، أنا أكره الشواذ.
- وأنا لستُ شاذاً.
- أنت قدمت لي عطرًا رجاليًا، وهذا يعني شيئًا واحدًا.
- تفكر قليلاً واستدار وعاد لمكتبه، وأوقد سيجارة ونفث دخانها في
انزعاج وقال:
- أنتِ نوع مناسب لحالتي بالضبط.
- وما هي حالتك؟ ثم واصلت بعد أن رفعت ذقنها:
- لن أسمع لك بإهانتني.
- أنا لن أهينك أبدًا.
- ما هي حالتك بالضبط؟
- أنا مريض.
- نعم!

- وأريد أن تؤنّبيني.. تعاقبيني.. تقولي لي بصوت خارق: لا رس
توقف.

ارتعدت مديحة من لهجته، وتبادر إلى ذهنها أن يكون شاذاً من
النوع الذي يجامع المرأة من الخلف؛ فقالت له في حدة وقد أشارت
له بإصبعها:

- أنا أنوثتي عندي بالدنيا كلها.. اسمع، أنا لستُ موافقة.. ولا
تعرض لي مرة أخرى، وإلا قدمت فيك شكوى لمجلس الأعضاء.

- أنا لستُ قذراً يا مديحة.. من فضلك توقفي عن إهاتني. هكذا
قال في عصبية أراحتها بعض الشيء.



استطاع عبد الكريم أن يتحمل الصيام بعد مرور عشرة أيام؛
حافظ على أن يتناول السحور متأخراً، ثم يعقب عليه بتناول الزبادي
بشراهة.. غير أنه يقضي النهار كله مستغرقاً في النوم، لا يستيقظ إلا
قبل الإفطار بساعة واحدة، يذهب إلى مكتبه في شارع ١٠٥، ويظل
يشرف على المائدة الضخمة التي تحتل نصف الشارع، يقوم الشباب
الذين يعملون معه بالإشراف ومراقبة الأهالي الذين يأتون للإفطار،
تشتهر تلك المائدة بتقديم الإفطار الشهي، ورغم ذلك بدأ الناس
ينصرفون عنها شيئاً فشيئاً.. حتى ذات يوم، صاح أحد الصائمين بعد
أن صلى بهم عبد الكريم صلاة المغرب في نصف ساعة كاملة، بصوته
الغليظ المزوج بنغمة شاذة: «والله لو أن قبول الصوم ودخول الجنة
من خلال هذه المائدة، فأنا لا أريد الصوم ولا أريد جنتكم».. لذا
انزعج الشيخ «جابر عبد التواب»، وهو بمثابة مندوبها عند الشيوخ
الكبار؛ يائل عبد الكريم في الضخامة، إلا أن بشرته مشربة باحمرار

فلاحي من أثر النعمة التي يفرق فيها. جلس الثلاثة في المكتب
المخزوق برائحة البخور، وعلى المنضدة الأرايسك صينية بسبوسة
بالقشدة طازجة عكف عبد الكريم على الالتهام منها؛ فهو يجيها جداً.

- الناس بدأت تقل يا شيخ عبد الكريم.. التوافد على المائدة
أصبح ضعيفاً. هكذا قال الشيخ جابر في رسمية صريحة.

ليجاوبه عبد الكريم بلسان متراخ وهو مسترخ على الأريكة شبه
نائم:

- هؤلاء قوم منافقون كذابون يأتون لتناول الطعام فقط، لقد اختبرت
إيمانهم بنفسي؛ لذلك أغلظ عليهم.. وفضلاً عن ذلك لصوم؛
سرقوا الأواني والملاعق. هكذا كان عبد الكريم يتحدث براحة
كبيرة؛ يعلم جيداً قيمته عند الشيوخ، ويعلم جيداً أنهم يثقون به.

- بس الشيوخ بره بيصرفوا على المائدة بيزخ؛ مش عشان الناس
تنصرف عنها.. بالعكس.. ولا إيه يا شيخ حسان؟

- الملاينة يا مولانا. هكذا قال حسان النخيلي في ترقب.

- لست هناك أي ملاينة.

- خلاص تبقى تقنعهم بموقفك لما أبلغهم أن الناس تنصرف عن
المائدة.. اللهم بلغت اللهم فاشهد.

- يعني إيه؟ أنا لا أنافق أحداً.. كما قلت، هؤلاء ليسوا مسلمين.
ثم ضرب المنضدة بقبضة يده.

فقال حسان:

- يا مولانا، المائدة باب لخدمة الإسلام.. الناس عابزة التوعية،
والتوعية عابزة مال، والمال لانستطيع توفيره إلا من خلال المائدة.

- ماذا تعني؟

- الملاينة مع رواد المائدة.

ولما لاحظ أنها انزعجت، قرر أن يتراجع شيئاً، يعرف جيداً أنه عندما تثقل معدته يفقد صوابه؛ لذا قال وهو يضحك:

- خلاص أبقى أصلي بصورة الإخلاص.. أعتقد أنها ثلث القرآن.

ضجت الغرفة بضحك الشيوخ، ثم قال الشيخ جابر:

- نعم.. ونعم اليسر في هذا الدين.

قاموا لأداء صلاة العشاء.. كانت خطواتهم ثقيلة، لكنها سرعان ما بدت نشطة بعد أن امتلأ المسجد بالمصلين، وإن كان عبد الكريم كان يشعر بشيء من الخمول؛ لأنه أسرف في تناول الإفطار. وبعد انتهاء صلاة العشاء، قام عبد الكريم يؤم المصلين.. بدأ صوته الجهوري ونطقه للعربية مملاً وبطيئاً. ولما انتهى من الأربع ركعات الأولى جلس ليتحدث عن الرحمة في الإسلام، وسرعان ما شعر بأنه سيسقط على الأرض من فرط الخمول، فاعتذر للمصلين وانصرف والعيون تتابعه حتى خرج من المسجد، ولحق به رجاله، واستقل السيارة البيجو، وجلس بمفرده في الكنية الخلفية، وصاحبه اثنان فقط، وبدت عيناه جاحظتين حمراوين.. وانطلقت السيارة إلى مسكنه. نزل من السيارة ببطء، وبدأ يمشي بصعوبة حتى دخل المصعد.. ولما فتح باب شفته تسمر في مكانه، وانتابه الدهول، وكادت عيناه أن تفرقع وهو ينظر نحو الصالة.



انتعش مزاج الدكتور عبد الجواد بوجود الحراسة، وبدأ ينام دون قلق، كم من الليالي التي قضاها في مراقبة الشوارع، والتحري من كل شيء... واستقطب عاملاً لنظافة المدخل والسلم، طبقاً بعد الموافقة الأمنية، لكن السكان أثقلوا عليه بالحاحهم على استقطاب بواب، وفي اجتماع طارئٍ لمناقشة هذا الأمر، قال له أحد الجالسين:

- يا دكتور عبد الجواد، لازم يكون للعمارة بواب يخدمها.
- البواب هيعمل إيه أكثر من الحراسة.. والعمارة كلها في حماية وزارة الداخلية؟
- صحيح بس إحنا لنا طلبات، مش معقول نساؤنا تنزل تشتري الخضار.
- والله أنا شايف أن كل واحد يخدم نفسه، في المجتمعات الغربية دا بيحصل.. إمبراطور اليابان معندوش حد يخدمه.. أنت عايز حد يخدمك؟!

في كل اجتماع لاتحاد الملاك، يجلس الدكتور عبد الجواد على رأس المائدة في بدلة كاملة، ويضع أمامه الأوراق، ويستعرض بصوته العالي الوثائق كل مليم أنفق.. والآن شعر بالملل بعد أن اقتضت هذه الاجتماعات على المراجعة فقط؛ لذا لم يستغرق أي اجتماع أكثر من ساعة واحدة، كأنهم يعاقبون.. لكنه لم يعبأ بذلك، أصبح له صوت عالٍ عند المسئولين، تأكد من ذلك عندما دعاه أحد سكان الشارع ليشاهد صندوق كهرباء كبيراً مفتوحاً.. صرخ وانتصبت قامت واتصل بالبوليس، ولما عاينوا الواقعة قال له الضابط: «مش شغلنا يا دكتور.. الأول إن حضرتك كنت اتصلت بشركة الكهرباء» وانفعل الدكتور وقال بثقة منبعها الإيمان بحياة الإنسان: «سبحان الله.. هي دي مش

كارثة، وجريمة مكتملة الأركان ينبغي تحرير محضر لها؟.. ودائماً وأبداً كان يجتم حديثه بينه وبين المسئولين سواء ضباط أو موظفون في الحسي بقوله: «جاري هو القنصل الإسرائيلي»؛ لذا كانت تحمل المشكلة فوراً.

وأصبح الدكتور عبد الجواد بفضل جاره له كلمة مسموعة، استغل هذه الجيرة ببراعة، وأصبحت له مكانة كبيرة عند قاطني شارع ٢١٠، فاتسعت شهرته في المحيط؛ لذا حدد جدولاً لتلقي المشكلات الخاصة بالحسي، يذهب بها كل أسبوع للقاء رئيس الحسي الذي يستقبله بحفاوة، ويناقشه في القضايا، ويستعرض عليه ثقافته ووعيه السيامي.. حتى ذات يوم ودون أن يطلب جاءت المعدات لترصف الشارع من جديد، ليس فقط الرصف، بل استبدلوا أعمدة إضاءة جديدة بدلاً من القديمة.

ظل السيد عبد الكريم واقفاً متسماً ينظر نحو زوجته الجالسة في الصلاة، حتى إنها استغربت ذلك.. اتسعت عيناه، وارتجبت شحوم وجهه، وجحظت عيناه أكثر، ثم أصدر صوتاً تلقائياً أشبه بالتجشؤ، ثم قذف ما بداخل جوفه دفعة واحدة؛ فتناثر في الصلاة الطعام الذي لم يستطع هضمه.. هرولت نحوه زوجته وتوفيقه، وحاولتا أخذه إلى الحمام، لكنه دفعهما بقوة حتى إنهما ترنحتا، وظل هو ثابتاً في موضعه وقد اتسع فمه الكبير، وبدأت المعدة في إصرار قوي على طرد كل هذا الكم الهائل من المأكولات.. بدا على الزوجة الاشمزاز، وأيضاً على الخادمة التي تقلصت عضلات وجهها. توقف عبد الكريم، ثم شهق وجفف فمه بطرف جلبابه، وذهب إلى الحمام.. بدت الصلاة وكأن المجاري طفحت بها، وضعت الخادمة يدها على رأسها وزمّت شفيتها

ونحدثت بلفتها، ويبدو أنها كانت تلعب تلعب عبد الكريم.. بينما جاء صوت الجمهوري صائحاً ينادي زوجته، التي هرولت إليه بملابس جديدة، وأخذ دُشاً ساخناً، ثم أنبأها أن تصنع له كوب نعناع.. خرج وتناول النعناع وظل يُسبِّح ويحمد الله، ثم قال:

- كنت ساموت.. الحمد لله.

- أنت اتحدثت. هكذا قالت زوجته وهي غاضبة.

هز رأسه غير فاهم، ثم قال لها:

- أشعر بأنني لم أتناول إفطاري بعد.. أريد كوب لبن مخلوطاً بالبلح.

- عِدني ألا تتناول الطعام أمام أحد.. وإذا كنت مضطراً، فأخبرهم بأن الطعام سقط بداخله الذباب.

- لماذا كل هذا.. لم يحدث شيء؟

- الحمد موجود في القرآن يا مولانا.

- ونعم بالله.

قامت بسرعة، وبعد أقل من خمس دقائق جاءت له بكوب لبن بالبلح، تناوله بتأنٍ، ثم نظر لها وقال:

- الدورة خلاص؟

قالت له بتردد:

- خلاص.

- إذن اقتربي. زحفت نحوه في صمتٍ يُشيره، فطوقها يديه القويتين، ثم تناول الغطاء السميك فوقها وأطفأ النور.

ظلت طوال شهر رمضان تراقب «نواف الرشيدي» من خلال النافذة، عندما كان يأتي بالسيارة ويجي رجال الأمن، كانت تسرق النظر له في غياب توفيقه، كان يبدو لها وسيًا رشيقيًا ضحوكًا، كنت لو تحضنه وتقبله، وآه لو أعطتها الدنيا فرصة الخروج معه، وحفظت برنامجه بدقة؛ تعرف متى يخرج، ومتى يعود.. في الثانية ظهرًا يخرج، يركم أنفها عطره، وتسمع حديثه مع الفقراء الذين يتظرونه على باب العمارة، وكان يقابلهم بابتسامة كبيرة، ويصافحهم بحرارة، ويخرج محفظته ويعطيهم النقود، ولما يتكاثرون عليه يتخلص منهم ويدخل سيارته ويغلقها، ولما كان يتحرك كانوا يتبعونه صائحين مهرولين وراء السيارة: «لم نأخذ شيئًا يا نواف بك»، فيلقي بالنقود من النافذة، فتبعثر في الهواء، وتتصارعون عليها في وحشية، ويظل يدور بالسيارة حول ميدان فيكوريا، والفقراء والمتسولون يندفعون وراء السيارة بسرعة، حتى تقطع أنفاسهم، ويستلمون ويجلسون على الطوار وهو يدور حولهم ضاحكًا، وهم يظلمون يهتفون: «قطعت أنفاسنا يا نواف بك.. نريد النقود».

لذلك أعدت خطة لتقابلك مرة أخرى؛ فهو يأتي قبيل الإفطار بساعة واحدة، يأخذ دُشًا ويبدل ملابسه ثم يخرج للإفطار في أحد المطاعم.. وذات يوم خرجت ومعها توفيقه الخادمة، وابتاعت الخضار من سوپر ماركت «شيكو» الفخم القريب من المنزل، ولما وصلت العمارة في نفس الميعاد الذي يحضر فيه، ظلت في المدخل تنفقد الأكياس وهي تدعي أنها نسيت شيئًا، حتى جاء.. وفور رؤيته شعرت بخفقان قلبها، ولما اقترب وتصافحا بالأيدي، شعرت برعشة تسري في جسدها كله.. كان يبدو عليه الإعياء؛ حيث كانت ملاعقه

- كينة، وملابسه منسفة، وصوته يوحى بالأرق.. قالت له وقد استخدمت في حديثها معه عدة كلمات خليجية:
- أستاذ نواف، أرجوك بلاش تتساهل مع هؤلاء المتسولين.
 - ماذا تقصدين؟
 - الجماعة اللي بيستنوك في كل طالعة ونازلة.
 - بالعكس دول لطاف جدًا.. هل تعلمين أني أعرفهم واحدًا واحدًا، وأعرف قصصهم جيدًا؟ هكذا قال في حماس مؤقت.
 - هزت رأسها في قرف، وقالت له:
 - حقيقي؟
 - نعم. وعاد صامتًا وقد أشاح بوجهه عنها.
 - وعاد يقول لها محتجًا، أو متصنعا الاحتجاج:
 - أرجوك لا تصفيهم بالمتسولين.. أنا أحترمهم، وزوجك يحترمهم وأقام لهم مائدة؛ أليس كذلك؟
 - شعرت بالغيظ، وجاهدت بصعوبة لتجتاز هذه الفقرة الثقيلة فقالت:
 - أنا لا أقصد.. ولكن هؤلاء همج ولصوص.
 - أرجوك. ثم واصل في نرفزة:
 - أبلغني سلامي للشيخ عبد الكريم.
 - بإذن الله. وأضافت:
 - الله يسلمك.

وأشاح بوجهه عنها مرة أخرى؛ ليس قرفاً، ولكن لم تكن لديه الرغبة في الحديث معها أكثر من ذلك.. وشعرت شياً بالمرارة؛ فصاحت في عنف تُؤنب توفيقه على تأخرها، وعجزت عن تفسير نفوره منها، وقد اشتدت عليها الحيرة.. فهل لأنها وصفت الفقراء بعبارات بذیئة؟ لكنها من زوجها تعلم أن هذه الأشياء لا تعنيهم لدرجة النفور من امرأة جميلة مثلها.. وزفرت في عنف، وسبته بالفاظ بذیئة في نفسها وقالت: «ماذا يظن نفسه؟ في الغد سيأتي لي».

في بداية الشهر الكريم، تبرع «نواف الرشیدی» بخمسة آلاف جنيه للمائدة التي يقوم على خدمتها الشيخ عبد الكريم.. بعد أن شاهده في شارع ١٠٥ واقفاً بضخامته يتحدث إلى بعض الأشخاص، علم بتلك المائدة، والتقى به في مدخل العمارة، فصافحه بحرارة وقال له:

- كل سنة وأنت طيب يا مولانا.
- وأنت طيب.. هل هناك شيء؟ هكذا بدأ الشيخ حاداً.. ظل ينظر له وهو ينظف أسنانه بالسواك.
- أبداً.. بدي أسأل عن كيفية التبرع للمائدة.
- أي مائدة؟
- المائدة الرمضانية. ثم استدرك:
- مولانا أنا مسلم.. أبغي مساعدة المسلمين وإطعامهم.
- أنا لم أمنعك.
- الحمد لله.. ادعيلي يا مولانا؛ أنا تعبان وفي حاجة لدعواتك. ثم فتح شنطته التي يلفها حول خصره، وأخرج منها رزمة كبيرة وقال له:

- خمسة آلاف جنيه تبرُّع مني للمائدة على روح والدي.



كان «يودا» يُجري محادثة في جهاز اللاسلكي.. نقر على الزجاجة،
فأنهى «يودا» المحادثة، وفتح له الباب بسرعة، وحيَّاه كالمعتاد قائلاً:
«مرحباً يا صديقي». جلس سعيد منهكاً، ثم طلب منه سيجارة،
فالتقط «يودا» علبة السجائر «البارلمنت» وناوله سيجارة، ويأدره:

- أين كنت؟

- في بيتها.

وانشغل عنه في محادثة طويلة، كان يتحدث بالعبرية، وكان يوحى
صوته بالجدية المزوجة بالعصية.. أنهى المحادثة، والتقط سيجارة
ونفث دخانها في عصية وقال:

- هل سمعت بما حدث لسيادة الرئيس؟

- نعم.. كانت محاولة دنيئة. وواصل سعيد بنبرة حزينة:

- أنا إحساسي لم يكذبني أبداً.. هه.. يريد أن يساعد إفريقيبا.. إنهم
جناء.. قتلوا.. مجرمون.. حاولوا اغتياله.

- الحمد لله يا سعيد، الرئيس عاد بالسلامة.

- لكن والله لأنقم منهم وأقتلهم في كل مكان.

- سعيد، لا تتهور.

- أرادوا قتل الرئيس وتقولي لا تتهور.

- ماذا ستفعل؟

- لا أعرف.. ولكن حتماً لو رأيت واحداً منهم سأقتله.

- اهدأ.

ونظر له «يودا» في إعجاب وقال له:

- أنا حزين مثلك.

منذ أن شاهده يقرأ خبراً في جريدة «ها آرتس» أثناء جلوسهما في السيارة، وشاهد صورة الرئيس وسأله عنها، يوم أن قرر اتباع هذه السياسة؛ قال له حينذاك: «أنا أحبه».

- هل معك شيء؟ (يقصد سعيد زجاجات الكحول؛ العينات الصغيرة التي لا تتعدى في جرعتها كأساً واحدة).

ابتسم «يودا» وقال له:

- تعال معي.

وانطلق إلى شقته، وكانت في محيط ميدان دجلة، وانشغل «يودا» طوال الطريق بالحديث في الجهاز اللاسلكي بالعبرية، كان يفعل حيناً ويهدأ حيناً، ويبدو أنه كان يعطي الأوامر لجنوده. وصل العمارة، وكانت هادئة تحدها الأشجار، وعلى المدخل الرئيسي رجل أمن في ملابس مدنية؛ حيث كان يرتدي بدلة أنيقة.. حيّاه بحرارة وصافحه، وقال له «يودا»: «هذا سعيد صديقي».. تصافح سعيد ورجل الأمن، ومضى الاثنان إلى الشقة.. وفي شقته، جلس سعيد ينتظر خروجه من المطبخ. تفقد الشقة، وكانت أنيقة تعطرها رائحة بالفها دائماً، هي نفس رائحة مطعم «بالما» وديسكو «فلاش» ورائحة شقة مدام «ويلما جرول»؛ كان لجلودهم رائحة مميزة عن رائحة المصريين والعرب.. صور له ابن جوربون، أول رئيس وزراء لإسرائيل، وصورة له أينشتاين، وصور لعائلته، وكانت زوجته جميلة جداً، وصور أخرى تضم أفراداً كثيرين ويبدو أنهم أفراد عائلته أو أصدقائه.. قطع الأثاث كانت

قليلة، بينما في زاوية يضع فوق أرفف صغيرة قطعاً من الأنتيكات؛ مثل كلوب عتيق، جرامافون، كتب قديمة يرجع تاريخ طبعها لسنة عام مضت.. وقعت يده على كتاب فرنسي عنوانه «ÉCONOMIE DOMESTIQUE»؛ أي الاقتصاد المنزلي، وكان الكتاب يبدو قديماً عتيقاً.. ولما فتحه، وكان تاريخ إصداره «باريس ١٩١٤»، وجد فيه قطعة قماش صوف، وورقة منقوشاً عليها ثلاثة أسطر بخط منمق، وعود نبات صغيراً، وأوراق وردة أوشكت أن تكون تراباً.. خرج «يودا» يحمل صينية فضية فوقها تفاحتان ناضجتان وسكين وزجاجة «سكوتش ويسكي»، ولما وقعت عيناه عليه صاح منفعلًا:

- أووه.. سعيد، ماذا تفعل بحق السماء والأرض وجميع الكائنات؟! وأشاح بوجهه وقد تقلصت عضلات وجهه، لأول مرة يشاهد «يودا» منفعلًا هكذا، وقال سعيد في حرج وقد وضع الكتاب بعناية في مكانه:

- آسف مستر «يودا»، أنت تعلم جبي وتقديري للأنتيكات، وهذا ما شدني للكتاب. بينما التقط «يودا» الكتاب، وراح يتفحصه بعناية.. ولما اطمأن، جلس وقال بصوت مستريح:

- هذا الكتاب أغلى عندي من الكتاب المقدس، أوصاني صديق يعمل في مجال الأنتيكات بأن أضعه هنا ليتعرض للهواء والضوء؛ ليحتفظ بقوته، كان بإمكانني أن أضعه في مكان بعيد.. المهم، أنا آسف. واستحوذ الفضول على سعيد الذي بادره قائلاً:

- ما سر هذا الكتاب؟

ونظر له «يودا» نظرة لها معانٍ كثيرة، وقال له:

- أنا أحب أن يسألني الناس عن كل شيء؛ الأسئلة تريح الطرفين عندما يكون الطرفان صادقين. واستطرد:

- هذا الكتاب أهداه جدي لجدتي في عام ١٩١٦، الكتاب يُعلم كيفية التدبير المنزلي؛ كيف تصنع كل شيء بنفسك.. يشرح بعناية كيفية صنع الملابس، وبعض الأثاث المنزلي الخفيف. وصمت «يودا» لدقائق ولمعت عيناه البنتان وأوشك على البكاء، ثم استأنف:
- في هذه الورقة كتب جدي يقول: سأذهب إلى الحرب، من أجل أبنائي وأحفادي، من أجل حرية العالم. ومات جدي في الحرب.. قتلوه.
- من؟ هكذا جاء السؤال ساذجًا إلى حد ما.

فقال «يودا» بعنف:

- أوف يا سعيد.. الألمان.. هل هناك مجرمون غيرهم؟
- وحاول «يودا» أن يبدو طبيعيًا، والتقط سيجارة «بارلمنت» وأوقدها، وقدم واحدة لسعيد وقال له:
- سأصنع لك كأسًا من الويسكي المزوج بالتفاح، لن تتذوق مثله في حياتك.. هذه الزجاجات تم تعتيقها في اسكتلندا عشر سنوات.. ولكن حدثني، يبدو أنها أرهقتك. هكذا قال في خبث.
- فقال له سعيد:

- من؟

- الألمانية.

هز رأسه وقال في ملل:

- هه.

فقال له بنبرة لا تخلو من الحقد:

- المهم أرهقتها.. جعلتها تصرخ.. تأملت أم لا؟

- إنها لا تتألم أبدًا.. هي مثل المطاط؛ كلما قذفتها في الحائط تُرد إليك بنفس القوة.. هل تفهم؟
- نعم.. يعني أنت الذي تألمت؟
- هذا صحيح.

والتقط «يودا» سكينًا له نصل رفيع، وبدأ يجوف التفاحتين بحرفية، حتى تمهوفتا من الداخل، ثم أفرغ في كل منهما جرعة صغيرة من الويسكي، ثم ابتسم رغم شحوب وجهه وقال لسعيد:

- تستطيع أن تتناول كأسك بعد خمس دقائق من الآن، دون أن تأكل من التفاحة.

وقام «يودا» وجاء بشريط فيديو وألقمه جهاز الفيديو، وظهرت على الشاشة تفاصيل نادرة عن محرقة اليهود؛ كان الألمان يضعون اليهود فوق أشياء ثم يودعونها الأفران، وبعد وقت يفتحون الأفران فتبدو العظام ناشفة مجردة من أي لحم.. وصور أخرى لجثث متراكمة فوق بعضها البعض.. وشعر سعيد بشيء مثل الكابوس، وصاح قائلاً:

- ماذا تريد مني؟ هل تريد أن أقتلها؟ وقام وأغلق التلفزيون.
- اهدأ يا سعيد.. أنا لا أقصد شيئًا.. أنا فقط كنت أحب أن تشاركني حزني.. آسف.
- وشعر سعيد بالخرج، وقال له:
- أنا لا أقصد.. ولكن تلك المناظر تؤلمني.
- تستطيع الآن أن تتناول كأسك وتأكل من التفاحة.



كعادة كل صباح جاءت مدام «كلير» لتحتسي قهوتها الفرنسية في حديقة الرابطة مع الأستاذ زاهر.. تفقدت الحديقة فلم تجده، وسألت «ديوانا» فقالت لها: «لم يأت».. فتحت شنتها الصغيرة بحركة عصبية، والتقطت منها علبة سجائر «مورا»، وأوقدت سيجارة.. ظلت تدخن سيجارة تلو الأخرى في توتر، بينما لم تهتم بالصفار من حولها، الذين ضجروا في الحديقة وأزعجوا العمال كالعادة.. وقررت أن تذهب له حيث شقته في شارع ١٥، لم تستغرق سوى خمس دقائق سيرًا على الأقدام.. استقبلها البواب مُرحبًا بحرارة؛ حيث كان يعرفها جيدًا، وكان سودانيًا، وسأله بعريية ركيكة: «مسيو زاهر فوق؟» فأجابها: «نعم».

صعدت للطابق الثاني، وضغطت على الجرس كثيرًا حتى سمعت صياحه من الداخل؛ فتوترت أكثر، وصعدت الدماء إلى وجهها، وزمت شفتيها.. ولما فتح الباب، وجدها واقفة أمامه تستعد لخوض معركة حامية؛ كانت لمعة عينيها لا تطمئن، يعرف جيدًا أنها مجنونة.. وسأله بحدة بعد أن اجتازت عتبة الباب:

- لماذا لم تحضر هذا الصباح؟

وجلس على الفوتيه وجعل يفكر، ثم التقط سيجارة وراح ينفث دخانها في هدوء وأجابها:

- كلير، أنا لا أحب أن أرتبط بأناس لا يثقون بي.. وأنتِ لست عندك ثقة بي.

- كيف؟

- طلبت منك أن تستغني عن خدمات الخنزير «موريس إبراهيم» لأنه ليس أمينًا، فانتزعجت.. أليس كذلك؟ على الرغم من أنني أعرفه أكثر منك.

وضعت يدها على رأسها وزفرت بتنهيدة عميقة، وقالت مندهشة:

- هذا هو السبب؟

- نعم.

- زاهر، أنا أثق بك جدًا.. وأعدك بأنني سأتحلى عن خدماته.

شعر بالسعادة، لكنه لم يُظهرها أمامها، واستغل هذه الفرصة للحديث عن ملاحظاته عن المصريين، والرابطة، والمستقبل.. فقررت أن تستجيب له، وألا تعلق عليها، بل تمدح أفكاره التي بدت لها على نحو ما غريبة.. لكنها سعدت جدًا بحماسة، واستطاعت أن تستوعب عقلته أكثر، إنه مكلوم في حياته وأمواله؛ لذا يستمتع بنقد كل شيء حوله. نزعت قفازها الطويل المصنوع من الجلد الفاخر، وقالت له بنبرة رقيقة: «أنا أفهمك»، ثم منحته قبلة طويلة.

تجبه «كلير»، تريد أن تمنحه كل شيء، لم تستطع طعم الحب إلا معه، قالت له ذات مرة: «أنا أحبك، ولا أشعر أنني خائنة.. عندما جامعني لم أهتم برعشتي، أهتم فقط بنظرة عينيك.. عندما أختبئ بين ذراعيك أشعر بأنني ملكة متوجة على العالم.. العالم يضيق وأنت بعيد، ويتسع وأنت قريب.. وتتلبد السماء بالغيوم وأنت بعيد، وتترين بملايين النجوم وأنت قريب.. أنت لا تعرف ماذا تريد المرأة؟ المرأة تريد الرحمة، الأمان.. وأنا وجدتها معك».

وعندما قال لها: «كلير، أنا أرى العالم في عينيك» شعرت بأنها عادت طفلة صغيرة؛ طفلة قادرة على طي الكرة الأرضية راقضة، إن العالم كله لا يستوعب سعادة امرأة عاشت حياتها مع زوج ممل.. تتأمله فتري فيه آيات الجمال، متى جاء زاهر ليحتل قلبها؟ جاء بعد أن عبر السبعين عامًا، وهي في الخامسة والأربعين، جاءت من مدينة

النور لتجده في مدينة الصحراء، وهل يمكن أن يبدأ الإنسان من عند نقطة النهاية؟ إنه الحب.

هكذا كانت «كلير» تفكر طوال الوقت.. تحبه ولا ترى في حبه أي جريمة.. الجريمة الوحيدة التي تشعر بها هي أن تعيش مع رجل عمل. في هذا الصباح تناولوا الإفطار في بيته، وبعد ذلك قررا الخروج إلى ميدان السوارس.. إنه الميدان الذي شهد أول لقاء بينهما.



من محطة الثكنات إلى شارع ١٣ ومنذ خمسة عشر عامًا وهي لا تتخلف يومًا واحدًا، لكن المسافة التي كانت تقطعها في دقائق معدودات في السنوات الأولى، اليوم ومنذ أربع سنوات وبالتحديد من يوم أن رحلت مدام «سيريا» وهي تقطعها في نصف ساعة كاملة؛ بسبب تقدمها في السن، فضلًا عن رغبتها في الجلوس مع حارمي العقارات وأيضًا عمال مجمع الأهرام الاستهلاكي. فور وصولها في السابعة صباحًا يلتقط الفاكهاني مقعدًا ويضعه أمام المجمع، فتجلس عليه تلقائيًا، وتأمل المكان بعينين يغشاهما الكبر والأرق، وتحكي كل شيء عن الرابطة، ليس لشخص جالس أمامها، ولكن لكل رواد المجمع والعاملين فيه.. على الرغم من تقدمها في السن، والأمراض التي تعانيها، فإن صوتها عالٍ جدًا، كأنها في شجار مع شخص، وتضحك «ديوانا» من قلبها، وتقول: «يقولي الدانباركي الحقير لارس هيو: ديوانا، البقرة السوداء تدر حليبًا أبيض.. ماذا يظنني ابن المومس الشاذ؟ بقرة.. هه» وتوقد السيجارة، وتنث دخانها مستمتعة، ثم تحاول النهوض في صعوبة فيلحق بها أحد العمال ويساعدها على النهوض، وتلتقط التروبي وتمضي إلى الرابطة.

ماتت «ديوانا».. وجدوها في الحديقة الخلفية للرابطة على مقعدها
المفضل، وأمامها المنضدة وعليها فنجان القهوة ومنفضة السجائر وبها
سيجارة مشتعلة، وقد تهدلت الشفاة، وغطت خصلات من شعرها
الأيض المجعد جبهتها العريضة، وكان رأسها مائلاً على كتفها. دخل
«خرستوف»، ولما شاهدها اندفع نحوها.. ثم صرخ. كانت «ديوانا»
من الأعضاء القدامى الذين أنشأوا الرابطة مع مدام «ميريا» عام
١٩٨٠، وبرحيلها تكون الرابطة ليس فيها أي عضو من الأعضاء
القدامى. ومنذ وقوفها مع «موريس إبراهيم» ضد «جماعة الرابطة»
وهي عرضة لبطشهم؛ ذهبوا لها في بيتها في شارع ١٠ القديم، وقالوا
لها: «نستطيع أن نقتلك إذا أصررتِ على أداء دور الواصية علينا.. نحن
نحترمك، لكن ليس على حساب مصالحنا». وكانت «جماعة الرابطة»
قد تفتت جرائمهم في الحي، وكانوا معروفين في أنحائه، وكان عددهم
ثمانية أشخاص، يستقلون دراجات «بي إم إكس» الأمريكية ويطوقون
بها الحي، وكان أربعة أشخاص منهم يعملون في الرابطة، وأربعة
أشخاص في النادي الأمريكي، وكانوا يقومون بأعمال عدوانية من
معارك دامية، واستيلاءات، وسرقات، وهجمات على المنازل مقابل
مبالغ كبيرة. وبعد أن حدثوها، ارتجفت «ديوانا» وقالت لهم: «أنتم
أولادي». واقترب منها شخص كان يبدو أنه قائدهم، وكان يدعى
«جاكوب» وقال لها في تهكم: «نحن لسنا أولادك.. أولادك طيون، أما
نحن فأشرار، مصالحنا تأتي على جثث آبائنا.. هل تفهمين؟».

وتخلت عن الوقوف مع «موريس إبراهيم»، وعلى الرغم
من سيطرة مدام «فاليري» على المطبخ، فإنها كانت تتجنبهم،
واستطاعوا أن يفرضوا على «موريس» ضريبة، وأذعن لهم
ودفع لهم مقابل كل خنزير عشرة دولارات. ولما وصل

خبر وفاة «ديوانا» إلى «موريس»، بكى بمرارة على رحيلها.

عُقد اجتماع طارئ في الرابطة، حضره جميع الأعضاء بمن فيهم الأستاذ زاهر، وكان على رأس الأعضاء «توماس مارين» أكبر الأعضاء سنًا، بالإضافة إلى «آرون رود».. بسط «لارس» يده على الترايزة، وقال:

- ما رأيكم في أن نهدم هذا السور، ونقيم سورًا من الخرسان حول البناء؟

- لماذا؟ هكذا بادره «آرون رود» الذي اتسعت صلته وشملت رأسه كله.

- هناك أفارقة يتسللون إلى الحديقة من خلال السور، وعجزنا عن التصدي لهم.. «سامبا» يقف على الباب الرئيسي بمفرده.. إما أن نجلب موظفي أمن تطوق بهم البناء، أو نبني السور.. ما رأيكم؟ ووافقوا بالإجماع على بناء سور من الخرسان يتعدى ارتفاعه المترين، وجاء عمال الزراعة وأزالوا السور المكون من النباتات، واقتلعوا القضبان الحديد التي صدت بفعل السنوات الطوال، فضلًا عن السلك الذي كان مشدودًا عليها، وكان قد صدئ أيضًا، واستغرقوا يومًا كاملًا في إزالة السور، وظهرت الفيلا ضخمة كسنة عملاقة، وأعلنت الرابطة إغلاق بار الشرفة حتى الانتهاء من بناء السور، وتمت إزالة الأشجار العتيقة من الحديقة؛ أشجار الفاكهة الكبيرة، وأشجار الكافور والصفصاف.. وبدأت الحديقة بعد أسبوع من العمل الشاق جرداء واسعة، وظهرت المباني الحديثة التي شُيدت في الشارع وكانت تحجبها الأشجار الضخمة. وعند الانتهاء من بناء السور طرأ شيء غريب على الحديقة التي كانت تتنفس بحرية؛ شيء مثل الحصار؛ فشمع بعض الرواد القدامى في البداية بشيء ما يبعث

على الضيق. ومع مرور الوقت، ألفوا السور الخرساني الضخم. وبعد إزالة النجيلة الباقية وأيضًا النباتات النادرة، سُطحت الأرضية بالبلاط الأسمنتي المصنوع الكبير، كان لونه ترابيًّا، وفرشت الحديقة بتراييزات من الرخام، ومقاعد من البلاستيك الرديء. وفي هذه الفترة عمل في الرابطة عدد كبير من الأفارقة؛ فتيات وأيضًا شباب، وانضم رواد جدد لها. وظل الجميع يحترم القوانين، فالمصير معروف؛ الطرد.. وظهرت «جاكلين» وتحديث مع «لارس» بثقة كبيرة:

- أنا هنا للتبرع وخدمة الفقراء.. وأنت تعرف جيدًا أنني أستطيع جلب المساعدات.

وقف «لارس» وحدها بنظرة نافذة وقال بحدة:

- جلب المساعدات أم جلب العاهرات.. جاكلين، أقسم بالرب إذا لوثت هذا النادي لأطردك من مصر كلها.. هل تفهمين؟
زمت شفتيها وتركته وذهبت.. جلست على بار الشرفة، وجاءها «جاكوب» وقال لها:

- تحدثت معه؟

- نعم.

- وماذا حدث؟

- هددني بالطرد من مصر.

- لا يستطيع.

وكانت «جاكلين» معروفة جدًا عند الأجانب؛ فهي قوادة كبيرة، تملك شقة فاخرة في «نيركو» وسيارة جيب شروكي سوداء، تجلب الفتيات الملونات وتلقيهن تحت أقدام الرجال البيض، تقول عن

نفسها: «أنا خدامة لكل الشواذ»؛ لذا ترسم على ظهرها قضييًّا كبيرًا يتصل بمؤخرتها، ترتدي ملابس ساخنة تبرز مفاتها؛ المؤخرة الكبيرة، وثديها الكبير.. ملامح وجهها تقرب من المصريين على نحو ما، إلا أن شعرها مجرد طويل تجمععه في دفائر كثيرة. استدعاها «جاكوب» للحضور إلى مقر الرابطة؛ لتروج من خلالها لنشاطها، لكنها اصطدمت بـ«لارس هيو».

جلست مدام «كلير» في الحديقة كمادة كل صباح، وجلس أمامها الأستاذ زاهر، وجاء «خرستوف» لهما بالقهوة.. ظل الأولاد كالعادة يُحدثون ضجة في الحديقة، إلى أن جاء «موريس إبراهيم» ليداعبهم، وسرعان ما تقدم نحو المدام وسلم عليها، إلا أنها استقبلت تحيته ببرود، وكانت تنبعث منه رائحة حيوان بري، فبادرته بسرعة:

- موريس، شكرًا.

ونظر لها مستفهمًا.. وفيما هو يفكر في هذا الجفاء الذي حل على طريقة المدام معه، أدرك أنها تريد أن تستغني عن خدماته، بل استغنت عن خدماته بالفعل؛ فنظر للأستاذ زاهر الذي جلس مسترخيًا يتابع المشهد في تلذذ.. ولما أراد أن يستفهم منها، قاطعته بالفرنسية وصاحت:

- أوف.. موريس.. قلت شكرًا.

لأول مرة منذ أعوام تحدث هذه الضجة الكبيرة في الرابطة؛ صرخ «موريس إبراهيم» في عنف:

- ماذا تريد مني بالضبط.. أريد أن أفهم؟

- هه.. قطعًا هذا شخص مختلف. هكذا قال الأستاذ زاهر وهو يستدير للخروج من المطبخ، وعاد يحدثه بسخرية شديدة:

- نظنتي صديقك؟ قطعاً خدمتك للحيوانات أثرت على عقلك.

عندئذ التقط «موريس» سكيناً وغمده في لحم خنزير كان أمامه،
واهرت عيناه، وصرخ مرة أخرى:

- يريد أن يقطع رزقي.

فشل في التقرب منه أثناء تواجده، لم يستطع تحمل عنصريته؛
لذا أصبحا عدوين. قوانين الرابطة كانت تدعم موقف «موريس»،
وفشل زاهر مراراً وتكراراً في فصله منها؛ كانت تسيطر عليه رغبة في
معاقبته، إنه تعدى عليه وطرده ذات مساء من المطبخ، أي نعم لطمه
زاهر على وجهه، إلا أن ذلك لم يُرحه، وأيضاً لم يرتدع «موريس»؛
ظل يعامله بندية، كان مطمئناً لقوانين الرابطة، وهو ليس إلا عاطلاً..
هكذا كان يراه.

وفي مساء اليوم ذهب «موريس» إلى بيته حزيناً، لم يتناول العشاء
مع أبنائه، وجلس في الصالة وسط الظلمة؛ أراد أن يفكر بمفرده،
وفي هدوء، فظن أن الأعضاء المؤسسين رحلوا.. اليوم والغد ستحميه
القوانين، ولكن حتماً في أحد الأيام سيأتي مدير آخر يماثل زاهر في
عنصريته وغروره، فيذعن له ويرفده.. وأخيراً وصل لقرار نهائي،
وهو ترك الرابطة.

قراره أسعد البعض، وأغضب البعض الآخر، قالت له السيدة
سميرة: «فكر جيداً» فقال لها: «لن يتركني.. أغلب الرواد هنا
زبائنسي.. سيؤثر عليهم.. هذا العجوز العنصري خطير».

واشترى سيارة «نيفا» بيضاء، وكتب على الزجاج الخلفي «موريس
إبراهيم للإسعافات الأولية للحيوانات»؛ هكذا قرر أن يستغل خبرته في
الطب البيطري التي اكتسبها من عمله عند الدكتور «روبرت تيرنر»

أستاذ الطب البيطري.. وزودها بسرينة إسعاف، وكانت السيارة لا تخرج من الحي الإنجليزي.. خبرته في هذا المجال كبيرة؛ فجهز السيارة بأدوية للتسمم، وخافض للحرارة، وأنبوب أكسجين، وماكينة حلاقة للكشف عن الوريد إذا ما استدعى الأمر إعطاء حقن، ومقصات، وبتادين اسكراب للتطهير، وبتادين عادي للجروح، ومحاليل دنجر ولاكتلوز للحرارة والتزيف. وتعاقد مع أكبر ثلاث عيادات في الحي، وعند أول حالة ذهب إلى بيت مدام «كلير»؛ كان أحد أبنائها قد لعق الأزهار، وكانت مرشوشة بمبيد سام؛ فمات.. قالت له: «موريس، صغيري مات» لم يعلق، وضع الكلب في صندوق صغير، وتم دفنه في قطعة أرض فضاء بالقرب من طُرة.

زُينت الحوائط بوجوه إفريقية مصنوعة من الفخار، كل وجه يحوي لمبة تضيء في كل مساء، وبدأت الإضاءة قوية نافذة إلى كل بقعة في الحديقة. وفي يوم شم النسيم من عام ١٩٩٤ أعد الصحفي «آرون رود» - وقد بدا عليه تقدم السن - يومًا رائعًا.. وقف أمام الكاميرا التي ثبتها في إحدى الزوايا، وتحدث إليها قائلاً:

«أنا آرون رود الصحفي.. جئت إلى مصر منذ خمسة عشر عامًا أو يزيد» قالها بالعربية، مضيفًا بالإنجليزية: «جئت من صحراء أريزونا في أمريكا إلى صحراء القاهرة.. أصدقائي ينعنونني بالمجنون الكبير» هكذا يقول وهو غارق في الضحك. ثم يتقل بالكاميرا ويسأل الرواد.. قالت سيدة عجوز كانت تحتسي البيرة ووجهها يشع بابتسامة كبيرة: «أتمنى لكل الفقراء أن يجدوا الطعام». وظل «آرون رود» يتقل بالكاميرا بين الرواد، يتحدث معهم ويسألهم عن كل شيء، منهم من قال: «قضيت

عشرة أعوام في القاهرة، والآن أشعر بأني وُلدت فيها.. ولا أريد تركها». وبعد بناء السور، انتعشت الحديقة بالرواد، وبدأ صعبًا على الأفارقة اختراق السور، لأسباب كثيرة؛ أولها كاميرات المراقبة، ثانيًا الكشافات الكبيرة المسلطة على السور. ولما جلس «آرون رود» في بيته في شارع ٧ يراجع الفيديوهات التي حرص أن يسجلها كل عام، بدأ بأول فيديو، وكان عام ١٩٨٠ لعمال مصريين يعملون في الحديقة، ولاحظ «محمد عبد العال» المهندس الذي خطط لبناء الحديقة وبار الشرفة، ويجواره مدام «سيريا» وكانا يوجهان العمال، وأيضًا شاهد «خرستوف» وهو يحمل الشاي للعمال.. ومرت على وجه «آرون رود» وهو يتابع الفيديو سحابة حزن عميقة.. أوقد سيجارة وتابع الفيديو للنهاية، ولمعت عيناه بطبقة من الدمع حين وقفت «سيريا» في نهاية الفيديو تقول: «من هنا سندعم كل إنسان».

قبل أن ينتهي عام ١٩٩٤ كان «آرون رود» يحزم حقائبه ويستعد للرحيل، جاء وودع الأعضاء بحرارة، وعانق «خرستوف» طويلًا، وبكى الأخير وقال له: «سأفتقدك كثيرًا». وطاف الحسي والتقى بأصدقائه المصريين وجلس معهم، وفي النهاية ودعهم، وذهب إلى مقهى «كليوباترا» وودع أصدقاءه هناك، ومر على مستودع «بيرة ستبلا» وودع العاملين.. هكذا كانت الجولة شاملة، عاش في الحسي ما يقارب العشرين عامًا؛ عشرين عامًا قضاها مصريًا حتى النخاع، تجمع مشكلاتهم، وشاركهم فيها، عشرين عامًا عرف فيها طبائع المصريين؛ لذا حثه الكثيرون على تأليف كتب عن هذه الرحلة الطويلة، لكنه قال لهم: «عشرون عامًا تعلمت فيها جميع الحقائق، الحقيقة الوحيدة هي أن أستريح».. أصدقاء جاءوا وآخرين رحلوا، وعصفت به الذكريات فتألم كثيرًا، ولكن سبعون عامًا مضت من عمره وهو

في السياسة غارق، حان له أن يعود لأريزونا ويجلس مستريحًا.



اصطفت ثلاثة بوتجازات ماركة «جيمس» ليصبح عدد البوتجازات في المطبخ سبعة، جاءوا بواسطة شركة «seaven» للخدمات، إضافة إلى المطبخ المصري الذي برعت في تقديمه السيدة سميرة والذي أحدث ضجة كبيرة؛ ليس لدى الرواد فحسب، ولكن في محيط الرابطة؛ حيث انتشرت روائح الشواء المسكرة، فضلاً عن صليل الأواني الذي وصل إلى الحديقة، عالم متكامل من العمال والطهاة والنُّدل، شكّل المطبخ لهم ساحة كبيرة للابتكار. ولما تدفق المال أكثر عليهم إثر هذه القفزة الكبيرة، تراجع أعضاء «جماعة الرابطة» عن خوض المارك وقاتل الآخرين نظير المال، وانفعل عليهم «جاكوب» الذي كان يستخدم سلطته في فرض آرائه عليهم، وفي النهاية أذعن للعمل نادلاً، ولكن سرعان ما رفضه الرواد وقدموا فيه شكوى لـ«لارس هيو»، الذي تفحصها بعناية وهو واضع على عينيه عويناته الذهبية، ثم قدمها للأعضاء وأخذوا قرارًا برفده، ولولا أن رجاله تخلوا عنه لكان «جاكوب» عاقبهم جميعًا، وفي النهاية استطاع العمل في «ديسكو فلاش».

فقد أسند لها «خرستوف» الذي ترأس إدارة المطبخ بعد رحيل «ديوانا» مهام الطهي؛ لذا حزنوا للعام الذي مضى دون الاستعانة بها، وقالوا: «إن القدر دائمًا ما يلعب دورًا إيجابيًا في حياة البشر؛ لولا موت ديوانا ما كُنّا اكتشفنا سميرة». وكان «خرستوف» قد اقترب منها منذ أن تهكم عليها النادل حين سألت عن «وليام مور»، ونشأت بينهما صداقة عميقة؛ في نهاية اليوم يجلسان خلف المطبخ ويتناولان القهوة ويدخانان ويستغرقان في أحاديث كثيرة، فضلاً عن

«موريس» الذي أحبها لتعاونها معه، أخذ من خبرتها، وظل يتعلم منها صنع الخلطات شيئاً فشيئاً، وكان يقول لها في كل مرة: «مدام سميرة، أنتِ نوع آخر من المسلمين، أنتِ أمي».. كذلك أحبها جميع العاملين بمن فيهم «جاكوب».



بعد بلوغها الخامسة والستين عامًا، بدا على السيدة سميرة الضعف، نصحتها الطيب بأن تتوقف عن التدخين، وأن تقل من تناول القهوة، وقال لها: «آن لك أن ترتاحي» وابتسمت وقالت له: «ليس الآن».

الروماتيزم والضغط أنكاهما، تغيرت تمامًا إلا عن انضباطها في العمل؛ ما زالت تواظب على المواعيد، والأداء المفرط في تلبية الطلبات التي انتهت عليها، وفشلت الفتيات الإفريقيات اللاتي يعملن تحتها في تعلم شيء منها، إلا فتاة واحدة تدعى «ماريا» وكانت منذ البداية وعيناها عليها في كل شيء؛ أدركت الفتاة بذكاء أن المستقبل في المطبخ، وليس في خدمة الرواد المرهون بالصحة والنشاط وتحمل سخافات البعض منهم، فضلاً عن اقتناع مديحة بخلافة أمها في المطبخ، واقتسمت الفتاتان العمل خلف السيدة سميرة، حملتا أعباء المطبخ الكبير.

في هذا الصباح الباكر من نوفمبر عام ١٩٩٤، سلكت شارع الشكنات كمادة كل صباح، إلا أن هذا الصباح المنعش كان غامضاً؛ ثمة شيء جنم على صدرها وأفقدتها ابتسامة الصباح، قليلون من طال بهم الأمد في حراسة العمارات أو زرع الحدائق ينظرون لها ويتعجبون من الزمن، وآية ذلك ما طرأ عليها؛ الباطر الفاخر المصنوع من الكشمير ترتديه فوق جلباب فضفاض مطبوع برسومات نُقشت بالتريكو، الحذاء الرياضي الضخم الذي حرصت منذ ثلاثة أعوام أن

تتعلمه ليحد من آلام كعبيها، حركتها البطيئة، لولا كبرياؤها لكانت اتكأت على عكاز.. إن هذه الهيئة إن دلت فإنها تدل على إهمال ناتج عن حالة يأس مفرطة.. ولما كان يشتد عليها الألم كانت تجلس على أحد المقاعد الخاصة بالبوابين لتلتقط أنفاسها، ولما كان يشاهدها بواب كان يسارع بإحضار الشاي والحديث معها، ثم تستأنف سيرها حتى مقر الرابطة. بعد أن تنتهي من عملها في الرابطة، تجلس وتتناول فنجان القهوة المضبوط، وتضع فوق عينيها تلك العينات الدقيقة وتتصفح الجرائد، ثم تجلس معها مديحة لبعض الوقت، ثم تسأل عن داليا، ودائماً لا تنتظر ردًا، هي عبارات روتينية، لا تعابها مديحة ولا داليا. وتنظر لها مديحة مستعطفة وترحل، وتعود سميرة للبيت في المساء.. تستقل المترو، وتظل تتفقد الناس بنظرة تعيسة، ثم تذهب حيث شقتها، تصعد إلى الطابق الثاني في معاناة، ثم تعكف على تحضير الطعام الذي لا يتناوله أحد سواها.

ماتت سميرة بعد رحلة طويلة مملوءة باليأس والحرمان، لم تكن الصدمة قوية، لكنها كانت تحمل قوة المفاجأة أكثر من صدمة فقدان الأم.. ماتت.. وهذا متوقع.. ألم يتقدم بها العمر؟ ألم تُصَب بالأمراض؟ إن الموت شيء طبيعي لمثلها.. هل ستكون هذه العبارات هي التي سيثيرون بها أمهم؟ وقف سعيد على باب الغرفة وأخذ يحملق في جسدها النحيل، وشعرها المبثر على الوسادة وقد بدا أبيض بعد أن انطوت الصبغة من عليه، وقف بجوار الجسد الساكن، وتأملها كما لو أنه لم يشاهدها من قبل.. تفقد وجهها بدقة، عنقها الضئيل، راحتها المجدتين بطبقة مينة من الجلد إثر العمل الشاق، كعبي قدميها اللذين انتشرت فيها الشقوق مؤخرًا، أظافر قدميها الصلبة الطويلة.. وتساءل فيما يشبه الدهول: «متى أهملت سميرة في نفسها؟»

إنه يرى أمامه جسداً غريباً ضعيفاً، كان يوماً ما يتزين ويتباهى بجماله وثقافته، كان جسداً قوياً.. وبرزت إلى ذهنه المعركة الشرسة التي خاضتها بمفردها أمام عاملي النادي اللذين حجزاه وضرباه، كم كانت قوية؛ انتفضت وقاتلت بضراوة بعد أن التقطت عصا البيبول وطاحت فيهما بقوة وشراسة.. «ماما» هكذا هتف سعيد من الأعياق، بيد أنه لا يتذكر أنه ناداهما هكذا منذ سنوات، منذ أن هبط هذا الحي وعشق شوارعه وسكانه وأماكنه، كان فقط يشاهدها تجر نفسها ناحية الشكنات، وكان يتجاهلها عندما يكون بمفرده، أما إذا كان بصحبة «يودا» فإنه يسترق النظر إليها، ولما كان يشاهدها وهي تجر حقيتها في إعياء، كان يشعر بالقرف من نفسه «تلك مسافات طويلة نصر على أن تقطعها بمفردها» هكذا كان يقول في نفسه ليدفع عنها ذلك الشعور.. وتفرس الوجه الناطق بالعدم، وحدثت نفسه بصوت عالٍ كأنه يتمنى أن تسمعه: «لماذا الآن؟ لم أشبع منك» وتساءل في بأس: «هل كنتِ مُريية فاضلة؟ أم أمًا بائسة؟» وشعر بأنه يتهاوى في بشر مظلمة جافة ليس لها من قرار.. وأحضر القصافة الخاصة بها من أحد الأدرج، وقام بتقليم أظافرها بعناية.. كانت يده ترتعش وتتساقط قطرات العرق من جبينه، ولا تدري أهى قطرات عرق، أم دموع أبت أن تسكن عينه أمامها.. لأول مرة يقترب منها بهذا الشكل، كانت صلبة، تقف على خطوة واحدة منه ومن أشقائه، صيحات.. تعليقات.. نظام غذائي.. دراسة مكثفة.. هذه هي سميرة.. وعاد يتساءل وقد تهدج صوته: «كانت حادة.. أم كانت تقصد أن تنزع منهم شيئاً ما؛ شيئاً تجمل في هذه الأيام السوداء، يُلخص في كلمة «المصلحة»؟ الآن الناس تهرع لمصلحتها الشخصية على حساب كل شيء».. وعاد يتفرس في وجهها بتمعن.. التجاعيد بدت مترهلة،

والهالات السوداء تحول لونها لزرقة مخيفة، وأسنانها بدت ضعيفة صغيرة لكنها كاملة؛ لشدة ما كانت تحافظ عليها، وكانت تدفعهم لتنظيفها كل صباح ومساءً قائلة: «ليس للميكروب طريق إلا من خلال بقايا الطعام التي تندس بين الأسنان».. وتنهّد من الأعماق، وعانى في كبح صرخة تريد أن تخرق الجدران.. ولما انتهى من تسليم أظافرهما، قام بتسريح شعرها بحرص، ثم زيّن وجهها ببراعة، وراح يقبلها في شغف، وانفجر بصرخة من الأعماق: «سميرررررة».

الآن وبعد فوات الأوان أدرك سعيد غيابها عنه وعن أشقائه، إنها لم تكن جامدة؛ إنها كانت تصارع من أجل تربية أبنائها وتعليمهم.. وزحفت الذكريات كجيش من النمل يسلك طريقه دون أن يلوي على شيء، وراح يحرث في عقله ويفتش عن الذكريات، وتنهّد: «آآآه.. ربا ربا.. الرحمة».

شاع الخبر عند الرواد، وبلغ زاهر الذي لم يتأثر، بل نعتها ساخرًا بـ«المرأة المثقفة». وحزنت الرابطة لفقدان هذه السيدة التي لم تُغضب أحدًا، التي وافقت في بداية عهدها في الرابطة - برغم خبرتها - على أن تعمل تحت إشراف إحدى الفتيات الإفريقيات. وبكى عليها «موريس إبراهيم»، رغم أنه كان ينكرها في البداية، لكن بعد اختلاطه بها، قال لها: «أنتِ نوع آخر من المسلمين يا ست سميرة».. على الرغم من ذلك فلم تحزن كل من داليا ومديحة، لم تتذكرا لها أي شيء، اقتصر الحزن على فقدان امرأة يومًا ما كانت تقيم معها في بيت واحد.. لم تهتم داليا كثيرًا فور علمها بالوفاة، عقدت حاجبيها الدقيقين وهمست: «سميرة ماتت.. متى؟».

كانت سميرة امرأة لها كبرياء وعزة نفس بادرة، رغم مرضها وشقائها ظلت تعمل، ولم تستد من أحد، ولم تعتمد سوى على نفسها. في هذه الأيام الأخيرة كانت تذهب إلى بيت زاهر، تقوم بطهي الطعام وأعمال النظافة، بعد أن أصابت «خرستوف» وعكة ألزمت الفراش بضعة أيام، وأقدمت على ذلك إرضاء لـ «خرستوف»؛ فهي لا تعمل عند المصريين كما هو معروف عنها، وكانت كالعادة تجد ٢٥ جنيهًا فوق تراييزة السفرة أسفل منفضة السجائر، تلتقطهم وترحل، حاول أن يتحدث معها، لكنها كانت تصمت، حتى إنه حاول أن يستفزها ويوقف السيارة الكامنة بداخلها، لكنها كانت لا تعلق، لعلها شعرت بالسخرية منه.. بعد فترة أدركت صنفه القذر، حدثها عنه «موريس»، فضلاً عن زيارته المتكررة للمطبخ ومحاولاته الفاشلة لفرض آرائه على أي شيء، وكان يقول هم دائماً: «أنتم تفهمون أكثر مني» ويختم: «هه» كررها أكثر من مرة. وقالت لـ «خرستوف»: «كيف تتحملة؟» فقال لها: «أعرف حدودي معه جيداً، هذا الصنف يشبه الفرنسيين في غرورهم وغطرستهم.. له صديقة فرنسية تحبه؛ لأنها وجدت فيه ما يريح ضميرها». عندما كان يشاهدها في الحديقة الخلفية بعد انتهاء وريديتها جالسة تناول القهوة وتصفح الجرائد بعناية، كان يشعر بالقهر ويضيق صدره، ويتساءل في نفسه بنبرة ساخرة: «خادمة تفحص الجرائد! الأولى أن تغتمها لتضع فوقها الطعام.. تقرأ.. كيف تقرأ؟! نحن في أي زمن يا الله؟!» هكذا كان يتفعل زاهر؛ الأمر الذي جعله يتفرد بها كثيراً، ويستيقظ باكراً مخصوصاً للحديث معها، في محاولات فاشلة استعداداً للتصدي لها مبكراً، إنه يريد أن يسمعها تتحدث عن القوانين، وفساد النظام، وأن يعرف رأيا في السياسة الداخلية والخارجية.. ثقافتها جعلته حتى لا يُتني على

طهيها الذي أحدث ضجة في الرابطة، هو تعلم وتربى على أن يتفقد فقط، لكن ثقافة الشاء على أفعال البسطاء لم يتمرس عليها، ولم يقتنع بها يوماً ما، يريد أن يسخر ويضحك ليستريح قلبه، ورغم علمه بشهادتها فإنه ظل يراها جاهلة.. إنها خادمة.. مهيا فعلت خادمة.

لم تعد مدام «كلير» تأتي إلى الرابطة لاحتساء قهوتها، بعد أن فقدت أحد أبنائها، تملك الحزن منها، وظلت طوال عشرة أيام في عزلة، فذهب لها زاهر ليطمئن عليها.. عشرة أيام وهي لا ترد على اهاتف، عشرة أيام وهو يذهب لها كل صباح وكل مساء، فيشاهد الفيلا مضاءة، وثمة موسيقى هادئة تنبعث من داخلها؛ قطعاً هي تجلس وتعزف على البيانو، وتساءل في نفسه بمرارة: «هل بمفردها أم هناك شخص آخر؟».. وظل ليالي يعاني الهواجس الشيطانية، اكتشف أنه مجبها بحق، واكتشف شيئاً آخر في الحب، وهذا الشيء لم يشعر به إلا في وجود «كلير» فقط.. الحب ليس معاشرة جنسية، ولكن تكمن روعة الحب في الأمان والاندماج الروحي.. ارتاح لها كثيراً، وكشف لها عن أدق أسرارها، معها كان يشعر بوجوده، كانت تملأ حياته.. يتذكر لكتها الفرنسية المزوجة بنعمة طفولية فيشعر بالحزن، ويتساءل في نفسه: «أين هي؟ كانت أجمل امرأة في العالم» وكثيراً ما كان يجلس في البار الرئيسي في الرابطة بين النساء فيشعر بأنه شاب في مستقبل العمر يبرز صدره العريض كالديك، استمد من قربها منه ثقة كبيرة، الجميع يعرف «كلير»، ويعرف جبهاله؛ لذا كانت لا تملأ عينه أية امرأة أخرى. وأخيراً استجابت وفتحت له الباب، فاندفع من الداخل الهواء المزوج برائحة جلدها الرقيق؛ فشعر بأنه عاد للحياة مرة أخرى.

واندفع بحتضنها، لكنها صدته بيد قوية وتراجعت عدة خطوات، وظلت تنظر له بعينين حمراوين.. وتقدم نحوها مستفهماً:

- كبير، ماذا حدث؟

- ابتعد عني.

- كبير!

- قلت ابتعد وإلا طلبت البوليس.

- أنا زاهر.. أنا لا أفهم شيئاً.

- أنت من قتلت صغيري.. أنت العجوز العنصري.. فلتذهب إلى

الخراء.. أنت من حرضتني.. الشيء الوحيد الذي يؤلمني هو

أنني أحبتك؛ أحبت ختيراً عجوزاً.

وتغاضى زاهر عن كل هذه الإهانات وهتف:

- قتلت..

- اخرج من بيتي لا أريد رؤيتك.

- كبير.

واندفعت تضربه في صدره بقسوة، وأجهشت في البكاء، وسقطت

على الأرض، فرفعها وأجلسها على المقعد وجاء لها بجرعة ماء، لكنها

التقطت الكأس وأطاحت بها وصرخت:

- اخرج.. أنت من قتلت صغيري.

ومكث في البيت أياماً يفكر في هذا اللغز، وعلم من الرابطة

بالحادثة، واستطاع أن يفسر قولها بأنه من قتل صغيرها؛ هي

تقصده أنه السبب في طرد «موريس إبراهيم» الذي كان يعقم الأبناء

ويعطيهم الأدوية المضادة لتلك المبيدات. ولم يمضِ شهر حتى جاءه
الخبر كطعنة نافذة؛ سافرت المدام إلى باريس. ومكث في بيته شهرين
استسلم فيها للحزن.. وكان يأتيه «خرستوف» ليخدمه، وظل على
صمته مع الجميع حتى مع «لارس هيو»، واسترجع ذكرياته معها،
عاقبه الله بأن يجب في هذه السن المتأخرة، إنه لا يستطيع تحمُّل تبعات
الحب الذي يفشل؛ لا يستطيع السهر، والتفكير، وتحمُّل مرارة العيش،
وخفقان القلب، والذكريات.. آه من الذكريات، انقضت عليه تطعنه
بكل قسوة.. وفرد أمامه على السرير صورها وهما في حديقة ميدان
السوارس، وتفقد أيضًا صور الأبناء وتساءل في نفسه: «أي كلب
منهم مات وتسبب في ضياع هذا الحب؟».. وشاهد صورته وهو
مع الملك فؤاد؛ فخفق قلبه.. هذه الذكريات البعيدة كم كانت
تنعشه، يومًا ما كانت هذه الصورة حديث الصحف؛ حيث جاء
الملك فؤاد لزيارة الحي، فاستطاعت أمه «روز روجر» الإنجليزية أن
تلتقط له صورة مع الملك الذي كان يتودد لأي إنجليزي، فقبل أن
يضع يده الكريمة على كتف الطفل ويتسم للعدسة. وعاش زاهر
يقاوم الذكريات في ضعف.. إلى أن جاء لزيارته السيد إبراهيم مسعود،
وقال له: «اذهب لترى مكتبة طُرة البلد.. لا بد أن يكون لك دور».
وذهب بدافع الانشغال فقط عن التفكير في «كلير»، وكانت المكتبة
تحتل الطابق الأرضي في بناء كبير، وكانت مقسمة على شكل مربع
كبير؛ جزء به مكتبة كبيرة وقد امتلأت بمئات الكتب في شتى
المجالات، وجزء به مائدة كبيرة ومقاعد أطفال ملونة، وجزء به
العاب، وجزء به لوحات وخرائط.. وظل يتفقد المكتبة في ذهول
كأنه لا يصدق، كأنه لم يكن مقتنعًا ببرنامج الرابطة، وأن ما يقولونه
غير حقيقي. وكان يعمل في المكتبة شابان مثقفان، وجلس يتابع وفود

الأطفال الذين جاءوا في حماس وسعادة، تفقدتهم بعناية، يعرف جداً هذه السحنة الفقيرة؛ الملابس نظيفة لكنها مجمدة يبقع ثابتة، رائحة الصابون المحلي الرديء تنبعث منهم. جلسوا تباعاً في نظام بدأ أنهم تدريبوا عليه كثيراً، وظلوا صامتين في هدوء غريب، ليسوا صامتين فقط بل مترقبين في اهتمام حركة الأمين الذي انشغل في إعداد الحصة وهو يضع أمامهم الأدوات.. وأخيراً استمعوا للأمين الذي حدثهم عن الإفادة من إقامة الحوار مع الآخرين.

واندهش الأستاذ زاهر وغالب شعوراً بالنفور من هذا المشهد، وسرعان ما ذهب. وأثناء عودته مستقلاً سيارته المرسيديس القديمة، ظل يراجع هذا المشهد عشرات المرات.. إعداد كامل للأطفال، لكنهم جاءوا ليتعلموا، واندهش أكثر ما اندهش من الأهالي الذين دفعوا بأبنائهم في هذا الطريق، أهالي فقراء لكنهم مؤمنون بشيء، ومطمئنون.. وظل يقاوم شعوراً يسكنه منذ زمن بعيد؛ ليس من حق هؤلاء أن يتعلموا.. نعم يؤمن بذلك إيماناً كاملاً، فلو تعلموا سيتحولون لأناس مزعجين؛ لأنهم ليس لديهم المال. وشعر بالكآبة من المكتبات التي تعمل على نشرها الرابطة، إن العالم يتغير في عينيه.. طالما ظننا أكذوبة، لكنها واقع لمسة بيده؛ أجيال ستأتي وتغير كل شيء، لن يسمعوا بأن يسحق أحد حقوقهم، سيتعلمون الحقيقة، سيقولون لا.

- خلاص يا صديقي دي آخر مرة نسهر سوا. هكذا قال «يودا»
وهو يقدم له كأسه.

- معقول؟

- أنا بخدم منذ خمسة أعوام يا سعيد؛ من عام ١٩٩٠ حتى عام ١٩٩٥.

- وأنا؟ وراح فيما يشبه السبات، وشعر برغبة في الصراخ، وجعل
يحدق في أركان الشقة، كأنه يجاهد في كبح شيء لا يحمد عقبا،
وداهمه شعور بالوحدة، شعور بأنه عارٍ تمامًا؛ عارٍ أمام كل هؤلاء
الكلاب.. الشرطة.. «ويلها جرول».. هذا المصري العنصري الذي
يُدعى رائد.. كل هؤلاء الكلاب كانوا يعملون له حسابًا، والآن
أصبح عُرضة لبطشهم وجبروتهم.. علق آماله عليه، في وجوده
أذعنت له «ويلها جرول»، في وجوده وقف أمام العنصري وبصر
عليه وعلى عائلته، في وجوده كان لا يستطيع ضابط محادثته..
والآن عاد كشاب مصري عادي عُرضة لكل شيء قذر.. وقال في
امتسلا م واضح:

- خذني معك.

وقال «يودا» في صوت هادئ:

- سعيد، ليس في يدي شيء.

- كيف؟

- صعب.. إلا إذا وضعتك في شنطة سفر.. هاها. هكذا أراد «يودا»
أن يلطف الجو، واستأنف بجديّة:

- أنت نموذج رائع للشباب المصري.. سعادة السفير يرسل لك
بالغ تحياته. وأدرك «يودا» لماذا فُجع سعيد إلى هذا الحد، لكنه
عجز عن مساعدته.

- أنا أستطيع فعل شيء.. خذني معك، لا تتركني هنا.

- سعيد، أنت تعلم بموقفي.

- أنت تتخلّى عني.. هل تعلم بالعواقب.. سأنتهي للأبد.

- سعيد، لا بد أن تفهم.
- أنا أفهم شيئاً واحداً فقط؛ حق الصداقة بيننا.. ساعدني.
- واتشغل عنه شيئاً، وجعل يحدق في اللاشيء؛ فقط ليهرب من مواجهة عينه الباكيتين في ألم، وقال سعيد بصوت ميت:
- الخوف جريمة.. والحقيقة حرب.. والحقائق أعرفها كلها، ولكنني لا أستطيع خوض أي حرب.
- واختفى «يودا» من حياته، وفقد القوة التي كان يتمتع بها وهو قائم في الحي.. وكشفت العجوز الشاذة «ويلها جرول» عن وجهها القبيح، وقالت له بحدة:
- سافر الخنزير اليهودي؟
- نعم.

وقال في نفسه: «آه يا ملعونة.. كنت تخافين منه وتتوددين له.. كان عنده حق؛ أنت سفاحة ملعونة، أنت شيء خبيث ينبغي استئصاله من المجتمع». وظهر «جاكوب» كنادل في صالة الديسكو، وقدمه جميل قائلاً: «جاكوب سيعمل معنا.. المدام راضية عنه، كان يعمل في رابطة المقربين الأجانب، والآن سيعمل معنا، وعنده خبرة واسعة، المدام تأكدت من ذلك بنفسها» ولم يتحمل سعيد وجوده معه، فنشبت بينهما معركة عنيفة شرسة شهدها الفندق كله، كانت في الردهة المؤدية إلى البار، أوقفه سعيد وسدد له لكمة مفاجأة، وبادله «جاكوب» اللكمة بقوة، فظلا ثابتين يتلقيان اللكمتين من بعضهما في عنف حتى تكسرت أنفهما وسالت منهما الدماء بغزارة، ولم يتراجع أحدهما؛ ظلا ثابتين، وفشلت محاولات الفض بينهما.. وبعد أن استترقا هذا الكم الهائل من اللكمتين، تصارعا وسقطا فوق بعضهما.. ولما شعر سعيد بقوته

وثباته، عَضَّه في عنقه؛ فتألم «جاكوب» بشدة.. وانتقلت المعركة بينهما حتى مطعم «بالماء»، وهرع الرواد خائفين، وصعد الأمن، لكنها ظلا متشابكين في عنف، وجاءت المدام من بيتها، وانقضت على سعيد ولطمته بعنف، ثم بصقت في وجهه وقالت له بوقاحة:

- لا بد من دخولك السجن.. أنت مجرم قذر. واحمر وجهها، وظل «جاكوب» يحدجه بنظرة سامة.

وتم رقد سعيد بعد أن أجمعت إدارة الفندق على ذلك، وتدخل الأستاذ رأفت الفيومي للحد من العقوبة والاستكفاء بالرغد بدلاً من دخوله السجن؛ إكراماً للسيدة سميرة.



عندما جاءت لتقدم له العزاء في والدته، لم يرفع عينيه في وجهها باهتمام، ولم يحاول أن يتفحصها، منذ أربعة أعوام لم يشاهدها، الحقيقة أن والدها وقف بجانبه في وفاة السيدة سميرة، وتساءل في نفسه عندما شاهدها في بهو البيت قادمة من الخارج: «هل هي حقاً؟! ما هذا الجمال والأناقة؟! إيمان عابد.. معقول؟!»، أربعة أعوام وهو غارق بين الخدمة في الجيش والعمل في الحي الإنجليزي لم يسمع عنها شيئاً، ولم يسعَ لذلك، آخر مقابلة حقيقية كانت قبل دخوله الجيش، وكانت حادة معه، والآن بدت له شخصية أخرى، تتمخطر في البدلة الرمادية، وقد صبغت وجهها المدور فازداد بريقاً، وبدت لها رائحة الموظفين؛ رائحة الأوراق والأجبار والقهوة. ولما وقف أمامها في مدخل البيت كانت تنظر له مندهشة، لم تعرف عليه؛ ازداد نحافة، وكان السعال قد لازمه طيلة الأيام الماضية، وكان سعيد قد أدمن الكحول، لدرجة أنه كان يغمز العيش في الويسكي، وأصبح من زوار

عزيز موسى الدائمين، فضلاً عن أن مديحة كانت تهرب زجاجات
الحمر الفاخرة وتبيعهاله، ولكن بعد علاقتها بالارمن هيو، توقفت
وقالت له: «عندك متجر عزيز موسى، لا تسبب لي المشكلات».

- ازيك يا سعيد. هكذا قالت بنبرة خُيل إليه أنها نفس النبرة التي
تنادي بها السعاة والفراشين في الشركة.

فقال لها متعمداً:

- أخبار عم خلف إيه؟

- والدي الحمد لله بخير.. هيطلع الحج السنة دي.. عقبالك.

- متى ستزوجين.. أخشى أن مهامك الثقيلة في الشركة تُنسيك نفسك؟

- قريباً بإذن الله.

- مبروك.

- الله يبارك فيك.

ولما استعد للمغادرة، استوقفته بنبرة لا تخلو من الزهو:

- عندنا وظائف في الشركة لو تحب تشتغل.

- ماهي الوظائف؟

- في البوفيه والنظافة.. شهادتك ثانوية، لا تنس ذلك.

- أعرف أصدقاء يعملون بهذه الشهادة، لكن بواسطة.

- سعيد، الوسطة في كل شيء في بلادنا. هكذا قالت في نبرة رسمية.

- أكيد.. أصل الإدارة في بلادنا فاشلة بنت وسخة.

- سعيد، شغلك مع الخواجات جنتك.. الحقائق مش عندنا كما
علموك.

- لماذا؟ هو شغل عم خلف مع الخواجات جنته؟
- احترم نفسك.. أنا غلطانة إني اتكلمت مع شخص زيك.
- الخواجات لهم فضل عليك وعلى أبوك. هكذا قال بعد أن تحركت من أمامه نحو باب الشقة.
- عضت على شفتيها في غيظ وقالت في حدة:
- تربية وسخة.
- وأنتِ بنت وسخة.
- يا حيوان.
- منافقة وكذابة ووصولية.
- اشتد عليها الغيظ، وظل هو واقفاً مستعداً لسحقها بكل قوة، لكنها صاحت:

- أنت إنسان ميت.. قدر.. شغلتك بس خدمة الخواجات زي أمك. أقت الجملة الأخيرة وهرعت بسرعة نحو السلم.. بصق خلفها، وخرج.

كان فصل الخريف قد حضر، وجرد الأشجار من أوراقها، كل شيء بدا أمامه عارياً حتى الأشجار، والشمس كانت تغسل الفضاء بالدفء اللذيذ.. سلك شارع الجميز، المتراحة على جانبيه أشجار الجميز العتيقة، وتناول زجاجة براندي جودة عالية من عند عزيز موسى، وجلس بجوار متجره بمحاذاة شريط المترو، وراجع كل كلمة سيقولها لهذه السيدة العجوز «ويلها جرول».. إنها في البيت شيء آخر، تكون أكثر هدوءاً، وجالت في رأسه أكثر من خطة، ولكنه قرر أن يعود للعمل في الديسكو أو في مطعم «بالماء»، لأول مرة يشعر

هذا انقراع نقاتل الموحش انذني أضلم عليه الدنيا، وإيهان عابد
لقنة الجميلة التي كان يرى انديا في عينيها رائحة يسيرة، الآن بدت
بنيفة موجعة.. ماذا يحدث بالضبط؟ لماذا تتكاثر الأحداث الموجعة
هكذا دون رحمة ولا سابق إنذار؟ لماذا في هذا اليوم بالذات يقابل
يمنان عابد ويتشاحنان بهذه الطريقة انصريحة؟ طالما ادخر لها في قلبه
مشاعر رقيقة ضية يستدعيها حين تأتيه الأوجاع متغاضياً عن الجانب
السلي الحديث في حياتها، وكان يبرر ذلك بأنها معذورة ولكنها فتاة
نظيفة، والآن تتحول لمرضان مؤلم، يا للقذارة! كيف تقف أمامه
وتتحدث هكذا؟ وصرخ في نفسه بدافع التعزية وقال متألماً: «دعاء
القناة النقية ماتت.. ماتت.. ماتت من أجلي».. وتساءل فيما يشبه
الاندماش: «هل يوجد إنسان واحد يدعن للموت بهذه الطريقة؟!
أمرتها فاستجابت.. لعلها كانت تصرخ لفراقي فقط».. وبكى لأول
مرة، وجرت الدموع بفزارة فوق وجتية الحمر اوين، وشعر في قلبه
بشيء أشبه بالراحة والطمأنينة بعد أن بكى، واستسلم لهذا الشعور
الطيب وقال: «لعلها بداية جديدة.. سأذهب لها وأتسمحها».

وكانت السيدة تقطن شقة صغيرة تقيم فيها بمفردها، كانت في
شارع ١٢ في بيت قديم من ثلاثة طوابق، للشقة مدخلان؛ واحد من
الحديقة، وهذا خاص بعمال المطعم الذين يتناوبون عليها، والآخر من
مدخل العمارة، وهذا خاص بأصدقائها. ولما دخل الشارع، وكانت
للشارع رائحة يعرفها جيداً، تشبه رائحة جسدها، لمح «جاكوب»
داخلاً؛ فامتزت قدماء، وتوتر، وعجز عن التفكير للحظات. ولما
دخل «جاكوب» من الحديقة، أدرك أنه جاء ليضاجعها، وتذكر قول
جميل المدير القواد: «المدام تأكدت بنفسها من قدراته». ودخل
الحديقة، واختبأ في بيت مصنوع للكلاب، لكنه خالٍ من أي حيوانات

(وهو نظام هندسي متبع في الحدائق). ولما غسل الليل الحبي بسواده، وبدأ هواء الخريف يعصف بالأشجار خرج، وكانت الحديقة مظلمة تماماً، وظل يفكر ماذا يفعل؟ هل يستغل وجود هذا القرد ليتصالحا؟ أم ينتظر خروجه ويدخل لها؟ وشعر برغبة ملحة في استغلال وجوده ليتصالحا، واندفع بسرعة قبل أن يتراجع، وضغط على الجرس، وظلت متغيبه لمدة خمس دقائق، وعند الجرس الثالث جاء صوتها عشريناً، فارتعد؛ لعلمه أنها كانت تمارس الجنس، وأن هذا الصوت ينم عن أنها انزعجت، ولما فتحت الباب، وكان وجهها يشع ببريق مخيف، ازداد قبحاً بعد أن شاهدته، تساءلت في خوف: «أتيت لتقتلني.. أليس كذلك؟ أنت تحبني في سرتك سكيناً» وهرعت للداخل مذعورة، ودخل خلفها يتوسل إليها ويحاول إسكاتها، فخرج «جاكوب»، فاحتمت به وقالت له: «دافع عني أرجوك.. إنه جاء ليقتلني.. صديق اليهودي اللعين».

وعقد «جاكوب» حزام بنظلولونه، وأدار في إصبعه خاتماً كبيراً مخيفاً، فتقدم نحوه سعيد وهو يمد يده ليصافحه.. تجاهله «جاكوب» وقال له بوقاحة:

- ماذا تريد بالضبط؟

- العودة للعمل.. أرجوك ساعدني.. نحن أفارقة، لا بد أن نتصالح ونتعاون مع بعضنا البعض. هكذا قال مستعيناً بكلمات «يودا».

تقدمت المرأة وقالت في عنف:

- أنت همجي.. لن تعمل عندي.. اخرج بره.

ونظر لـ «جاكوب» مستعيناً به، فقال له:

- أنت أطرش؟ ألم تسمع قولها؟ اخرج حالاً وإلا قتلتك.

واعتركت الأفكار في رأسه. ف شعر بانئأس، ليس ثمة أمل في وجهها القبيح.. وحاول أن يتكلم، لكنها صرخت فيه بقوة وقد تقلصت عضلات وجهها:

- اخرج بره والا استدعيت ابونيس. ثم رطنت بالألمانية، وبصقت عليه.

بُتت نظره عليها للحظات. كأنه يتفرس شيئاً مفرقاً، وبصق عليها وقال:

- طالما نعُشي بالقذر والوقح وافمجي.. فالآن يجب أن أنتك بصراحة: أنتِ عجوز شاذة قذرة.. العنصرية في دماغك وفي عقلك.

فانقضت عليه المرأة في وحشية وهي تصرخ:

- همجي قذري.. أنت قذري.. لماذا جئت إلى البيت؟ ماذا تريد مني بالضبط؟ تريد أن تقتلني وتسرقتني؟
- أنتِ تستحقين أن يضاجعك فرد مثلك.

وانقض عليه «جاكوب» في عنف، فلكمه سعيد لكمة سريعة استقر مسارها في أنفه الكبير المبطط، وصرخت المدام، وانقضت بعيداً عن ساحة المعركة، واندفع «جاكوب» نحوه ولكمه في وجهه؛ فترنح سعيد وسقط على الأرض، وهرعت المدام نحو التليفون مهددة بالاتصال بالشرطة، وسمعت من الردهة المؤدية لغرف النوم صوت حشرجة قوية، فخرجت بخطى ثقيلة ترقب الهدوء المخيف الذي أحقب الحشرجة، فوقعت عيناها على تناثر دماء داكنة على الأرض والمقاعد؛ فصرخت وارتعدت وبدأ وجهها شاحباً أزرق مخيفاً، وميزت الحذاء الذي تبادر لها قبل أن تكشف القليل، فوضعت يدها على

فمها تكتم صرخة مدوية، ووجدت «جاكوب» واقفاً في زهول.. خيم الصمت عليهما، وأشار بيده مستفهماً، وجلست المرأة وقد حملت في الجثة وكأنها تريد أن تتأكد من شيء.. وأخيراً بعد وقت مضى ثقيلًا مخيفًا، يتخلله الهواء العنيف الذي ظل يعصف بالأشجار في الخارج، وبالسائر في الداخل، انتفضت بقفزة سريعة بعد أن تدفقت الدماء وشكلت عمرات كثيرة، وقد حجزتها بقدميها حتى امتصتها أهداب الروب الثقيل.. وظلت المطرأة في يد «جاكوب» مفسولة بدمائه، كانت مطرأة مقبضها مرصع بالعلم الأمريكي، وكان نصلها مشرشرًا، غمدها في صدره حين انقض عليه.. وأخيراً تحدثت بصوت ميت:

- جاء ليقتلني.. أليس كذلك «جاكوب»؟

وهز رأسه، وظل واقفاً ثابتًا بجوار الجثة يتأملها حينًا، وينظر للمرأة حينًا، وقال لها:

- ماذا سنفعل؟

مسحت وجهها براحتيها وقالت في توتر:

- لا أعرف بالضبط.

وتساءل «جاكوب»:

- كم الساعة؟

- لا أعرف.. أظنها التاسعة.

جلس وأوقد سيجارة وقال:

- عند منتصف الليل سأحمله وأضعه في أي صندوق قمامة.. لا

تكرثني لشيء.

- أنت مجنون.

- هل لديك حل؟

- نطلب البوليس.

انتصب وتقدم نحوها وقال لها في عنف:

- وماذا ستقولين للبوليس؟

- جاء ليقتلني.

- إذن أذهب الآن، وأنتِ تحدثي للبوليس وتحملين الكارثة وحدك،

ولا تنظقي اسمي.

- لا.. انتظر.. ولا تأخذ على كلامي.. أنا مشتة الآن.

وقام بلف الجثة في لحاف قديم، ومسحا الصالة وكانت خالية من الأثاث، إلا من مقعدين ومنضدة صغيرة تحمل صورًا لعائلتها.. وظلا يوقدان في السجائر والوقت يمضي ثقيلًا، وفي الغطاء السميك القريب من الباب الجثة ملفوفة بعناية بعد أن أحكموها بيكرة لاصق كاملة، وقال لها:

- عند منتصف الليل سأحمله وأتخلص منه.

هزت رأسها في توتر.. وظلت الدقائق تمر ثقيلة، تارة يراقبون الشارع الهادئ المخيف، وتارة يراقبون عقارب الساعة الثقيلة، ولما انتصف الليل ارتدى «جاكوب» ملابسه كاملة، وحمله فوق كتفه بسهولة، وقال لها:

- راقبي الشارع جيدًا.

وخرجت إلى الشارع واختبأ هو في الحديقة، وأشارت له فخرج سرعًا، وأخذ بخطو بسرعة، حتى استقر في شارع الشكنات، وارتقى الطوار، وبدأ يمشي خلف الأشجار، وكانت حركة السيارات ضعيفة

جدًا، ولما اجتاز مدرسة «الليسية الفرنسية» أخذ يعبر التقاطع بسرعة، حتى وصل عند دير الراهبات الألمانيات القديم، وبمحاذاة السور الضخم للدير ألقى بالجملة، وأخذ يركض بسرعة في الشوارع الجانبية، ولما وصل «الديسكو» هاتفها في التليفون وطمأنها.

تستعد داليا للعمل عند السادسة مساءً، تعد لليوم مع باقي العمال في نشاط، لكن يومي الخميس والجمعة تأتي ساعة مبكرًا؛ فهذان اليومان يزداد العمل فيهما عن باقي أيام الأسبوع. خرجت تنظف التراييزات الرخامية، فإذا بها تشعر بيد قوية تقبض على زنديها، التفت بسرعة وإذا بها تشاهد «نواف الرشيدى» واقفاً ثابتاً كاشفاً عن ابتسامة ساخرة.. نفضت يدها من قبضته بحركة عصبية، وهتفت بحدة:

- اخرج بره.
- نتكلم.
- اخرج بره. هكذا هتفت بصوت عالٍ لتجذب اهتمام العمال لها، لكن «سيمون» جاء مرحبًا به؛ ففطنت لهذا الكمين، جميعهم كلاب، هذا السيمون ابن حرام.. وأيضًا هذا الخليجي.
- هذا المكان ليس للعرب.. اطلع بره.
- معقول.. بس مش مع «نواف».
- اتفوخص على دولاراتك يا شاذ.
- احترمي نفسك.
- اطلع بره، وإلا استدعيت الأمن.

احتضن وجهه وزمَّ شفّتيه، ثم قال:

- لن أحاسبك على هذا الكلام، تذكرني دائماً أنني أستطيع أن أصل لك بكل سهولة.

- طبعاً طول ما في قوادين.. وطول ما في أبناء حرام مثلك.

- تجاوزت كل حدودك معايًا.

- اطلع بره.

- معطيك فرصة أخيرة.. بتظرك في ميدان مصطفى كامل لتحدث

ونصل لحل.. هظل صبوراً كعادتي معك. وابتسم لها في خبث،

وتركها وتجول في الحديقة بعض الوقت، وشاهدته يضحك مع

«لارس هيو»، ونظر لها في ثقة وظل يتسم في خبث، بينما هي

ظلت تتابعه حتى خرج من الباب الرئيسي، كانت رائحته

تُشعرها بأنها في قلب صحراء شاسعة، رمالها تحترق تحت

الشمس، على الرغم من جو الخريف المنعش إلا أن رائحته

ووجوده جعلها تشعر بهذه الكآبة، إنه كابوس يلاحقها في كل

مكان، كأنها مقيدة بداخل تابوت مغلق بعناية، وفوق جسدها

تتراحم الأبراص، فوق وجهها بالذات، وهي عاجزة حتى عن

الصراخ، ثمة شعور بالعجز عن التفكير يداهما أمامه، لا تقوى

إلا على سبه فقط.. وبدت لها الرابطة مكاناً قذراً، بوجوده ازداد

قذارة، سيستطيع بأمواله الوفيرة حجز مقعد هنا، لن يقاومه

أحد، سيجلب أصدقاءه، وسيفعل كل شيء، كل شيء.. وقالت في

نفسها: «لا بد أن أجد معه حلاً.. لا بد من نهاية.. إما بالحياة

أو بالموت». وبعد وقت ليس بالقصير قررت أن تذهب له يوم

الأحد؛ حيث تهدأ الرابطة من وطأة الرواد، وجلست إلى مديحة

في الحديقة الخلفية أثناء الراحة التي قالت لها:
لا بد من الحديث معه.. نحن تربينا جيدًا ونعلم كيف نحل
مشكلاتنا. واستأنفت:

أمس سمعت أن الشرطة عثرت على جثة في شارع الثكنات
بجوار دير الراهبات الألمانيات، وقد تعفنت.. الحي الإنجليزي
بدا مرعبًا؛ أليس كذلك؟

كل شيء حولنا مريب. هكذا قالت داليا وهي شاردة في التفكير
العميق.

اذهبي وتحديثي معه.. الحوار أفضل نتيجة لحل الأزمات.

تحدثين مثل ولاد القحبة السياسيين.

أسمعهم كل ليلة يتحدثون وهم ثملون.. يا للعار! يجلون
القضايا تحت تأثير الكحول، ويقولون: العرب حيوانات ناطقة..
ويقولون أيضًا: ثمة فوارق بيننا وبينهم لا ينبغي أن تقلص.
ألم أقل لك إنهم ولاد قحبة.

نعم أفهم.. لذلك سأزوج واحدًا منهم.

من؟! هكذا قالت مندهشة.

لارس هيو.

معقول؟

نعم.. حدثني في ذلك، وكان جادًا.

نعم، وحدثني عنه «ليريس» شقيقة «سيمون» القواد وقالت لي
إنه شاذ.

- اعترف لي.. وقال لي: ساعديني.

وجاء يوم الأحد، وعزمت على الذهاب إلى الميدان بعد تفكير عميق طيلة يومين.

وذهبت إلى ميدان مصطفى كامل؛ حيث تلفه أشجار النخيل وأشجار الصفصاف والكافور، وبدت لها الشوارع هادئة ورائحة، الأجانب يمارسون رياضة الركض عند الغروب؛ فيصبغون الشارع بالطابع الغربي.. وما هو متجر شرائط الفيديو يتبادر لها من على أول الطريق، كم من مرة ذهبت واستأجرت الشرائط لمشاهدة الأفلام الأمريكية.. وبدأ لها الميدان كمساحة معركة كبيرة مثل ساحات الثيران، وما أشجار الكافور والصفصاف إلا رؤوس امتدت من الأفاق لتشهد المعركة، وزكمت أنفها رائحته، واضطربت شيئاً واندفعت فوق الممرات الخرسانية تبحث عنه.. كان جالساً في أحدها.. سمع وقع أقدامها؛ فأدرك مجيئها بقلبه.. وقفت أمامه وبادرته في نرفزة:

- اسمع.. مُتعتك مش عندي.. ومستحيل هتلمسني.. المعادلة عندي موت وحياة، لا شيء آخر.. وأنا على استعداد لأي شيء.

وكان «نواف» قد أعد خطة منذ أن عثر عليها؛ لذا قرر أن يكون رومانسياً، بما يعني أنه سيستدعي ألفاظاً مهذبة، ويغلب على حديثه الشق التوسلي، سيستخدم معها كل ما تعلمه في مصر أم الدنيا ليقنعها بالذهاب معه، سيقسم لها بالله، وسيركع أمامها حتى تحتضنها جدرانه، سيفعل كل شيء، هذه الطريقة لم يجربها معها، ربما تكون فيها الفائدة كلها، ويحطم أنفها، ويتبول فوق رأسها. وقاوم «نواف» العيش في الحي الإنجليزي في مرارة، لولا أن اللعب على هذه الأرض ما كان انتظر

يومًا واحدًا فيه، سنم من العيش في هذا الهدوء المخيف، ومن التردد على البارات المصبوغة بالطابع الأمريكي، يقبع فيها ويتجرع البيرة، ويراقب الأجنب والأفارقة، وصور الكاوبوي والمثلثات الأمريكيات والممثلين، وتزعجه جدًا الأغاني الأمريكية القديمة التي تنبعث من المسجل في إيقاع هادئ كلاسيكي، إنه لم يرغب في العيش في هذا الجو الأوربي، من داخل البارات في شارع ٩ أو في شارع وهيب دوس يراقب الناس في معاطفهم ذاهبين وواقفين، ثمة شعور بالغربة يداهم، عالم غريب عنه، يختلف عن حي المهندسين الذي يضج بالأغاني الشعبية، وبالعهرات المصريات.. إنه ينتظر أن ينجز المهمة، وسيرحل فورًا. قام وحاول أن يمسكها من يدها ويجلسها جواره، لكنها رفضت يدها من يده بحركة سريعة توحى بغضبها، وجلست على بُعد نصف متر منه، بينما ظل هو يتفحصها كأنه لأول مرة يشاهدها. سكرت أنفه رائحتها الذكية، فقال متوسلاً:

- أقسم بالله تغيرت.
- لنفسك. هكذا قالت وهي تنهد بسرعة.
- ولك.
- إحنا مختلفين.. لازم تفهم.. وعلى فكرة مُتعتك هتلاقيها أكيد عند واحدة مريضة، أنا مش مريضة والحمد لله.. متضيعش وقتك. وهدأت ثورتها شيئًا فشيئًا.
- لن أؤذيك أبدًا.. ستظلين نقية جميلة.. ستزوج شرعيًا على يد مآذون.. ولن أهين أنوثتك أبدًا.. صدقيني.
- أعطني الورقة؟

تلفت حوله كأنه يستكشف المكان من حوله، ولما اطمأن لخلو الميدان، استعان بنبرة أخرى تُغلفها العاطفة، بل استطاع بقدرته مثل قدير أن تقلص عضلات وجهه وتذرف عيناه دموعين:

- الله تحدث مع إبليس وأعطاه فرصة.. وأنتِ تآبين أن تعطيني فرصة.. هذا ليس عدلاً.. ارحمني أنا أحبك.

والحقيقة أنها شعرت بالراحة والقوة معاً، عندما انصالت أمامها الدمعتان، شعرت بضعفه؛ فاطمأنت لقوتها، وقالت في حدة:

- دعني أفكر.. وإذا اقتنعت تكون العصمة في يدي.

أعلن «لارس هيو» في الرابطة عن زواجه من مديحة.. قابلت الفتيات الإفريقيات ذلك الخبر بالضحك، وتساءلن: «كيف؟».

كانت الليلة طويلة، امتزج كل شيء فيها بالسخرية والتهكم، في هذه الليلة أطاحت مديحة بشعرها بالكامل، وانتعلت كعباً عالياً، واستكفت فقط بشد خطين من الكحل على عينيها، فضلاً عن حومها بالعطر الرجالي الذي يحبه. وشعر «لارس» وهو جوارها بسعادة كبيرة؛ إنها تفهمه، ولديها الرغبة في إمتاعه. وكانت مديحة قد فطنت لدائه، ولما قارنت بين أن تكون فتاة في كل شيء، وبين أن تكون نصف فتاة، قررت بعقلها أن تكون نصف فتاة؛ ستدعن لرغبته، وستمنحه شعوراً بأنه يضاجع رجلاً في لباس أنثى، لن تدعه يضاجعها في مؤخرتها، لقد حسمت الأمر معه، وقال لها: «ماذا تظنين.. عربي من البادية؟». كان قد التقى بها في شقته في شارع ٢١٠ في عمارة من أربعة طوابق، كان اللقاء في صباح يوم الجمعة، تناولا الإفطار معاً، وجلسا في البلكونة الكبيرة التي تطل على ميدان المدرسة الأمريكية، وقال لها:

أنا رجل تعييس جدًا، ولديَّ الرغبة في إطلاعك على كل شيء مضي.. كيف كنت، وممن تزوجت، وما شكل العلاقات التي مررت بها.. ربما كنت في لحظة مخبولاً، أو مظلوماً.. لا أعرف بالتحديد.. ولكن أستطيع أن أقول إنني رجل تعييس جدًا.. تزوجت كثيراً يا مديحة.. سيدات كثيرات.. إفريقيات وأوربيات.. كلهن أثبتن أن المرأة هي المرأة في كل المجتمعات.. في البداية تزوجت من امرأة دانهاركية من بلدي، وكانت جميلة، لكنها كانت مريضة بداء التبول اللاإرادي، كانت تبول في سروالها، ولما ذهبنا للطبيب قال لي: «المثانة ضيقة؛ لذلك تبول في الليل بطريقة لا إرادية». «وماذا بعد؟ أعتقد أنني أعرف» هكذا قلت له منفعلاً.. كان الأمر فظيماً يا مديحة.. أن تجدي شخصاً عزيزاً بجوارك يتبول، هذا شيء فظيع.. فظيع.. ولما فشل العلاج، قالت لي: «لارس، الآن أستطيع أن أصارحك بالحقيقة.. أنت زوج مثالي، وأنا مريضة.. لا بد من الطلاق» وقد كان. وتزوجت من فتاة أسترالية، كانت جميلة، أقمت معها عامًا.. حتى جاءت ذات ليلة وقالت لي: «لارس، طلقني» قلت لها: «لماذا يا حبيبي؟» قالت لي: «لقد عاد حبيبي وكان مهاجرًا، وأنا لا أستطيع أن أخونك» قلت لها: «حبيبي، أنت صريحة وهذا ما عهدته عليك.. ولكن قبل أن تسرعني لا بد أن ندرس الأمر جيدًا.. هل تقابلتما؟». «لا». «هل عندك معلومة عنه.. مثلاً تزوج أم لا؟». «لا، إنه ليس خائنًا مثلي». «نعم أعلم ذلك تمامًا.. إنه ليس خائنًا مثلك.. وما المطلوب مني؟». «الطلاق».. حقًا كان الأمر صعبًا جدًا أن يحتمله أي رجل، ولكن الأصعب أن يعيش مع امرأة لا ترغب فيه.. كنت مغتاظًا جدًا وقلت لها: «حسنًا سأطلقك.. ولكن هل ستعيشين معه بعد الطلاق؟» قالت لي: «لا أعرف.. ولكن ستقابل.. أقابله وأنا مطلقة أفضل من أن أقابله

وأنا متزوجة، قلت لها: «صحيح، أنتِ على حق... يعني أنتِ تتظنرين
الطلاق لتبدئي طريقًا مجهولاً؟» صاحت في وجهي: «أريد أن تطلقني
فورًا.. لا تضغط على أعصابي أرجوك» وقد كان.. وحدثها بعد ذلك
وعلمت أنه هاجر. وتزوجت من فتاة إفريقية، استغلت أموالي في
إدارة شبكة دعارة كبيرة.. قلت لها: «آدي، ماذا تفعلين بهذه الأموال
الكثيرة؟» قالت لي بصراحة أدهشتني: «أبدًا حبيبي، أنا أدير شبكة
دعارة كبيرة وأحتمي فيك.. هاهاها» هكذا قالت بكل وقاحة،
قلت لها: «حبيتي، وأين نصيبي أو أرباحي؟» قالت لي: «يكفي أنني
أمتعك، وأتركك تتمتع وتخونني مع صديقاتي.. أليس هذا ثمنًا يا
حبيبي؟».. بالطبع كانت كذابة.. طلقته وتخلصت منها.

- مديحة، أنا تعيس جدًا.. أليس كذلك؟

وقالت مديحة في نفسها: «آه.. يا ابن الحرام». وكانت قد أصفت
له تمامًا، وقالت له:

- أتمنى ألا أخيب ظنك.

وفي أول ليلة زواج، كانت الساعة قد دقت الثالثة بعد منتصف
الليل، وكانا ثملين، واستأنفا تجموع البيرة والويسكي بشراهة، ثم
قبلها قبله فموية طويلة، كان «لارس» شهوانيًا كبيرًا، ويستطيع ممارسة
الجنس في أي مكان وبكل سهولة، وكان يتمتع بالصبر والعطاء، كان
يبدل مجهودًا عنيفًا قاسيًا حتى يجعل المرأة تبلغ الرعدة، وبعد ذلك
يبدأ يستمتع بنفسه، كأنه يبدل مجهودًا في تأدية واجبه بالكامل،
ليستمتع بعد ذلك في تأنٍ دون أن تزعجه أي رغبة منها.. جلست
جواره ورمقت عينيه طويلًا بنظرة ساحرة، ثم ضغطت يديها فوق
السريبر في محاولة للنهوض، فبادرها بابتسامة، وأحست بحرارة ساخنة

تدفق في عروقها، وما لبثت أن مالت عليه وطبعت قبلة أسفل عينه دون أن تدري، كانت راثحتها تسكره، طلب منها ألا تتحدث بصيغة المؤنث بل تتحدث بصيغة المذكر، شعرت بالإهانة وزمت شفيتها المكتزتين، وبدأت تصرخ وتتحدث بصيغة المذكر وهي أسفله تعاني وطأة جسده الضخم وقضيه الثخين القصير، ولما فض غشاء البكارة انزعج وصرخ وانتفض من فوقها، وهرع إلى الحمام، وظل يشتم ويصيح ويركل الباب من الداخل، وتركها ثلاثة أيام، وقال لها بعنف: «أنتِ لم تصارحيني بهذا الغشاء» وعجزت مديحة عن الرد عليه؛ إذ ماذا تقول في هذا الأمر، لكنها فطنت بعد ذلك أن رؤيته للدماء ذكرته بأنوثتها؛ لذلك انفعل بعد أن شعر بالمتعة في بادئ الأمر. ولقنها كلمات تقولها أثناء الجماع، ولما مارس معها الجنس أثبتت كفاءة كبيرة، استعملت معه الكلمات المناسبة وقالتها بصيغة المذكر، وظلت تصرخ بحشجة ذكورية استخلصتها بصعوبة من حنجرتها، وشعرت بالقرف والإعياء، كان شهوانيًا كبيرًا رغم سنه.. وفي نهاية كل جماع يسترخي على ظهره ويأمرها بأن تلتق قضيه، وتظل راحتاه على رأسها الأجرد مغمض العينين في حالة من النشوة.

وشعرت مديحة بقمة الغثيان من معاشرته.. بعد كل جماع بينهما، تذهب وتبكي في الحمام، وتظل تتأمل نفسها في المرآة، كم جعل منها هذا الشاذ امرأة ممسوخة؛ أطاحت بشعرها بالكامل من أجله، وطاوخته لتبدو شيئًا فشيئًا بها شيء من الذكورة، لا يجدتها إلا بصيغة المذكر، على الأقل وقت الجماع.. «يا للقذارة.. أنا أعيش في بالوعة» هكذا قالت في نفسها.

وقابلت سمير في شارع ١٣ أثناء ذهابه إلى الرابطة؛ حيث كانت ذاهبة للبيت.. قال لها:

- مبروك.. تزوجت من هذا الشاذ.. اختيار رائع.
- من فضلك لا تتحدث معي.
- رضحك فجأة، لدرجة أنه ظل يسعل من فرط الضحك..
شعرت بالغيظ وقالت له في حدة:
- أنت وقع.
- وأنت شاذة.. أنا لم أظنك هكذا من البداية؛ ربما لأنني تغييت
عن أرض الوطن لسنوات، ولكن الأموال تستطيع مسح الإنسان.
وتنهد في ارتياح واستأنف:
- رائحة العطر الرجالي تجنن عليك.
- وعجزت عن الرد، واحمر وجهها وشعرت بالإهانة، وحاولت أن
تمشي، لكنه استوقفها وقال لها:
- الآن أستطيع أن أتأكد من أنني فاشل؛ فشلت في فهمك أيتها
المومس الشاذة.. بتجبي الخواجات.. طيب ما أنا خواجة؟
واقترب منها وقرص حلمة ثديها بقوة؛ فصرخت وضربته
بحفية يدها، وبصقت في وجهه، فبصق عليها وركلها، فسقطت
على الأرض تتالم.. جذبها بعنف، ودفعها بقوة في سيارة متوقفة،
فارتطم رأسها في النافذة فتحطمت وشُجَّت جبهتها العريضة..
ولما صرخت وانتفضت وبدأت الناس تنجذب لمصدر الصراخ،
ركض بسرعة وتركها غارقة في دمائها.



- أبوة يا فندم.. الظاهر أن مكتب العقارات والمستاجر عندهما نفوذ
في البلد.. كل دقيقة تليفون.. أبوة يا فندم اسمها «ناهد راشد».

-

- حاضر.

- اتفضلا عند سيادة الأمور.

كانت معركة عنيفة طرفاها الدكتور عبد الجواد وناهد راشد، كانت ساحتها شقة الدكتور، بعد أن تهور الدكتور عبد الجواد وخاض معركة عنيفة مع «نوّاف الرشيدى»؛ حيث انقض عليه وخنقه من عنقه، وظل «نوّاف» متماسكًا مرددًا جملة واحدة: «لا تجبرني على ضربك.. أنت رجل كبير في سن والدي». وظل الدكتور يصرخ في عنف: «يا أنايا الوساخة في هذه البلد». وتخلص منه «نوّاف» وهرع إلى شقته واتصل بناهد راشد، التي جاءت بسرعة وقد سبقتها عاصفة سباب كان لها رنين فظيع في العمارة، أطلقتها منذ أن نزلت من سيارتها المرسيديس، وطرقت الباب في عنف، ولأول مرة في تاريخ العمارة يفتح الدكتور الباب بسرعة.. اقترب منها في عنف، وظل يلوح بإصبعه، ونطق لسانه:

- احترمي سنك ودينك يا شيخة.. اتفوخص على دي أخلاق.

- أنت بتشتمني يا دكتور؟ هكذا قالت وقد تراجعتم ثورتها شيئًا، وأدركت بخبرة أن الرجل فاض به؛ لذلك قررت أن تمتص غضبه، لكن الدكتور تمادى في تلفظه:

- دي قلة أدب.. وأنا من الآن فصاعدًا هقفلك وأشرف آخرتها إيه معاك.. والله لأمشيكي من العمارة وأسجنك.. العمارة فيها ناس محترمين.. هرفع قضية عليك وأخرب بيتك.. وهطرد الكلب دا من مصر كلها.. يا أنايا الوساخة في العمارة.

وللأمانة فإن الدكتور قدم عرضاً عظيماً، السكان شاهدوه وهو يطبع بناهد راشد بقوة وقد بدت أمامه ضعيفة، وشعر الدكتور برغبة شديدة في الانتقام.. لقد تخلى عنه الشيخ عبد الكريم بعد أن تبرع «نواف» للمائدة، وأيضاً رحل القنصل الإسرائيلي بعد رحيل رئيس الحرس «يودا»، وجاء آخر يُدعى «جادعون» وضع خطة أخرى، شملت التغييرات التي أجراها بيت القنصل، وطبعاً ذهبت الحراسة، وأصبحت العمارة بلا حراسة ولا بواب.

- الزم حدودك.. لحد هنا وكفاية.. احتراماً للسكان أنا سكت.. لكن والله أنا ما يقدر عليا إلا القادر، والكعبة اللي وقفت قدمها في يوم من الأيام لأدفعك يا عبد الجواد ثمن الكلام ده.

- دي قلة أدب. هكذا انتفض الدكتور فتدفق الدم يغلي إلى وجهه، وانتصبت قامته، ونفرت عروقه، وخلع عويناته بمسحها في توتر.. فاستغلت ناهد راشد ضعفه وتوتره، فاندفعت تصرخ بصوت وحنيني:

- لو تعرضت مرة أخرى للأستاذ «نواف» أنا بطردك من العمارة.. معنديش كلام ثاني.. وحسك عينك تنظر له. ونظرت له «نواف» وقالت له أمام الجميع:

- اعمل اللي أنت عايزه.. إن شالله في مدخل العمارة.

- كده اللعب على المكشوف.. سامعين يا سكان يا محترمين المدام بتقول إنه.. المعركة دي مش لحسابي.. أنتم معي.. هطلب الشهادة منكم في قسم الشرطة.. صحيح قوادة.

وصرخت المدام في وجهه:

- اخرس.. أنت اللي قذر.. لك تاريخ قذر أنت ومراتك في الخليج.. قولي اشترت الشقة دي منين وأنت سافرت هناك ومكنش حلتك مليم؟ الخليج هو اللي عملك بني آدم، ومكنك في عبارة محترمة.. الزم حدودك.. والله محاسبك على الكلام ده وهمشيك.. وهتشوف مين ناهد راشد.

وانقض عليها الدكتور في قفزة سريعة، ولما شعر بأنه سيتورط تظاهر بأنه يحاول جذبها لقسم الشرطة.

- مدام ناهد شخصية محترمة يا دكتور عبد الجواد.. وأنتما الاثنان مثقفان ومحترمان.. مكنش له لزوم اللي حصل. هكذا قال المأمور وقد قدم لهما الليمون ولطف الجو بينهما.. على الرغم من أن حديثهما في حجرة المأمور اقتصر على كلمات قليلات من الطرفين وكأنهما استنزفا حديثهما في المعركة، فإنهما كانا يكظمان في نفسيهما الغيظ والقهر.



تعمقت الصداقة بين «عبد الكريم» و«نواف الرشيدى»، لدرجة أن عبد الكريم عزمه في البيت، وكشف عليه زوجته، والأكثر من ذلك أجلسها معها، وبيجوارها، وتركها تتحدث معه. وفي الزيارة الأخيرة كان الحديث شيقاً؛ حيث دار عن المصريين وطعمهم، واستسلم «نواف» لسخريته فقط لأجل شيباء، وكان «نواف» جالساً بجوارها، وقد حدثها كثيراً حين كان ينفرد بها، ولاقى منها استجابة كبيرة، وفي هذه المرة وهي جالسة بجوارها، وعبد الكريم مستغرق في الحديث، مد يده في غفلة حتى استقرت تحت مؤخرتها، ساعده هي في ذلك، وظل بأصابعه يُثيرها، كان وجهها يحمر ويتجمد ويتصلد

العرق منه، ولما كانت تشعر بأنها ستصرخ من فرط اللذة، كانت تفضط بمؤخرتها على يده، فيفهم ويسحبها بهدوء. ظلا على هذا الوضع مرات عديدة، حتى استلذته، وأيضاً هو شعر بمتعة كبيرة؛ إن ممارسة الجنس بهذا الشكل فيها متعة كبيرة، كان «نواف» يستلذ بالمرأة التي تُحْكَم الغطاء على نفسها عن المرأة العارية؛ متعته تكمن في هذه الرحلة التي يخوضها في تجريدتها من ملابسها قطعة قطعة. لكن حدوده مع شيء توقفت عند هذه اللقاءات، لم يستطع أن ينفرد بها، أو لم يسعَ لذلك، كان يستطيع أن يجتمع بها، لكنه وجد متعته في ممارسة الجنس معها بهذه الطريقة اللصوصية؛ فحين يدير عبد الكريم رأسه يخطف قبلة سريعة، أو يقرصها من ثديها، أو يلطمها على مؤخرتها، وهكذا.. لذلك متعته اقتصرت على هذه الاحتكاكات المثيرة.

وانزعج الدكتور عبد الجواد من هذه الصداقة الحميمة التي جمعت بينهما، وقال في نفسه: «اتفوخص على القرش اللي يغير المبادئ والقيم.. ألا إن لعنة الله على الفاسقين الجاهلين.. ولاد الكلب».



خرجت من الرابطة في طريقها للشقة بعد يوم شاق من العمل، وكالعادة فور خروجها ينعشها الجو ويصفي ذهنها. توقفت داليا منذ عملها في الرابطة عن أداء التمارين الرياضية، بل اتجهت لتناول الكحول بشراهة، فضلاً عن التدخين. وصلت الشقة وأخذت دُشاً ساخناً، وجلست على السرير أمام أوراق كثيرة فردتها أمامها، أوقدت سيجارة وراحت تراجع الأوراق في تركيز، كل هذه الأوراق كانت حصاد شهر طويل من التردد على السفارة الفرنسية والمؤسسات الحكومية.. ولما انتهت من المراجعة التي ليست لها قيمة إلا شعوراً

فقط تريد كل مرة أن تستخلصه لتنام في راحة، وتحلم أحلامًا سعيدة وهي خارج البلاد.. فجأة تذكرت ميعاد الغد، لكن بعد تذكرها لم تحلم أحلامًا سعيدة، وإنما رأت كوابيس. وفي صباح اليوم التالي لم تستطع أن تتناول الإفطار، كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة بنصف ساعة، تناولت فنجان قهوة فقط وظلت تدخن بشراهة، وسرعان ما شعرت بعدم اتزان، وحاولت في جهد أن تتوقف عن الترتيب لهذا اللقاء، كانت تريد أن يأتي كل شيء تلقائيًا، تريد أن تقابله بسرعة وتخلص بسرعة.. إن هذا الكابوس لا بد أن تكون له نهاية.. وصلت العمارة، وبنظرة شاملة تفحصتها، كانت عمارة شاهقة، وهو يقطن في الطابق الخامس. نظرت نحو البلكونة وكانت تبدو منها ظهور المقاعد العالية، وقالت في نفسها: «ربما يشاهدني الآن». صعدت الطابق الخامس وبحثت في الردهة الطويلة عن شقة رقم ١٩، ولما وقفت أمامها ظلت تنظر للباب وتتساءل في نفسها: «تري ما وراءه بالضبط؟»، وضغطت فوق الجرس بسرعة كأنها تريد أن تجتاز هذه اللحظة الفاصلة بضربة واحدة.

فتح لها «نواف» وبدا في الجلباب المغربي رشيقيًا أكثر، حاول أن يتسم بالهدوء والعقل؛ حيث هز رأسه في نضج وقال لها في أدب:

- تفضلي يا داليا.

دخلت.. ولما أغلق الباب شعر براحة كبيرة، ونظر لها وهي تتقدم ناحية الصالون، وكانت عيناه تركزان على مؤخرتها، وشعر بفوران في عروقه، وبرغبة في احتوائها من الخلف في عنف. واستدارت وجلست.. تقدم نحوها، وعلى صفحة وجهه شيء مثل الثقة.. أو الهدوء.. ولكن ثمة أشياء غريبة بدت عليه في

هذا اليوم، كأنه خضع لتدريبات كثيفة ليبدو على هذا النحو.

- تشرّب إيه. هكذا قال بلهجة من يرحب بغريب.

- شكرًا.

وتنهد من الأعماق وقال:

- اللي تشوفيه. ومضى نحو المطبخ وجاء بكوب عصير برتقال،

وجلس أمامها وأوقد سيجارة وراح ينفث دخانها في هدوء.

- أنا تحت أمرك يا داليا. هكذا بادرها بنبرة واثقة هادئة.

- الورقة.

- حاضر يا داليا.

وقام في هدوء وهو يصدر أصواتًا ليست مفهومة، كأنه رجل كبير

يقوم ويقعد وهو يتمتم بذكر الله. وقالت في نفسها وقد ارتاحت إلى

حد ما: «ماذا تجبئ أيها الشيطان الكبير؟».

وجاء بعد دقيقة بالورقة، كأنه كان قد أعد كل شيء، وقال لها:

- تفضلي.

التقطت الورقة، وبسرعة البرق مزقتها؛ حيث بدا أكبر جزء منها

لا يتجاوز عقلة الإصبع. وتنهدت في ارتياح، وقالت في سعادة:

- كدا خلاص يا أستاذ «نواف».. مفيش بيتنا أي شيء.. الاتفاق

ليس له وجود.. وأنت بخير وأنا الحمد لله بخير. وقامت ومدت

يدها تصافحه وعلى وجهها آيات النصر:

- مع السلامة.

وظل «نوراف» كعادته حين يشتد به الغضب يتنفس من أنفه بعد أن يزم شفّيته، وكانت في عينيه لمعة أدركتها؛ لذلك نَحَّت يدها وتراجعت خطوة.. ثم أخرى.. وركز عينيه على شنطتها؛ خشية أن تكون قد تحصنت بشيء تخبئه.. ثم قال لها بلسان كله مرارة:

- تمام.

وظلت تتقهقر نحو الباب في حرص، وأوحت له بأنها تتحصن بشيء، وظل هو مترقبًا غفلة واحدة تصدر منها لينقض عليها، كانت تفصله عنها مسافة مترين.. ولما اقتربت من الباب شعر بأنه سينهار، واحتقن وجهه.. وكلما اقتربت أكثر زاد توتره.. كيف سيواجه نفسه لو هربت هذه المومس؟ وصرخ في وجهها بصوت أحدث رنينًا مزعجًا؛ فتوترت، وسقطت على الأرض؛ فانقض عليها، وأول شيء تخلص منه كان حقيبتها؛ حيث قذفها بعيدًا وهو يصرخ، وقام يجرها بعيدًا عن الباب وهو يقول: «مزقتِ الورقة؟ أنا بمزقك أنتِ أيتها المومس» ودارت المعركة بينهما في عنف.. لطمها على وجهها بقبضة مقلولة؛ فسقطت على الأرض تعاني ألمًا شديدًا، وحاولت ركله لكنه بخبرة ظل يتفادى الضربات بسهولة، واستحوذت عليه رغبة في ضربها حتى الموت، وظل يردد: «من تكونين أنتِ؟ تتظاهرين بالعفة.. أنتِ مومس.. أليس كذلك؟ تكلمي» وصاح بعنف وهي غارقة في دمائها؛ حيث تدفقت الدماء من فمها بغزارة: «من ضاجعك في مؤخرتك.. تكلمي؟» وظلت هي تنظر له وفي عينها شيء ظل يحيره.. ونزع جلاببه عنه فبدا جسده عاريًا إلا من لباس حجب عورته، ورفعها من فوق الأرض وكانت مستسلمة تمامًا، وألقى بها على الكنية، وبدأ يجردها من ملابسها.. انتفضت كمصارع التقط أنفاسه بعد أن طُرح أرضًا، لكنها كانت ضعيفة، حاولت دفعه، لكنه لطمها بقبضة مقلولة

لترنحت وسقطت مرة أخرى، وهنا صرخت بقوة وقد تدفقت
الدماء أكثر فأكثر، حتى إنها غطت ملابسها بالكامل، وهتفت في
عنف: «يا شاذ.. يا ابن الشرموطة.. ابعده عني» وعاد يحملها مرة
أخرى ويقذف بها فوق الكنية، ولما وقعت مستسلمة ظل ينظر لها
بمبنى خائفتين، وكانت تصدر شخيراً متواصلاً وتبصق الدماء التي
بدت داكنة متجلطة، بدا الأمر لها وكأنه نهاية العالم؛ ثمة ذكريات
بعيدة حضرت بسرعة وقفزت أمام عينيها كصور حية، وتجمدت
ملامح وجهها؛ لا هي خائفة، ولا متألّمة، ولا شيء على الإطلاق،
كانها تشاهد شيئاً استحوذ على عقلها وقلبها. واستطاعت أن تصل
إلى منضدة زجاجية تحمل على سطحها فائزة كريستال، استجمعت
ما تبقى من قوتها والتقطتها بسرعة وقذفت بها النافذة، فاخرقتها
بعد أن حطمت زجاجها وسقطت في الشارع على سيارة مستقرة أمام
العمارة، وقد تحطم زجاج السيارة أيضاً، كانت هذه هي آخر محاولة
منها، ولما نجحت، تضاعفت ثورته عليها وصاح: «يعني إيه؟ يعني
إيه؟» هكذا صرخ في عنف، ودفعها فسقطت على المنضدة الزجاجية
فتحطمت تماماً، وانفجرت الدماء منها بغزارة، كبالونة ممتلئة بالماء
وثُقبّت.. ورنأ شيئاً للصدى الذي أعقب سقوط الفائزة.. وكان المارة
قد اجتمعوا حول السيارة، وتطلعوا للنافذة، ولم تمر دقائق حتى جاء
صوت يعرفه تماماً بصرخ ويطرق الباب في عنف:

- افتح يا حيوان.. ليلتك سودة.. افتح يا كلب. هكذا كان الدكتور
عبد الجواد منفعلًا.

ونظر لها نظرة طويلة، وكانت مطروحة على السجادة ووجهها
ملطخ بالدماء، وكان صدرها يعلو ويهبط بسرعة.. وتجاهل الدكتور
تمامًا، واقترب منها وحملها فوق الكنية وحدثها:

- لماذا؟

نبصقت في وجهه، وكانت البصقة ممزوجة بالدماء الداكنة التي لطخت وجهه، وانفعل عليها ولطمها، كان يقاوم شعورًا بداخله؛ لا يعرف ما هذا الشعور بالضبط الذي داهمه فجأة كالموت.. وقال لها كأنه يريد أن يعرف شيئًا؛ شيئًا متعلقًا بحياته نفسها:

- لماذا؟

وظنها تحتضر، وهدأت عاصفته تمامًا.. ولما عاد الطرق على الباب خرج سرعًا وفتح، فوجد جمعًا من الناس يتقدمهم الدكتور عبد الجواد، وتساءل في عنف:

- ماذا تريدون؟ ماذا تريدون؟ لا تطرقوا الباب.. ارحلوا من هنا يا أولاد الكلاب.. أنا يبلغ السفارة. وانفضوا بسرعة، إلا الدكتور الذي ظل يتفحص وجهه والدماء التي تلطخه، ودخل «نواف» وصفق الباب بعنف. وعاد فوجدها على الكنبه كما تركها، كانت ملامح وجهها ليست واضحة بعد أن غطتها الدماء، لكنها كانت تنعم باستسلام تام.. مسك يدها فتركها له دون أي مقاومة، مسح وجهها بجلبابه الملقى على الكنبه، أيضًا لم يجد منها أي مقاومة، واستحوذت عليه رغبة في محاولة أخيرة لمضاجعتها، وبدأ يجردها من ملابسها.. ولما بدأ أمامه ثديها المدور الملطخ بالدماء، بدأ يرتعش كمرهق يمر بلحظة أولى ولا يهيمه شيء إلا أن يبلغ شهوته، فقالت بنبرة لها إيقاع بطيء:

- ابعده عني.

أثارته هذه العبارة التي يجبها، فبدأ يمد يده نحو المؤخرة، فقالت بنفس الإيقاع:

- ابعده عني.. مش هيحصل.

ثم هزت رأسها في عنف كأنها تنفض شيئاً استقر عليه، وتقلصت عضلات وجهها في ألم شديد، كأن هناك شيئاً يُتزع منها وهي ليست فادرة على الصراخ، وأغمضت عينيها للحظات، ثم حملت في لثوانٍ، ثم شخرت شخيراً متواصلاً، وأسندت رأسها على حافة الكنب، ورننت إلى عالم آخر.

كانت أشجار عيد الميلاد الضخمة مغطاة بالأضواء والمصابيح والزينة، وكان الحي الإنجليزي كعادة كل عام يستقبل هذا العيد بمئات الأشجار التي تستقر في الميادين الكبيرة، وكانت الفيلات تُطوق أبوابها بالزهور. كان «لارس هيو» واقفاً في ليلة عيد الميلاد يستقبل الرواد بنفسه، كان يبدو في البدلة الاسموكن رائعاً، وكان يضع دبوساً أرجوانياً في رابطة العنق، وكان الأستاذ زاهر يرتدي بدلة سموكن أيضاً، وكان يبدو فيها أنيقاً كالعادة، ولكن بدا جسده ضامراً! لقد اشتد عليه المرض في الأيام الأخيرة، في هذا العام ناهز الخامسة والسبعين عاماً.. واقترب منه «لارس» وتساءل:

- هل أنت بخير؟

- نعم.

وتنهّد «لارس» في قلق وقال:

- أقلق جداً من زيارة هذا الرجل.. أنا لا أحب السياسة.. ساعدني في استقباله.

- أنا بجوارك.

- أظن أن رجاله جاءوا وأتموا عملية التأمين.. هؤلاء يخافون من أنفسهم.
- لا تهتم به.. سيأتي ويتجرع كأسًا، ويلتقي بالموظفين الكسالى، ويتحدثون في السياسة، ثم يرحل.
- نعم.. نعم.. ها هو جاء.

تمت